

بسم الله الرحمن الرحيم

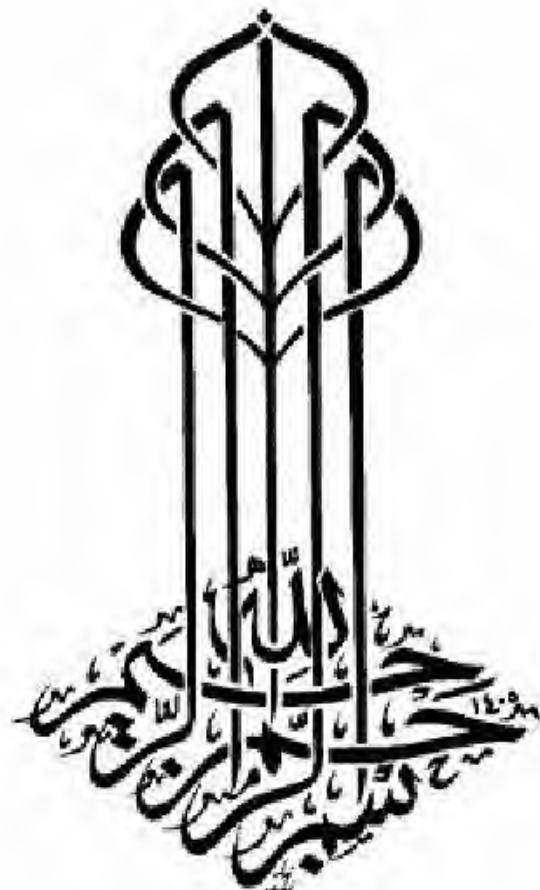
البيان

تأليف مسائل من الشريعة والمعرفة وتحرير مسائل تطبيقية
مختلفة في الفقه والمبادئ من الفقه والعبادة والآداب

المجلد الأول

ألف سنة

أبو عبد الله محمد بن أبي حفص الأندلسي



© مكتبة دار ابن حزم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاضي ، أبو عبد الله حسن بن عفيف

من أسكنكم الدابة - الرياض

... ص ١ ، سم

ردمك ٦ - ٢٧ - ٧٩٥ - ٩٩٦٠

١ - الفقه الإسلامي ٢ - أصول الفقه ٣ - العنوان

دعوى ٢٥١ : ١٨/٣٢٦٢

رقم الإيداع : ١٨/٣٢٦٢

ردمك ٦ - ٢٧ - ٧٩٥ - ٩٩٦٠

فهرس إحصالي

رقم الصفحة	اسم الموضوع
١٤٤ - ١٤١	١ - المسألة الأولى : استفتاح ومقدمة تتضمن مدلول الكتاب الإسلامي المعاصر السامي إلى تحقيق ذاتية المسلم . وبيان احتفاء كتاب أحكام الديانة بهذا الجانب ، وتبيان صفة المفتي . وفكر أسباب اختلاف الفتوى لدى فقيه واحد في مسألة واحدة ، والتحيز من الطعن على أهل الاجتهاد من أجل بعض زلاتهم . والكلام عن الصحوة الإسلامية . وضرورة الفقه في حياتها . ومحاورة منتقديها كالشيخ المغربي . والإيراد على بعض من ينتسب إليها من جهة الفقه ، والإشارة إلى قدوة الخلف على الاجتهاد ، والتمثيل للفقه بعض المتسكنين المنافي للفقه الرياني ، والتمثيل لفقه بعض المتكلمين عن تعلم يناهي العلم الصحيح . والتمثيل لفقه بعض المتعلمين بالإعجاز العلمي . والتمثيل لقوم الأبياء في الفقه . والبراهين العلمية من المعاني الشرعية . ونعالج للأخذ بالظاهر . والتعريف بقصة هذا الكتاب وظروف تأليفه .
١٤١ - ١٤١	٢ - المسألة الثانية : تصنيف مسائل علم أصول الفقه . وبيان صفة المعرفة الشرعية بالمعرفة البشرية . وبيان ما هي المعرفة الشرعية ، وأنها تشمل العقيدة والفقه والأداب . وأن أصول الفقه هي أصول المعرفة الشرعية . وأن موضوعها أشمل من الفقه الاصطلاحي . والتفريق بين الفقه والتوحيد وأصول الفقه وعلم الكلام . وبيان أن مهمة أصول الفقه تحقيق المعرفة الشرعية . وتسميها . وبيان الفضولي في كتب أصول الفقه . وحصر مسأله في ثلاثة أبواب . وبيان أن أهمها وإبها علم الدلالة (نظرية المعرفة الشرعية)
١٤٦ - ١٤٦	٣ - المسألة الثالثة : دلالة الأمر في الخطاب الشرعي ببيان المعاني القوية . وأصلها . والمعنى القوي للأمر الطلي . وبيان أن الأصل فيها عرفاً وشرعاً الوجوب
١٤٦ - ١٤٦	٤ - المسألة الرابعة : بيان معاني خمسة أوامر في قوله تعالى ﴿ أحل لكم ليلة النكاح ما سبق إليكم ﴾ . وبيان الأصل في دلالة الأمر بعد الخطر . وبيان المذهب في تلك وتحرير محل النزاع فيها . وحل هذه المسألة بتفريع موضوعين يحل محل الأمر بهما

[والنفل تقرير وفعل أو كلم

لهن مدلول بتأصيل علم

ما بين ظن مرسل أو قد رجح

وبين مدلول يقينه وضح

شرعيه قطع بلا شك عبر

أو ذو احتمال وارد لا يعتبر

وحكم شرع أخذنا بظاهره

إلا بصرف صح عند عايره

أبو عبد الرحمن]

١٦٨ - ١٧٢	٥ - المسألة الخامسة : بيان معنى القول والتمثيل لسر من القول الباطل .
١٧٢ - ١٨١	٦ - المسألة السادسة : الاعتبار الشرعي مع المعنى اللغوي، وذكر تماذج من المغالطة في المناظرة التي بني عليها الاستدلال في الخلاف .
١٨٢ - ١٩٠	٧ - المسألة السابعة : تنظيم المسلمين للإدارة والوقائع المستجدة يؤسس على التماس مرضاة الله وتحقيق المصلحة العامة للأمة . وتحليل الأنظمة البلدية في المملكة العربية السعودية وفق مبادئ المبدئين المذكورين آنفاً .
١٩٠ - ١٩٥	٨ - المسألة الثامنة : معنى أن النظام مطاط ، ورسم المنهج للفق في الوقائع ومصوهر النظام .
١٩٥ - ٢٠١	٩ - المسألة التاسعة : أساط التنظيم في بلادنا السعودية ، وبين أن حياة الناس على الأرض مضمونة بشرع الله ، والبراهين على أن الشريعة الإسلامية مصدر الأنظمة في السعودية ، وحرمة مخالفة النظام ما دام سقراً من ولاية الأمر ، وحكم الإفادة من كتب القانون الوضعي .
٢٠٢ - ٢٠٣	١٠ - المسألة العاشرة : حكم الحرية والرسم والجزاء .
٢٠٣ - ٢٠٥	١١ - المسألة الحادية عشرة : معنى الالتزام في اللغة والقانون ، وبين أن المسلم ملتزم أمانة الشرع لمقصد أخروي واستثمار دنيوي .
٢٠٥ - ٢١١	١٢ - المسألة الثانية عشرة : وجوب غسل يد القائم من النوم ثلاثاً قبل غصها في الماء ، والتقديم بكمية عن تحليل الأحكام واستثمار الأحكام وحكماتها إذا كُتبت .
٢١١ - ٢٢٢	١٣ - المسألة الثالثة عشرة : وجوب إسماع الوضوء ، واستصحاب إطالة الفرة والتحجيل ، وآثارها يوم القيامة ، واستصحاب الطرد عن الوضوء ، ومعنى استثناء المثبته في قوله ﷺ : «وإن شاء الله بكم لاحقون» عندما أتى القبرة ، والبرهان على أنه قد يوجد آخر الزمان من له أجر بعض الصلوات ، وأن فضل أهل القرون الأولى من الإسلام فضل في الجملة وليس لكل فرد ، وأن ابن تيمية ليس كالشاعر جرير حينما يظهر لنا في الدنيا ، وأن كل الثاني في القرون الممتدة .
٢٢٢ - ٢٢٣	١٤ - المسألة الرابعة عشرة : قصر الصلاة في السفر حال الأمن هل كان استثناءً أم لا .

٢٢٣ - ٢٢٤	١٥ - المسألة الخامسة عشرة : التسبيح بالمسبحة لا يجوز ، ويدع الفكر والتسبيح ، ومشابهة دين النصارى في الكنيسة بتحول الفكر إلى جوفة .
٢٢٤ - ٢٢٧	١٦ - المسألة السادسة عشرة : ما يقرؤه الإمام في صلاة الفجر .
٢٢٧ - ٢٣٦	١٧ - المسألة السابعة عشرة : وظائف المسجد في شرع الله ، وبين أن هذه المسألة خاصة بالمسجد المعني ، وحرمة اتخاذ المسجد للتأجير على ولي الأمر المسلم ، وبين التعميم في التفاضل عن أخطاء ولي الأمر المسلم أخس من عموم التعميم في العسمة ، ثم سرد وظائف المسجد ، وخلل ذلك الكلام عن دلالة قوله تعالى ﴿وَأَنَّ لِلْمَسْجِدِ لِلَّهِ عَلَى أَنْ الْمَسْجِدَ لِلْعِبَادَةِ﴾ وأن الولاية عليه للمؤمنين ، وقعة مسجد الضرار ، وما يشمله حكم الضرار ، والمث على بناء المساجد بالاعتقاد ، والنهي عن الزخرفة ، ومناسبة النهي لوظائف المسجد ، واحتمالات تأويل حديث «لرب وجهك» ، والأمر بتنظيف المساجد وتطهيرها وتطيبها ، وحكم دخول المسجد بالنعال .
٢٣٦ - ٢٣٧	١٨ - المسألة الثامنة عشرة : العبرة بثبوت رؤية الهلال للحرم والطر والحج .
٢٣٧ - ٢٣٨	١٩ - المسألة التاسعة عشرة : البرهان على مشروعية الإجارة .
٢٣٨ - ٢٤٧	٢٠ - المسألة العشرون : عقد الإجارة مظهر للقياس الصحيح (وتحقيق الخلاف بين الحنفية وابن قيم الجوزية ، ومعنى القياس هنا) .
٢٤٧ - ٢٤٨	٢١ - المسألة الحادية والعشرون : من صور الربا المحرم .
٢٤٨ - ٢٥١	٢٢ - المسألة الثانية والعشرون : شذوذ القول بالقياس للكافر من المسلم ، وأن ذلك محض الرأي البشري لا الفقه الشرعي ، وأن الفقه عبودية لله .
٢٥١ - ٢٥٨	٢٣ - المسألة الثالثة والعشرون : معرفة التسوف والكسوف ، وبشرح التبرين لله سبحانه وتعالى .
٢٥٨ - ٢٥٩	٢٤ - المسألة الرابعة والعشرون : معاني التوف ، وأحكامها الشرعية .
٢٥٩ - ٢٦٠	٢٥ - المسألة الخامسة والعشرون : معنى الفقر المراد إيجته شرعاً .

٢٦- المسألة السادسة والعشرون : معاني التاء ، والحمد ، والمدح ، والشكر ، وتحقيق كلام التورين والفسرين ، والتعليق عليه بوقفات نفيسة ، وبيان أن الآلاء تعني الشكر ومعنى المدح ، وذلك في معرض الرد على الجاحظ وغيره في تفسير الآلاء في إحدى آيات سورة الرحمن بأنها امتنان بنار جهنم للتدمير ، ومناقشة بعض الشراح في تفسيرهم لتحميد الزمخشري في استفتاحه الكشف ، وخلال ذلك الإشارة إلى أهمية كتب الحواشي في كل فن ، وبيان أن الفضيلة ممنوعة والإفصال مشكور ، وبيان أن القرآن نعمة ، وأن تسهيله نعمة ، والدعوة إلى إطلاق بلوغ الغاية على امتصاص الله بدل عبارة صيغة المبالغة .	٤٤٠ - ٤٥٦
٢٧- المسألة السابعة والعشرون : الكلمات اللاتي ابتلى بهن الله خليله إبراهيم عليه السلام .	٤٥٦ - ٤٥٩
٢٨- المسألة الثامنة والعشرون : دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق وترايط المواضع من قول سورة التاء ، وامتناع التويل به لم يشاطرن عن النبا العظيم ، وتعليل الاستخبار ثم الإخبار ، وترجيح تقدير عامل ﴿ عن النبا ﴾ ، وبيان أن النبا العظيم هاهنا البعث فحسب ، وأن المتسائلين الكفار فحسب ، وبيان العلاقة بين الخبر والاستخبار ، وبراهين السورة على البعث ، وبيان أن المعصرات السحب فحسب ، وخلال كل ذلك المناسبة بين كل موضوع وآخر .	٤٦٠ - ٤٦٧
٢٩- المسألة التاسعة والعشرون : دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق والترايط من قول سورة التارعات ، والفاء والمخافة بين سورتي التارعات والنبأ ، وبيان أن جواب القسم : لنبعثن ، والبرهان على ذلك ، وبيان أن ﴿ يقولون أننا لمردودون في المخافة ﴾ جملة مستأنفة ، وسر التعبير بالعاشر ، وامتناع القول بأن جواب القسم ﴿ إن في ذلك لعبرة ﴾ ، وبيان أن حال معنى المخافة إلى معنى الحياة الدنيا ، وتفسير المخافة بمعناها القوي الذي هو ضد الريح فحسب ، وبيان أن المراد بالساعة الأرض .	٤٦٧ - ٤٧٦
٣٠- المسألة الثلاثون : دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق والترايط من قول سورة حجر ، وبيان سبب القول ، والبرهان على أن المراد بالساعة الثلاثة الكرام ، وأن المراد	٤٧٦ - ٤٨٤

هاهنا صوم الإنسان فيسئل كفر النعمة ، وامتناع القول بأن الله نهى نبيه ﷺ عن العرض على هداية الكافرين ، وامتناع إحالة الضعيف إلى الكافر في قوله تعالى : ﴿ لعله يركى ﴾ ، وسر معانبة الله لنبيه ﷺ بصغير الغائب ، وامتناع تفسير ﴿ قتل ﴾ بمعنى لعن ، وبيان أن المراد بتفسير الضعيف حوية الاختيار ، وامتناع تفسير النظر إلى الطعام بالنظر إلى الرجيع ، ومعنى فرار المرء عن أقاربه يوم القيامة .	٤٨٤ - ٤٩٨
٣١- المسألة الحادية والثلاثون : دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق والترايط من قول سورة التكويد ، وبيان معنى اللام في ﴿ فلا أقسم ﴾ وتحقيق الخلاف في ذلك ، وتحقيق معنى التكويد ، والانتكار ، وتعليل العشار ، والجمع بين قراءتي ﴿ حين ﴾ و﴿ حين ﴾ ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ فإين نذهبون ﴾ .	٤٩٨ - ٥١٢
٣٢- المسألة الثانية والثلاثون : معنى أن لله تسعة وتسعين اسماً ، وبيان الوهم في جعل الهوي اسماً .	٥١٢ - ٥١٣
٣٣- المسألة الثالثة والثلاثون : كيف نحمي أسماء الله الموهبة بإحصائها الجنة ١ .	٥١٣ - ٥١٦
٣٤- المسألة الرابعة والثلاثون : البراهين على أن أسماء الله العسني أكثر من تسعة وتسعين .	٥١٦ - ٥٢٨
٣٥- المسألة الخامسة والثلاثون : تعيين أسماء الله التي من أحصاها دخل الجنة .	٥١٣ - ٥١٦
٣٦- المسألة السادسة والثلاثون : بيان أن التامق طامحوت في قوله تعالى : ﴿ .. كمثل الذي ينقل بما لا يسمع ﴾ .	٥١٦ - ٥٢١
٣٧- المسألة السابعة والثلاثون : يخلق ربنا ما لا نعلم مما يصنعه البشر .	٥٢١ - ٥٢٨
٣٨- المسألة الثامنة والثلاثون : ظاهران ألفتهما البراهين في قوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء .. ﴾ ، وقوله ﴿ فقال أنبئني بأسماء هؤلاء ﴾ .	٥٢٨ - ٥٢٩
٣٩- المسألة التاسعة والثلاثون : تنزيل الكلام على خصوص المراد في تفسير ما يجب على الله سبحانه بإيجابه هو جل جلاله .	٥٢٩ - ٥٣٠
٤٠- المسألة الأربعون : دعوى المذنب ، ونموذج تعيين المحظوف من سياق قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بتبعية .	٥٣٠ - ٥٣٣

[والأصل من نقل يكون مسنداً
إلى الذي بالمعجزات أيّداً
ومسند يسد له ما يعترض
ثبوته ففيه دعوى تفترض
إلا بإسناد صحيح متصل
يرويه من بالعدل وصفاً مكتمل
ولا يضير كونه عن واحدٍ
ما دام في ضمان ذي الحامد
والاحتمال حوله لا يقبلُ
لأنه احتمال ظن مرسل
وقد يجيء النقل بالتواتر
فيستحيل الكذب بالتكاثر
أبو عبد الله]

١ - المسألة الأولى : استفتاح ومقدمة تتضمن مدلول الكتاب
الإسلامي المعاصر الساعي إلى تحقيق ذاتية المسلم ، وبيان احتفاء
كتاب أحكام الديانة بهذا الجانب ، وتبيان صفة المفتين ، وذكر أسباب
اختلاف الفتوى لدى فقيه واحد في مسألة واحدة ، والتحذير من
الطعن على أهل الاجتهاد من أجل بعض زلاتهم ، والكلام عن الصحوة
الإسلامية وضرورة الفقه في حياتها ، ومحاورة منتقديها كالشيخ
الغزالي ، والإيراد على بعض من ينسب إليها من جهة الفقه ،
والإشارة إلى قدرة الخلف على الاجتهاد ، والتمثيل لفقه بعض
المتنسكين المنافي للفقه الرباني ، والتمثيل لفقه بعض المتفلسفين عن
تعلم ينافي العلم الصحيح ، والتمثيل لفقه بعض المتعلمين بالإعجاز
العلمي ، والتمثيل لخوض الأدباء في الفقه ، والبراهين العلمية من
المعاني الشرعية ، ونماذج للأخذ بالظاهر ، والتعريف بقصة هذا
الكتاب وظروف تأليفه :

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم
الذين كفروا بربهم يعدلون .. لا يحصي عدد نعمته العائون .. ولا يوزي
حق شكره المتحصنون .. ولا يبلغ مدى عظمتهم الواصفون .. يدع
السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .
أحمده على الآلاء ، وأشكره على النعماء ، وأستعين به في الشدة
والرخاء ، وأتوكل عليه فيما أجراه من القدر والقضاء ، وأشهد أن لا إله
إلا الله ، وأعتقد أن لا رب إلا إياه ، شهادة من لا يرتاب في شهادته ،
وأعتقد من لا يستنكف عن عبادته .

وأشهد أن محمداً عبده الأمين ، ورسوله المكين ، حسن الله به
اليقين ، وأرسله إلى الخلق أجمعين ، بلسان عربي مبين .
بلغ الرسالة ، وأظهر المقالة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ،
وجاهد في سبيل الله المشركين ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين .
فصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى أهل بيته الطيبين ،
وأصحابه المنتخبين ، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وتابعيهم
بإحسان إلى يوم الدين ^(١) .

أما بعد : فقد عني علماء المسلمين وأئمتهم خلال المجد التاريخي
لامتنا بكل ما يتعلق بالشريعة المطهرة عقيدة وفقهاً وسلوكاً وأصولاً
وحديثاً وتفسيراً .

ولا أظن أن أمة من الأمم تضاهيهم بكثرة الموروث في هذا المجال،
ووجد عندهم - بشع كبير - معالجة لشرح وجهة النظر لنصوص
الشرع على نحو ما يسمى الآن بالكتاب الإسلامي ، أو الفكر
الإسلامي .

وذلك إما في مؤلفات خاصة ككتاب العامري عن محاسن
الإسلام ، وكذلك كتاب البخاري عن محاسن الإسلام المطبوع مع

(١) استعرت هذا الاستفتاح من مقدمة الخطيب البغدادي لكتابه تاريخ بغداد . وهذا
الاختيار مجرد معاداة ، وسببه تكاسلي عن إنشاء استفتاح مثاق

مراتب الإجماع لابن حزم ونقده لابن تيمية .

وإما في فصول متناثرة كدفاع الشافعي عن السنة ، وبسط
ابن حزم لإعجاز السيرة المصطفوية المطهرة بأسلوب أدبي ،
وكمعالجة شيخ الإسلام ابن تيمية لشبهة انتشار الإسلام بالسيف في
مواضع من كتبه .

أما مباحث الشاطبي وابن عبالسلام فمن صميم الأصول .
ولم يشح هذا الجانب في مآثرهم لزهادة فيه أو عدم قدرة عليه ،
فهم أقدر على فلسفة هذا الجانب .

وإنما تركوه لعدم الحاجة إليه ، فليس في مجدهم التاريخي أم
علمانية تفصل سلطان دين الله عن حياة المسلمين في مجتمعهم .

واليوم أرى من واجب العالم المسلم أن لا يستلعه روتين العمل
الأكاديمي ، بل عليه أن يفرغ شيئاً من وقته لدراسة الفكر المعاصر خيره
وشره ، ليبسط من خلال ذلك فلسفة الفكر الإسلامي ، وله الغلبة دائماً
لأنه يُحاجُّ بخبر خالق الحقيقة المعصوم وحيه من الجهل والسهو والعبث .
ولسنا بحاجة إلى هذا التراكم في الفقه والتفسير وشروح
الحديث إلا ما كان من باب الإضافة بحجة علمية مستجدة .

إن العقل البشري اليوم في جنوح إلى التطلع والاستعلاء ، فلا بد
أن يتعامل علماء المسلمين مع العقل البشري بوعي وأهلية .

قال أبو عبد الرحمن : ولهذه الظاهرة يُعنى كتاب أحكام الديانة
كثيراً بمسائل من مادة الكتاب الإسلامي .

وعجبي من محترف للكتابة لا خطر له يدعي أن سيد قطب

- رحمه الله - أخذ فكره عن أبي الأعلى المودودي -
وعجبي الأشد من أي مجلة مسلمة - محلية أو غير محلية -
تتفكك بمثل هذا الخير .

قال أبو عبد الرحمن : اللقاء بين المودودي وآل قطب وآل النوي
ومحمد الغزالي وكل كتاب الفكر الإسلامي هو الإيمان الذي لا يخلج
فيه شك بأن دين الله حق صادق معصوم ، وأنه لا يصلح خلق الله إلا
شرع الله ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ؛ لأن خالق الزمان والمكان
العليم بما كان يكون فيهما هو الذي شرع الشرع ونزله هداية للناس .
هذه هي أوجه اللقاء ولا عجب ؛ لأن من لم يقل بذلك ليس مسلماً .
ثم يستقل كل واحد بموهبته في استلحاق مقاصد الشريعة ، وفي
استلحاق ما وراء الأصباغ العلمانية من بثور قبيحة كريهة ، وفي ملك
القلم العملاق الذي يحمل الحقيقة من الفكر إلى القلب .
وسيد قطب - رحمه الله - دخل هذا الميدان وليس نكرة ، بل
كان مدرسة قائمة مستقلة في فكره وبيانه وثقافته .
وإنما الذي استجد أن أمم موهبته لما يرضي ربه من شرح وجهة
النظر الإسلامية ولا أذكر على الله أحداً .

ومن أراد البشري تلو البشري عن مستقبل الإسلام وأهله بعد
هذه الغربة ، وأراد هذه البشري كما يلمسها المؤمنون باليد ؛ فليطالع
الكتاب الجديد الذي صدر عن مؤسسة المدينة الصحافة بعنوان -
واقعة المعاصر للأستاذ المجاهد الشيخ محمد قطب -
والأستاذ المجاهد محمد قطب كآخيه سيد يتعامل مع العقل .

ويتعامل مع العواطف بالأسلوب الأدبي الفني الماتع .

تكلم الأستاذ المجاهد عن رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ
فوصفه بأنه أكمل شخصية وأعظم شخصية في الوجود البشري كله
من يده إلى منتهاه .

وما قاله - طيب الله ذكره - هو مذهب أهل السنة والجماعة ،
وعقوبة الله على من ظن أنهم لا يعتقدون لرسول الله ﷺ حقاً ، إذ
أتبعوه على مراد الله ولم يعبدوه .

ثم ذكر التفرد والتميز في حياة الصحابة رضوان الله عليهم .
وإلى هنا كنت أعرض يدي لما أعلمه من تقصيري وقصوري عن
مرتبة الإحسان .

ثم ذكر الأستاذ المجاهد أن صورة الفرد من الصحابة رضوان
الله عليهم - لم تنقطع في صورة أفراد متناثرين من كل جيل يزخر
بهم تاريخ الإسلام .

وما هنا ابتسم الفأل في وجهي ، ودعوت الله أن يهب لي من
العون وفضلة العمر ما أتيه به نفسي ، وأن يكون لي نصيب من
الصورة الوضاعة ضمن نوادر الأفراد المتناثرين .

على أنه وجد لسيد قطب - في غير هذا المجال - أخطاء عديدة
عقدية وفقهية تقصاها العلماء من أمثال الشيخ النويش ، والدكتور
ربيع المدخلي .

قال أبو عبد الرحمن : والكتاب الإسلامي عموماً جاء لتكوين ذاتية
المسلم بعد عصور الضياع وكثرة الغثاء .

وليست القضية قضية أقلية مسلمة في غير بلاد إسلامية ، فقد بدأ عز الإسلام بالقلة الخيرة ، وليس بالقليل من كان معه ربه .

وليست القضية قضية الملايين في الشرق العربي الإسلامي ، وقد جاء النصر بأنهم غثاء كثفاء السيل .. وليس بكثير من دخل الوشب في عقيدته وواقعه .

وإنما القضية الضرورية المعضلة قضية تكوين ذاتية المسلم سواء أعاش بين الأقلية أم كان في جمهور من إخوانه .

وللاستاذ سيد قطب - رحمه الله - في صدر تفسيره لسورة الأنعام كلام جيد نفيس عن تكوين الرسول ﷺ لذاتية المسلم .

فلم يعلنها - عليه الصلاة والسلام - قومية عربية ، ولو فعل لتوجوه ملكاً عليهم ، ولما لقي ما لقيه من إيذاء وعناد وجهاد ؛ لأن القوم يومها أبناء العروبة صليبة ، ونزو التعصب المتميز للعرق والاعتداد به ، وكان ﷺ أشرفهم نسباً وأمثلهم خلقاً وصدقاً ، وكانوا يسمونه الأمين قبل أن يبعث نبياً رسولاً .

ولم يعلنها حركة إصلاح خلقي مجردة ، وكان لدى القوم من الرذائل بمقدار ما لديهم من الفضائل .. يتمثل ذلك في أوجه السفاح ، وواد البنات ، والسلب والنهب ، والتمزق القبلي .

ولم يعلنها حركة إصلاح اقتصادي وكان القوم غارقين في الربا والقمار .

ولو فعل - مع الإبقاء على وثيتهم - لوجد أعواناً وأنصاراً يختصرون الوقت والجهد .

ولكن ظل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً من بعثته المقدسة يدعو إلى « لا إله إلا الله » قولاً ومضموناً لا يساوم على هذه القضية بأي حل من الحلول ، ثم جاء التشريع كله في عشر سنوات فحسب بالمدينة المنورة ، وتلقته النفوس بالقبول والإذعان والطاعة عن فرح ورضى ؛ لأنه بعد تحقيق لا إله إلا الله استقامت كل الأمور .

ولنا في رسول الله ﷺ وسيرته الأسوة الحسنة .

فأول مبدأ : في هذه السيرة العطرة : أن الإسلام لا يرمم فساداً موجوداً ، ولا يهادن وثنية قائمة ، ولا يطرح حلولاً جزئية وقد جعله الله ديناً ناسخاً للأديان مهيمناً عليها ياقياً إلى يوم القيامة .

بل الأرض خلق الله وملكه ، والبشر عبيد الله وخلقه ، والدين لله وتنزيله ، وأرض الله لا تصلح إلا بشرع الله ، والله لا يحب الفساد في الأرض ؛ لهذا لم يقبل رسول الله ﷺ في البداية غير تحقيق لا إله إلا الله ليتحقق الإسلام بتحقيق ذاتية المسلم ، وحينئذ لا يكون نقص ألبته يحتاج إلى إصلاح وترميم ؛ لأن منزل الشرع هو خالق الخلق فهو أعلم بما يصلحهم ؛ ولأنه مقدر أقدارهم ، العليم بمصائرهم ، المتمم مسيرتهم إذا صدقوا ، العليم المحيط بسرائر قلوبهم .

والمبدأ الثاني : أن رضى الله شرط في صحة أقوالنا وأفعالنا ونياتنا ، وكل ما كان لنا من التراضي في عقودنا فيما بيننا ابتداءً بشراء الرغيف من الخباز وانتهاءً بعقد البيعة للحكومة ؛ فهو مأخوذ من رضى الله وإنه بمقتضى عهده الشرعي .

وإذن فالحاكمية للإسلام ؛ لأن الحكم لله ، ولأنه لا إله إلا الله ..

والاعتراف بهذه الحقيقة يعني خلوص العمل وصوابه بإحسان .
والمبدأ الثالث : أن إعلان لا إله إلا الله اعتراف بالعبودية لله ،
 ويعني تحرر الذات وعلوها وغناها عن كل ما سوى الله من خلق الله .
 وهذا الاعتراف هو قوة النفس وتفتتها بتحمل ما يلقي عليها من
 عزائم الشرع المطهر ، وكل عزيمة خيرة من عزائم الشرع المطهر
 يريد بها بعض المصلحين حلاً جزئياً : فإنها لا تكون كافية ولا مغنية عن
 تكوين ذاتية المسلم بمقتضى لا إله إلا الله . وإنما تأتي تلقائية بدهية
 من المبادئ المذكورة آنفاً .

وهذه المبادئ يقوم عليها ركن الولاء للمؤمنين والبراءة من
 الكافرين ما بقيت في الأرض طائفة منصور لا يضربها من خذلها
 إلى يوم القيامة .

وهو ركن يكاد يهوي في معازل المسلمين وفي شرقنا القريب
 حينما نرى ابن قبلتنا يكاد يطير فرحاً بخواجة لا يؤمن بالله وهو من
 مصاصي دماننا وأموالنا ، ويفرح بمرأطنته في الحين الذي يتأفف فيه
 من محادثة مسلم فقير طليل الصحة آت من الشرق الأقصى مثلاً .

وإذا كان المؤمنون أولياء بعض : فأقل مقتضيات ركن الموالة
 تحري أوضاع الأقلية المسلمة المستضعفة .

وقبل تكوين ذاتية المسلم فلن تبلغ شأوا الأعداء المتأمرين على
 أمتنا باسم حقوق ودعم الأقليات .

والعجيب أن الأقليات في أقطار أمتنا : هم ذوو الميزة في الشراء
 والجاه والكلمة الأمرة الناهية وفرص العمل .

وأقلياتنا في بلاد الآخرين هي التي تعاني الفتنة في الدين والرزق .
 ورغم يقيني الذي أحلف عليه وأراهن - بناءً على وعد ربي
 الشرعي - بأن المستقبل للإسلام وأهله على وجه الأرض قاطبة : إلا
 أن المسلم يعيش قلقاً في كل لحظة يرى فيها تحبط البشر في الضلالة ،
 ويرى تسابق المطابع والأقلام إلى تسجيل ما يُدين العصر الراهن من
 الظلم والجرائم والهمجية مما لم يسجل تاريخ البشرية مثيلاً له .
 وسرُّ قلق المسلم أن دينه جاء خيراً للبشرية ، وجاء نبي هذه
 الأمة ﷺ رحمة مهداة ، وحمل كل مسلم مسؤوليته في تعميم هذا
 الخير ونشره .

ويصاحب هذا القلق ما يعايشه مسلم هذا العصر من هيات لا يتعدى
 جهدها جمع بعض التبرعات الطفيفة ونشر الإدلات والتصريحات .

وإذا حققت الأقلية وجودها من خلال واقع إسلامي صحيح
 حصل الاستثمار الفعال لمساعدة الأكثرية من إخوانه .

إن من تحقيق الذاتية أن يتيقن المسلم يقيناً لا لبس فيه أن الحياة
 الأبدية هي ما بعد اللحد ، وأن حياة ما قبل اللحد اقتصاد في المتعة
 وإعداد للقوة .

وأن تكايا الدراويش لم تنتج رجالاً يبيعون أنفسهم بمرضاة الله .
 وأن دينهم الحق هو ما بلغه رسول الله ﷺ ، وأنه لا أسوة في الإسلام
 أمثل من سيرة الرسول ﷺ وأصحابه وتلاميذهم من التابعين رضوان
 الله عليهم .

وأن علن الأمة إذا لم يكن خالصاً ولا صواباً لا يحقق مراد الله

في إصلاح الأرض والخلق ، ولا يحقق أصل المسلم فيما بعد اللحد ؛ إذ هذا الأمل هو وجوده الدنيوي الحقيقي وهو مصدر قوته .
وذاوية المسلمين ثلاثة لا غير : إرث معصوم ، ومواهب وقدرات بشرية ، وموارد طبيعية .

فإذا اجتهدت الهيئات المسلمة في تنقية الإرث المعصوم من الوشب ، واستحيت السيرة العملية السلفية من واقع حياة عدول الأمة وأنعمتها في القرون الأولى المدوحة : تحققت تلقائياً جدوى مصدري القوة الأخيرين المخلوقين وهما المواهب والموارد .

إن المواهب حظ مشاع وقسمة لله عادلة في بني البشر .. إلا أن موهبة المسلم ذات ذكاء وزكاء معاً .
وبلادنا أم الموارد والخيرات .

وكل مسلم إذا علم بالواقع الصحيح المستضعف للإسلام وأهله فإنه يستغني عن كثير من أوشاب الحياة وخدعها مما لا تحتاجه حياته الجادة ، ويجنده لخدمة إخوانه المسلمين .

وإذا كان واقع كل مجتمع إسلامي أسوة المجتمع الإسلامي السلفي ؛ فمعنى ذلك اتحاد الواقع ، فتتحد تلقائياً المواهب والموارد والأموال والأقلام والحرف والمهارات لخدمة هدف واحد .

وتتحد بذلك حساسية المسلمين ، فتتميز بحس واحد ذييب كل جسم غريب .

وتشكو إلى الله أن أمتنا هذا اليوم تفقد وحدة الحس ، فعلى سبيل المثال الأدب والفن فرعان من فروع الثقافة البشرية لم يعبأ بهما

المسلم في تاريخه إلا في لحظات فراغ .

ونحن نرى اليوم الغزو الفكري كله بجميع ثقله - ماسوتياً وصليبيّاً وعلمانياً وطائفياً - يتخذ من هذين الفرعين أنجح وأنشط مجال لعمله ، وذلك بفضل سحر وجاذبية الشعر والرواية والقصة والمسرح والرسم .

حتى الفن التشكيلي - الذي هو فن جمالي بحت - ضُخِّمَت المؤسسات العلمية والصحفية المنجورة في بلادنا ، وحولته من جمال الفن إلى علمانية العقيدة وهيبة الفكر .

ولا أريد أن أكرر ما سبق أن كتبته عن مجلات أصدرت أعداداً ممتازة ، وعقدت ندوات ومؤتمرات أنفقت فيها الأموال الطائلة لنشر الطول والاتحاد والهيبة والوجودية وإنكار اليد الإلهية في الطبيعة باسم فن نافه في اعتبار المفكر المسلم يسمى الفن التشكيلي .

أما اتخاذ كتب النقد الأدبي الحدائي وسيلة للروث على الميادئ والأخلاق وصفاء العقيدة وتحطيم الثوابت فسيل ذلك أكثر من أن تحصي ، وقد طال تعبي وراء هذه الوسائل فما قدرت على إحصائها .

والعمل الإسلامي عن كل هذا بمعزل إلا ما كان من باب الرفض والرفض لا يجدي ، لأن رسالة المسلم أن يغير الباطل لا أن يرفضه .

ولا مجال للرفض ألينة في العمل الفردي ، بل لا بد من البرهان والإقناع .

ويما أن الأمة المسلمة في كل عصر ومصر تؤسس وتدافع في أن

واحد : فلا بد أن تتغير أيديولوجية دفاعها كلما تغير وجه الهجوم القبيح إلى أقبح .

وليس من حق أي هيئة إسلامية أن ترفض فرعي الفن والأدب وهما ثقل الغزو الفكري .

ولن يقابل اتجاهها لهذين الفرعين بالاحترام والتأثير ما لم توفر الأديب الموهوب ، والفنان الموهوب : ليسشارك في إبداع العاملين وتقديمهما عن حسن جمالي ، ونوق موهوب ، ومشاركة ثقافية عريضة .

ومن ثم يبقى حوار الفكر المسلم ودوره في قضية الالتزام التي تجمع بين الحرية والمسؤولية ، فلا تقوى خنافس الأدب الحديث على إدانته بالجهل بحقيقة الفرعين .

ومن العجائب أن أكثر الناس تخشراً في النوق الأدبي والجمالي هم الشيوعيون والوجوديون ، ومع هذا يملكون نقداً عنادياً في قضية الالتزام .

إن من تحقيق ذاتية المسلم أن يكون لموهبته مجال حضاري في الفروع الأخرى غير المعصومة من الأدب والفن والتاريخ والعلوم : ليجعلها في إطار الإرث المعصوم بحجة نيرة وموقف حضاري ،

ووسائل الإعلام - مرئية ، ومسموعة ، ومقروءة - وسائل مينة بنون أدب وفن وثقافة وفكر .

وإن فلا بد أن يكون لنا وجود وأنوار رائدة في هذه الحقول .

خذ على سبيل المثال الرواية ، فإين هي الرواية العالمية للموهوب الملتزم للفكر الإسلامي .

قال أبو عبد الرحمن : إذن مادة الكتاب الإسلامي المعاصر حضور لا بد منه في موسوعتي عن أحكام الديانة لتكون بجانب التحقيق الأصولي ، والاستدلال الفقهي ، والحجاج الكلامي .

ومادة الكتاب الإسلامي ليست إلمامة مثقف وتلاعياً بلاغياً من أديب ، وإنما هي تخصص شرعي مشروط بوعي سياسي ، وشمول ثقافي أرحب من دائرة الجمود على فرع بالتزام تخصص خانق .

ومن يسأله الناس عن أمور الحلال والحرام ، ثم يتلصص لهم حكم الله ليخبرهم به : لا يخلو من ثلاث حالات :

أولاهن : أن يكون مجرد مخبر عن فتاوى أهل العلم غير مختار لمذهب في المسألة ، فهذا حامل فقه لغيره ، مخبر بالخلاف فيه فحسب .

وأحوج ما يكون أهل العلم إلى هذا الصنف من المخبرين : ليحقق لهم النقل .

وثانيتهن : أن يكون ناقلًا لمذهب غيره كأن يكون حنبلياً ينقل من كتب الحنابلة الصحيح من مذهب أحمد ، أو المعمول به في البلد من كتبهم .

أو يكون حنبلياً ولكنه يميل إلى ترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية .
ويحفظ القرآن ، ويستحضر آيات الأحكام ، ويستحضر أحاديث
الأحكام كأن يكون حافظاً لبلوغ المرام أو المنتقى لابن تيمية .
ويحفظ دليلاً أو دليلين أو أكثر مما استدل به أصحاب المذهب
الذين يفتي بمذهبهم .. فهذا أيضاً حامل لفته غيره متلقن لأصولهم
وأدلتهم .

والعوام أحوج ما يكونون إلى هذا الصنف من الناس : لأن فتواه
حاضرة في أي وقت سألوه وحيثما كان .

وهذا الصنف إذا نفع الله به العوام فمن تمام ورعه أن لا يضر
الخواص ، فيكون حجر عثرة في طريق أهل العلم الذين يتفرغون
لمسألة ما فيحققونها ، ويكونون أوعب بحثاً وأكثر علماً بالأدلة
والترجيحات .

وهذا الصنف من حاملي فقه غيرهم ينفع الله به في تبليغ العوام
وتفهمهم ، ولكنهم ليسوا حجة على أهل العلم فيما علموه .

وثالثهم : باحث متابع محقق لا يسعه إلا العمل باجتهاده ؛ لأنه
نقص في البحث ، وأخلص النية وهو من أهل العلم بالجملة .. إلا أن
ثقة طلبة العلم لا تتم بفتوى هذا الصنف حتى تكون له فتاوى معروفة
تطرد على أصول يُعرف بها ويُشهر : بأن يكون معلوم الاجتهاد
أصولياً لكونه يأخذ بالقياس أو لا يأخذ به ، ولكونه يأخذ بالمرسل
بإطلاق ، أو يرده بإطلاق ، أو أن له قيوداً .

ويكون معروف الاتجاه فكرياً : هل هو يجمد فكره ويعطله من
النظر ويأخذ بالحرفية ، أو أنه يحكم عقله عبداً لربه .. ومع هذا
يستثمر طاقة فكره وحيويته لفهم دين ربه لا للاقتراح عليه .
أما من يطلع على الفقه وثقافته ثقافة أهل الأدب وليس له
تخصص العلماء ، ثم يأخذ بنص فيه ابن لهيعة فإذا قيل له عنه قال :
إنه صديق .

ثم يرد في مسألة أخرى نصاً فيه ابن لهيعة ، ويقول : إن
مربود ، فهذا لا ثقة بعلمه .. وقد يقول : صدق الله العظيم بعد كل
تلاوة بدعة .

فإذا كُلم عن الادعية الموظفة للختم في الصلاة ليلة سبع
ومشرين من كل رمضان : قال : لا بأس ، والدعاء من جنس الصلاة .
فهذا ناقل علم يرجح كيفما اتفق ، ومن ليس له أصول تحجزه ،
ويتعبد لله بها فلا ثقة بعلمه بالنسبة لطلبة العلم ، أما العوام فتبرأ
ساحتهم بسؤال أهل الذكر .

قال أبو عبد الرحمن : منذ بعث رسول الله ﷺ إلى أن لقي ربه
- بأبي هو وأمي - لا يوجد على وجه الأرض مجتهد مطلق .

بل الفقيه يقلد الأصولي في صناعته ، والأصولي يقلد اللغوي في
نقله وفقهه ، ويقلد المحدث وأهل الأخبار في نقلهم وتصحيحهم ، ويقلد
أهل التفسير في استقراءهم وأصولهم ، ويقلد أهل الفكر في طرق
البحث والجدل .. وهكذا وهكذا .

ومن وجد له تخصص في فنين أو ثلاثة فمحال أن يتخصص في كل علوم الشريعة ، ومحال أن يحضره جملة ما غاب عن غيره مفرقاً . أما الاجتهاد الجزئي في مسائل معينة فممكّن .

* * *

وفي رسالة الإمام الليث بن سعد فقيه أهل مصر إلى الإمام مالك لقيه أهل المدينة لفت نظره إلى اختلاف فتيا الفقيه في مسألة واحدة فقال : « وكان يكون من ابن شهاب الزهري اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا .

قربما كتب إليه في الشيء الواحد (على فضل رأيه وعلمه) ، فكتب بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً ، ولا يشعر الذي مضى من رأيه في ذلك » .

قال أبو عبد الرحمن : لزيد ورع الأئمة تختلف فتواهم في القضية الواحدة ، ولا يصر أحدهم على فتوى له قديمة إذا رأى أنها خطأ . وما أُلّفه المحققون عن أسباب اختلاف المجتهدين فيما بينهم : هو نفسه أسباب اختلاف فتاوى المجتهد الواحد في القضية الواحدة . وإنما يضمن أطراف مذهب المجتهد نون اختلاف كثير بوسيلتين ضروريتين :

أولاهما أن يحزر أصوله وقواعده التي يقول بها سواء كان مجتهداً فيها أو تابعاً لاجتهاد غيره .

وأخراهما : أن يكون له كتاب فقهي حقل على جميع أبواب الفقه ومسائله مقرونة كل مسألة بأدلتها وتعليقاتها سواء أكان مجتهداً فيها أم تابعاً لاجتهاد غيره .

فالعادة أن أهل هاتين الوسيلتين يحزرون مسائلهم عن الاختلاف ، وإن وقعوا فيه يبنّوه وعُلّوه .

أما من لم يكن لهم كتب فقه مدونة ، وكان نقل مذاهبهم عن طريق تلاميذهم في مختلف مجالسهم فإن الاختلاف يقع كثيراً في اجتهادهم ، ونصبح بحاجة إلى تحرير مذاهبهم منقولة على وجه الصحة ، وإلى اجتهاد في فهم أصول المذهب ومقاصده وما يخرج عليه . مع أن الاجتهاد في نصوص الشرع أيسر .

* * *

قال أبو عبد الرحمن : ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة عن تحريم الشطرنج حذر فيها من تتبع زلات العلماء أهل الإيمان : لأن الله عفا للمؤمنين عما أخطؤوا فيه بقوله - كما في صحيح مسلم - : قد فعلت . وذلك عقب ما علمهم ربهم أن يقولوه : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ .

بل أمرنا أن ندعو لهم بمدلول قوله تعالى : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ . هذا حقهم إن أخطأوا لاجتهادهم .

أما اجتهداهم الخاطئ ذاته فيلخص ابن تيمية مواقفنا حوله بقوله : «إنما أمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا ، ولا نتبع من دونه أولياء ، وأمرنا أن لا نطيع مخلوقاً في معصية الخالق» .

ولاحساس ابن تيمية بخطر التعرض للعلماء من أجل الخطأ في بعض اجتهداهم ، فقد صرّح في بعض رسائله بأنه يبيح عرضه لكل مسلم تعرض له ، لأنه إنما يريد الخير للبشرية .

قال أبو عبد الرحمن : قال لي أحدهم على سبيل الاستفزاز : ما كان عند ابن حزم من فضل فعند شيخ الإسلام ابن تيمية مثله وأكثر . واستمر نقاش عجزت عن قطعه لا يظهر فضل عالم إلا بالقدح في عالم آخر .

قال أبو عبد الرحمن : ليست هذه والله سبيلي التي التزمتها ، وليس هذا هو مقتضى توجيه شيخ الإسلام ابن تيمية عندما نهى عن تتبع زلات العلماء ذوي الإيمان والصدق والاجتهاد . وإنما المراد أن لا نروج لقول عالم بعينه ، وأن لا نتناول عالماً آخر لم نرض اجتهداه ، وإنما نلتمس الحق حيثما كان إذا ظهر الدليل .

قال أبو عبد الرحمن : ومسألة «إذا ظهر الدليل» تقتضي اجتهداً ، وسد باب الاجتهاد دعوى خرقاء وجدت من يقبلها في ظروف تاريخية لم تعاش تحديداً علمياً وفكرياً شرساً .

واليوم قامت أجيال تحتضن العلم الشرعي ، وتعمم الغيش معه سلوكاً وفكراً وثقافة ، وهي تواجه تحديات شرسة لم يعايش سلفها مثلاً بهذا الإرهاب مع هزيمة عسكرية مبيرة ، وإفلاس من العلم الدنيوي المحقق للقوة .

وأطلق على طلائع هذه الأجيال جيل الصحوة الإسلامية ، وتميزها بفقهاء ضرورة كضرورة وجودها .

وقبل الكلام عن ضرورة فقهاء أبادي مشاعر لا أقدر على كتمانها عن الحبور بوجودها الذي أعدّه ضرورة لوجودنا المعتر بين الدهماء من الأعداء ، والدهماء من أهل القبلة الذين هم غناء كغناء السيل في ذنب الدنيا .

قال أبو عبد الرحمن : أحياناً يخنقني اليأس القاتل وأنا أرى مصير أمتي ممرقاً خائباً منذ سقطت خلافتها الإسلامية . يخنقني اليأس وأنا أرى كل بؤال على عقبيه أو مستعرب يجر الأمة للهاوية بالحماس للأيديولوجيات والوجوه القبيحة المتعددة للعلمانية .

يخنقني اليأس وأنا أرى أمتي موضع تجارب لكل إفراز ماسوني في كل صعيد يتعلق بنشاطها .

يخنقني اليأس وأنا أرى كل مجرم في حق أمتي - منذ سقوط عبد الحميد وإلى ما بعد أحداث ١٩٥٢م - ينتفض اسفاضة الهرّ ليهرج تاريخاً قبيحاً يصبق عليه كل مخلص ، وليزيّف بطولة فردية

كاذبة ، وليمحو ما في الذاكرة العربية ، وأعجبها الآن مذكرات لعلاء
كنت أسمعها أيام الفتنة يهدير بأعداء الله وأكاذيب تكشفها حقائق ،
وكل عكس هو الصحيح .

وكانتني أراه اليوم يدعي أنه المحامي للإخوان المسلمين ، الشارقي
بالأمم ، المنادي بآمالهم .

ولولا ضمانة من ربي بأن أمة محمد ﷺ لن تهلك كلها بعقوبة
كونية كما هلك عاد وثمود : لكانت شعاف الجبال وبطون الأودية خير
مقام لي وأحسن عقبي .

إنما هناك طائفة لن تزال على الحق منصورة لا يضرها من
خذلها إلى يوم القيامة .

وفي كل قرن مجدد للأمة يحفظ لها دينها ، وما لم تطلع الشمس
من مغربها فنرجو البشرى تلو البشرى وإن زاد ورثاً ما نعانیه من
جهل كثيرين من أبناء جلدتنا بما يساقون إليه - وهم ينظرون - من
عداء لدينهم وأمتهم وتاريخهم وهم لا يشعرون .

ولا عدو لأمتي من سوى أنفسهم أعظم من جهل أبناء جلدتنا بأن
ذبيحتهم ذبيحتنا وقبلتهم قبلتنا .

قال أبو عبد الرحمن : وكتب أحدهم في زاوية «سبعة أيام»
يجريده الرياض عن الشباب بين قوسين لا يستحق أن يناقش : فإن
الناقش عليه في الباطل ربة ، ولكل شبي أمة ! !

وإنما حقه أن يتل بغلاصمه ويستتاب ثم يعهد به إلى أستاذ

أمين يعلمه أمر دينه ، ويكمل ما قصرت دونه تربيته يوم كان في
حضانة البيت والمدرسة ! .

وإنما ناقشته هاهنا لأنني لا أملك سوى تغيير المنكر بقلمي .

ورأيت قلمه الخائب يتفلسف في رصف العلاقة بين قديم البشر
وجديدهم ، ثم رأيت أن ما ذكره من القديم يعني ما تمسك به شباب
الصحة من الالتزام بالدين الإسلامي التأسخ المهيمن .. ودين الله لا
تدخله ثنائية قديم أو جديد ، بل هو تعليم الله وخبره ينكيف معه البشر .

وإنما القديم والجديد بالنسبة لإرث البشر وتوريثهم من مهارة
أيديهم ، وابتكار مواهبهم ، وذوب عواطفهم ، ورصد تجاربهم

وكلمتا قديم وجديد ليستا قيمتين فكريتين ، وإنما ندلان على
أحداث مرتبطة بالزمن .

وإنما القيمة بمعيار الحق والخير والجمال .

وقد تكون قيمة بعض الجديد باطلاً ، أو شراً ، أو قبحاً ،
نصب ذلك الكاتب من نفسه خبيراً في سلوك المجتمعات البشرية ،

وكان عليه قبل أن يوازن ويحكم أن يفرق بين جملة ذات معطى لغوي
تصوري فحسب ، وبين جملة ذات مدلول فكري حكمي .

مثلاً «مسألة أنماط الحياة الجديدة» فيها كلمة (جديدة) ، ولكل
جديد لذة ! !

فالدعوة إلى الأنماط الجديدة تسويل قزحي ، والتسويل من طبع
إبليس لا يتوب عنه حتى يعتدل ذنب الكلب .

والكلمة الهادفة تحلل أنماط الحياة إلى تصور تدور واقعيته بين

اليقين والرجحان والاحتمال والوهم .. وإلى سلوك يوصف بعضه بالمدح ، وبعضه بالذم .

وتحلل فئات المجتمع من شباب وشيوخ وفق الدوران مع تلك الأنماط بأحكامها .

ولكن ذلك الكاتب لم يفعل ، بل جمجم بالقديم والشيوخ وهو يعني في الحقيقة الالتزام للدين ، وذلك من باب الصد عن دين الله ؛ لأن سيطر الإرهاب الفكري لحضارة القرن العشرين جعلت كلمة القديم والشيوخ هجاءً بإطلاق ، وذلك الهجاء جاء امتداداً لمعطيات قاموس الشنائم من الرجعية والتخلف والتزمّت .

وجمجم بأنماط الحياة الجديدة وهو يعني كل معطى لمجتمع العلم الحضاري ، وشتان ما بين واقع العلم الحضاري الديني ، وسلوك أهله وتصوراتهم في الغيبيات .

وما أعظم الغاشية حينما يوجد مجتمع لا يصنع إبرة فيُحَرَّم من النقل عن العلم المادي ، ويُتَّخَم بمعطيات السلوك الهبي .

وحاول التنكيت تنكيتاً سمجاً بالبرم من فساد الزمان وأهله ! .

قال أبو عبد الرحمن : التعلل بفساد الدنيا تعلل بما عرفت من الشرع وقوعه ، ثم ثبت بواقع التجربة .

فأما في الشرع فالقرون الممدوحة الفاضلة التي بيننا رسول الله ﷺ هي القرون الأولى الثلاثة الفاضلة .

وأما بعد ذلك فالتفاضل بخصوص الأفراد لا بعموم الأجيال ، فيكون في القرن الخامس مثلاً من هو أفضل من الشاعر جرير وهو

من أهل القرون الفاضلة .

ولكن جيل جرير أفضل في جملته .

والدين بعد القرون الثلاثة يعود غريباً كما بدأ ، ويعود له مجده ولابد آخر الزمان .

وفيما بين ذلك لا تزال طائفة على الحق منصورة ظاهرة لا يضرها من خذلها إلى يوم القيامة .

هذا مقتضى النص الشرعي الصحيح الثابت .

وأما الواقع فمئذ حملة نابليون على الشرق والأجيال تسوارث فساداً لا قبل لعن الأمة ومجتمعها بمثلها ، وعلن الأمة معصوم

ومن جملة ذلك الإفساد مقالات (الشباب بين قوسين)

ولا أعظم من الفساد في مجتمعات لا تصنع إبرة فما فوقها ثم تُحمل على التشكيك والتفلسف السوفسطائي .

وزد على ذلك انتشار الربا والمال الحرام مما يكون سبباً في فساد النسل وحجب الدعاء .

وقل مثل ذلك عن تسامح في الالتزام للدين في واجباته ومستحباته ومحرماته ومكروهاته إلى حد لم يبق فيه للإسلام معنى إلا بالانتساب والتعاطف الرقيق كأن يحضن المصحف على صدره ويقبله

إذا وقع على الأرض ، وهو لا يعمل معاتيه ولا يقف عند حدوده ! .

غاية ما هنالك أن المسلم الذي يتنسى من نفسه استقامة لا يتعلل بفساد الزمان بين زملائه حتى لا يكون ذلك تركية للنفس ، وحتى تكون

مبشرين غير متفريقين ، ولنعمر بالفال القلوب .

ويتلمظ هذا الكاتب بدعوى أن علماء الاجتماع يُطلقون على ظاهرة البرم من فساد الأجيال الصراع ... إلخ . وهكذا يتلمظ بدعوى من علم النفس ... إلخ . قال أبو عبد الرحمن : دعك من هذا ، فإنما تكتب بقلم فيه حبر فحسب ، وتلعب بموجات راديو ضعيف الأحجار فيخرج الصوت مبحوحاً ... قطعة من خبر عن مباراة كورة ، وأخرى عن تحليل كهل من شيوخ السياسة في إذاعة لندن ، وببيت شعر اختاره الشيخ الكرمي في أدراج قول على قول .. وهكذا وهكذا عندما تطالعنا خبيراً في السياسة تارة ، وعليماً بالإنسانيات .. تارة تتحدث عن أبناء العم حام ، وأبناء العم يافث .. وتتحدث تارة عن الأديان وعلم الاجتماع وعلم النفس وبنق بنق ، وترقب على كتب بمقياس الحرارة العد التنازلي في تلوث البيئة منذ انفجار قنبلة هيروشيما . فسبحان الذي أعطاك هذا كله ، ورحم الله زماناً أظفرك !! . وعلم النفس ، وعلم الاجتماع اللذان تتلمظ بهما هما بلا ريب أمشاج من معارف نظرية شتى ، وفيهما أثارة من علم معلمي . ولكنهما - بإجماع أمل العلم أنفسهم - علمان ظنيان ، وفيهما كهانة ، ولهما أقطاب غير مؤتمنين بعد كشف مارب التلمود للعامة . ومن التلموديين في هذين العلمين فرويد ودركايم . ولا أصدق من علم خالق الحقيقة في خبره عن سير المجتمعات وأدغال النفس البشرية ، وقد جعلها الله عدلة الكون وقسيمته عندما أمرنا بالتطلع إلى الآفاق .

وعلم النفس والاجتماع عند غير التلموديين وأبناء الأفاعي محكوم بتصورات جاهلية عن الكون والنفس والحياة . فأولى بك أن تحاكم هذين العلمين ببصيرة المسلم قبل أن تقيم تصورك منهما في وسط الأمة المستغنية بتربية ربها لها في كتبه وعلى لسان رسله . أقول كل هذا بعد علمي بأن احتياجك من هذين العلمين أبعد من ماء تشرين ، لأنهما لم يقولا كلمة عن ظاهرة : فسد الزمان !! وإنما هو صحافي يتحاكى !! ثم قل لي - يربي ورب الشباب الذين جعلتهم بين قوسين - أي خفي غامض ، وأي اندفاع نحو غير المؤلف في مجتمع يملأ المسجد في حر الهجير ورخاوة الغلس ، ويتلقى العلم جثواً على الركب في بيوت العبادة !! هل المؤلف الواضح : أن تنزير العكنة ، وتكبر العجيذة ، ويتختم الجشأ من أكلات دسمة ، وتومات تصل الظهر بالمغرب ، وتتفجر القهقهات المفتعلة - في جلسات برينة وغير برينة - وقت تنزل الرب جل جلاله في ثلث الليل الآخر !! هل المؤلف الواضح : أن يتصابي ابن الأربعين فيكون شبيه كنجحة الزنابير ، ويكون خذ كأسيل العذراء ، وتتعهد الموسى ثغرة الميلاد فتكون متبدية دائماً كالأفق الضيق من البيضة !! هل الجلي المؤلف أن يرسل الشوب تحت العقب أشجاراً كراقصة آخر الليل وعلى الغانيات جر الذبول !!

هل المؤلف الواضح أن يشك خواتم ذهبية بعدد الأصابع .
ويرخي كوفيته على بعض حاجبه ، فيداعب القلوب الهاملة ببعض
مُحيّاه !! .

إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم ربهم هدى يرفعون اللباس حسب
وصية الله لهم : لأن في ذلك طهارة الثوب ورضى الرب .
تحف أهدابهم ثغفات السجود لا يلحسون لحاهم تأثناً ، ولا
يفنلون شنباتهم تعنتراً كما وصفت سلفهم الصالح في كتابي
« شعب بوان » .

وأقواس هذا الكاتب شبيهة عندي بمعمل ذي هوس لتفقيس
الطيور .. كل الطيور .

قال : سأبدأ التجربة من جديد ، وسألني الاعتقاد بكل ناموس
جرده فكر البشر .

فكان يضع بيض النعام تحت الورقة ، ويضع بيضة الصعو
تحت الدجاجة .

ويتوهم المسكين تنويم طائر هجين بين الدجاج والصعو !! .
وإذا بيضه لا يفسد أبداً .

مع العلم بأن بيضة الصعو بيضة صعو على الحقيقة .
وهكذا ترد في أقواسه الجملة صحيحة صادقة ، ثم ينظمها في
علاقات وهمية فلا تنتج إلا ما في حيرته من أوهام .

خذ هذه المقولة الصادقة : « إن مظاهر الانفتاح التي اكتسبناها
بالتحصيل العلمي الأوسع ، والاحتكاك المباشر بالعالم الخارجي قد

فرضت التحدي أمام الشباب الذي أخذ يتعامل معها .

قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام صحيح كصحة بيض الصعو .

ثم أنتج وهمه من هذه الجملة : أن الشباب لا يلتزم !! .

قال أبو عبد الرحمن : هذه الجملة باطلة كبطلان هجين ليس

بالصعو ولا بالدجاج .

والواقع أن الشباب الملتزم ليس من أصحاب ثقافة الجريدة ،

والتلفاز ، ومعقد الطائرة إلى بلد لا ترد يد لأمس ، وموسوعة الشباب !! .

وإنما هم شباب ذوو تخصص في الفيزياء ، والكيمياء ، والجيولوجيا

والطب والهندسة والأحياء ... إلخ ... إلخ .

تلقوا العلم في جامعات أمريكا وأوروبا ومعهم الاعتزاز بهوية

الإسلام في إرسال اللحية وتقصير المنزر .

وكانوا أبناء الفطرة وفوق التحدي . زادهم المجهر والتلسكوب ،

ومختبرات العمل إيماناً بخالق الكون ومبدعه ، وفرقوا ببصيرة المسلم

وخبرة العالم بين العلم المادي الحقيقي الذي تفوق به الغرب من تفجير

جزيئات الذرة إلى مراقبة أدنى ظاهرة في أعشاش الطيور .. وبين

العلم الوهمي المتعمد لتضليل البشرية كعلم المستحاثات وثقافة

الدينصور وسرير فرويد !! .

وفرّقوا بين العلم العبقري وبين السلوك والتصور الخائب لجمهور

نوي العلم العبقري !! .

ورأوا ببصيرة المسلم وعبقرية العالم أن العلم المادي العبقري

تحول من عبقورية الاختراع المشترك بين عباقرة البشر إلى مهارة

وحرفة تصنيع الجهاز بعد اختراعه ليكون وفقاً على الدول العظمى،
تُحرم منه الأمم المفلوية لضعفها العسكري، وليس لحصول
موهبتها .

ورأوا ببصيرة المسلم ونوق العالم : أنهم أكبر من أن يكونوا
تلاميذ للكافرين في الإدارة والنظام والأمور النظرية والمعارف الصورية
كاللغة ، وإنما يملكون المحاكمة والاصطفاء والإضافة .

وعلموا بعد ذلك أنه منذ سقوط الخلافة ودار المسلمين حقل
نجارب علمانية وصليبية ووطنية ، وصهيونية ، وفردية شهوانية ،
وأنه لا يصلح أمر آخر الأمة إلا بما صلح به أمر أولها ، وأن من
طبيعة هذا الدين أن لا يضيّق بالمخترعات والمكتشفات بإطلاق ،
وإنما يحث على العلم ويوظف المخترع والمكتشف في إسعاد البشرية
معاشاً ومعاداً .

وهم يؤمنون بأن أحكام دينهم ليست ثقافة تخصصية ، وإنما هي
علم إلهي مشترك يأخذ منه كل مسلم بمقدار ما يسمح به وقته
وموهبته ، ويسأل أهل الذكر فيما تعم به البلوى .

ويتفرغ للتخصص في معارف الدين قلة ليكونوا معلمين للعامة
وغير ذوي التخصص .

قال أبو عبد الرحمن : ومثل هذا النقد للشباب الملتزم ليس دعوة
تقويم من براهين شرعية ، وإنما هو يرم بوجود ذوي التزام شرعي
يدعون الناس إلى ما أوجبه الله من العبودية لدينه ، وفسح الحرية
لشريعته . ومداداة الشبهات والشبهات .

قال أبو عبد الرحمن : مادة «نضر» يلاحظ ابن فارس في أصلها
الحسن ، والجمال ، والإشراق ، والخلوص .

ولم يخرج الراغب في المفردات عن هذا التأصيل .

قال أبو عبد الرحمن : ويظهر لي - والعلم عند الله - أن الأصل
في هذه المادة «الإشراق الجميل» ، والبرهان على ذلك أن معنى الجمال
والحسن متفق عليه .

كما أن الجمال مقيد بالإشراق بدليل أن النضارة صفة لكل لون،
فقد أسند أبو منصور الأزهري - في المجلد الثاني عشر من تهذيب
اللغة - إلى ابن الأعرابي أن الناضر في جميع الألوان ، ثم فسّر
الأزهري ذلك بقوله : «كأنه يجيز أن يقال : أبيض ناضر ، وأخضر
ناضر ... إلخ» .

قال أبو عبد الرحمن : لأن النضرة إشراق اللون ولعانه وبريقه ،
والنضارة في دعاء المصطفى ﷺ نور إيمان ، وإشراق نعمة
ونعيم .

قال : «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فرب
مبلغ أوعى من سامع» .

هذا حديث ابن مسعود ، وفي حديث زيد بن ثابت - رضي الله
عنهما - : «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره» ،
فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه» .

هذا حديث رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وابن حبان وابن أبي
حاتم والخطيب والطيالسي والحاكم والضياء وصححوه .

وعزا الشراح إلى ابن منده في تذكرته أنه قال : رواه عن المصطفى ﷺ أربعة وعشرون صحابياً .

قال أبو عبد الرحمن : كلما تذكرت هذا الحديث تصارعت في نفسي أحاسيس تكاد تجنح بي .

ولقد أكرمني ربي بأن رأيت بعد بلوغ الأشد شباباً من أبناء بلدي تحققت لهم دعوة المصطفى ﷺ ببهاء وتوهج أراه في وجوههم الكريمة العريضة المنحنية .

فمنهم من يكاد يحفظ مصنف عبدالرزاق ، وآخر يحفظ موطأ مالك ، وثالث يحفظ الصحيحين والسنن الأربع ، ورابع يحفظ تقريب ابن حجر ، وخامس يعني بقهرسة كتب الحديث المسندة ويستحضر المسائل بأدلتها ، وسادس يحفظ بلوغ المرام .

وكلهم يحفظ القرآن أو أكثره .

وكلهم ما بين الثامنة عشرة إلى الثلاثين .

وكلهم أراح عينيه أوقاتاً بما يسمعه مسجلاً .. يسمع توثية ابن قيم الجوزية كاملة تارة ، ويسمع الترغيب والترهيب كاملاً تارة ، ويسمع الأدب المفرد وشرحه كاملاً تارة .

وخسأت أشرطة العنديل الأسمر ، وكوكب الشرق ، وغشيان الطرب المحلي الأمي البدائي .. قوا ضيعة الشباب ، ووا عمراه يوم كنت مع لدات لي وجوههم كالعراجلين الضاحية يلحسون القمامة بأردان شبابهم ذات الخلاء من خيل عام ١٩٥٢م .

بمقدار ما فرحت بهم حزنت على نفسي كثيراً .. لأن منهم من

يرتاد حلقتي في المسجد أو مجلسي في البيت يبتغي مني أدباً أو لغة أو فكراً فلسفياً ... ولكنني أجدهم - وبعضهم في مستوى أحفادي - حفاة لكتاب الله وللصحيح من حديث رسول الله ﷺ .

إنني أحق بالتلمذ عليهم ، وإنهم يغيبوني فلا يخفف الغين إلا تهمني بالحفظ مستقبلاً .. وكل حافظ إمام .

وتعود سورة الغين إذا تذكرت أنني بعيد عن أعباء الحفظ .

إن ما يغيطنني به بعض الناس من تقلب في بعض المعارف العلمية والثقافية لا يساوي ما أحسد عليه هؤلاء الشبيبة من حب لحديث رسول الله ﷺ ، وحفظ له : لأن المصطفى دعا لعامله بالنضرة .

وإن كنت أطالبهم بالفقه في الدين وفق أصول لغوية وفكرية ثابتة . ولا ريب أن الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - أحياناً لأبناء صقيه وعصره دينهم ، وبارك الله في مجاميعه ، ورد الناس إلى الأصول القرآن والسنة ، وظل الناس أهل فقه وعقيدة ، وكان فقهاً على مذهب إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل .

وقيض الله للأمة قبيل القرن الخامس عشر بعقود رجالاً مهتوا للصحوة ، لجيل الالتزام ، قال قطب والمودودي ... إلخ : كان دأبهم تحرير العقل من الانهزام للغرب فكراً وروحياً مؤكداً للناس أن المستقبل للإسلام .. مع ملاحظات كبيرة خائفة عقيدة وفقها .

وناصر الدين الألباني أعاد الشبيبة الحديث دراية ورواية ، فشد المثر حتى أربى على الغاية

وعبدالفتاح أبو غدة وبعض علماء الهند ما زالوا يذكرّون الناس بواجبهم في علم الجرح والتعديل وهو المدخل الموقّق لحذق حديث رسول الله ﷺ روايةً ودرايةً .

والشيخ عبدالرحمن النوسري - رحمه الله - لم يهادن عصره البتة مبصراً للناس بحيل الماسونية ، متبهاً وعيهم إلى تطلعات المستقبل .

وبارك الله لبلادنا بسماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز - مثّعه الله بالصحة والعافية - وهو للصحة الإسلامية كشعرة معاوية ، فقد حرص على أن يُعبد الله في الأرض حقّ عبادته عن علم وفقه ، وحذّر من منتهى الطرفين ، فدفع الشباب إلى الحديث روايةً وفقهاً ، وكانت جمهرة دروسه في كتب السنة الأمهات الأصول ، ولفت الأنظار إلى ما هو من مآلوف العادة ، ليس له أصل في الشرع ، ونبّههم إلى السنن المهجورة أو المجهولة ، وطالب كل واحد أن يسبق عمله علمه بالدليل ، وعلمهم كيف يكون الولاء لله ولدينه ثم لولاة الأمر .

فيا لله أي مكسب للأمة إذا خرج من حلقات الشيخ شباب ذوو خلوة في جوف الليل الأليل يقولون : اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشّد ... إلخ ١١٩ .

ويقولون : اللهم أصلح إمام المسلمين ، وانصره ، واهدده ، وارزقه البطانة ... إلخ ١٢٠ .

إننا في أواخر العقد الثاني من القرن الخامس عشر ، وإنني أرى جيل سفيان الثوري ، وابن عيينة ، وحمام ... إلخ ... إلخ ... يأخذ

مقاعده في صف الشيبية المذكورين رغم حيل أبالسة الصهيونية والماسونية والصليبية في صد الناس عن دينهم .

كاد يقتلني الجزع وأنا أرى جيل الهزيمة جيل ١٩٥٢م منذ ثلاثة عقود يتأبط جذلاً كتاب العالم ليس عقلاً ، وكان القزم في فصل « عن أبي هريرة عن رسول الله » يحذّر من وجود محدث في الشرق الإسلامي ، وأن وجود محدث أعظم فاجعة من قبلة هيروشيما .

لقد خيب الله جيل الهزيمة ، ومتعنا ربنا بجيل العزيمة ، وخرجت من غمدي الكهل نصلاً متوهج الشباب ، فالحمد لله شكراً شكراً لا أحصي ثناءً عليه .

منذ ثلاثة عقود كان من الحلم أن أجد أمهات الحديث وبعض شيوخها ، وكان تحصيلها بعد طول انتظار وجهد ومال رغم شح الموارد بواسطة كتّيبين يجلبونها من الخارج كحنيشل رحمه الله .

والآن أخذت المكتبات والكفائن تغدق علينا كتب الأجزاء والمجاميع والأطراف إضافة إلى الأمهات والشروح .

إن حمل حديث رسول الله ﷺ روايةً ودرايةً إظهار لنضارة العلم ، وسعي في تجديده ، ولهذا دعا المصطفى ﷺ لحامله بجنس فعله .

إن جيل العزيمة الآن ينتقل من التربية التعليمية المنهجية - وهي مسحات علم - إلى تحمل العلم حقيقة : لأن ميثاق الله على العلماء أن يبلغوا العلم .

والحديث الشريف الذي مر ذكره يشير إلى أن باب الاجتهاد سيظل مفتوحاً إلى يوم القيامة ، لأن الوقائع تتجدد ويحتاج الحكم

فيها إلى فقه واجتهاد ، والحكم فيها ضروري ؛ ولهذا قال عليه السلام : « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » . ورب حامل فقه ليس بفقيه .
والقرآن تنزيل خالق الحقيقة والعقل والعلم المادي .
والحديث وحي غير متلو ، فهو خبر ينتهي إلى خالق الحقيقة ؛ لأنه عن محمد عليه السلام ، عن جبريل عليه السلام : عن الله سبحانه وتعالى .

ولا غنى عن وحي الله لهداية العقل والعلم ، فالعودة للنصوص حفظاً ودراية عودة للفكر والعلم ؛ لأن شرع الله يهدي خلق الله .
وإذا تعارضت أو تكافأت احتمالات العقل أو العلم فالشرع مرجح ؛ لأن العقل والعلم وسيلة من يحاول اكتشاف الحقيقة ، والشرع هداية من خلق الحقيقة والعلم والعقل .

قال أبو عبد الرحمن : وهناك نقد لأهل الشبهة من قبل أحد أعمدتها العريقين ، وليس نقده برماً بوجودها ، ولكنه نقد لشئ من فقه بعض شبابها لا يخلو من استفزاز كوصف ذلك الفقه بالفقه الصياني أو البدوي .

يقول الشيخ محمد الغزالي : « إن قلبي ولبي مع الصحوة الإسلامية التي تحاك لها المؤامرات العالمية ، ويتعرض أبطالها إلى ظلم بعد ظلم ، وألم بعد ألم » .

أريد أن أقول للشباب المكافح : إن تحرير الأرض من محتليها الأجانب هدف عظيم إلا أنه بعض ما نعمل له ؛ إن الشيخ في القارة الهندية يسعون لإقامة دولة للشيخ ؛

فما دولة الشيخ ، وما وزنها الإنساني في الأولين والآخرين ؟ .. لا شيء .

إن دولة للعرب قد تقوم هنا أو هناك بعيدة عن الدين ، فما قيمة ذلك وأثره ؟

إننا طلائع الإسلام الذي يريد إعلاء الوحي الإلهي ، وإنصاف الفطرة الإنسانية ، وترشيد الحضارة ؛ كي ترتبط بربها وتسير على هداية .

إن تراثنا الذي قاد العالم دهرًا يجب أن ينهض من كبوته ، ويستأنف رسالته ، ويغسل الأرض من أدرانها .

لذلك أنظر باهتمام شديد إلى الجو الفكري الذي يسود ميدان الصحوة ، وأتابع بقلق مده وجزره وخيره وشره ، وخطاه وصوابه ؛ .. معتقداً أنه بقدر ما يقترب من الحق تسانده بركات السماء وخيرات الأرض .

وقد تدارست مع أولي الأبواب هذا الجو الفكري السائد ، واتفقت كلمتنا على ضرورة التعامل معه برفق ، واقتياده إلى الطريق المستقيم بثابة .

لاحظنا أن الحقائق الرئيسة في المنهاج الإسلامي لا تحصل المساحة العقلية المقررة لها ، وهذه الحقائق افتقدنا الكثير منها في مسيرتنا التاريخية لا سيما في القرون الأخيرة ؛

فلو كانت أنظمة الحكم أمدي ، وعناصر الحرية والعدالة أقوى ما

كنا نسقط في يرثن الاستعمار الذي اجتاحتنا وكاد يمحو وجودنا
ورسالتنا .

ما قيمة نهضة لا تعرف أسباب هزائمها السابقة ؟ (١)

قال أبو عبد الرحمن : فمن يستطيع أن يقول للشيخ في هذه
أخطأت ؟

إننا ندين لله بأن قبضة التراب ليست الهدف وقد هجر رسول
الله ﷺ مسقط رأسه ، وإنما الهدف أن يقام على كل قبضة من
الأرض دين الله وحاكميته .

وندين لله بأن اقتياد ما في ملابسات الضحوة من نشار إلى
الطريق المستقيم بأناة مطلب من مطالب الحسبة النفيسة .

وندين لله بأن أنظمة الحكم إذا لم تكن أهدى فستنتج من الشطط
بمقدار ما فيها من الجنف .

وإنما محل النظر عبارات وردت بعد ذلك الكلام النفيس اعتبرها

بعض شباب الالتزام استفزازاً ، وهي قوله : « إن السلطات المستبدة
قديمًا وحديثًا تسرُّها الخلافات العلمية التي لا تحسبها : هل الشك
ينقض الوضوء أم لا ؟ ، هل رؤية الله في الآخرة ممكنة أم ممتنعة ؟ ،

هل قراءة الإمام تكفي عن المصلين أم لا تكفي ؟ .

إن حكام الجور يتمنون لو غرق الجمهور في هذه القضايا
فلهم يخرج .

من أحكامه الدينية

١

لكنه يشعر بضراً بالغ عندما يقال : هل الدولة لخدمة فرد أم مبداء ؟
لماذا يكون المال دولة بين الناس ؟

هل يعيش الناس كما ولدوا أحراراً ، أم تستعبدتهم سياط
الفراغة حيناً ولقمة الخبز حيناً ؟

إن البدوي الذي خاطب الفرس أيام الفتح الأول قال لهم : جئنا
لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد .

كان هذا البدوي بفطرته الصادقة يعلم ماهي الحقائق الكبرى في
المنهاج الإسلامي فيفتح البصائر عليها .

وقد أوجع فؤادي أن بعض الشباب كان يهتم بهذه المسألة هل
لس المرأة ينقض الوضوء أم لا ؟

وكان اهتمامه أحد وأشد من إجراء انتخابات حرة أو مزورة !! .

إن عدم سيطرة الحقائق الكبيرة على الوعي الإنساني لا يمكن
التغاضي عنه .

وشيئاً آخر نريد الحديث عنه : ما هو المنطق الذي عوملت به
القضايا الثانوية بعد ما استحوذت على الأفكار ؟

لقد شاعت الأقوال الضعيفة والمذاهب العسرة ، ورجحت الآراء
التي كانت مرجوحة أيام الازدهار الثقافي الأول ، حتى وهل الناس

لأن الإسلام إذا حكم عاد إلى الدنيا التزمت والجمود ؟ (٣)

وتمام ذلك أيضاً قول الشيخ : «وَرَادَ الطِّينُ بَلَّةٌ أَنْ قِيلَ لِلشَّبَابِ السَّادِجُ : نَحْنُ لَا نَرِيدُ أَقْوَالَ الرِّجَالِ وَلَا مَذَاهِبَ الْأَثَمَةِ .. نَرِيدُ الْإِغْتِرَافَ مُبَاشِرَةً مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .
وأنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه، وقد يكون سوء خلق، لكن التقليد المذهبي أقل ضرراً من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة .

ويدهي أن تنشأ مشكلات ثقافية واجتماعية من هذا النهج ، وأن تسمع حديثاً يقول : مالك لا يعرف حديث الاستفتاح ، ولا سنة الاستعاذة ، ولا يدرك خطورة البسملة ، وهو يخرج من الصلاة دون أن يتم التسليمتين ، فهو جاهل بالسنة النبوية !!
وحديثاً آخر يقول : أبو حنيفة لا يرفع يديه قبل الركوع ولا بعده ، ويوصي أتباعه ألا يقرؤوا حرفاً من القرآن وراء الإمام ، وربما صلى بعد لمس المرأة ، فهو يصلي بلا وضوء .. إنه هو الآخر جاهل بالإسلام !!

وينظر المسلمون إلى مسالك هؤلاء الفتية فينكرونها ويلعنونها .
وقد كان علماء الأزهر القدامى أقدر الناس على علاج هذه الفتن ، فهم يدرسون الإسلام دراسة تستوعب فكر السلف والخلف والأئمة الأربعة ، كما يدرسون ألوان التفسير والحديث وما تتضمن من أقوال وآراء .
لكن الأزهر من ثلاثين عاماً أو تزيد يتحدر من الناحية العلمية والتوجيهية .

ولذلك خلا الطريق لكل ناعق ، وشرع أنصاف وأعيان المتعلمين يتصدرون القافلة ويثيرون الفتن بدل إطفائها .
وامتشر الفقه البنوي ، والتصور الطفولي للعقائد والشرائع^(١) .
قال أبو عبدالرحمن : وأغضب شباب الالتزام عبارات استقرازية - والدأعية لا يستغز مريديه - من أمثال : الفقه البنوي ، والاجتهاد الصبياني .

فلن بعض الشباب أن جميع شباب الصحوة مستهدفون بمثل تلك العبارة : لأن الشيخ أجمل ولم يفصل .
وما دام الشيخ أجمل وأصبح للنقد أوسع المداخل فإنتي - إن شاء الله - محتسب الأجر بتحري ما أعتقد أنه الحق والعدل ، فأقول :
كلام الشيخ فيه حق كثير من ناحية تسور بعض الشباب على العلوم ، وقد لاقبت من بعضهم الأمرين حيث يراجع مسألة أو مسألتين مراجعة عاجلة ثم يطرحها بغير مناسبة ليعجز غيره ، ويظهر بالفقه وهو ناقل لشيء من فقه غيره .

وبعضهم يحاور بغير أصول فكرية ، ولا تقعيد لغوي ، ولا استقراء للقواعد الكلية .
ولا ريب أن مدار الاجتهاد على الفكر واللغة والاستقراء .
وبعضهم يحفظ جميع أو بعض بلوغ المرام فيهجم على المسألة بالاستدلال بأي حديث .

(١) السنة النبوية : من ١ - ١٠ .

فإن كان الموضوع عن ترجيح جواز الوضوء بفضل ظهور المرأة عارض بحديث الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه : «نهى رسول الله ﷺ أن يتوضأ الرجل بفضل ظهور المرأة» .

وإن كان الموضوع عن ترجيح عدم الجواز احتج باغتساله ﷺ بفضل ميمونة .

وإن جمعت له بين النصين بأن فعل الرسول ﷺ للجواز ، وقوله ورد على صيغة النهي وهو كراهة تنزيه ، والرسول ﷺ قد يفعل غير الأفضل لتعليم أمته .. لو قلت له ذلك فلن يقنع وسيقول لك : مذهبنا وقول شيوخنا : إنه لا يكره ذلك إلا إذا خلت به .

سيقول لك ذلك مهما أقيمت له البرهان قلو البرهان على أن الخلوة فرق غير مؤثر باعتبار الشرع .

قال أبو عبد الرحمن : هذا فعل قلة من الشباب المنتسب إلى الالتزام يؤذي طالب العلم ، ويسرع بهرمة .

وبعضهم يكثر بحفظه لبلوغ المرام وهو لحن في اللغة ، وينسى أن الفقه في النص غير مجرد حمله ، وينسى أن الاجتهاد الجزئي (أي المسائل) لا يكون إلا عن أصول يطردها ، فمن حقق بالاستدلال أن القياس حق ، أو أن المرسل لا يعمل به فلابد أن يعرف - بالبناء للمجهول - اجتهاده الأصولي وطراده حتى لا يكون الاجتهاد والاختيار تلاعباً .

قال أبو عبد الرحمن : إلا أن هذا العيب الذي يؤذي ويؤذي الشيخ الغزالي لا يعبر عنه بصيغة «الشباب الساذج» : لأن الاجتهاد

الصبياني فعلة قلة منهم لم يتدربوا على العلم ، ولأن جمهرة من الشباب لازموا حلقات العلماء في المساجد والبيوت .. في الفقه والحديث والعقيدة - مع قلة الحلقات في الأصول واللغة والفكر وآداب البحث والمناظرة - ، فحفظوا المسائل الفقهية على مذاهب إمامهم بأدلتها ليدرسوها ويفتوا بها ويعملوا بها في خواص أنفسهم وأهلهم .

وكما لاح لهم الدليل اتبعوه ولو خالفوا المذهب ، ولا يجادلون رجال العلم إلا فيما حققوه باجتهادهم ، وليس ذلك للمكابرة والمكاثرة والتعلم : بل للإقناع ، أو لتزاد قناعتهم أنفسهم فيما اجتهدوا فيه .

وما لم يحققوه باجتهادهم لا يخوضون فيه ، ويعتقون بأنهم حاملون لفقه إمامهم ، عاملون به في خاصتهم وتدريسهم وفتواهم إن استفتوا ، وأن هذا وسعهم .

هذا هو جمهور شباب الالتزام ، وهم العاملون الذين يعملون المساجد في الجمع والجماعات ويقومون يسيراً من الليل .

وأرى أن هؤلاء هم أهل الجادة ، لأنهم يريدون العلم للعمل ، ولا يطمحون للاجتهاد إلا تبعداً لرغبتهم عن الاختلاف ، ولهذا لا يضطرون للاجتهاد إلا إذا قام لهم مسألة مشكلة منقذة في مذهبهم .

وهؤلاء مع حداشتهم بزوا كثيراً من كهول الجيل ، لأن كثيرين من كهول الجيل انعموا في الثقافة العامة والعلم بالمطازن .. يقول قائلهم : ما دام المحلى ، أو المفتي ، أو المجموع ، أو بدائع الصنائع ، أو التحصيل في مكتبتك فكانت في صدري .

وهكذا قالوا عن نصوص الأحكام من القرآن والسنة .

أما أولئك الشباب قصفروا جهدهم وشبابهم لحفظ المتن والتفقه فيها . وأثروها على ضياع لذة الثقافة العامة خوفاً من الانمياح . وهؤلاء أودع وأتقى لله من تنقُص الأئمة المجتهدين السالفين ، وإنما يخشى من بعضهم التعصب لإمام نون إمام . وكلامي عن هؤلاء لا يشمل عوام من يسمون بجماعة التبليغ فهؤلاء حقيقون بأن يدربوا على العلم ، ولا يترك لهم فرصة التلاعب بالاجتهاد .

واعترافاً بالحق أقول : مهما أحصيت المؤاخذات على قلة من المنتسبين للصحة فلا يُعدُّ ذلك شيئاً في بحر حسناتهم . لقد كان الناس قبل جيل الالتزام - لا سيما عامة الشباب - قلما رأوا الفجر الصادق والكاذب ، وقلما استمتعوا بطلوع الشمس .. أما الآن فقد ارتبطت يقظتهم بالأسفار . وقبل جيل الالتزام كانت الجمعة تقام ولا يحضرها إلا أشياخ من العوام .. أما الشباب فيغطون في سبات عميق بعد سهر امتد إلى ما بعد ثلث الليل الآخر .

وقبل جيل الصحة كانت خطب الأعياد والاستسقاء والكسوف والخسوف لا يشهدها إلا من يقوم به فرض الكفاية . وقبل جيل الالتزام كان يقيم صلاة الفجر الإمام والملازم وشيخان يسفلان . وقبل جيل الالتزام كانت تلاوة القرآن هذجرة ، والمصلون يحسون لذة العبادة والتلاوة .

وفي إقامة الصلاة جفاء وحركات وجهل بالسنة في هيناتها ، وأعمال للسنة الرواتب . وقبل جيل الالتزام كنت أذرع الرياض من أقصى الشميسي غرباً إلى أقصى المرقب شرقاً . مع تعريج على شارع الشيخ الإمام محمد ابن عبدالوهاب رحمه الله ، ومكتبة حنيشل رحمه الله : فلا أجد إلا غباراً متراكماً على رياض الصالحين ، وربما سمحت الظروف بنسخة من الترغيب والترهيب .

وقلما اجتمعت الستن الأربع والموطأ والمسنَد والصحيحان في بيت طالب علم .. إنما يوجد ذلك في بيوت خاصة العلماء والمكتبات الخيرية . أما ديوان المتنبي والبحثري ولزوميات أبي العلاء وسقط زنده ، وموسوعات الفقه ، والمعاجم والأجزاء : فإياك أن تحرك لسانك بشيء من ذلك ، وإنما يجلبها الكتبيون من الخارج حسب الطلب ! . ولقد غاظني هذا الوضع فكتبت سنة ١٣٨٦هـ أو ١٣٨٧هـ تقريباً بالبلاد أنعى مستقبل العلم ببلادي . وأذكر كتب عالم يموت في إشبيلية فتباع في قرطبة ، والة عواد - بتشديد الواو - يموت في قرطبة فتباع في إشبيلية .

وذكرت عظم مكتبة الحكم ، وما ذكره ابن حزم عن تلبد الخصي - وهو فهرس عن سفر ضخمة جداً - ليس فيه إلا أسماء النواوين بمكتبة الحكم .. مع أنه لا توجد أقلام مريحة ، ولا ورق صقيل ، ولا آلات تصريح وطبع ، ولا علامات ترقيم (بل هو خط مدمج شحاً بالورق) ، ولا فهرس فنية للأعلام الأسمية والمكانية ، والمصطلحات ، والموضوعات .

ولا أضواء جهورية، ولا مكيفات تجلب النشاط وتعين على العمل .
ووجد اصطلاح المطوع وهو من بين العامي والشيخ المتوسط في العلم .

وكان المطوع - على قدرته - في رتبة العالم .
وإنما هناك مثقفون يتفوقون تفوقاً فطرياً - لا فكرياً إلا في الأقل - أدب الرسالة وشعر الديوان والمهجر وجماعة المهندسين وناجي .
وبفضل الله ثم فضل جيل الالتزام قذفت خزائن العالم بقلذات أكبادها . فنشرت الأمهات والنوادر والأجزاء والمسائل . وتوافرت الكتب بنخس الأثمان . وكان متوسط الدخل إذا كان سخيّاً قد يحصل مكتبة في نصاب كتب كبار العلماء من ذوي المكتبات كالسلفي وابن منظور . وابن حجر . . .

وأعتمدت على الهامش ثقافة روز اليوسف . والكواكب . وحواء .
والصبي تفضحه عيونه . وعش أنت . ومدرسة المشاغبين . . . وانداحت في الأفق ثقافة شباب العلماء .

فشباب اليوم (الذين لم يتصفوا في العقد الثالث . وهم يحفظون القرآن وأحاديث الأحكام . ويتوعون معارفهم على العلماء في الحلقات إضافة إلى دراساتهم المنهجية) هم الآن مشايخ . . . وأملأ بها فمك .

وهم في الكهولة سيكونون - بمشيئة الله - علماء . وبهذا يوجد عندنا في الزمان الواحد والمكان الواحد دفعة من العلماء في مستوى الخطيب وابن عبد البر والياحي والذهبي وابن حجر . . . إلخ تفخر بهم كتب التاريخ والسيرة .

وأذكر أن رئيس كتبة المجلة العربية الأستاذ حمد القاضي أجرى معي منذ ثماني سنوات أو أكثر مقابلة تلفازية تحسرت فيها على ضياع مناهج الإجازات العلمية . وأن التلميذ يلزم شيخه في دراسة كتاب من الأمهات فيخرج بعلم . ومن ثم تكون الإجازات التي هي أنسم من شهادات الدراسات المنهجية .

والآن أرى علماء يتخرجون من الحلقات خليقين بالإجازات العلمية التي يمتحها فحول العلماء لفحول تلاميذهم .

وقبل جيل الالتزام كان المذيع العربي . والمجلة العربية . والكتاب العربي يقذف بالشبهات والتشكيك في الدين والتاريخ والأمة والموهبة . فمئني سواد المسلمين بالهزيمة . وبقي جمهور حُسبوا في وقتهم من العوام قبضوا على دينهم كالفابض على الجمر . وبقي قلة (الغزالي أحدهم) يجاهدون بالقلم وباللسان يدفعون الشبه عن دينهم . ويفضحون زيف التشكيك في الأمة موهبةً وتاريخاً . فهم في موقف الدفاع أبداً .

فجاء جيل الالتزام وحول الإيمان بالدين إلى عمل . ولم يعد بحاجة إلى البرهنة على أن الدين طريق الخلاص . . . وإنما كان بحاجة إلى تحويل كل لحظة إلى عمل يرضي الله . ويدخل في ذلك تعلم التلقي والتعليم . . . وآثرت التعبير بجيل الالتزام بدل جيل الصحوة : لأن رقعتنا - حتى على مستوى العوام - لم تفقد الوعي بأحكام دينها .

وتبدلت الخنافس وشعيرات كالجعلان تحت الأنف . وراح ابن صاحبة تضبت فيها ثغرة الميلاد . . تحولت كل تلك إلى لحى عريضة . وشوارب مخيطة . وثغرات سجود .

فقداء لجيل الالتزام ألف ألف هفوة وقد أخرجونا من حريق العقول إلى نعيم العمل .

قال أبو عبد الرحمن : وكنت أمراً لولا الله ثم وعي بجيل الالتزام لأصبحت من اللامين إلا ما شاء ربك ، والله المستعصم فيما بقي . على أنني عجزت عن الاستجابة للتوثيات الفنية في أويقات . إلا أن ذلك لم يلهني عن كتاب الله تلاوة وحفظاً ، وعن تحصيل العلم والكتابة فيه .

وجيل الالتزام لا يحدد أنفاس الغزالي وأمثاله في قيام جيل الالتزام نفسه . ولا يشتد عتبهم على الشيخ إلا من منطلق عظيم محبتهم له وعتبهم عليه . ولسان حالهم يقول : لو غير الغزالي أخطأ ما أقمنا له وزناً . ولا رمقناه بمؤخرة عيوننا .

ففي ساحة الغواية أبو النصر ، ومحمود العالم ، وشكري غالي ، وأصحاب الناقد . . . ووو . . . ممن لا يخصيه العد نظهر أرفف كتبنا من دنسهم . ولا نعبأ بمحاجتهم .

وكل عبد للدينار تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش .
أما أن يفهم الناس بأن المغمم الأزهرى المجبب (لابس الجبة) شيخنا الغزالي ليس محسوباً على جيل الالتزام فدون ذلك خرط القناد ، وسنعتب على شيخنا ونعتب ونعتب إن حاسب طائفة أو اعتزالية عصرية . أو هيمنة دعائية إعلامية تمنح المنشقين شعبية والقب حرية ومعاصرة . سنعتب ونعتب لأنه يبقى الود ما بقي العتاب .

وكل عاقل يلمس لحيته من جيل الالتزام على ثقة بأن المستقبل للأسلام . ولكنهم حريصون على حصر الخاتمة لشيخهم محمد الغزالي

كما يحرصون عليها لأنفسهم . ويشفقون من زلة العالم والداعية . ويتخوفون من تحمس لاجتهاد خاطئ في العقيدة أو التأصيل ربما أحبط العمل إذا تولد عن شدة الجدل حمية وهوى .

وفي بعض كلام الشيخ ما يقتضي منه مراجعة ومعادلة فيخبت عقله لربه . ويرغم أنفه بالسجود له وهو يقول : يا معلم إبراهيم علمني . . . ويطلب من ربه الهداية فيما اختلف فيه من الحق . وأن يسدد الله ذكاه بركاء .

في كلام الشيخ معادلة بين ما أسماه حقائق كبرى كالوحي بإجراء انتخابات حرة أو مزورة ، وبين ما أسماه بقضايا غير ماسة كالاختلاف في رؤية الله في الآخرة .

فإن كانت معادلة الشيخ معادلة مفاضلة بين حق يجب أن يوجد ولغو يجب أن يلغى : فذلك منقطع خطير : لأن كل هذه القضايا مسائل شرعية . وليس في الشرع لغو ولا غير ماس . . ولأن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين اهتموا بما أسماه الغزالي بالحقائق الكبرى من بناء الدولة والمجتمع في نفس الوقت الذي اهتموا فيه بما سماه الغزالي قضايا غير ماسة كتحديد نوع سلوك المجتمع في التعبد لله اعتقاداً أو قولاً أو فعلاً .

وشباب الالتزام يشبعون مسألة حقها من البحث كالشك هل ينقض الوضوء أم لا في مناسبتها . ويشبعون مسألة الانتخاب الحر أو المزور حقها من الاهتمام في مناسبتها .

وشباب الالتزام يحققون مدلول قول الله تعالى : ﴿ وما كان

المؤمنون ليسفروا كافة فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴿١٩﴾

فمجال المسلم أن ينفر في نطاق تخصصه المتعين ، وأن يسهم بالمشاركة في الفروض الكفائي .

ومهما أحصى على شباب الالتزام من هفوات فهو جيل أنيسه وسميره القرآن والصحيحان وفقه السلف ، فذلك قمين بتهديبهم وصقلهم على الأمد ، وقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن .

وها هنا أمر مهم جداً وهو أن اختلاف السلف في مسائل مثل : «هل الشك ينقض الوضوء أم لا ؟» ، وإشباعهم ذلك تحقيقاً : لا يغني الخلف عن الاختلاف نفسه الصادر عن سعة اجتهاد : لأن الأخذ بكل الأقوال غير ممكن ، فلا بد من الاختيار ، ولا اختيار إلا بعد فهم لحجج العلماء وتقضيمهم في اختلافهم ، وقدرة علمية على الترجيح ، وذلك هو سبيل الاجتهاد ، وذلك هو تجدد الاختلاف .

قال أبو عبد الرحمن : ومن قلل من شأن حكم شرعي تخاف عليه الفتنة في الدين : ذلك أن الاهتمام بالشك في الوضوء اهتمام بالوضوء ذاته الذي هو عبادة محضة ، والذي هو ضياء ونور وغرة وتحجيل يمتاز به المؤمنون يوم القيامة .

وهو اهتمام بالعبادات التي يشرع لها الوضوء .

فهل في الوجود أهم من عبادة الرب جل جلاله ؟

قال أبو عبد الرحمن : وكون السلطات المستبعدة قديماً وحديثاً

تسرها الخلافات العلمية التي لا تمسها : لا يعني أن لا تهتم الرعية بما يمسها من شؤون عبادتها لربها .

فلتتق السلطات على سرورها إذا كان ما يسرها هو من صميم عبادة الرعية لربها .

ولا يعني هذا أن عبادتها تلهيها عن السلطات المستبعدة ، بل نصوص الشرع التي يتفرغ لها شباب الالتزام فيها التعليم الكافي والتوجيه الشافي .

فهناك سلطات مستبعدة كافرة ، وهناك سلطات مسلمة ولكنها جائرة ، وهناك رعية تكلف من أمر ربها ما تستطيعه ، وتقدم دفع المفسدة الكبرى على تحقيق المصلحة الصغرى ، ولا تنشق عن الطاعة إلا أن ترى كفرًا بواحًا ، فهي تتعلم هذه الأحكام من دين ربها كما تتعلم أحكام الشك في الوضوء .

والبدوي الذي ذكره شيخنا الغزالي إنما زكاه وباركه الشرع عندما دعا إلى إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

قال أبو عبد الرحمن : ومن عبادة الله وحده أن نحقق مسألة الشك في الوضوء ، ونعتقد رؤية الله في الآخرة ، ونحقق كفاية قراءة الإمام ، ونحقق أثر لمس المرأة في الوضوء : لأن هذه أمور جاء بها الشرع ، والله أمرنا أن نعبد به ما شرع .

قال أبو عبد الرحمن : وكلما رأيت خللاً في المنهج فإنتني أنبيه إليه بالحاج شديد : لأن الشيخ ممن يعاديه النعش إلى الحقيقة .

إن الشيخ في معرض النقد لفقهِ جيل الالتزام ، فلا تجوز الدعوى بإجمال ، بل لابد من الأمثلة الكافية .
فياليت شيخنا مثل للأقوال الضعيفة ، والمذاهب العسرة ، والآراء المرجوحة أيام الازدهار الثقافي الأول بحيث صارت الواقع العملي لجيل الالتزام .. وذلك بعد إقامة البرهان على الضيق والعسر والمرجوحية .

والشيخ لم يفعل ^(١) .

قال أبو عبد الرحمن : وأيام الازدهار الثقافي الأول قد تكون مرجعاً للإنتاج البشري المتصف بأنه ثقافة كالآداب والفنون .. أما أمور الديانة فليس لها مصدر ثقافي ، وإنما هي وحي رباني وسيرة عملية لرسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم .
قال أبو عبد الرحمن : والشيخ يذكر فقهاً مذهبياً وسلفيةً مزعومة ، والواقع أنه لا فقه مذهبي إلا لأحد اثنين :

الأول : عامي عاش في ولاية ذات مذهب رسمي .

والثاني : طالب علم أداه اجتهاده إلى اختيار أحد المذاهب .

أما اعتبار كل المذاهب فقهاً واحداً فلا : لأن الجمع بينها غير ممكن .

وأما الفقه السلفي فميسور باتباع منهج فقهاء أهل الحديث الذين استقرؤوا النصوص ، وجعلوا القاعدة مأخوذة من الأمثلة (النصوص) .

(٥) الكتاب كله مسائل فقهية وأصولية لعله أرادها مثلاً ، وإن اختياره فيها ضد الضيق العسر والمرجوحية ^(١) .

ولم يشترعوا لأنفسهم قواعد يسلطونها على النصوص بتأويل أو إلغاء .
ولا اعتراض على الشيخ كلما حميت حديثه على أوباش سمع منهم تجهيل مالك وأبي حنيفة ، وإنما الاعتراض عليه إذا شمل بسخطه كل شباب الجيل المذكور ، وكل طالب علم مستمر يريد سلفية لا مذهبية .

والعتب على الشيخ إذ قلل من قيمة التعني لمعرفة فقه مسألة يكون حكمها غير واجب ، أو يكون فعلها مكروهاً غير محرم ، كالنقاش غير الفقهي حول إعفاء اللحية .

ومعنى أنه غير فقهي أن أدلة المجادلة غير شرعية .

لقد ذكر المؤرخون أن إعفاء اللحية ميراث قومي قبل ظهور الإسلام ، وأن صناديد العرب وعامتهم يتزينون بلحاهم .

ومسح اللحي عند العرب أقوى وثيقة معاهدة في عرفهم ، وتجدون بيان ذلك في كتابي التهذيب للأزهري ولسان العرب لابن منظور في مادة علق عند كلامهم عن سهم الاعتذار .. كما ذكر المؤرخون أن خلق اللحية عادة وفدت من الفرس .

والذين فرطوا في جمال وجلال اللحية إنما فرطوا في شرع دينهم وفي ميراثهم القومي ، ويهذين الأمرين يكونون متشبهين بغير أهل الإسلام .

وعلى أن الملتحي قد بضيق بها ولا يرى فيها جمالاً ، فحسبه أن أهل الجنة في دار الأبد يدخلونها مردأ .. ومن ترك لله شيئاً عوضه خيراً منه .

قال أبو عبد الرحمن : وسمعت عن بعض السارعين بالفتوى في هذا العصر أن خلق اللحية غير حرام ، وأن إعفائها غير واجب ، وأنها من أفعال الرسول ﷺ وأفعال الرسول لا تلزمنا .

قال أبو عبد الرحمن : ختوا دينكم من سنة نبيكم ، ولا تغتروا بأقوال الناس وشطحات العلماء .. لا سيما إن كانت النصوص واضحة صريحة لا تقبل تأويلاً ولا تحتمل خلافاً . فإذا أنست قلوبكم لهذه الوصية فاعلموا أولاً أن الأمر بإعفاء اللحية ليس من أفعال الرسول ﷺ فحسب ، بل هو من أفعاله وأقواله وتقديراته ؛ لأنه صد بوجهه الكريم عن الفارسي الحليق ، وقال له : ويحك من أمرك بهذا ؟ فقال : أمرني ربي (يعني كسرى) .

فقال له رسول الله ﷺ : ألا إن ربي أوصاني بإعفاء اللحية ، وإحفاء الشارب .

واعلموا ثانياً أن الأمر بإعفاء اللحية وإحفاء الشارب ورد بنصوص صحيحة متواترة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم .

واعلموا ثالثاً أن كل أمر فاصله الوجوب والعموم والفور إلا بدليل على الاستحباب ، وقد ورد الأمر بإعفاء اللحية وإحفاء الشارب بنصوص صحيحة متواترة على سبيل الأمر ، وورد النهي مضموحياً بالتعنيف والإنكار ، ولا يعرف دليل مطلقاً يصرف الوجوب عن ظاهره إلى الاستحباب .

واعلموا رابعة أن كل أمر علمنا بانه للوجوب واللزوم والفرض وتركه حرام . لأنه لا معنى لحرام ثقة وشرعاً إلا ترك الواجب .

قال أبو عبد الرحمن : والأناقة بحلق اللحية والتصابي مصدر هوى يخلق بعض المسلمين ، ويدفعهم إلى استئصال الأمر بالإعفاء ، ويمنعهم دينهم من إعلان تعمد المخالفة ، فيلتزمون الأعذار للتحلل من الأمر كقول بعضهم : أصبحت اللحية في بعض الأحيان مصيدة يفرها بها أناس غير ورعين التماساً للوظيفة والمنصب وكسب ثقة الناس .

قال أبو عبد الرحمن : ووجود من يرسل اللحية رياء ونفاقاً لا يعفي قائل ذلك القول من إرسالها عبادة وقرية بنية خالصة .

ومن عرف هذا الصنف من المنافقين - مع أننا لم نكلف بالنفنيش عن قلوبهم - فعليه إذ عرفهم أن لا يتخدع بهم ، وفي الوقت نفسه عليه أن لا يعطل سنة نبيه ﷺ من أجلهم .

ولم يسقط الله قط فرائض الإسلام وشعائره عن الصادقين لأجل نفاق المنافقين .

وإذا كان قائل ذلك القول هو الصادق في امتثال الشرع ، وكان يعلم علم اليقين أن فلاناً وفلاناً يرسلون لحاهم مصيدة لأسباب دنيوية: فلا يترك لهم هذه الفرصة ، بل يرسل لحيته بنية العبادة لله ليصلح ما أفسدوه .

وها هنا أمر خطير ربما لم يأت له أكثر المعاصرين من أنصاف المتقنين ، وهو أن خلق اللحية معصية من المعاصي ، إلا أن الاستهزاء بذى اللحية سواء أكان صادقاً أم كانت نيته مدخولة معصية تتعدى مجرد الحرمة إلى الكفر ومحادة الله (إن فطن إلى أن إعفاء اللحية مما يحبه الله ، ودعك من الوجوب) ؛ لأن الاستهزاء باللحية استهزاء

بدين الله الذي شرعها ، واستهزاء برسول الله ﷺ ، واستهزاء بأجيال من المسلمين فيهم الصحابة والتابعون الذين أعز الله بهم الإسلام وأهله في أطراف المعمورة .

وبعضهم يتعلل بتعلل غير فقهي آخر فيقول : إعفاء اللحية وحلقها من خصوصيات البشر ، والإنسان حر في خاصة نفسه ، والدين في القلب لا في المظاهر .

قال أبو عبد الرحمن : إن كل فعل أو ترك يتعلق بخاصة الإنسان إنما يكون حرّاً فيه من ناحية قدرة السلوك على الحلق أو الترك إذا جعل الله له القدرة على ذلك ، فهو حر في حلق لحيته أو إعفائها : لأن الله جعل له القدرة على ذلك ، ولكنه من ناحية الشرع لا يكون حرّاً إلا إذا جعل الشرع له الحرية .

وها هنا رأينا أن الشرع تدخل في خاصة الإنسان فلم يجعل له الحرية في حلق لحيته وإعفاء شاربه ، بل أوجب عليه إعفائها وإحفاء الشارب ، وحرم عليه إحفاءها وإعفاء الشارب .

والشرع المطهر تدخل في كثير من خاصة نفس الإنسان ، فحرم عليه لبس الذهب والقضة والحريز .

وإن قال الصواب أن يقول هذا المتعلل أنا حر في معصية الشرع ، وبذلك يقيم الحجة على نفسه لأن الله لا يعذب معصاة الشرع إلا إذا كانوا قادرين على الفعل والترك .. هذا هو معنى الحرية الكونية .

وإن من أعلن بعضيان الشرع وهو يقدر على الامتنثال إنما يعلن محادثة الله ورسوله ﷺ .

وإن من تحكمت فيه أناة العصر الحديث ، وعجز عن مقاومة بيئته الحليقة يكون على ماله من إيمان وطاعة وقربات مع معصيته ربه في هذا الحكم ، وعليه أن يحذر استباحة حلق اللحية اعتقاداً ، بل عليه أن يشعر بأن حلقها حرام ، وليسوف بالتوبة ليظل الصراع بينه وبين نفسه : لأن ارتكاب المعصية مع اعتقاد حرمتها أسهل من استباحتها . وربما تعلل بعضهم فقال : إذا لم يبق علينا إلا إعفاء اللحية فعلنا ، ولكن في الدين أمور كثيرة لم نلتزم بها فكيف نترك الجوهر وملتزم بالأمور السهلة ، وإعفاء اللحية يجب أن لا يكون قضيتنا ، فالأهم المتقدمة وصلت إلى القمر ونحن مشغولون بأحكام اللحية .

وفي هذا التعلل وجوه من الغباء والانهمام الروحي ، فأول مغالطة في هذا الكلام أن المسلمين لم يزعموا في يوم ما أن إعفاء اللحية أو حلقها يحقق حرفة دنيوية أو يمتنع منها ، فهذا كارل وبرنارد شو وسبنسر وغيرهم كل واحد منهم أكفر من حمار وهم ملتخون ، ولم تمنعهم اللحية من التبريز فيما برزوا فيه من قضايا فكرية صائبة أو منحرفة .. بل إننا نشاهد صور أكثر المخترعين والرواد في المناجم والمعامل والمختبرات وفيهم الملتحي وفيهم الحليق ، ولم تكن اللحية أو عدمها فارقاً في العبقرية أو المهارة .

وإنما منطلق المسلمين أن الله الذي خلقهم وخلق وجوههم وأمزجتهم وقسماتهم وجمالهم ودمامتهم هو الذي أمرهم بإعفاء اللحية وإحفاء الشارب .

ومن فضل الله : أن إعفاء اللحية وإحفاء الشارب ليسا سبباً في

إحفاق أو إخفاق مهارة أو حرفة، وإنما الأمر محض العبادة لله وحده، بل إعفاء اللحية وإحفاء الشارب أقل كلفة، وأوفر مثونة، وأبهى منظرًا، وأجل مهابة.

وثاني تلك المغالطات: أن الدين ليس فيه أول ولا آخر إلا ما يتعلق بالتوحيد، فالمكلف لا يقبل منه أي عمل حتى يؤمن بالله ويرسله، وكتبه، فإذا حقق الشهادتين فواجب عليه الامتثال لما أمر به والانتفاء عما نهى عنه. فمن اقترب شيئاً من الريا أو الرشوة فهو أثم بلا شك مرتكب لكبيرة من الكبائر، ولكن هذا لا يسوغ له أن يترك واجباً آخر، وإنما يحتال إبليس على عباد الله بهذه الحيل التيممة، فيقول لمن عصى الله بشهادة الزور: ما دمت شهدت بالزور فماذا ترجو من الصلاة.. أتصلي وأنت شاهد زور ١٩.

وهكذا تجرُّ المعصية إلى معصية حتى يكون الانسلاخ عن الدين جملة.

إن إرسال اللحية بنية العبادة أمر سهل لا كلفة فيه.. يكسب المكلف حسنات بامتثاله ويتجديده لنية الامتثال، وهكذا كل من تورط في كبيرة عليه أن يقاوم نفسه حتى يقلع، وفي الوقت نفسه عليه أن يغمر هذه المعصية بطاعات وقربات ليكون على الأقل ممن خاط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وكل من قاوم نفسه وهو يمارس المعصية وفي الوقت نفسه سارع إلى الطاعات لا يمكن أن يموت قلبه.

وربما رحم الله ضعفه البشري ونظر إلى طاعاته ومقاومته لنفسه

فأعانه بتوبة نصوح.

ومن خرج من مكان معصيته فلا يحقر من الطاعات شيئاً بنية العبادة كما ماطة الأذى عن الطريق، والبدء بالسلام، وإعفاء اللحية، والمداومة على الواجبات، والإكثار من النوافل.. حتى ما يزيده في أجره الحمال يجب أن يستحضر فيه نية العبادة بأن يجعل الزيادة صدقةً ليشجعه على العمل والكدح.. كذلك ما يصيبه من هم أو حزن أو تلدد مأرب يجب أن يستحضر فيه نية الصبر، وأن الله ربما جازاه بذنبه، فإذا حصل نية الصبر فإنه يؤجر على ذلك، ويكون ما أصابه في دنياه كفارة له، وقد تقرر عند علماء المسلمين أن الله يبثلي عباده بالمصائب ليظهرهم من المعاييب.

إن المؤمن الذي يرسل لحيته بنية العبادة والتقرب إلى الله مهما كان تقصيره ومهما كان مرتكباً لشئ من الكبائر فإنه بهذه السبيل يستعين على نفسه بتحقيق وعد الله الشرعي، وهذا الوعد الشرعي علمناه من مقدمات ذلك على أن من أحب قوماً حشر معهم، وقد كان رسول الله ﷺ في مناسبات كثيرة حريصاً على إبعاد أمته عن مشابهة الكفار في الأقوال والأفعال والمقاصد.

والمؤمن العاصي الذي يربي لحيته يقع بين أمرين خيرين عرفتهما بالتجربة:

أولهما: أنه إن تلوث بشئ من المعاصي مما لا يليق بوقار لحيته التي أرسلها دينونة لله، يقع في ألم نفسي شديد، ويحزنه ضميره وخراً سؤراً، فيستحي قلبه ويشفق على نفسه، فيكون مستهزئاً بخبر ربه،

ويقول لنفسه في كل لحظة : إن ما أخفيته عن الناس من قبيح عملي لا يليق بوقار هذه السيمما الطاهرة التي نلت بها محبة الناس ، وإعزازهم ، وحسن ظنهم ، وتقديهم لي في المجلس ، والحديث ، والاستشارة .. فإن استمرت على ذلك فلا آمن أن يكشف الله ما سترته عنهم .

ولهذا تجد هؤلاء الصنف من الناس لا يطول انحرافهم عن منهج الله ، ويعودون إن عاجلاً أو آجلاً .

وثاني الأمرين الحيرين : أن المؤمن العاصي استعان على نفسه بسيمما أهل الخير معلناً بذلك عن محبتهم راعياً في التشبه بهم ، فإذا استمر في مقاومة نفسه ومكاثرة السيئة بالحسنة فقمي أن يحقق الله له وعده ، فيوفاه ربه على دين الأمة التي اختار سيمماها ، فيعيذه من فتنة الموت ومن فتنة القبر .

وبالله لقد رأيت بالمشاهدة أن القلوب تميل إلى نوي السيمما المتخلقة بهيئة السلف مهما عُرِف عن دخالهم من نقص ، وإن لسيمماهم لهابة في القلب ووقعا في النفس .

ومعنى اللحية لغة يشمل امتداد الفكين إلى عظمتي العارضين النابتين ، ويشمل ملتقى الفكين وهو الذقن .

ومعناها شرعاً جميع الشعر النابت على الفكين ، وعلى الذقن ، وعلى ما تحت الذقن إلى الحلق ، وما فوق الذقن مما تحت الشفة السفلى المعروف لغة بالعنققة ، ومنابت الشعر على الخد .

والنصوص الواردة في إعفاء اللحية ، وإعفاء الشارب كثيرة ، وهذا سياق النواردها في صحيح مسلم ، فقد روى بإسناده إلى

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس (أو خمس من الفطرة) الختان ، والاستحداد ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط ، وقص الشارب » .

وروى بإسناده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : وقَّت لنا في قص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط ، وحلق العانة أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة .

وروى بإسناده إلى ابن عمر - رضي الله عنهما - قال أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى .

ورواية أن النبي ﷺ أمر بإحفاء الشوارب وإعفاء اللحية .
وروى بإسناده إلى ابن عمر أيضاً : قال قال رسول الله ﷺ : « خالفوا المشركين أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى » .

وروى بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جزوا الشوارب ، وأرخوا اللحى خالفوا المجوس » .

وروى بإسناده إلى عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء » .

قال مصعب بن شيبة وأوي الحديث : ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة . على أنه صدر اجتهاد للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ببيع أخذ ما زاد على القبض ، وله استدلال في ذلك ، وتايغه سلوكاً ، ولم أحقق المسألة اجتهداً بعد .

قال أبو عبد الرحمن : وقد يوجد التقصير تعلماً أو تطبيقاً في فقه مسائل حيوية يلزم تطبيقها . فلا يعالج التقصير بالتهوين من الفقه في المستحبات والمكروهات ! .

فحقيق علينا أن نعفي اللحية ، ونحيط بالحكم الشرعي في ذلك بفقهه ودليله . وفي الوقت نفسه ندعو إلى جوانب أخرى مهمة من المسائل الحيوية فقهاً وتطبيقاً - مع بقاء لحانا - كما يقال جانب من الحسنة يتعلق بآموال المسلمين وعافيتهم .

قال أبو عبد الرحمن : ففي هذا العصر الموبوء ما بين عشية وضحاها نشبّع إلى المقبرة من قضى الله بانهاء أجالهم بسبب سرطان الدم ، أو السرطان المعوي ، أو الجلطات لا سيما في الدماغ أو القلب .

وأكثر طرحاء المستشفيات في مملكتنا الضيعة يعانون من هذا الأمراض - السرطان والشلل - بنسبة كبيرة جداً جداً .

أخذ تزايد هذه الأمراض وتكاثره من عشر سنوات أو أكثر . وهي علل قاتلة - بإذن الله - اقتضى تدبير الله الكوني أن تكون من أوباء العصر العامة الماحقة .

وساعد على ذلك - وكل ذلك بقدر الله - تلوث البيئة ، وتغير حياتنا الغذائية إلى حياة اصطناعية في المأكول والمشرب والنوم والكن والتبرد ، ومحاصرتنا بالكيماويات ، ومواد التصيير التي لا يكاد يخلو منها غذاء . حتى حلب الأطفال ، وتقلص المذاعة عن أشداء الرجال في سبي الألفاظ . وغلبة الراحة والخمول وعجزنا عن شئ عشرة آلاف

خطوة في اليوم ، وقد كان سلفنا يصبحون في منطقة ويمسون في أخرى مشياً على الأقدام .

ومن كان في قريته لا يريم فإنه يمشي أكثر من عشرة آلاف خطوة متريداً في المنحاة ، أو بين السواقي ، أو فيما بين القرية والمرعى أو المحتطب . . حتى الساعي والشريطي والعاطل يذرعون سوق الجلب طول نهارهم ، فإذا أدركتهم صلاة العشاء غلبهم النعاس على النافلة ، وفكوا أزرة ثيابهم عند عتبات باب المسجد استعداداً للنوم .

ولم تعرض ثروتهم الحيوانية بكيماويات الحياة العصرية السعيدة فكانت تأكل طيباً ، وتنطلق في أرض عذبة ، ولا تحجبها الجدران إلا لمقدار الراحة ليلاً .

وكان الفرد في تآلف وتعاطف مع حيواناته تذبح الشاة أو الجرور السوية الصحيحة فيأبى أهل البيت أن ياكلوا منها على الرغم من الجوع والقرم إلى اللحم : لأن تلك الماشية عاشت معهم في بيتهم وألفتهم وألفوها .

وكانوا يومها يحرقون وجبة بالكذ والتعب ، وتعوزهم وجبة . وكانوا لا يعرفون التسم إلا في مناسبات أو بعض أوقات .

واليوم صدق خير المصطفى ﷺ . فقد ظهر السمن في الناس ، وبرزت البطون والكروش ، وتشتت العكن ، وكل ساعب بالأمس أصبح ذا حويصلة اليوم ربما احتال على إخفائها بعبائته أو بثوب كويتي . .

وكل فرد منا اليوم كتلة جشاً ومزابل . يضربون ثلاث وجبات أو أكثر لغير ضرورة . وإنما ذلك لمجرى العادة .

والأعمار بيد الله . ولكن جعل الله لكل شئ سبباً ، وأهل هذا العصر الراهب لا يُعْمَرُونَ . ومن أوشك أن يصل إلى متوسط أعمار أمة محمد ﷺ فإن الأمراض تنهشه منذ الأربعين .

قال أبو عبد الرحمن : وعهدي بأبن الإخوة القرشي - وهو من أعيان القرنين السابع والثامن الهجريين - ينعى تخلف الوعي الصحي في عهده فيقول عن الطب : «هو من فروض الكفاية . ولا قائم به من المسلمين .

وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالطب من أحكامه . ولا نرى أحداً يشتغل به .

ويتهافتون على علم الفقه لا سيما الخلافات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغلون بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعري كيف يرخصون الدين في الاشتغال بفرض الكفاية وقد قام به جماعة ، وإهمال ما لا قائم به ، هل لهذا سبب ؟

إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولي القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران . والتسلط به على الأعداء» (١) .

قال أبو عبد الرحمن : ونحن بحمد الله لا نشكو فقرًا في الطب والأطباء ، ولا تشكو عجزًا في وسائل البث والتوصيل من مذياع وتلفاز وصحافة وشريط ونشرة .

ولكن أجهزة الصحة في بلاد تشع على الأمة بما هو من ضرورات الحسبة ، وعسى أن لا يكون ذلك تخلفاً في الوعي والساوك (٢) .

(١) معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ٢٤١ .

كان عليهم أن يبصروا سواد الأمة الأمي في ثقافته الطبية بإحصاءات للأمراض الغالبة المنتشرة التي تفتك بالأمة من أمثال السرطان .

وكان عليهم أن يصحبوا الإحصاءات بذكر أسباب هذه الأمراض . وكان عليهم أن يرسموا طرق الخلاص - بإذن الله - ببيان أنواع

من المأكولات أو المشروبات تهجر ، وأنواع من المأكولات أو المشروبات يحتاج إليها وقاية أو علاجاً ، وبيان ما يتبع أو يهجر في صفة الأكل أو الشرب كحبة وكيفية .

ولا يقولن قائل : العيادات مفتوحة !

كلا .. فإنما يذهب الناس للعيادة وقت الحاجة إلى العلاج .

ونحن نريد توعية صحية من باب الثقافة الشعبية نعلم دافعاً

بشئى وسائل الإعلام لترسم طريق الوقاية والعلاج من آفات بيئية

وشبكة الاحتمال في ضوء الخبرة الصحية بأفات البيئة هواء وماء وكثاً

وتبريداً وغذاءً ، وفي ضوء العلم بالآفات الحالات الوبائية ، وفي ضوء

العلم بحالات أحم من المجتمع تأكد أكل الثيران ولا تنتقي ما تأكل .

ومع هذه التوعية الإعلامية الكلامية فلا بد من حاسبة عملية تطرح

الرأي العلمي بشجاعة عن آثار مواد التصفير والكيماويات ، وشن

الحملات المباشرة المستديرة على جميع الأطعمة والمشروبات حتى لا يقع

الناس ضحية مواد تسممت لانتشاء مدة الاستهلاك وتعتق مواد التصفير .

لقد ذكر ابن الأخوة عهد أبي الطب أبقراط فقال : «وينبغي

للمحاسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط الذي أخذته على سائر الأطباء ،

ويحلفهم أن لا يعطوا أحداً دواءً مضرراً ، ولا يركبوا له سماً ، ولا

يصفوا سحائم عند أحد من العامة ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ، ولا للرجال الذي يقطع النسل .

وليغضوا أبصارهم عن المحارم ، عند دخولهم إلى المرضى ، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأسرار ، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه . (١٧)

قال أبو عبد الرحمن : وعندنا خير من عهد أبقرط ، وهو عهد رسول الله ﷺ بأن تصبح لأئمة المسلمين وعامتهم .

وما نصبح عامة الأمة من رأى الفتك الذريع بأدواء السرطان والجلطة ، وكل ذلك بقضاء الله الكوني ، ثم يتخلف الوعي لدى العامة ، ثم يتركهم بدون توعية تسعى إلى تثقيف سلوك العامة والعمل على تحسين البيئة أو التوعية بالتوقي من آثار تلوثها .

وشركاء الحسبة المقصرون كثيرون في نواح أخرى من الحياة .

ففي المسجد بسلطنة كانت فرجتنا على كسرة من عود البخور وجدنا في تجويفها قطعة رصاص أسود خاسئ السعر ثقيل الوزن .

والناس لا يعانون من العيش في أعينهم والحساسيات في أيديهم بسبب دهن العود المغشوش بزيوت الفرامل وشبهه .

فكان من الواجب محاصرة ما يرد إلى مملكتنا من ذلك وغربلته بالتحليل ، والختم بشهادات جهة رسمية معتبرة ، ومصادرة ما ثبت غشه وإتلافه ، فإن دين محمد ﷺ يأبى الغش ، ويستصلح الغشاشون بعقوبات سلطانية رادعة .

والعطَّارون طلقُ أرسانهم ، فعلى سبيل المثال - والأمثلة كثيرة -

أجد معاصر جدة لزيت حبة البركة تسوق زيت الحبة السوداء ، وهذا أمر مشروع ، فإن السم يُسوق كما يسوق الدواء والغذاء ، ولكن يبين أن هذا دواء وذلك داء ، وزيت حبة البركة دواء لا داء .

ولكنها تصدر مع كل قارورة منشوراً من أربع صفحات يتضمن وصفات وتركيبات من زيت الحبة السوداء لكل داء ، فلكل داء وصفته .

وتسويق هذه النشرات بدون ختم من وزارة الصحة يؤيد تلك الوصفات أو ينفىها تقصير في الحسبة .

ومن حق الأجهزة الصحية مصادرة كل منشور يعتدي على تخصصها ويغترر بالمسلمين .

ومثل ذلك وصفات كحول أو أفالويه مخلوطة بماء زمزم .

والمطابع تتدفق بكتب تجارية من مختصين غير مختصين عما يسميه الأسلاف بالمفردات عن منافع وعلاجات الحبة السوداء والرشاد والصبر والثوم ... إلخ .

وكان الأولى أن تفسح من أجهزة صحية تجيزها أو تمنعها أو تلحق بها منشوراً ، وذلك قبل إجازتها من الإعلام .

قال أبو عبد الرحمن : وكتب السلف عن الحسبة كثيرة ، والذي يطالع فهرساً واحداً منها كمعالم القرية يعجب لشمول عناية الأسلاف في نظرتهم إلى شتى الممارسات .

فهناك حسبة لحق الله سبحانه وتعالى تلاحق ببيع الأمور المحرمة أكلاً أو شرباً أو لبساً .

ومنها ما هو من حقوق العباد كملاحقة الغش الكبي كبخس

الميزان ، والغش الكبيف وهو أكثر وجوه الحسبة .
ولا تخصى التخصصات التي تتعلق بها مسؤولية الحسبة . فقد
ذكر ابن الأخوة الحسبة على العلافين ، والخبازين والجزارين وقلائي
السمك والزلاية ، واللبانيين والصاغة والمؤدين والوعاظ والعصارين
والدهانين ... إلخ .

وحق أن يضم إلى جهاز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
جهازاً متمرس يستعين بأهل الخبرة وقت الحاجة ، ليغطي ما كان
يغطيه السلف من وجوه التخصصات العديدة .

ومن السلع التمهية شماغ البسام . وقد زُورت أختام تحمل اسم
البسام على أنواع من الشماغ رديئة ، وفي شهر رمضان عام
١٤١٥ هـ وجدت بمكة المكرمة نشاطاً لمراقبة هذا الغش التجاري ،
ومصادرة المال المغشوش ، وكان ذلك من قبل إدارة شماغ البسام .

قال أبو عبدالرحمن : ونحن نريد الحسبة الشرعية .
وفي السفر الثاني من هذا الكتاب المبارك بيئت أن ترك الأسباب
المادية سفه ، وأن الأخذ به لا ينافي التوكل ، وأن التوكل المطلق لا
يكون إلا عند انقطاع الأسباب .

وقد كانت سيرة المسلمين (فصحاء وعواماً ، وكتبة وآمين ، وعلماء
وعامة) على تعاطي الأسباب ، والتداوي ، وتعليم الناشئة الداء والدواء .
بل كان البدوي الأمي يعلم الراعي المبتدئ الداء والدواء للماشية
والأناسي من ثبات الأرض .

قال أبو عبدالرحمن : وكان ذلك الحرص والبيئة صافية ، والجو

نقي ، ووسائل الإعلام شحيحة .
واليوم تلوث البيئة بالأدخنة ، والمبيدات الحشرية ، والأويثة ،
والفيروسات التي تنتقل بكثرة مع كثرة الوافد والخلطة .
ويحيط بنا عدو في الملة والنطة شرس لا يؤمن أن يدس علينا
أويثة تضر بالحرث والنسل .

وتلوث أطعمتنا وكمالياتنا كالعطور والأطياب بالكيماويات ،
ومواد التصبير القاتلة .

وكثر الغش من قوم لا يتقون الله يفسدون الأطياب بما يقشر
الجلدة ويضع إلى العظم .

فاستشرى في المسلمين داء غير قتال ولكنه منفص كالسكر ،
وحساسية الأنف ، وحساسية الجسم المختلفة .

واستشرى في المسلمين أمراض فتاكة من السرطان بمختلف
أنواعه ، وأنواع الجلطات ، وتليف الكبد ، والفشل الكلوي .

وكثر التشوه ونقص الخلقة في النسل ، فهذه تسقط جنينها قبل
اكتماله ، وهذا يولد بعلة في صغامت .

وكل شيء بقضاء وقدر إلا أن هناك نقصاً في وعي المواطن ،
ونقصاً في توعية المختصين ، ونقصاً في الأديان إذ كثر الغش على
حساب أموال المسلمين وصحتهم ، وكاد يمحى جانب الحسبة صحياً
وكمياً ونوعياً في مقاييس السلع ومواصفاتها .

وأول نوعية : القيام بحقوق الله وحقوق ضعفة المسلمين
وفقرانهم ، فإن إسقاط ذلك التهاون فيه يخلف عللاً فتاكة في المسلمين

لم تكن معروفة في أسلافهم .

وثاني نوعية : تثقيف المواطن من محيطه ، فكل رجل عامي اليوم أو امرأة عامية يحيط بهما مثقفون من أولادهم أو أحفادهم .

وثالث نوعية : العلم بأن الأسباب المادية مطلوبة فيقوم المواطن بالفحص الدوري مرة أو مرتين في السنة بتحليلات من تدبير ربه الكوني يدرك بها بإذن الله ما يتوقع من مرض فتاك مفاجئ كارتفاع نسبة الكليسترول القاتلة ، والله يدفع أقداره بأقداره ، ويمحو الله ما يشاء . ويثبت وعنده أم الكتاب .

ورابع نوعية : الرقابة الإدارية الصارمة على من تلزمه التوعية في نطاق تخصصه ، فالجنين المولود بتعطل صمامه عرف من أسباب علته بهذا النقص أن أمه الأمية تعاطت مضاداً حيوياً ولم يتأكد الطبيب عن مدى حملها .

وخامس نوعية : أن الإذاعة والتلفاز والمطبوعات الدعائية وأسانيد الكهرباء والماء والهاتف وإشعارات البنوك ، وكذلك أماكن الملصقات في الميادين والمجمعات ، والصحافة وأغلفة الكتب العلمية كل ذلك يرحب بتوعيات ذوي الاختصاص المختصرة المفهومة المفيدة عن الغذاء والداء والنواء على مدى الأيام والأعوام .

وسادس نوعية : منع استيراد ما ضرره أكثر من نفعه من المصبرات ومنزوع القيمة الغذائية من المعلبات ، وتشجيع سوق المحصولات الطبيعية .

وسابع نوعية : نشاط أجهزة الحسبة على نطاق هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبحوث والتجارة والصحة كل فيما

يخصه لتفقد المواصفات والمقاييس ومدة الصلاحية فيما يرد مما هو

معروض بالأسواق ، ولتقاضي ما يضر بالدين أو الصحة أو المال .

وثامن نوعية : إشعار ذوي المسؤولية الإدارية عن سنّ العقوبات

المالية ، وإقامة سوق المطالبات الحقوقية ضد الأفراد والشركات

المتسببين في الإضرار بالأمة .

وإذا قلّت التوعية الصحية ، وكانت فرص العلاج الراقى ضيقة

محدودة : تهالكت العامة على الخرافة ، وقام سوق المشعوذين .

قال أبو عبد الرحمن : لقد كنت في حديث مطّمع مع الدكتور حسن

الزهراني - حفظه الله - مدير مستشفى النور بمكة المكرمة بمنزل

الأستاذ الفاضل سليمان الزايد مدير تعليم البنين بمكة المكرمة ، إذ

كان الحديث عن التوكل على الله سبحانه ، وأن المسلم لا ينفك عن التوكل

وإن ملك أجود الأسباب المادية ، لأنه مع كل الإعداد والعدة والتحسينات

والعلم تقع مفاجآت ليست على الحساب لا يدفعها إلا التوكل على الله .

وذكر من نماذج ذلك القسطرة أجريت لبعضهم فأنكس الشريط

في شريانه ، وآخر أجريت له عملية في الأمعاء فوجد أن الكماشة التي

تخيط الأمعاء متعطلة ، فسبب استعمالها وقت العطال إشكالاً .

والسبب في ذلك أن هذه الأجهزة المعقمة لا تُفك إلا وقت الحاجة ،

وأن الغش جاء من الشركة والمصنع .

قال أبو عبد الرحمن : ولا أنكر نماذج من التوعية ترد بين الفينة

والفينة مثل هذه التوعية الصادرة عن إدارة المواصفات والمقاييس

بمعنوان «الرموز على المعلبات ماذا تعرف عنها» ؟ .

غير ضارة	يسبب اضطرابات عضمية	مشكوك فيه	مسبب للسرطان
E335 E262 -١٩			
E336 E263 -٢٠			
E400 E270 -٢١			
E401 E280 -٢٢			
E402 E281 -٢٣			
E403 E292 -٢٤			
٢٥- المادة E220 تؤثر على فيتامين B10			
٢٦- المادة E123 خطيرة وممنوع بيعها في الولايات المتحدة وروسيا			

بقية الجدول من جهة اليسار :

ممنوع بولياً	حساسية جلدية معوية	يسبب اضطرابات	يسبب ضغط الدم	يرفع نسبة الكوليسترول	خطيرة
E103 - ١	E230	E221	E250	E320	E102
E105 - ٢	E231	E222	E251	E321	E111
E111 - ٣	E232	E22	E252		E120
E121 - ٤	E233	E224			E124
E125 - ٥	E311				E127
E126 - ٦	E312				
E130 - ٧					
E152 - ٨					
E161 - ٩					

وهذا نص الإعلان والتوعية :

غير ضارة	يسبب اضطرابات عضمية	مشكوك فيه	مسبب للسرطان
E404 E300 E100 - ١	E330	E104	E131
E400 E301 E101 - ٢	E339	E122	E142
E408 E302 E132 - ٣	E340	E141	E210
E409 E303 E140 - ٤	E341	E150	E211
E410 E304 E160 - ٥	E407	E151	E330
E411 E305 E163 - ٦	E450	E153	E212
E413 E306 E170 - ٧	E461	E171	E213
E414 E307 E174 - ٨	E462	E173	E214
E420 E308 E175 - ٩	E163	E180	E215
E421 E309 E200 - ١٠	E465	E240	E217
E422 E322 E202 - ١١	E466	E241	E239
E471 E325 E202 - ١٢			
E472 E326 E203 - ١٣			
E473 E327 E206 - ١٤			
E474 E331 E207 - ١٥			
E475 E332 E233 - ١٦			
E480 E333 E260 - ١٧			
E334 E261 - ١٨			

قال الأستاذ ناهس العنزي بعد نشر البيان السابق : «عزيزي القارئ : هل لاحظت الأرقام الموجودة على المواد الغذائية المعلنة وخاصة أغذية الأطفال المعلبة ، وهل تسالطت عن معناها .

وهل تسالطت عن الرمز E وهو اصطلاح عالمي لمواد إضافية منونة . . وهل لاحظت الأرقام الموجودة على علب ومغلفات الطعام .

هذه الأرقام عادة ما تكون مسبوقة بحرف E وهي تمثل المواد المضافة للطعام مثل المنبهات ، والألوان ، والمواد الحافظة .

وهناك نشرات وتحذيرات تتضمن رموزاً لبعض المواد الغذائية الخاصة بالأطفال ، وهذه المواد منها ما هو ضار ، وبعضها ذو تأثير خطير للغاية وخاصة على الأطفال لأنهم في مرحلة نمو . . وبعضها يسبب الحساسية ، أو السرطان ، أو يسبب اضطرابات معوية ، وآخر يسبب ضغط الدم ، ومنها ما يرفع نسبة الكوليسترول ، ومنها ما هو خطير جداً ومحظور تداوله دولياً .

وحرصاً على الصحة العامة وبالذات سلامة أطفالنا ننشر قائمة توضح الأرقام ومدى تأثيرها على الصحة لاستخدامها عند شراء الأطعمة المعلبة ولتجنب أي آثار صحية خطيرة .

ولتعميم الفائدة ننشر هذه القائمة وخاصة أنها متجددة كل يوم ففي الدول المتقدمة هناك كتب ونشرات خاصة توزع من أجل توعية المستهلك لطبيعة هذه المادة أو هذه المواد .

وتحرص المنظمات الدولية ومعها منظمة الصحة العالمية على أن

تقوم دائماً بتوزيع الاصطلاحات العالمية لمواد إضافية ملونة تتعلق بتداول المادة المضافة ، ومن هذه الاصطلاحات الرموز والتميمات المسموح بها ، ويعرف العاملون في المختبرات الصحية طبيعة هذه المواد مضارها ومنافعها .

قال أبو عبد الرحمن : ومثل ذلك ما يوجد في بعض العيادات الخاصة كهذا الإيضاح أخذته من مستوصف البستان بمكة المكرمة عن مسببات حساسية الأنف وما يلزم اجتنابه

١ - التعرض لرائحة الكيماويات والمطهرات مثل الكلوركس ، والفلاش ، ومعطرات الجو ، والبويات ، والمبيدات الحشرية ، والعطور ، والبخور القوية منها .

٢ - ريش الطيور مثل الحمام والنجاج والعصافير ، ووبر الغنم والجمال والقطط والكلاب .

٣ - الأتربة الراكدة مثل أرغف الكتب المتروكة ، والستائر السميكة ، والسجاد الكثيف ، أو الموكيت .

٤ - الزهور والأشجار خاصة في فصل الربيع والخريف .

٥ - تناول الأسبرين وبعض المسكنات .

٦ - تجنب الإكثار من الأطعمة المحفوظة ، والمسليات ، والتوابل ، والمخللات ، والشيكولاته ، والقشدة .

قال أبو عبد الرحمن : ومثل ذلك ما تُعنى به المساتية من توعية صحية من أبحاث المختصين ، ومن أخبار تلج الصدر كهذا الخبر

الساار الذي نشرته المسانبة^(١) في محلياتها يوم الأربعاء الموافق ٥ ذي القعدة ١٤١٥هـ بالعدد ٢٩٩٤ ص ٣. ونصه : «في ٨٨ جولة ميدانية لبلدية المجمعة تم مصادرة كميات كبيرة من المعلبات ، وإغلاق ثلاثة محلات لمخالفتها صحة البيئة .

صادرت بلدية المجمعة خلال جولاتها الميدانية التي قامت بها في الثلاثة أشهر الماضية كميات كبيرة من المعلبات تقدر بنحو ٢٤٨٩ علبة ، وعدد ٨٢٢ علبة مختلفة ، فيما تم تطبيق النظام على عدد ثلاثة محلات لمخالفتها تعليمات صحة البيئة من حيث وضع مخلفات أمام المحلات ، أو عدم تجديد الرخص في وقتها .

وبلغ عدد الجولات الميدانية التي قامت بها البلدية حوالي ٨٨ جولة على المحلات التموينية والأسماك والنواجن والمطاعم والبيوفيهات والمخابز والمطابخ بواقع ٢٨٣٠ محلاً تجارياً .

من جهة أخرى بلغ عدد المذبوحات بالسلخ التي تم الإشراف عليها من قبل البلدية نحو ٦٢٢ جملاً ، و٤٥٨ بقرة ، و١٦٠٣ ضأن ، و٣١٥٩ ماعز .

وبلغ عدد المحلات التي صدر لها تراخيص عمل ٥٩ محلاً وتجديد ٤٦ رخصة عمل لمختلف النشاطات .

أما بالنسبة للمبيدات الحشرية التي تم رشها للقضاء على الحشرات الطائرة والزاحفة فقد بلغ عددها ٩ براصيل مبيدات حشرية

(١) وأصدرت ما تشرته المسانبة في العدد ٢٣١٨ في ٢٠١٢/١١/١٦م حتى صدور الأمانة الخاصة بالقضاء ، والعدد ١٣٦١ في ٢٠١٢/١١/١٦م حتى صدور القرار في لجنة الشاي

متنوعة تقدر بـ ١٨٠ لتراً .

هذا ؛ بالإضافة إلى أن البلدية تقوم بأخذ عينات من مياه المدارس للتأكد من صلاحيتها للاستهلاك الآدمي ، وكذلك التأكد من سلامة المقاصف فيها حفاظاً على صحة الطلبة .

صرح بذلك المهندس عبدالرحمن عبدالله العميل رئيس بلدية المجمعة .

قال أبو عبدالرحمن : إلا أن هذه اللفتات الكريمة دون مستوى التوعية المطلوبة كثيفاً وانتشاراً مكانياً وزمانياً وتقصدًا للعامة فاقدٍ الوعي الصحي .

قال أبو عبدالرحمن : وتستحق بلدية المجمعة كل تجميل وإكبار على القيام بهذا الجانب الكريم الكبير من الحسبة .

ولسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - فتوى معجمة على البلديات عن كيفية الذبح ، وإراحة البهائم ، والمنع من ترويعها قبل الذبح يجب أن تعم على المسالخ ويراعى تطبيقها .

قال أبو عبدالرحمن : وما نعاه شيخنا الغزالي من معارضة ما لا دليل عليه - وإن كان من فقه الأئمة الكبار - ليس بشيء ، بل طالب العلم الجاد يصحح علمه إمام يعلم أئمة آخرين بعد وجود الملكة والحصيلة العلمية .

وقد جعل الله على الحق أمانة وحلية .

قال أبو عبدالرحمن : أخذ هذا النموذج من فقه العبد الضعيف

صاحب هذه الحروف ، فإن عارض شيخنا الغزالي هذا الفقه بحماس يزعم أنه سلفي فسيلازمه التناقض !

أسند الخطيب البغدادي بإسناده إلى الأبهري في ترجمته لإمام أهل الرأي الورع الزاهد أبي بكر الرازي الجصاص رحمه الله تعالى فقال - والقائل أبو بكر الأبهري - : «خطبني المطيع على قضاء القضاة وكان السفير في ذلك أبا الحسن بن أبي عمرو السوائي ، فأنبت عليه وأشرت بأبي بكر أحمد بن علي الرازي .

فأحضر الخطاب على ذلك وسألني أبو الحسن بن أبي عمرو معونته عليه ، فخطب فامتنع .

وخلوت به فقال لي : تشير علي بذلك ؟

فقلت : لا أرى لك ذلك .

ثم قمنا إلى بين يدي أبي الحسن بن أبي عمرو وأعاد خطابه وعدت إلى معونته فقال لي : أليس قد شاورتك فأشرت علي أن لا أفعل ؟

فوجم أبو الحسن بن أبي عمرو من ذلك وقال : يشير علينا بإنسان ، ثم يشير عليه أن لا يفعل !

قلت : نعم أما في ذلك أسوة بمالك بن أنس أشار على أهل المدينة أن يقدموا نافعاً القاري في مسجد رسول الله ﷺ ، وأشار على نافع أن لا يفعل .

فقبل له في ذلك ، فقال : أشرت عليكم بنافع لأنني لا أعرف مثله .

«أشرت عليه أن لا يفعل لأن يحصل له أعداء وحساد»

فكذلك أنا أشرت عليكم به لأن لا أعرف مثله ، وأشرت عليه أن لا يفعل لأنه أسلم لدينه» .

قال أبو عبد الرحمن : الإمام مالك ، والفقيه الأبهري إمامان ، ومكانهما في الدين والعلم غير منكور رحمهما الله .

ولو رجع الأمر إلى علمي القاصر وتجربتي المحدودة : لكنت لا أشير في الأولى حتى أرى ضرورة ماسة للمشورة فأغلب - بتشديد اللام - المصلحة العامة ، فأشير بالفاضل رحمة بالامة .

وحينئذ لا أشير على من أشرت به لكي يمتنع ، لأن المشورة الأولى أمانة مرجحة بمصلحة الجمهور ، فالواجب أن أعين لها ولا أعين عليها .

فإن بليت بالفاضل الذي أشرت به يستشيرني فوجب - بتشديد الجيم - علي أن أعلمه أولاً أنني قد استشرت مسبقاً ، فأشرت به مراعاة لمصلحة لامة ، ثم أشير عليه بأن لا يقبل مراعاة لمصلحة نفسه .

وحينئذ جعلته في خيار عادل معال ، فإن أنس قوة على حمل الأمانة أقدم ليحقق مصلحة الجمهور لأن ذلك علة مشورتي الأولى .

وإن أنس من نفسه عجزاً وعلم من غيب نفسه ما لا يعلمه الناس من علنه تأخر عن حمل الأمانة ليحقق مصلحة نفسه ، لأن ذلك علة مشورتي الثانية .

وفي مدخل حديث أساذنا الغزالي عن الغناء ذكر شائعات

الأحاديث الضعيفة وخطرها على الأمة .
 وكل ما قاله حق ، فهي خطيرة مردية لو كان ديننا مبنيًا عليها .
 وكان الوعي بها ابن هذه اللحظة .
 ولكن عمار المحاريب في جوف الليل منذ عهد التتوين تنبهوا
 لخطرها فأصلوا للحكم فيها . وأناروا المعالم لتمييزها . وكانت
 جهودهم في تدوين الأحكام واستنباطها قائمة على نص صحيح يؤخذ
 به . وباطل يرد . وضعيف لم تقم شواهد صحته بعد ! !
 وباب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً لأمله في تحقيق أحاديث بأعيانها ،
 وتحقيق أحكام بأعيانها لا دليل لها إلا الحديث الضعيف ! !
 أما إطلاق عموم الخطورة . وأنها لا تزال في لبس منها : فدفع
 للحق بالراح ، وإلغاء للوجود المعتبر لعنول القرون السالفة .
 على أن الشيخ انتقل من الإيقاع الصاخب لجدل الحديث
 الضعيف ليعكر به هدوء الحديث الصحيح إذا كان من خبر الواحدة
 فقال حفظه الله : لو يرجع قبل ذلك إلى انتشار مقولة لم يكن لها رواج
 بين الفقهاء القدامى . وهي أن حديث الأحاد يفيد اليقين العلمي الذي
 يفيد المتواتر ! !

إن الحديث الصحيح له وزنه . والعمل به في فروع الشريعة له
 مساع وقبول . وتركه لأدلة أقوى منه أمر مأنوس بين فقهاءنا . أما
 الزعم بأنه يفيد اليقين كالأخبار المتواترة فهي مجازفة مرفوضة .
 وما قال لم أحد المتكلمين بأن خبر الواحد يفيد اليقين .

المدرس وهو رجل واحد يؤمن على التعليم . وإن السفير وهو رجل
 واحد يؤتمن على أخبار دولته . وإن الصحافي في الحديث الذي ينقله
 يؤتمن على ما يذكره . إلخ .
 قلت : إن العنعنات التي تنقل بها المرويات ليست مثل ما ذكرت
 من وقائع ! .
 وإذا فرضنا جدلاً أنها مثلها من كل وجه فإن اليقين لا
 يستفاد من هذه الوقائع . فإن المدرس قد يخطئ فيصح نفسه . أو
 يصح له غيره ! .
 والسفير ترقبه دولته وقد تراجع فيما بلغ . وكذلك الأحاديث
 الصحافية .. إن ما يحفظها من قرائن النشر والإقرار أو الرد يجعل
 الثقة بها أقرب .
 ونحن مع تحري عدالة الشاهد لا نكتفي بشاهد واحد . وربما
 طلبنا أربعة شهداء حتى نطمئن إلى صدق الخبر . والشاهدان أو
 الأربعة ينشئون ظناً راجحاً . ولا ينشئون يقيناً ثابتاً .
 بيد أن حماية المجتمع لا تتم إلا بهذا الأسلوب . أسلوب قبول
 الظن الراجح ! .

وهو ما قامت عليه الشرائع والقوانين في دنيا الناس .
 وذلك كله غير بناء العقائد في النفوس . وإقامة الأمم عليها .
 وعلى أية حال فإن الإسلام تقوم عقائده على المتواتر النقلي
 والثابت العقلي . ولا عقيدة لدينا تقوم على خبر واحد . أو تخمين فكر .

ثم يجيء دور التشريع في تحديد مسار الأمة العام ، ومسالك الأفراد الخاصة ، وعندنا في هذا من النصوص ما هو قطعي الثبوت ظني الدلالة ، وما هو ظني الثبوت قطعي الدلالة ! ، واستفادة الأحكام من مصادرها لها علم خاص بها ، ولها رجال ثقات ، وعلى العامة أن تسمع وتطيع .

وقد رأيت في هذه الأيام من يسمي نفسه أمير جماعة ، والجهد الذي ينصب عرقاً وهو يقوم به هو إشاعة النقاب بين النساء ، أو إشاعة الجلباب بين الرجال ، أو تحريم الذهب على النساء والرجال جميعاً ، أو ترك شعر اللحية ينمو فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله !!! (١٩) .

قال أبو عبد الرحمن : في كلام الشيخ قضايا من المسائل الأمهات التي انحنى وتقوس في تحقيقها الشيوخ المعمون ذوو الذكاء والذكاء ، فردها - وفقه الله - بأسطر ذات أسلوب صحفي ، وطالما حذرني حملة العلم من شيوخ الأزهرين - كشيخ البحيري رحمه الله - عن كلام أهل الجرائد .

لأن الذي يهم كاتب الجرائد الإيقاع الأدبي ، وتزيين الدعوى مع العجز عن البرهان ، أو الشح به ، أو التسامح فيه .

وحسبي هاهنا أن أقوم لأستاذنا الغوالي البرهان على أن الخبر الآحاد الصحيح حجة قاطعة .

وليس ذلك لجرد أنه خبر آحاد ، بل لأن موضوعه دين تكفل الله بحفظه .

فهو حجة قاطعة ما دام موضوعه الرواية المتصلة الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

فهو حجة قاطعة لغيره لا لذاته .

وبيان ذلك : أنه منذ فجر البشرية والرسول والشرايع تتعاقب ، وتكون فترة يضع فيها الشرع ، أو يلتبس فيبعث الله رسولا يبعث لهم الملة ، ويجدد لهم الشريعة .

وملة الرسل واحدة ، وشرايعهم مختلفة .

قال أبو عبد الرحمن : ولم يرد قط أن الله تكفل بحفظ شريعة ما قبل شريعة محمد ﷺ .

لم يرد بهذا نص ، ولم يقل به أحد ، بل ورد النص عن أهل الكتاب : أنهم استحفظوا كتاب الله فضيعوه ، فلم يضمن حفظه لهم .

أما القرآن فقد تكفل الله بحفظه بالنص الشرعي .

ودعوى أمة محمد ﷺ اليوم : أن دين الإسلام محفوظ لم يضع منه حرف واحد ، وأنه متميز لم يلتبس بغيره ألبتة .

ولكل من شاء من عشاق الحقيقة أن يحفل بما شاء من مناهج التوثيق التاريخي وضروب الاستدلال العلمي ليحتج بها ديننا الذي ورثناه عن رسول الله ﷺ .

فليست هذه السطور بحاجة لخائفي السقف في الملة أو النحلة .

وإنما هي مخاطبة لعقول ووجدان أبناء ملتنا وأهل قبلتنا . أن لا يستغفروهم الإرهاب الفكري الحديث فيسوروا بين الدين الإسلامي ونصوص الشعر والتاريخ والمخطوطات إذا فحصوهن بقواعد التوثيق التاريخي .

بل عليهم أن يعلموا بأن الدين محفوظ قطعاً تكفل بحفظه من شرعه ونزله .

فهم يستخدمون قواعد التوثيق ليكتشفوا تدبير الله الكوني الذي جعله ضماناً لحفظ شرعه خلال خمسة عشر قرناً وإلى أن تقوم الساعة .

وليس غرضهم أن يعلموا - بقواعدهم - هل الشرع محفوظ أم غير محفوظ ؟ .

ولست أقول : إن نصوص الأدب والتاريخ تصمد لقواعد التوثيق أكثر مما تصمد نصوص الشرع .

معاذ الله أن أقول ذلك . بل الواقع أن نصوص الشرع غربلت بأصليب وأمتن قواعد التوثيق مما لا يحتمله أي فن من فنون المعارف البشرية .

غاية ما هنالك أن قواعد الفكر البشري في التوثيق ليست هي التي حفظت الدين عند تحمل الأجيال له ، وإنما شهد تطبيقها على أن الدين محفوظ .

أما حفظ الشرع فقد تم بظواهر من تدبير الله الكوني لا حيلة

لأحد في تبديل سنتها . وتلك الظواهر مفهومة من الإسلام بالضرورة ومشهودة في الواقع الحسي بعيان لا غش عليه .

قال أبو عبد الرحمن : ولا يخلو أي عصر بلغ فيه مجد المسلمين إلى الذروة من أهل مجون فكري يتظرفون بالاستهزاء والنقد لرمز من علماء المسلمين وقادتهم أو يتندرون بمسألة من الأمهات .

وربما نال بعض ذوي المجون شهرة شعبية عند عامة الدعاة وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين .

تكون الشهرة والشعبية إما لفرط ذكائهم المعطل من الزكاء ، وإما لجراتهم على دين الله ومكايدهم لذوي الحل والعقد وتقوهم بما يبيع الدم من شبهات ليست فكراً ولكنها ظنون أطفال ووساوس شياطين .

وإن أجري فيهم حكم الله زادت شعبيتهم ، وحسبوا من ضحايا الأفكار ، ولهذا لا تخصى الدراسات العصرية عن الأذكاء ذوي الشهرة الشعبية التي تجنح إلى الإعجاب بهم ووزن وترجيح وساوسهم ، وهي توضع في معادلة مع دين الله والفكر الذكي الزكي .

ولعل أظهر نموذج لذلك الدراسات العصرية المتسلمة لدراسات الأفرنج من غير أبناء الملة والنحلة عن أبي العلاء المعري ، والحلاج ، وابن عربي .

وأبو العلاء مثلاً مفكر ذو مساحة شعبية شاسعة لأنه نقد الجهاد ، وهذا يخدم الدعوة اليوم التي يعجز رجالها عن محاربة صواريخ

روسيا وغواصات أمريكا .

ولأنه نقد الأديان وهذا يخدم دعاة التقارب ، وحقوق الإنسان ، وتوحيد وثنيات الشرق وأديانه معاً باسم الجنس أو الرقعة لأن الأديان أنتجت حروباً .

ولأنه جعل العقل معياراً لنقد النبوة وورثة نورها .

وهذا دعوة لحرية الفكر ، ونقد لعلماء المسلمين الذين ظلوا مدى الدهر يؤمنون بصحة دينهم وعصمته .

ولأنه ، ولأنه ، ولأنه ، مما لا يحصى العد حتى ردة أبي العلاء في كل أمر ك تقليد رصبت به

حتى مقالك ربي واحد أحد

اعتبروها تحفة فكرية .

وقد سار قدر الله الكوني بأن يبسط الشهرة الدنيوية الشعبية لأمثال هؤلاء .

ومقياس الإعجاب عند الدهماء أنهم يشاركون ذوي الذكاء والزكاء في تقديس العقل وحرية الفكر .

وذو المساحة الشعبية يتحدثون باسم العقل والحرية . والخيط الحريري الفارق بينهما أن ذوي الذكاء والزكاء يؤمنون بالعقل البشري ، ويؤمنون إيماناً أشد بأنه نصير الدين ، لأنه شرط التكليف وحجة الله على خلقه في الإيمان بالله وشرعه . وحجة الله على خلقه في فهم الأحكام وتسييرها

ولكنهم لا يرون كل معقول دعية ثمامة بن أشرس أو أبو العلاء أو طه حسين أو سارتر يكون عقلاً ، بل الفكر عمل عقلي يكون معقولاً تارة ، ويكون خيلاً أو وهماً تارة .

ولكنهم أيضاً يرون العقل مخلوقاً لله عبداً له قضاء وقدرًا وملكاً وخلقاً ، فلا بد من عبوديته لله شرعاً .

والدين شرع الله وتنزيله ونظامه لسلوك العقول والقلوب والجوارح . والعقل خلق الله لفهم الأشياء وتمييزها والحكم فيها .

ولهذا لا يمكن أن يكون ما أنتجه التأمل من فكر معقولاً وهو يعارض شرعاً ثابتاً .

إن الحق لا ينقض الحق ، والبرهان لا يعارض برهاناً .

وشرع الله هداية لخلق الله ، والعقل من خلق الله .

ومنهج ذوي الذكاء والزكاء أن المثال الشرعي يسبق التقعيد الفكري ، وأن القاعدة الشرعية تؤخذ من نصوص الشرع الصحيحة بتوسط العقل وملاحن اللغة .

وأما ذوو الغلو الذين يأبون تعبد العقل لربه ، واستعصامه بهداية شرعه فيتخذون القاعدة من تأملهم مما يدعونه معقولاً ، ويقضون به على شرع الله . وهذا هو تأليه العقل ، وهذا هو الرأي المذموم .

والمنهج الرباني أن الشرع يمتحن ثبوته نقلاً ومراده مدلولاً بالاجتهاد الحسي والعقلي .

وأما عصمته وصدقته وعدالته فيقاس عقلي فكيف يمتحن

بالاجتهاد ١٩ .

ولهذا يطرد الفكر ، فيمتحن الفكر بشرع الله الصحيح ، وبفطرة العقل كالمبادئ الأولية ليعلم هل الفكر والتأمل الذي أنتجه عقل من العقول معقول ، أو خيال ، أو وهم مرتكس في الجهل أو الهوى وتعبد التضليل .

وهكذا رأيت شيخنا الغزالي في مسألة القضاء والقدر يتكلم بكلام نفيس يوزن بمثاقيل الذهب .

فلما جاء عند التطبيق ، واستعراض النصوص الصحيحة الواردة في القضاء والقدر ردّها بحرية إرادية لا ضرورة فكرية ، لأن الضرورة تقضي بصورها من مشكاة النبوة المطهرة .

وإنما ردّها بفهم زعمه مسبقاً أنه معقول .

ولو طرد المعادلة بين نصوص القرآن التي قعد منها مذهبه في القدر وبين النصوص الصحيحة التي ردّها بدعوى قضائها بالجبر لعلم أن دين الله لا يتعارض ، وأن التعارض في أفهام البشر وليس في دين خالق البشر وأفهامهم .

لهذا أقول إن تأصيلات شيخنا الغزالي في القضاء والقدر نفيسة جداً ، ولكن رده للنصوص الثابتة عن الله ثبوت الشمس تطبيق خاطئ بون مستوى فكر شيخنا وسمعه العلمية .

ومعقول تلك النصوص ومفهومها غير ما فهمه الشيخ .

يقول شيخنا الغزالي عن اللوح المحفوظ : «والناس كلهم كافرهم

ومنهم ، طللهم وشيخهم بذالون ما سطر لهم في هذا الكتاب .

بل المخلوقات من جماد وحيوان تتحرك في دائرة هذا العلم السابق الصديق ، قال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ [سورة الحديد / ٢٢] .

وقد أمر الله المؤمنين أن يستريحوا لهذا العلم القديم ، ويستكينوا لحقيقته ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [سورة التوبة / ٥١] .

إن هذا العلم الأعلى يتناول ملكوتاً نشغل نحن البشر حيزاً صغيراً منه ، وما ندري شيئاً عن أماده ! ! .

ما لنا والمريخ أو المشتري أو لغيرهما من العوالم ؟ ! .

كما يتناول في حياتنا على ظهر الأرض نوعين من الأعمال : نوعاً لا ندري كيف بدأ ، ولا أين يتجه ، ولا متى يتوقف ؟

وهذا النوع من الأعمال وإن مس حياتنا من قريب أو بعيد فلسنا مسئولين عنه ، ولا مؤاخنين بخيره أو شره ! .

إن الأقدار حولنا تصنع الكثير مما نفهم وما لا نفهم ، وهذا الكثير يتحول إلى أسئلة عملية نجيب بسلوكنا ، ترى أنصبر في البأساء والضراء ؟ .

ترى أنشكر في النعماء والسرء ؟

إن البشر جنس محكوم ومختار في آن واحد ، إنه محكوم

بالإمكانات التي في كيانه والملابسات التي من حوله .

ومختار في موقفه من هذه وتلك .

ونريد أن نقول مصارحين وحاسمين : إننا لن نسأل أبداً عما لا إرادة لنا فيه ، ولكننا نسأل يقيناً عما نملك فيه حرية الاختيار .

وبعض الناس يحلو لهم الخلط بين الأمرين أحياناً ، وهذا لون من الجدل المحقور ، والمشاقة لله ورسوله .

قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام نفيس يطالب الشيخ بالتزامه .

قال أبو عبد الرحمن : وأعود حيث بدأت فأقول : إن ضرورة وجود أهل الصحوة مقدر بضرورة فقههم المعتر الذي يواجه تحديات العصر بفهم لمрад الله الشرعي .

ولا يضير فق الصحوة أن يواجه بجدل بشري غير شرعي كبعض نقذات الشيخ الغزالي .

ويضير الأمة أن يمينوا عليها دينها بتفقه قاصر الأداة ، لجهل بالواقع ، وقصور أداة في تحصيل الحكم الذي ينطبق على الواقع .

وليس من الفقه في شيء تحزيب الأمة وتجزئتها ، والمبادرة بتفسيق المقصرين ، واستباحة أعراضهم بأعيانهم في المجالس .

قال أبو عبد الرحمن : كنت في لمة من شباب ينتمون إلى الصحوة المباركة ، وهم فيما أحسب من أهل الخير ولا أذكر على الله أحداً .

قال أبو عبد الرحمن : وكنت في حديث علمي وبدود مع شاب ذي علم وفضل ، وأمن ذي علم وفضل .

بيد أن شاباً آخر ممن يكثر قول «هلك الناس» جرأنا إلى حديث مشترك لتعم الفائدة . ودهشت لما رأيت الحديث المشترك استباحة أعراض الغافلين ، ونشر مثالب الناس وعيوبهم . من ذلك الحديث المشترك المخزي لقائله : أن فلاناً القاسق طردته الجامعة .

وأن فلاناً الصالح منحته الجامعة درجة الماجستير أو الدكتوراه . وأن فلاناً المذيع - الله يرحم حاله - فاسق حليق يغازل غير نظيف الفكر .

قال أبو عبد الرحمن : فأحسست أن الأرض تدور بي ، وتقدمت للجمع الحاشد - بحكم فارق السن ، وفضل تقدير لي عندهم - بأن هذا الثلب لا يجوز ، وبأن الواجب مناصحة المستباح عرضه سراً ، فإن كان مجاهراً فيثبت عليه فسقه ويرفع أمره في ظل حكومة مباركة ذات قضاء ونظام .

وعظمت مصيبتني عندما رد علي كبير من القوم فاضل نو علم ودين : بأن المجاهر بالفسق يستباح عرضه ٢٩ .

وكنت في حالة غضب ، ومع الغضب قد تحيف الحجة ، ويتحول النقاش من طلب للحق إلى انتصار للرأي .

فاستأنفت من مواصلة الجلسة غير المباركة غير أسف ، ولن أعود - إن شاء الله - مثلها ولو ظننت في عاقبتها الخير .

ولكنني أبين لجمهور المهتم خطأ ذلك الاجتهاد الذي استبج به

أخطر أمر ، وهو أعراض الغافلين ، وهذا البيان من وجوه :
 أولها : أن حكم البراءة العقلية استصحاب حال المسلم في
 العدالة حتى يقوم برهان على خلافها .
 وثانيها : أن رفع عدالة المسلم لا تكون إلا بحكم قضاء ، ولا
 تكون بالغيبة في المجالس .

وتكون بفتوى لغير معين ، وإنما هي حكم في الصفة .
 وثالثها : ما يكتبه الجارحون عن كذب الرواة وفسقهم إنما هو
 من باب النصيحة لأجل الحذر في الرواية عن الكذابين .
 ولهذا لا يجوز التوسع في الجرح لغير حاجة .
 وكل مجروح في حياته يجوز له أن يرفع حاجه شرعاً إذا كان
 يرى نفسه برئاً .

ورابعها : الأصل شرعاً حرمة اعتياد المسلم بحق أو بباطل ،
 والأمر غيبة محرمة إن لم تكن غيبة ونهتاً .
 وهذا أصل شرعي تستصحبه ولا تقبل ما يعارضه إلا ببرهان
 يستثني من الأصل تخصيصاً أو تقييداً .
 وهذا الأصل ثابت بنصوص حرمت الغيبة ، وزادت التحريم
 استنباعاً

قال تعالى ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ
 لَحْمَ أَخِيهِ مَذْجًا كَرَهُهُ ﴾ [سورة المجازات / ١٢] .
 « صح قول رسول الله ﷺ : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره » .

قيل : رأيت إذا كان في أخي ما أقول ؟
 قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتك ، وإن لم يكن فقد بهته » .
 وخامسها : أن الغافل إذا كان يمارس فسقاً من شرب خمر ،
 أو اقتراف كبيرة - سواء ثبت ذلك بحكم قضائي ، أم كان ذلك معلوماً
 عند أفراد - فلا أعلم استثناءً شرعياً يبيح التلذذ بعرضه في
 المجالس .

بل الواقع في عرضه قاذف حتى يثبت ، ثم إن ذلك التلذذ شناعة ،
 وتركية للنفس ، وجبن عن عزائم الحسنة .
 وسادسها : أن جرح الرواة أو الشهود من استثناءات الشريعة .
 قائماً جرح الشهود فيكون قضاء لا تطرقاً في المجالس .
 وأما جرح الرواة فحينما يكون ذلك المذيع المتهم بالفسق
 راوياً للحديث ، أو يكون في منصب حسبة يبلغ حكم الله الشرعي
 فتوى أو قضاء .

وتو الحسبة في الصورتين الأخيرتين لا يجرح إلا بقضاء .
 وسابعها : لك من استثناءات الشريعة أن تخبر بملكك عن قيب
 رديء لشخص ما حال المشاورة .
 والمشورة مسارة للمستشير ، وليست قضية يستلذ بها في
 المجالس .

ولا تقتضي المشورة تفصيل العيوب ، بل يكفي أن يقول : لا
 أشير عليك فلان ، أو اجتنب فلان .

وثالثها : من عُرف بالمجاهرة بالفسق فالنصيحة للمسلمين أن يُردع بمرافعته في ظل حكومة راشدة ، أو القيام بالحسبة حسب درجات القدرة حال مواجهة دون استباحة اغتيابه .

وتحذير المجاهر بالفسق لا يكون بالتظرف بعرضه ، وإنما يقال : لا تجالسوا فلاناً ، أو لا تأخذوا عنه العلم بدون تعليل .

وإنما يقول ذلك من يعلم أن مشورته تُقبل منه .
وتاسعها : لا يتصور وجود مجاهر بالفسق في ظل حكومة إسلامية وحينئذ يكون الإنكار حسب القدرة .

ومن يستبجح اليوم أعراض المسلمين في مجالسه الخاصة بدعوى المجاهرة بالفسق فإنما يحيف على نظام الأمة وحكومتها ، إذ لا يزال علن الأمة معصوماً عن التواطئ على باطل .

وإذا عدمت الحسبة في الأمة أو كانت صورية فالغيبة حينئذ فعل محرم من عاجز ، والجرأة بالحسبة خير من الجرأ بالغيبة .
وعاشرها : لا يصح أي حديث في استباحة عرض المجاهر بالمعصية .

والأحاديث غير الصحيحة في هذا المجال لا يُتقوّى بها ، لأنها تعارض أصولاً .

وحادي عشرها : أن للإمام الشوكاني - رحمه الله - رسالة نفيسة بعنوان «رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة» .

وقد دفع في هذه الرسالة المباركة التعلل بمثل قوله ﷺ

«بنس أخو العشيرة» .

قال أبو عبد الرحمن : وأضيف إلى ما ذكره الشوكاني أن خبر الرسول ﷺ وحي لا يُطلب على صدقه في ذاته برهان ، وإنما يطلب البرهان على ثبوت نصه ومدلوله عنه عليه الصلاة والسلام .

وأما إخبارنا بمساوي الناس في غياهم فغيبية محرمة علينا ، وإخبار منا لا يقبل إلا بإثبات قضائي وإلا كنا مغتابين قاذفين .

وأيضاً فقول رسول الله ﷺ عن شخص إنما هو فعل منه عليه الصلاة والسلام .

والمنع من الغيبة قول منه ﷺ ألزم به الناس كافة .

والخصوصية تدخل في فعله ولا تدخل في قوله .

وثاني عشرها : أن عظم جرح السلف لكذبة الرواة وفسادهم ليس غيبة ، ولكن مواجهة لهم بكتب منشورة لا يستطيع المجروحون المكابرة بدفع ما وجه إليهم من كذب أو وهم .

ألا فليثق الله مغتابو من أسوأ الظن بحاله أن يكون مقصراً ، فإنه لا حق لهم في اغتيابهم ، ولا عصمة لهم بتركهم أنفسهم .

وكثير من الاغتياب وجدناه بهتاً .

أعلم شباباً أنهم بالحدثاء في شكل الشعر ، فاستبجح عرضه لذلك مع أنه من المواظبين على صلاة الفجر أثقل الصلوات على أبناء العصر ، ومن نوي الكسب الحلال ، ومن البرورة بالديه .. لازم والدته وهي طريحة المرض ربحاً من الرمن حتى لقيت ربها راضية عن ابنها .

هكذا أحسبه والله حسيبه .

وثالث عشرها : أن أولئك الوالغين في الأعراض كما سهلوا لأنفسهم الغيبة المحرمة توسعوا في الحكم بالتفسيق تعميماً ، فيقول أحدهم مثلاً مفتاباً بغير حق : فلان فاسق .

فتسأل عن فسقه فتجده سماعه بعض الغناء ، أو توقفه في بعض السائل .

قال أبو عبد الرحمن : من ارتكب كبيرة كاللواط فلا شك في فسقه . ومن سمع بعض الغناء عن اجتهاد خاطئ ، أو توقف في مسألة دليلها غير قاطع من العقيدة أو الشريعة فهذا مجتهد قد يكون عند الله مصيباً ، وقد يكون مخطئاً ، فلا يحل تفسيقه ، ولا يحل له إن كان من أهل العلم ترك اجتهاده لاجتهاد أو تقليد غيره .

قال أبو عبد الرحمن : والطموح إلى فقه لأهل الصحوة معتبر يواجه تحديات العصر طموح لا حد له ، وسبب ذلك أن طالب العلم اليوم قادر على الاختيار وإن كان من سلف أقدر منه على تقرير المسألة واستحضار دلالتها ، وذلك لوجهين .

أولهما : أن من صدق في تحري الحق دينونة لله سدد ، ولهذا كان أهل الآثار أكثر تسديداً من أهل الكلام وأصدق عبادة ، لأنهم طوعوا عقولهم للعبودية لله والتلقي عنه والتسليم له .

وثانيهما : أن طالب العلم قد لا يختار اجتهاد عالم بعينه في مسألة معينة ، وإن كان أقل قدرة على اجتاد ذلك الاجتهاد الذي عليه

ذلك الإمام نقلاً وعقلاً .

والسر في ذلك أنه لن يرد اجتهاد الإمام إلا بعد مشاركته للإمام في فهم ما أورده الإمام نفسه من حجج .

أما من رد اجتهاداً ولم يطلع على جميع أدلته ويشارك في فهمها جميعاً فليس هو بمختار ، وإنما هو متحكم .

إذن القدرة على فهم الدليل المجتبى وفهم مدى تأثيره في القضية هو المسوغ لطالبة المجتهد باتباع الدليل .

قال أبو عبد الرحمن : وفيه تفقه لبعض المتنسكين يناقي واقعية الفقه الرباني الذي لا يتحقق إلا بإصحاب العلم العمل ، فقد صرح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه وزملاءه لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموهن ويعملوا بهن .

فأما العمل بعد العلم مباشرة ، فذلك سنة الله الشرعية ، لأن كل لحظة في حياة المكلف فهي لله لتحقيق معنى الاستخلاف على الأرض وتحقيق معنى العبودية لله .

وأما العلم فقد كان ابن مسعود وزملاءه أهل اللغة العربية الفصحى سليقة ، وهم أهل الفطرة ، وهم المعانيون المشاهدون لأحداث التنزيل ، ورسول الله ﷺ بينهم يعلمهم ، ويحييهم عما سألوا عنه ، ويحسم اختلافهم .

وكان من سمع من رسول الله ﷺ كلمة فهو حاضراً أخذ برصية

رسول الله ﷺ في تبليغ الشاهد للغائب .

ولما قبض رسول الله ﷺ كان الدين بينهم حاضراً كاملاً ، وقد كملت لهم أداة الاجتهاد بحضور شواهدهم من الشرع ، وتكون لغة الشرع سجية فيهم ، وليست مما يتعلمونه بنحو سبويه ، وتصريف ابن جني ، وكتب عبد القاهر .

وإنما يتفاوت اجتهادهم بتفاوت مواهبهم الفكرية .

أما الشاب المسلم المتحمس لدين ربه في هذه الصحوة الإسلامية المباركة فلا يحل له أن ينشئ اجتهاداً عند حفظه لكل عشر آيات ، وإنما يسأل أهل الذكر أحياناً وأمواتاً عن معنى الآيات ، ويرجع ما يظهر له بالدليل ، ولا يحدث قولاً جديداً لم يقل به السلف ، فإذا مهر في نصوص الشرع حفظاً ودراسة ، وحصل بتعب القراءة والاكْتِسَاب ما حصله ابن مسعود وملاؤه سليقة ، واجتهد في أصول فقهية وفكرية يلتزم بها ولا يتناقض في بعض التطبيقات فيخرج عنها ، فحينئذ لا يحل له إلا الاختيار المطلق واتباع الدليل ، واجتهاد المسلم المخلص لدين ربه المحصل لأنواع الاجتهاد مضمون له التسديد ، وأن يلقي ربه راضياً مرضياً ، فقد أمرنا ربنا بالتقوى ، وضمن لنا أن يعطينا ، وأن يهدينا .

وليس من الدين في شيء أن ينكلم المتنكس بغير علم ثم يقول : أمرنا المصطفى ﷺ أن نبليغ عنه ولو آية ١١ .

فإنما هذا للصحابة وتلاميذهم يبلغون النص بالرواية ، وأما الآن فقد نكس العلم رواية - وحررت الكتب - وعرفت التوأمين المعتمدة أو

المعتمد بعض ما فيها ، وبقي التعليم للدراسة فقهاً ونقداً ، وذلك هو تبليغ المعنى وحجته ، ولا يقوم بذلك إلا أهل العلم والأداة .

ومن التنكس الذي أباه الفقه الرياني صدح المجتهدين بما لا يمكن أن يصح عنهم من غلو في التنكس يرده الشرع ، فإنه يرد الكلام أحياناً عن علماء المسلمين ومجتهديهم باسم التشويق إلى سيرهم ، وهو في الواقع قرهيد في سيرتهم ، وترغيب عن التاريخ الإسلامي بآجمعه .

لا سيما حينما تأتي المشاركة من الغافلين في وقت مبارك كشهر رمضان ، فيكون الحديث عن الإسلام وأهله مظاهرة شعبية ١١ .

لايت هذه الخواطر بيالي وأنا أقرأ هذه العناوين البارزة ١١ .

«الإمام أبو حنيفة النعمان ختم القرآن سبعة آلاف مرة ١١» .

«كان يقرأ القرآن ستين مرة في رمضان» .

ويغير عنوان : «ظل يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد طيلة أربعين عاماً ١١» .

قال أبو عبد الرحمن : ما هذا ١٩ .

إن أيا حنيفة عندما خير مما يقولون ، فهو إمام من فقهاء المسلمين نترحم عليه ، ونرجو له الخير كإخوانه من أهل القبلة .

وأما ما ذكروه من أكاذيب تصد الأمة عن تاريخها فمرود بأمرين ضروريين .

أولهما : الإحالة الكوشية ، فمحال محال أن يختم أبو حنيفة

القرآن في اليوم مرتين ، لأن الوقت لا يسمح بذلك والزمان هو الزمان ،
والجهد البشري هو الجهد البشري ، ولأن لأبي حنيفة شغلاً شرعياً
ودنيوياً وعادياً غير الصلاة .

وثانيهما : الرجحان الشرعي ، فليس من الجبر أن يختم القرآن
مرتين في اليوم - لو كان ذلك ممكناً - .

بل هذا القرآن بلا تعقل منهياً عنه ، والمعتقد في أبي حنيفة أن
يفعل الصحيح الصواب .

ولقد صح في سنن أبي داود عن عبدالله بن عمرو رضي الله
عنهما : أن النبي ﷺ قال له : « اقرأ القرآن في شهر » .

قال : إني أجد قوة .

قال : اقرأ في عشرين .

قال : إني أجد قوة .

قال : اقرأ في خمس عشرة .

قال : إني أجد قوة .

قال : اقرأ في عشر .

قال : إني أجد قوة .

قال : اقرأ في سبع ولا تزيد على ذلك .

وعن عبدالله بن عمرو أنه قال : يا رسول الله : في كم أقرأ القرآن ؟

قال : في شهر .

قال : إني أقوى من ذلك . وتناقصه حتى قال : أقرأه في سبع .

قال : إن أقوى من ذلك .

قال : لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث .

وعن عبدالله بن عمرو قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ القرآن

في شهر » .

قال : إن بي قوة .

قال : اقرأه في ثلاث .

وأُسند أبو محمد ابن حزم إلى ابن مسعود رضي الله عنه قال : من

قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز .

قال أبو عبد الرحمن : وإن صح النهي من رسول الله ﷺ فلا

مَعُول على فعل أحد بعده ، فقله عليه الصلاة والسلام وحي معصوم .

وفعل غيره اجتهد غير معصوم .

فإن قال قائل : من ختم في أقل من ثلاث فاته أجر الترتيل وبقي

له أجر التلاوة لكل حرف أجره : فجواب ذلك : أن لكل حرف أجره لأنه

بذلك صح النص ، ولكن لا يتعين للحرف أجره إلا إذا أجازهُ الشرع ،

ومن ختم في أقل من ثلاث فقد فعل منهياً عنه ، فلا يحصل له أجر

التلاوة إلا إذا كان معذوراً بجهل الحكم ، وبعد تبين الحكم فلا تجوز

الرغبة عن سنة أبي القاسم عليه الصلاة والسلام .

وباليت شعري كيف يكون الختم في أقل من ثلاث عملاً مشروعاً

يحصل به الآخر وقد نهى عنه الشرع .

ثم هو بدائي مقاصد أخرى صح بها النص كالترتيل ، والتدبر ،

وتزيين القرآن بالأصوات ، والتعني بالقرآن .

قال أبو عبد الرحمن : ومن فقه المتنسكين بلا علم بطاقة التصوف ، فقد وجدت وريقات وبطاقات في حجم راح الكف تتضمن جدلاً لمحاسبة النفس عندما يخلو الإنسان إلى فراشه :

هل غصبت بصرك عما حرم الله ؟

هل كنت ياراً بوالديك ؟

هل سألت الله الجنة ؟

هل حفظت شيئاً من القرآن ؟

هل عزمتم على ترك رفقاء السوء ؟

قال أبو عبد الرحمن : محاسبة النفس مطلب ضروري ، وهو مقتضى النص الشرعي ومقتضى العقل والحزم .

ومن أوجه المحاسبة الإكثار من الصلوات لأنها تنهي عن الفحشاء ، واستحضار النية في عمل كل خير عبادي بحث أو عادي يتوسل به إلى المعونة على طاعة الله ، والإكثار من الحسنات لأن الحسنات يتولد عنها حسنة ، ولأن الحسان تشغل عن المعاصي .

وعلى الإنسان بكل وسيلة أن يتذكر ما عزم على فعله من خير ، وما عزم على تركه من شر حتى لا ينسى .

أما تنظيم ذلك بطاقة توزع على الناس ، ويؤشر على حقولها بعلامة مسح ، أو بعلامة الإلغاء فذلك تشريع وسيلة جديدة ، والشرع لله ، ولا أحب وسائر أهل التصوف والله المستعان .

وأعند الخلق لله سبحانه بعد رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم ما أثر عنهم قط أنهم اشترعوا وسيلة عامة لمحاسبة النفس ، ويسعنا ما وسعهم .

قال أبو عبد الرحمن : من ميزة شباب هذه الصحوة المباركة أنهم يعلّون منار الحديث الشريف ، ويحتكمون إلى النص ، ويفتشون عن العرف والمألوف والعادة في تعدد العوام ، ويبحثون عن أصله من النص أو الاجتهاد .

ولا يقلون الحكم إلا بالحجة والبرهان .

إنهم شباب ما بين الخامسة عشرة إلى العشرين .. يحفظون كتاب الله بترتيل خلاب يثب بالقلوب ما كنت أعده في عصور البداوة والعامية ، ويتدبر ووعي بمعانيه ومواعظه وأشواقه بحيث يكون ويستبكون مما لم أعده في عهد البلادة .

وكثرت أشرطة القراء من الشباب المؤثرين ، وأصبحت محلات تسجيلات الأشرطة نعيمًا للقلوب وربيعاً ، وكانت قبل ذلك عفنًا ورأنا يردح في عطنه كل معسوخ .

فالحمد لله الذي فاء بنا إلى ما يسر ، ونسأله الثبات وحسن الخاتمة . وهم شباب يتدارسون الحديث ويحفظونه ويتفنون نضرة الوجوه من جرأته .

وكنتم في عصور الرماد أسمع وأقرأ للقصيمي قوله : « إن وجود محدث (أي صاحب حديث رسول الله ﷺ) في البلاد العربية وفي

الشرق نبأ أخطر وأدهى وأمرًا من نبأ كارثة هيروشيما» !! .

ويقدر ما فرحت بهذه الصحوة - وقد قبضها الله تلقائياً بمحض القدرة الإلهية والعناية الربانية لإحباط كل عفن اغتصبت له مشاعر أمتنا في عصور الرماد - فإنتني أرى وشياً قليلاً يعلق بها .

وسأعمل مطرقتي في كل مناسبة في تحطيم هذا الوشب كلما سنحت الفرصة لعل الله يتم فرحتي بأن أرى الصحوة هادية مهدية تشرئب إليها أعناق المقصرين والمسوفين .

فإن هذا الوشب - والله - من أعظم همومي في نعيم الكهولة كما كان العفن عذاباتي في عهود الرماد .

وبيني اليوم وبين الصحوة هُمان :

أحدهما : الخوف من أن تكون الصحوة بلا فقه !! .

وثانيهما : الخوف من الاستمرار فيتكلف التلاوة والغفلة عن مغالبة النفس عن التفجيع بالتياكي .

فعن الهم الأول : فاجأني أحد المسوفين للأشرطة النافعة من بعض البلاد الإسلامية العزيزة على نفوسنا بسؤال في المسجد بعد ظهر الخميس الموافق ٢٧ / ٥ / ١٤٠٩ هـ عن التسبيح بالحصى والنوى فأجبت بالمنع على أنه مستفت .

فإذا بي أفاجأ بأن المستفتي إنما يسأل ليفتي . وكما طالبت بمبنى اجتهاده وتأصيله اعتذر بأنه ليس من أهل العلم .

ومع هذا يصبر على جواز التسبيح بالحصى والنوى ، ويلج على

المطالبة بنص يحرم ، ويصر على أن الرسول ﷺ أقر المسبحين بالحصى .

وكلما ناقشته بتأصيل جادلني بأنه قرأ الحديث .

لهذا أنبه جميع شباب الصحوة إلى أن حفظ القرآن الكريم وحفظ الحديث والتمسك بمنطوق بعض النصوص لا يغني عن الفقه لفه وأصولاً وفكراً .

وقد أقسم أبو محمد ابن احزم - رحمه الله - بأن المسلمين ما اختلفوا إلا على نص موجود حاضر فمن قائل : إنه منسوخ ، ومن قائل : إنه مخصص ... إلخ .

كما أن أغلب مسائل الفقه في فروع الشريعة يوجد فيها رأي مرجوح أخذ به إمام راجع العلم .

فلا يجوز التمسك بنص بمقابل نصوص أو ضرورات ، ولا يجوز التحيز لرأي إمام بعينه في مسألة خلافية المرجع فيها للتدبر والتفقه .

وفي مسألتنا هذه : فإن من يفضل مراجعة كتب الحديث عن الفقه لفه وفكراً وأصولاً قد يرجع إلى نيل الأوطار مثلاً - وهو مرجع نفيس - فيرى إباحة العد بالحصى والنوى ، ويرى أن ذلك منسوخاً لعدد من الصحابة .

ولكن تحقيق الاجتهاد واستحضار الفقه يمنع من إجازة ذلك .

وأما الهم الثاني : فعن قراء من الشباب حفظت تسجيلات لهم في صلاة التراويح والقيام ، وأدعوا لهم على تظهر الغيب لما فعلوه من تزيين قلوبنا بالقرآن الكريم لحلاوة أصواتهم وجمال ترتيلهم .

وإن تخلص محبتهم في سويداء قلبي ليؤرقني .

إلا أن الإسراف في البكاء وكثرة التكرار لبكاء المصلين لا يستحمد إذا عجز المصلي عن الكتمان ، وغلبته خشية الله ، وتجاوزت به العبرة إلى البكاء والصياح والعيول .

وفي هذه الأجواء ألفت : « خشوع الصحابة رضوان الله عليهم » .
و . التباكي غير المبرور .

قال أبو عبد الرحمن : ولست أشأ المتسكة ، وإنما أتقرب إلى الله بحبهم ، ومنهم تعلمت وتهذبت بعد طول جفاء ، ولهم أقوال عظيمة العبرة في حياتي ، وعندما كنت أخاطب أهل كل فن ومذهب ، وفي خلال أسفاري وعيت من كلامهم النفيس : اتقوا غيظ القلوب وإن كان قلب بهيمة ! ! .

وأعجبتني العبارة لفظاً قبل أن أحققها معنى .

قال أبو عبد الرحمن : ووجدت غيظ القلوب أمراً لا يطاق ، ووجدت أنه من مصادر التعاسة ! .

فإن غظت قلب ذي سلطان يقول ويفعل فقد يكون ذلك الغيظ مصدر تكدير دنيوي معجل إلا أن تبرد ذلك القلب الذي غظته ! ! .

وإن غظت قلب ذي رفق أو جاء يصل الحبل بإذن الله فقد يضيع لك نفعاً دنيوياً إلا أن تسمع أضغاثه .

ولكن الذي يعنيه المتسكة فيما أظن أخطر من ذلك وأهم . وهو غيظ قلب ضعيف مظلوم يدعو فلا يكون بين الله وبين دعوته حصار

وفي دعاء العوام : الله يكفيك الشر ، ودعوة المحتر ! ! .

ومثله غيظ قلب فقير مجذب يصيبك بأفة من آفات العين ، أو تتحمل وزره يوم القيامة لتقصيرك عن مؤاساته .

فمن استضعف خوفاً من دعوته فقد اتقى غيظ القلوب .
ومن كان يؤبه له وأبى إلا أن يجلس حيث انتهى به المجلس خوفاً من كسر خاطر من لا يؤبه له بعوده في مكانه فقد اتقى غيظ القلوب .
ومن ترك مهامسة واحد أو اثنين أو ثلاثة بحضور رابع منقاد عن المجلس قليلاً فقد اتقى غيظ القلوب .

ومن أخذ ضيأً - ولو بالشراء - من صبيان تعبت به فاطلقه في أرض معشبة ، أو عصيفير فأرسله إلى فرع شجرة أو حجر نخلة فقد اتقى غيظ القلوب .

ومن كان جاره أو داخلته فقيراً فقصر في مظهر أهله وولده حتى لا يكسر خاطر جاره وداخلته ، أو زاد في صلة جاره وداخلته ليواسيهم بأهله وولده فقد اتقى غيظ القلوب .

قال أبو عبد الرحمن : وإنما همي أن يكون نسكهم عن فقه شرعي .

وكما يكون فقه بعض المتسكة عن جهل بكون تفقه بعض المتفلسفة عن تعلم ، وبعض هؤلاء المتفلسفة أقرب إلى طنين منطري الأرب من الفلسفة التي يعانيتها نوى العضل الفكرية .

والتنظير الأدبي ظم إذا ركاه الفكر والخبرة ، وهكذا حياء

التحديث في الأدب ، فقبلت الذات العربية المترتبة في حضارة التصور الإسلامي بمعايير جمالية في الشكل والآداء ، ومعايير جمالية وحسية وعقلية تزن وسائل من التعبير الجميل الأرقى لتوسع آفاق التعبير ، ولترشد الذائقة العربية إذا أصابها الملل من التعبير القاموسي المباشر ، أو من محاكاة أو استعارة ما تعيه الذاكرة التراثية من تعبير أدبي .

قال أبو عبد الرحمن : لتكون مع أدباء العالم أسرة واحدة في أحاسيس جمالية مشتركة ، قلنا خصوصيتنا حيث نزن (بمعايير الحق والخير والجمال وأضدادهن) همومنا إن كانت إسلامية بحتة ، أو إنسانية مشتركة .

ولكن نلوة مواقف عن الإسلام والحادثة التي صدرت عن دار الساقى - مع مؤسسات طائفية وعرقية وعلمانية عديدة تعمل في مجال مواقف - لا تريد حادثة أدبية بالمفهوم السابق ! .

ولا تريد حادثة فكرية مشروطة بوجودنا الذاتي إذا كان الهم إسلامياً ، وبقدراتنا ومواهبنا ومثورتنا إذا كان الهم إنسانياً .

إنما تريد حادثة تلغينا وتزعج لنا ^(١٠) ، أن هناك وطنية عالمية لها حقوقها وواجباتها ، وأتينا جزء منها .

قال أبو عبد الرحمن : ثم جرى السياق من عند تلك المؤسسات أننا لن نضمن حقوق الوطنية العالمية وواجباتها إلا بإلغاء حقوقنا وواجباتنا .

(١٠) كما في مغل لدراسة النور والمظلة لعماد الدين .

ومن أحق حقوقنا أن ندين لربنا فيما بيننا بالدين الذي ارتضاه ، وأن نقوم بالدعوة إلى الله ، وأن نسعى إلى تضميد جراح البشرية التي سرق أبناء الأرملة دينها وقوتها بأن نذكرها بالمسح الذي هي فيه وما يصدر عنه من قلق وحرمان ، وأن نتعاون معها في البحث عن الخلاص .

وأهل الإسلام أرحم أهل الأرض بأهل الأرض ، وكل دين سماوي - ما ظل على جوهره لم يشب - يسعى سعيًا حثيثًا لإسعاد البشرية وإنقاذها .

ومن أخص حقوقنا أن يعمل مخالفونا في الملة والنحلة علناً مثل ما نعمل نحن ، لأن ديننا يؤذن به على المنابر لا خفاء في شين منه ، ولا تقيّة في أدائه .

لا يمكن أن يكون المسلم في زي غير مسلم ليتمكن من تضليل الآخرين ، أو ليجعل من ذلك مسوغاً لنشر الإسلام .

وليس في موارد الشريعة ، وليس في ماثور القيادة التاريخية الإسلامية ما يقتضي جمعية سرية ، أو عملاً في الظلام .

فكيف يطلب الحداثيون من المسلم مواطنة عالمية وكل أمره علني بوضوح وغيره يعمل في الخفاء بتضليل ؟ ! .

ومن أخص حقوقنا أن يُترك لنا أبناء جلدتنا من أبناء ملتنا وفطرتنا فلا يزرع نوى دعوى المواطنة العالمية عميلاً بيننا ، ولا يغرر بساذج منا يكون أشد إخلالاً من أعدائنا في تحقيق مآربهم منا ،

ولا يسلط علينا طائفي أو عرقي يفخر بانقسامنا ويجهز على بقيتنا باسم التحديث .

وحينئذ نكون من أهل المواطنة العالمية إن كنا قلة نحاور بحرية ونزاهة علناً ، فلا نقول شيئاً ونريد آخر كما يفعل بقية أهل المواطنة . فإن كنا جماعة وجمهوراً في بلدٍ ملكٍ لجماعتنا وجمهورنا فمن الظلم العظيم أن يُطلب منا أن نكون أهل مواطنة عالمية ونحن نؤوي مواطنة إسلامية .

وفي سبيل التضليل سلطت مدارس الحداثة غير ذي خبرة وتخصص في القرآن وعلومه .

وهي لا تخشى من غياب التخصص هاهنا ، لأنها لا تريد فهم كلام الله على مراد الله فتتدب فقيهاً خبيراً نزيهاً يستنبط ، وإنما تريد فهم كلام الله على أهواءٍ وإحزٍ من جعل دعوى الحداثة دعايةً لتحريف معاني التنزيل ، فلم تتدب فقيهاً خبيراً ، وإنما انتدبت مفكراً يقدر على التضليل .

وهكذا رأيت حسن حنفي - وأسوق اسمه على الحكاية بتسكين آخر حرف من العلمين ، لأن تركيب بعض الأسماء المعاصرة يعز على الإعراب النحوي - .. رأيت حسناً يتناول أسباب النزول ، ويحاكي أسلوب كبار المضللين من المستشرقين في الغمز واللمز .

ومن ضمن ما قرره أن كل آيات الوحي نزلت في حوادث بعينها ، ولا توجد آيات أو سور لم تنزل بشئٍ أسباب .

وإذا كان لفظ النزول يعني الهبوط من أعلى إلى أسفل : فلفظ السبب إنما يعني الصعود من أسفل إلى أعلى .
ولما كانت الآية لا تنزل إلا بعد وقوع السبب كان الأدنى شرط الأعلى .

وعلى قول المثقفين اليوم عن الإسلام : «إنه دين واقعي» بما ينشأ عن أسباب النزول من أسبقية الواقع على الفكر ، وأولوية الحادثة على الآية ، وأولوية المجتمع والناس والحياة .

قال : المجتمع أولاً ، والوحي ثانياً .. الناس أولاً ، والقرآن ثانياً .. الحياة أولاً ، والفكر ثانياً .

قال أبو عبد الرحمن : في هذا الكلام خلط بين الحق والباطل بقصد دس الباطل ثم إظهاره على أنه الحق .

ولم يأت هذا الخلط عن حسن نية ، بل كان عن تعمد تضليل ، ودليل ذلك أن هذا الكلام أت من مثل مؤسسة مواقف .. من مصطنع للفكر غير إسلامي النزعة يريد أن يفسر للمسلمين دينهم ، وغير ذي خبرة ولا تخصص بالمادة التي يبحثها .. غير قاصد أن يناقش نقاش أهل التخصص بالتوثيق والحجج كلما أراد دعوى عريضة مثل دعوى أن لكل آية سبب نزول في الأرض .

قال أبو عبد الرحمن : والخلط المتعمد هاهنا من وجوه :

أولها : أنه لا يوجد في تراث المسلمين التفسيرية كتاب يجعل لكل آية سبب نزول ، بل بعض الآيات له سبب نزول .

وأكبر كتاب في التفسير بالمأثور كتاب الدر المنثور للسيوطي
وأكثره تفاسير مرفوعة وموقوفة ، وقليل منها أسباب نزول ،
وأكبر كتب أسباب النزول كتاب الواحدي ، وكتاب السيوطي ،
وكتاب ابن عثوة ، ولم تستوعب هذه الكتب جميع الآيات ،
فدعوى أن لكل آية سبب نزول دعوى غير مسؤولة عن احترام
القارئ والصدق معه .

ولأنها : أنه ليس كل ما روي من أسباب النزول يكون صحيحاً
فمنه الصحيح ، ومنه المكثوب ، ومنه الضعيف الذي حكمه التوقف .
وثالثها : أن سياق حسن حنفي تعوين بأمشاج يريد من جمعها
وخلطها إقناع مثقفي المسلمين وأدبانهم أن الواقع الأرضي هو الذي
فرض التشريع الإلهي .

ومقتضى ذلك أن الواقع في المستقبل يفرض على الأمة أن
تضع دينها .

قال أبو عبد الرحمن : حقيقة الأمر أن الواقع الأرضي خلق الله ،
والتنزيل شرع الله ، والله سبحانه أنزل من شرعه ما يصلح خلقه .
ورابعها : أن أهل الأرض من البشر موضوع للوحي عقيدة
وقولاً وفعلًا .

ومن الوحي ما أنزله الله ابتداءً لتعليم الناس وإصلاح سلوكهم ،
ومنه ما جعل الله بعض الأحداث البشرية ظرفاً لنزوله ، ونحن بمفهوم
لغتنا نسميه سبب نزول ، لأن الحكم الشرعي جاء من أجل ذلك الحدث .

وجاء شرعاً لكل حدث سيقع إلى أن تقوم الساعة .
وخامسها : أن واقعية الوحي لا تعني أن الوحي جاء لإقرار الواقع
وتنظيمه وهو على المادة التي هو عليها ، وإنما جاء لتغييره وإشراق قلوب
المؤمنين حماساً لتغيير كل واقع رديئ ، وتحويل حياة المجتمع وفق دين
رباني ، ووفق درجات القدرة في القيام بالحسبة والجهاد .
وسادسها : قوله : «الأدنى شرط الأعلى» كلام مضلل ذو وجهين ،
فإن أراد أن الله تكفل بأن لا يجعل الخلق على ضلال بلا بيان وهداية
وإيضاح كان الكلام قريباً من الصواب ، ويكون المعنى : أن الواقع
الأرضي إذا كان في ضلال وجهالة فالبيان مضمون من ربنا يبعث
نبي ، أو مجدد يجدد للأمة دينها بعد غيابها عنه ، وذلك بعد ختم النبوة
بمحمد ﷺ .

وإن أراد أن ذلك التنزيل بعينه مشروط لذلك الواقع بعينه فنتيجته
أن نلتزم لكل واقع يستجد ديناً جديداً يشرطه الواقع ، وذلك هو
الرغبة عن الإسلام علناً وبلا حياة لو تركوا المراوغة .
وسابعها : أن اتهام لنية الكاتب لم يأت من فراغ ، لأنه يتعامل
مع التنزيل كآلة دين من وضع البشر وفكرهم !

إنه يجعل الوحي فكراً ، ويجعل الواقع أسبق من الفكر .
والوحي تنزيل من عند الله ، والفكر من أعمال عقول البشر ، وهو
يضيئ ويخطئ .
ووحي الله لا يوصف بأنه فكر إسلامي ، وإنما الفكر الإسلامي

استنباط المجتهدين من نصوص الإسلام ، والمعاني المستنبطة غير المقطوع بأنها مراد الله .

فهي فكر لأنها من استنباط عقول البشر .

وهي فكر إسلامي ، لأن مادة الفكر نصوص الإسلام من النص ، فيكون الاستنباط ذاته فكراً بشرياً وإن كان المعنى المستنبط مراداً شرعياً .

وثانيتها : إذا كانت علاقة الأولوية والثانوية بين الوحي والواقع مجرد الظرفية : فلا معنى لسبك عبارات توحى بالأولى - بفتح الهمزة والواو الساكنة واللام المسبوقة - دون الأول بمعنى السياق الزمني ، كقوله مثلاً : «المجتمع أولاً ، والوحي ثانياً .. الناس أولاً ، والقرآن ثانياً .. الحياة أولاً ، والفكر ثانياً» .

فتزداد هذه العبارات بالترايف والتأكيد عليها لا يمكن حملها على تحصيل الحاصل من كون الواقع ظرفاً للتشريع ، بل هو وسوسة للقراء بأن المجتمع والحياة أهم من التشريع .

وتاسعها : أن الواقع والوحي سواء في علم الله .. كتب الله علم ذلك في اللوح المحفوظ ، وقضى لكل شئ أجله الذي يظهر فيه .

وعاشرها : أول ما نزل القرآن نزل على رجل مؤمن اصطفاه الله وهو محمد ﷺ ، فهو أول واقع إيماني ، ثم ظل الوحي ينزل على محمد ﷺ ومن آمن معه لينظم مسيرتهم .

فالوحي ينزل على المؤمنين ليوجههم ، والخطاب لهم ، وللكفار :

وللناس كافة إلا أن الولاية للمؤمنين ، وهم المكلفون بالبيان والآداء .
إذن الوحي أوجد الواقع المؤمن ، والواقع الرديئ لم يوجد وحياً ، وإنما كان موضوعاً لرحمة أرحم الراحمين ببعث الرسول ﷺ ، وإنزال الكتاب .

قال أبو عبد الرحمن : وهناك فقه بعض المتعلمين بالإعجاز العلمي ، فبعضهم أورد صورة جنين في بطن أمه يبلغ من العمر أربعة أشهر ونصف شهر تقريباً ، وعلق على الصورة بقوله : «ألا ترى إلى هذه الكتابة المنقوشة بدقة بارعة على جبينه ووجهه» .

إنها شعيرات دقيقة مرسومة بمهارة فائقة .
والغريب أنه لا يوجد اثنان على ظهر الأرض تتشابه فيهم هذه الكتابة حتى ولو كانا توأمين^(١١) .

وهناك صورة لجنين عمره خمسة أشهر ونصف شهر علق عليها بقوله : «أين تلك الكتابة التي رأيناها على الجبهة ؟» .

ولقد اختفت تحت طبقة دهنية كثيفة ابتدأت تغطي جلد الجنين ، وتخفي عن أعين المتلصصين تلك الكتابة الفذة الرائعة^(١٢) .

وقال : «هل يدري أحد ما هو مكتوب ؟» .

غاية ما عرفناه أن هناك من يكتب على الجبين في نهاية الشهر الثالث^(١٣) .

(١١) الإعجاز الإلهي في مراحل خلق الجنين ، ص ٨٢

(١٢) المصدر السابق ، ص ٨٥

(١٣) المصدر السابق ، ص ٩١

وقال : « إن أحد [إحدى] علامات التفرد والذاتية هي الكتابة على الأصابع ، وعلى الإبهام على وجه الخصوص .
وأكمل منها الكتابة على الجبين » ،
قال أبو عبد الرحمن : لا تفسر حقائق الشرع بميتافيزيقا العلم وظنونه .

فأما حقائق الشرع فهو أن الكتابة تكون في صحيفة لحديث خنيفة بن أسيد رضي الله عنه في صحيح مسلم ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزد فيها ولا ينقص .

ووقع في حديث أبي ذر رضي الله عنه : « فيكتب ما هو لاقٍ بين عينيه » ،
وتلا أبو ذر خمس آيات من فاتحة سورة التغابن .
وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - عند البزار وأبي يعلى : « ثم يكتب بين عينيه ما هو لاقٍ حتى النكبة ينكبها » ،
قال الهيثمي : رجال أبي يعلى رجال الصحيح .
قال أبو عبد الرحمن : يحتمل أن تكون هذه كتابة ثانية تكون على موضع من الوجه بين العينين .

ويحتمل أن تكون الكتابة واحدة في الصحيفة ، إلا أن الصحيفة يكتب فيها وهي بين العينين .

على فرض أنه صح أن الكتابة حسية على الجبين بين العينين ، فلا يعني ذلك أن تفسر تلك الكتابة بأي ظاهرة كتلك الشعيرات التي ادعى أنها كتابة الملك ، لأن التفسير ذاته دعوى علم شرعي بلا برهان شرعي ، وقد حرم علينا ربنا أن نقفوا ما ليس لنا به علم .

ولأن دعوى أن نقش الشعيرات يعني كتابة ذات مدلول كدلالة الكتابة الهيروغليفية أو البابلية أو الصينية ظنون علم وليست حقيقة علم ، وفي بعض تحليلات أهل العلم المادي ما يحقق موعظة وعبرة :
قال الله سبحانه وتعالى ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [سورة يس / ٣٦] .

وفي الحديث الصحيح : قال الرسول ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن والخبث والطيب » .

وقد وجد بالتحليل أن جسم الإنسان يتكون من مركبات الأرض نفسها وهي : ماء - سكريات - بروتينات - دسم - خمائر - فيتامينات - هرمونات - كلور - كبريت - نحاس - يود - ومعادن أخرى .

وهذه المعادن تتركب مع بعضها لتكوّن العظام ، والعضلات ، وعدسة العين ، وشعرة الرأس ، والضررس ، والدم ، والغدد اللعابية ، وأشياء أخرى .

وقد وجد بالتحليل في المختبرات أنه لو أخذت المعادن التي في جسم الإنسان وركبت لخرجنا بالمكونات التالية :

- علبة طباشير .
- علبة كبريت .
- مسمار صغير .

- حفنة من الملح .

- مواد أخرى لا قيمة لها .

وهذه كلها لا تساوي قيمتها عشرة ريالات^(١١) .

قال أبو عبد الرحمن : لا علاقة لقوله تعالى ﴿ تَبَتِ الْأَرْضُ ﴾

بخلق الإنسان من الأرض .

وإنما العلاقة من نصوص أخرى أثبتت خلق آدم - عليه السلام -

من التراب والطين .

قال أبو عبد الرحمن : وطالما حذرت من فتاوى الأدباء وتقريراتهم

واختياراتهم في أمور الشريعة عن غير تخصص .

وما أثر قط أن بشاراً أو أبا نواس أو أبا الطيب أو أبا العلاء

يعتبر خلافهم : فلا يتعقد الإجماع إلا بهم .. على الزعم ذكائهم

وثقاقتهم ، والسرف في ذلك أنه يراعى خلاف أهل التخصص .

ومن عجائب الترجيحات المعتبرة من تصرفات الفضولي لي

ترجيح رأيه لدكتور على العين والرأس إلا في أمور الشريعة كتب عن

الحياة الجنسية عند العرب فلما وصل إلى قول الله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ

حَرِّثَ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَبُشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة / ٢٢٣] .

(١١) كتاب وفي أنفسكم لأبي عبد الحميد القرظي ، ص ٢٥ - ٢٦ عن كتاب الطب في محراب

قال هذا المتأدب - لأقضى فوه - بعد استعراضه لبعض أقوال

أهل العلم : « ونعتقد أن جميع هذه التفسيرات لا تتصل بالآية ، فالآية

تبين أوضاع الجماع مع المرأة ، ومحل الجماع .

والجماع حالة لهو وأنس ولذة ، فلا علاقة لهذه الطاعة والعمل

الصالح ، أو ذكر الله عند الجماع ، بل إن الجماع الحلال نفسه طاعة

وعمل صالح ، ولا محل لذكر الله عند الجماع ، إلا أن يتلفظ الرجل

بالسعة قبل الجماع ١١ .

والذي نراه أن معنى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ هو أن تقدموا

للنكاح بمقدمات تُهيئ المرأة له من تقبيل ومداعبة ومغازلة .

يدل على ذلك ما قاله رسول الله : « لا يقعن أحدكم على امرأته

كما تقع البهيمة على البهيمة ، وليكن بينهما رسول .

قيل : وما هو يا رسول الله ؟

قال : القبلة والكلام .

وعد رسول الله من العجز في الرجل أن يقارب المرأة فيصيبها

قبل أن يحادثها ويؤانسها ، فيقضي حاجته منها قبل أن تقضي

حاجتها منه^(١٢) .

قال أبو عبد الرحمن : من تكلم في غير فنه أشى بالعجائب ، وقد

غاب عن هذا المتأدب المتعلم أمور :

(١٢) الإسلام والجنتي ، ص ١٨٨

أولها : أن هذا الرأي الأدبي الظريف ليس مرموقاً في كتب أهل التخصص ، بل أهمل إبراده أئمة كائين جرير وابن كثير .

وثانيها : أن ذلك الرأي الأدبي ليس ظاهراً ، فلا نور له من برهان الترجيح ، لأنه لم يرد دليل بتعيينه .

ولا نور له من برهان التصحيح لأنه لا يصبح استنباطه ، وبيان ذلك أن التقديم برسول كالقبلة قبل الجماع لا يوصف بأنه تقديم للأنفس ، بل هو مقدمات جماع فحسب .

وعلى فرض تصحيحه استعمالاً من باب المجاز الأدبي فهو غير ظاهر في لغة الشرع ، لأن التقديم للأنفس في لغة الشرع شأن آخر كما في قول الله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ [سورة البقرة / ١٦٦ - وسورة المزمل / ٢٠] .

وعلى فرض احتمال ذلك في لغة الشرع فهو غير محتمل في هذا السياق ، لأن الآية ومناسبتها عن إباحة إتيان النساء في موضع الحرث متضمناً للنهي عن إتيانهن في غير موضع الحرث .

ولا تهم المباشرة عن أي مكان ، وإنما المحرم الإيلاج لا يكون في غير ما أمر الله به .

وفعل المباح وترك المحظور يحتاج إلى تورع واحتياط وامتنال ، وكل ذلك هو التقديم المأمور به في قوله تعالى : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ .

وإذا كان ذلك المتألب فر من تفسير معنى التقديم بالتورع وفعل الخير لأنه لا علاقة له بالجماع بزعمه فماذا سيقول عن قول الله تعالى

﴿ وأنشروا الله وأعلموا أنكم ملائكة بشر المؤمنين ﴾ ١٢٤

فكل هذا سياق واحد ، وقد قدم الله التحذير على التشجيع .
قال أبو عبد الرحمن : وهذا لا ينافي ما ذكره الإمام الفحل الجهيد أبو جعفر ابن جرير الطبري من تعلق الآية بما قبلها من أوامر ، قال رحمه الله تعالى : « فإن قال لنا قائل : وما وجه الأمر بالطاعة بقوله : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ من قوله : ﴿ نسألكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ .

قيل : إن ذلك لم يقصد به ما توهمته ، وإنما عني به : وقدموا لأنفسكم من الخيرات التي تدبناكم إليها بقولنا : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ وما بعده من سائر ما سألكوا رسول الله ﷺ فأجيبوا عنه ما ذكره الله تعالى ذكره في هذه الآيات .

ثم قال تعالى ذكره : قد بينا لكم ما فيه رشدكم وهدايتكم إلى ما يرضي ربكم عنكم ، فقدموا لأنفسكم الخير الذي أمركم به ، واتخذوا عنده به عهداً ، لتجنبوه لديه إذا لقيتموه في معادكم ، واتقوه في معاصيه أن تقربوها ، وفي حدوده أن تضيعوها ، واعلموا أنكم لا محالة ملائكة في معادكم ، فمجان المحسن منكم بإحسانه ، والمسيئ بإساءته » (١٢٥) .

(١٢٤) تقديم ابن جرير ١٠ / ٤٨٨ .

قال أبو عبد الرحمن : وإنما نرد جهل بعض المتنسكة ، وتعلم الأدباء والمتفلسفة ومن يدعي دلالة الإعجاز العلمي .

أما براهين الفكر والعلم فهي خلق الله فلا يمكن أن تعارض شرع الله ، بل في كتاب الله ، وفي نصوص شرعه الحجة القاطعة على الخلق بمختلف مستوياتهم الفكرية .. وتحقق هذه الظاهرة في القضايا العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم ، فإن العامي يجد فيها العجة بمقدار ما بلغه فكره وعلمه ، ويجد فيها المتعلم الحجة بمقدار ما وصل إليها عصره من علم وفكر . ويجد فيها مثقف العصر الحديث الحجة بأقصى ما وصل إليه غرور العلم الحديث من حقائق .

وأضرب المثال بقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (سورة الذاريات / ٢١) فهذه الآية الكريمة استدلال على وجود الله وكماله ، لأنها في سياق الإشارة إلى عموم الآيات في وقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ ولأن قضية الأنفس ورد النص صريحاً بنصها آية في قوله تعالى : ﴿ سنربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [سورة فصلت / ٥٣] .

فكل ذي مستوى من التفكير مهما ضعف يجد في نفسه دليلاً على ربه يتناسب مع مستوى تفكيره .

وتتفق كل المستويات الفكرية منذ المعرفة الحسية المجردة إلى العلم التجريبي على أن دلالة الأنفس عامة غير محصورة ، وإنما يرد النموذج تمثيلاً غير حاصر .

قال الزمخشري في كشفه : « وفي أنفسكم : أي في حال ابتدائها ، وتنقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفكر وبيدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني .

وبالأسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها ولطائفه من الآيات الساطعة والبيّنات القاطعة على حكمة المدبر .

دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأنّيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني ، فإنه إذا جسي شيئاً منها جاء العجز ! .
وإذا استرخى أناخ الذل !! .
فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال أبو عبد الرحمن : هذه خبرة حسية مجردة ، وهي الموجودة في تفاسير السلف ، بل تناقلوا عبارة الزمخشري بنصها كما في تفسيري النسفي وأبي حيان .

وقال الألويسي في تفسيره : « ليس في العالم شيئ إلا وفي ذات الإنسان له نظير يدل مثل دلالاته على ما انفرد به من الهيئات النافعة ، والتأخر البهية ، والتركيبات العجيبة ، والتمكن من الأفعال البديعة ، واستنباط الصنائع المختلفة ، واستجماع الكمالات المتنوعة .

وآيات الأنفس أكثر من أن تحصى .

قال أبو عبد الرحمن : هذا أيضاً من النص العادي المجرد .

وليس بصحيح قوله : « ليس في العالم شيء إلا وفي ذات الإنسان له نظير » !! .

بل الصواب أن النفس دالة على الله كغيرها من بدائع صنع الله . ولهذا قال ابن صمادح في مختصر الطبري : وفي أنفسكم بمعنى وفي خلق أنفسكم وجوارحكم دلالات على وحدانية صانعكم .

قال أبو عبد الرحمن : مجمع براهين الإيمان : السببية ، والكمال ، والغائية .

وكلها تدل على الوجدانية ، لأن المطلب في السببية التحليل الواحد الكافي ، والمطلب في الكمال الدلالة على كمال واحد ، والمطلب في الغائية الدلالة على ذي قصد واحد .

وأشار الألويسي إلى وجه آخر من وجوه تفسير السلف فقال : « وقيل أراد بذلك اختلاف الأكنسة والصور والألوان والطبائع » .

قال أبو عبد الرحمن : هذا منهج تفسير القرآن بالقرآن ، وقد نقصاه شيخنا الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان ، فذكر من أمثاله قول الله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ... ﴾ [سورة الروم / ٢٢] وقوله : ﴿ وفي خلقكم وما يبث من دابة ﴾ [سورة الجاثية / ٣] .

إلا أن منهج تفسير القرآن بالقرآن لا يلغي عموم أحد النصوص إذا كانت معاني بقية النصوص نموذجاً لبعض عموم ذلك النص ، وليست حاصرة له .

ويهمني هاهنا أن مناهج السلف في تفسير هذه الآية : إما إحالة بيان معناها إلى آيات أخرى كما في تفسير الشنقيطي . وإما إجمال ما في الأنفس من دلالات بالحس العادي المجرد كما أسلفته لكم من كلام الزمخشري .

أما تفصيل المجمال من دلالات الأنفس فقد وجدته عند ابن قيم الجوزية في كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . إلا أن تفصيله استنباطات عقلية أو مشاهدات حسية مجردة ، فهو مثلاً يذكر نعمة النسيان للإنسان ليسلو عن الامة ، ويذكر فائدة السائل المُرُّ في الآذن ، والملح في العين . وأطال النفس في مثل هذا جداً .

ثم جاء العلم الحديث بكل ثقله ، فاستجد مستوى متفوق من العلم والتفكير : فلم يجد آيات الله في الأنفس ظواهر حسية عادية تقنع العامي ويمسور الثقافة .

وإنما وجدها براهين تهدي العلم المادي وتتحدى غروره ، ولا عجب في ذلك لأن خبير خالق الحقيقة أصدق من خبير من يحاول اكتشافها .

ولقد وجدت الدكتورين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز في كتابهما « مع الطب في القرآن الكريم » ذكراً عجائب من دلالات العلم على ما في الأنفس .

فهما يذكران ملايين وبلايين اللقوى في كل جزء وفي كل عضو ،

ففي المعدة خمس وثلاثون غدة معقدة للتركيب لأجل الإفراز ، وفي الدماغ ثلاثة عشر مليار خلية عصبية ، و ١٠٠ ١١٠ .
وفي العلم ميتافيزيقا إن صحت فيما بعد حساً وواقعاً فلا تلزم إلا من وجد وسائل الاهتداء إليها في معمله ومختبره .

فالدكتوران المذكوران أنفاً ينتقلان عن العلم ما يلي : « لو وضعت الكرات الحمراء لجسم واحد بجانب بعضها في صف واحد لأحاطت بالكرة الأرضية التي نعيش عليها (٥ - ٦) مرات » .

قال أبو عبد الرحمن : هذه تظل ميتافيزيقا علم بالنسبة لغير رجال العلم المادي ، لأنهم لا يتصورون كيفية البرهان عليها ، ولا كيفية وصول العلم الحسي إليها .

ويظل في يقينيات العلم كفاية برهان على العالم المادي بأن الله هو الحق .

وكما أوضحت الفرق بين منهج المفسرين من السلف ومنهج المفسرين من معاصري العلم الحديث في فهم الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم . فإنني سبين فرقاً جوهرياً نفيساً بين أسلوب الأيتين في الاستدلال بما في الأنفس .

فهناك آية تستحدث الأنفس على النظر في الأنفس ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

فكل ذي مستوى من التفكير والثقافة - مهما قل - يملك إبصاراً يهديه إلى أن رب الأنفس هو الله حل حلال .

وبهذا قامت حجة الله على الفطري والمتعلم .

وهناك آية لا تكفي بالحث على الإبصار ، ولكنها تضمن بأن الله سيحقق الإبصار وهي قول الله تعالى : ﴿ سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : وقد تبين لنا إعجاز هذه الآية الكريمة في هذا العصر ، وأنها حجة على الكفرة وتحد لهم .

وبيان ذلك أن العلم المادي اليوم إنما هو في يد الكفرة من الملحدين والوثنيين والتصارى واليهود ، وبواسطة العلم المادي المعجز بين الله لهم في الآفاق والأنفس أنه الحق .

فقامت حجة الله على كل أحد .

وحينما أقول : العلم معجز ، فلأنه من هداية الله الكونية ، وكل فعل الله معجز .

ولأنه يكشف عن عظمة الخلق ، ولا ريب أن عظمة الخلق دليل على أن الله أكبر وأعظم .

ويكون العلم معجزاً ، لأن الإيمان ببراهينه ضروري .

والنفس الضعيفة دالة على عظمة الله ولطفه .

أما دلالة العظمة فتتجلى في ظاهرة كالدماغ إنما يملأ الكف ، وفيه ثلاثة عشر مليار خلية عصبية .. إن صح هذا العدد علمياً ولم يكن من الميتافيزيقا .

وأما دلالة لطف الله فتتجلى في دقة التكوين .

قال أبو عبد الرحمن : ولا أزال أدعو إلى استثمار كل الحقول العلمية ليخرج لنا تفسير علمي لكلام الله بإشراف متمكنين في علم الشريعة يحذقون فقه النصوص الشرعية ولغتها .

قال أبو عبد الرحمن : طالما أبديت في كتاباتي ومشافهاتي أن الأحاد بالظاهر حنسية فكر وضرورة شرع . وليس تمذهباً لإمام بعينه . وطالما تيرأت من أخطاء شنيعة في كتب ابن حزم ، أو عزيت إلى بعض أهل الظاهر بأنها من الخطأ في التطبيق لا من الخطأ في التأصيل . وذلك ليقين اجتهادي بصحة أصول الأخذ بالظاهر وضرورتها .

وقد رغب مني أكثر من واحد أن أنقح كتاباً في أصول الفقه ، وأن أكتب مسائل فقهية تتفرع على تلك الأصول ، وأن أكتب ملاحظاتي على مسائل أهل الظاهر المنتقدة عليهم التي أعدها من الخطأ في التطبيق .

قال أبو عبد الرحمن : وذلك مطلب ضروري فرطت في الوقت الذي يجب أن ينفق لمثله ، لانشغالي بمؤلفات في التاريخ والأنساب ، والآداب ، واللغة ، والفكر .

وفي نسبي أن أصرف بقية العمر لتحرير مسائل الديانة تأصيلاً وتطبيقاً .

وبما أنه لدي أسفار محررة من أحكام الديانة تفسيرا وحديثا

وفقها وأصولاً وعقيدة ، فقد أثرت تصحيحها وتنقيحها ونشرها لتكون طليعة لما أنوي تأليفه مستقبلاً منظماً حسب الفنون العلمية فيفصل التفسير عن أصول الفقه مثلاً مرتباً على الأبواب والمسائل ، فلا أتعرض مثلاً لمسألة في الصيام قبل أن أنهي مسائل الصلاة .

وبعض مواد هذه الأسفار كتبته للإذاعة ، أو لجريدة يومية فاثبت المرجع باسمه واسم مؤلفه ولم أحل إليه بالجزء والصفحة . وقد ثقلت علي المراجعة لاستكمال التوثيق .

ولكن يعوز عن ذلك أن الكلام عن تفسير آيات وشرح أحاديث إذا ذكر اسم المرجع عرف منه مكان البحث حسب الباب الفقهي أو رقم الآية .

قال أبو عبد الرحمن : في كل لقاء صحفي ، وفي كل ندوة ، وعقب كل محاضرة أو درس ، وفي كل حوار إذاعي أو تلفازي يسألني القوم عن ظاهرتي ، وما معنى الظاهر ، ولماذا اخترت هذا المذهب ، وكيف تمذهبت له .

وفي كل مرة أطرح قناعاتي ، ثم تعود إلي التساؤلات في كل مناسبة كما هي !! .

فمن كان من أهل الفقه يرى أنني ظاهري بالاسم ، لأن لي أقوالاً خلاف ما في المحلي ، أو الإحكام ، أو الفصل .

وغاب عن بالهم أن الظاهر ليس هو تطبيق عالم ظاهري بعينه كالإمام ابن حزم . وأن الظاهر تحرير وتطبيق لأصول المعرفة حينما

تكون معرفة بشرية مصدرها الحس والعقل البشري ، وأنها تحرير لأصول المعرفة حينما تكون معرفة شرعية مصدرها النص الشرعي ، والمحصل لها النظر العقلي والمعرفة اللغوية والتاريخية .

وغاب عن بالهم أن الظاهر إذعان للبرهان ، وخضوع لقواطع ورجحانيات من علوم الفكر واللغة والتاريخ اللواتي يعرف بهن ثبوت الشرع وظروفه التاريخية المعينة على فهمه ، ويعرف بهن معانيه اللغوية بلغويين علوم أصول اللغة وعلم النحو والبلاغة ، ويعرف بهن فكر الكلام الذي هو مراد لقائه زائد على معناه اللغوي . استنبطه الفكر من المعنى اللغوي بلزوم عقلي .

وليس الظاهر اتباعاً لعلم إمام بعينه .

قال أبو عبد الرحمن : أطرح الإشكال الذي طال حوله الحوار من خلال مسائل فيها وفاق لإمام ظاهري من أجل أصول ظاهرية ، ومخالفة لإمام ظاهري من أجل غفلته عن أصول ظاهرية .

وليكون النموذج هذه المرة مسألة ولوغ الكلب والطهارة منه كما ورد بذلك الحديث الصحيح ، فقد تلقى الإمام أبو محمد ابن حزم هذا الحديث ، وأعمل فيه فقهه ، فاستقام له الظاهر تارة ، وضل عنه تارة لغفلة عن أصول ظاهرية خلال التطبيق .

قال رحمه الله : « فإن ولغ في الإناء كلب أي كلب .. كان كلب صيد أو غيره صغيراً أو كبيراً فالفرض إهراق ما في ذلك الإناء كائناً ما كان ، ثم يغسل بالماء سبع مرات ولا بد أولاً من التراب مع الماء ولا بد » .

قال أبو عبد الرحمن : هذه جملة نفيسة من كلام أبي محمد - رحمه الله - إلا أنه قال بعد ذلك : « وذلك الماء الذي يطهر به الإناء طاهر حلال » .

قال أبو عبد الرحمن : أما قول أبي محمد : إن هذا الماء طاهر ، فمبني على أن الكلب طاهر كما هو مذهب الظاهرية والمالكية وغيرهم . وكونه طاهراً لا يعني أنه طهور مطهر ، بل يعني أنه لا ينجس غيره ، وفي الوقت نفسه لا يتطهر به .

وقول أبي محمد : « إن ذلك الماء حلال » يعني جواز شربه ، وهذا ليس بصحيح بموجب الدليل وهو الأصل الرابع من أصول أهل الظاهر . ووجه الدليل في ذلك أن رسول الله ﷺ حرم استعمال الإناء قبل تنقيته بالفسلات السبع ، لأن أمره ﷺ بتطهير الإناء منع من استعماله بغير تطهير ، وإلا كان من العبث أوامر الشرع بالطهارة عموماً ، وكان العبث أيضاً توجيهه بالتطهير ها هنا ، فتعين ها هنا احتمال واحد لا ثاني له وهو أن الماء المستعمل في تطهير الإناء لم يُنق من الولوغ فحرم شربه ، لأن استعمال الآنية حرم لأجل الولوغ إلا أن يحصل الإنقاء .

ثم قال رحمه الله : « فإن أكل الكلب في الإناء ولم يبلغ فيه ، أو أدخل رجله أو ذنبه ، أو وقع بكله فيه : لم يلزم غسل الإناء ولا هرق ما فيه ألبتة ، وهو حلال طاهر كله » .

وإنما أفتى أبو محمد بهذه الفتوى لأنه تمسك بظاهر ولغ ، وأكل

الكلب لا يسمى ولوغاً ، وإدخاله رجله أو ذنبه أو وقوعه كله في الإناء لا يسمى ولوغاً .

وكلام أبي محمد هنا صحيح ، وإنما الخطأ في قوله : « إن ما في الإناء حلال طاهر كالا لا يهرق » .

قال أبو عبد الرحمن : الصواب أن يهرق ما لامسه لعاب الكلب أو عرقه ، وبزوال من الإناء بالتطهير الذي يزيله دون تقيد بسبع غسلات ، لأن تحديد سبع غسلات إنما ورد في الولوغ .

وقد لاحظ أبو محمد هذا الملح فاستدركه في آخر المسألة إذ قال : « أما وجوب إزالة لعاب الكلب وعرقه في أي شيء كان فلأن الله تعالى : « كل ذي ناب من السباع والكلب ذو ناب من السباع ، فهو حرام ، وبعض الحرام حرام بلا شك ، ولعاب الكلب وعرقه بعضه ، فهما حرام ، والحرام فرض إزالته واجتنابه » .

وأبو محمد هنا ذهب إلى التطهير من لعاب الكلب وعرقه لا على أنه نجس ، وإنما لأنه يحرم أكله وشربه .

قال أبو عبد الرحمن : الحديث ورد بكلمة ولغ فيجب قصر الحكم على الولوغ ، والولوغ هو شرب الكلب بطرف لسانه ، أو إدخاله لسانه في الإناء وتحريكه وإن لم يشرب ، وإنما قلت لكم ذلك لأن أسماء اللغة هي المفرقة بين المعاني ، والشرع وارد بلغة العرب ، فيجب أن نفرق في الشرع بما فرقت به لغة العرب .

والولوغ لا يسمى ولوغاً حتى يكون ما في الإناء مائعاً ، فإن كان

الإناء فارغاً سمي عمل الكلب لحساً ، وإن كان ما في الإناء جامداً سمي عمل الكلب لعقاً .

وإذا لحس الكلب الإناء وهو فارغ وجب غسله سبع مرات وإن لم يكن اللحس ولوغاً ، لأن ضرورة العقل أوجبت أن عمل الكلب في الإناء فارغاً أبلغ من العمل فيه إذا كان مشغولاً بمائع .

وورد الحديث برواية أخرى هي : « إذا شرب الكلب » بدل « ولوغ » وقد ادعى الإمام أبو عمر ابن عبد البر أن لفظ شرب في حديث أبي هريرة لم يروه إلا مالك .

وقد عارضه ابن حجر بإثبات رواية : « إذا شرب » عن عدد من الرواة غير مالك .

والشرب عند ابن حجر يقتضي الولوغ ، والولوغ يقتضي الشرب ، فإن أخذنا برواية : « إذا شرب » كان حكم الولوغ داخل في ذلك ، لأن الكلب إذا شرب فقد ولغ .

وإن أخذنا : « رواية إذا ولغ » كان حكم الشرب غير داخل في الولوغ لأن الكلب إذا ولغ لا يكون شارباً .

وقال رحمه الله : « الشرب أخص من الولوغ ، فلا يقوم الشرب مقام الولوغ » .

قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام صحيح بالنسبة لغير الكلب ، أما ولوغ الكلب فمعناه لغة أن يشرب بطرف لسانه ، وهذه هي عادة الكلب ، لا يمكن أن يشرب إلا بطرف لسانه ، فالولوغ حاصل من شربه ولا بد .

وقال النووي رحمه الله : « اعلم أنه لا فرق عندنا بين ولوغ الكلب وغيره من أجزائه ، فإذا أصاب بوله أو روثه أو دمه أو عرقه أو شعره أو لعابه أو عضو من أعضائه شيئاً طاهراً في حال رطوبة أحدهما وجب غسله سبع مرات إحداهن بالتراب » .

قال أبو عبد الرحمن : نص الحديث ورد في ولوغ الكلب ، ولوغ الكلب هو شربه بطرف لسانه ، فلا يجب علينا أن نغسل الإناء سبع مرات ونعفقه بالتراب إلا من اللوغ فقط ، وليس معنى هذا أننا لا نغسل الإناء إذا مال فيه الكلب ، بل يجب علينا أن نطهر الإناء من بول الكلب بما يغلب على ظننا أنه أزال نجاسته دون تقيد بعدد من الغسلات .

أما ولوغ الكلب فنحن مقيدون بسبع غسلات مع الترتيب إطاعة لرسول ﷺ وتعبداً لربنا بالتقيد بحده الشرعي .

وقال النووي أيضاً : « في الحديث دلالة ظاهرة لمذهب الشافعي وغيره ممن يقول بنجاسة الكلب ، لأن الطهارة تكن عن حدث أو نجس ، وليس الكلب حدثاً فتعين أنه نجس » .

فإن قيل : المراد بالطهارة الطهارة اللغوية فالجواب أن حمل اللفظ على حقيقته الشرعية مقدم على اللغوية » .

قال أبو عبد الرحمن : الكلب قدر مستخيث حرام أكله ، ولعابه موبوء ، إلا أن هذه العلة لا تعني نجاسته ، فلو لمسه متوضئ لما انتقض وضوؤه بإجماع العلماء ، ولو سال لعابه مرات من ولوغ الكلب لا يعني أنه نجس وإنما يعني وجوب تنظيف الإناء بهذه الغسلات .

وقول الرسول ﷺ : « طهروا إناء أحدكم » لا يعني أن المراد بالطهور المصطلح الشرعي المقابل للنجاسة ، بل المراد الطهارة اللغوية وهي التنظيف والإبقاء من الأوباء والأقذار .

وقول النووي رحمه الله : « حمل اللفظ على حقيقته الشرعية مقدم على اللغوية » : أصل صحيح بلا ريب ، وهو أن الأصل حمل النص الشرعي على المصطلح الشرعي ، ولكن هذا بشرط عدم قيام البرهان على أن المراد غير المصطلح الشرعي ، وما هنا قيام البرهان على أن المراد بالطهارة المصطلح اللغوي لا الشرعي من ناحيتين .

أولاهما : أن التطهير لم يرد في مكان تؤدي فيه العبادة أو تؤدي به ، وإنما ورد في أنية يشرب بها ويؤكل .

وثاني السببين : أن أظهر النجاسات البول والخبث ، وإنما أمرنا بإزالته ولم نقيد بعدد معين في الغسلات ، ولم نؤمر بالترتيب ، فدل ذلك على أن لولوغ الكلب خاصية غير النجاسة .

ثم لو صح أن المراد بالطهارة المصطلح الشرعي لا العرف اللغوي لكان الحديث دليلاً على نجاسة لعاب الكلب فقط ، ولا يجوز الحكم على بقية الكلب إلا ببرهان .

وقال الشيخ النووي رحمه الله : « في الحديث دلالة على نجاسة ما ولغ فيه الكلب ، وأنه إن كان طعاماً مانعاً حرم أكله ، لأن إراقته إضاعة للمال فلو كان طاهراً لم يأمرنا بإراقته بل قد نهينا عن إضاعة المال » .

قال أبو عبد الرحمن : هنا ملحقان مهمان :

أولهما : أن ما ولغ فيه الكلب لا يكون نجساً إلا إذا كان الكلب نجساً في ذاته ، أو كان لعابه نجساً .

وثانيهما : أن الطعام الذي ولغ فيه الكلب إذا كان مانعاً يجب إراقة بلا ريب ويحرم أكله .. هذا مما لا خلاف فيه ولا غبار عليه ، ولكن حرمة أكله وضرورة إراقة لا تعني نجاسته ، لأن ليس كل حرام نجساً ، لهذا السم يحرم أكله ولا يسمى نجساً ، والهرة يحرم أكلها وليست بنجسة . قال أبو عبد الرحمن : فالتقاسم في هذه المسألة برهنة واعتراضاً بين أن الأخذ بالظاهر يعني الأخذ بالدلول عليه وإن كان خفياً .

٢ - المسألة الثانية : تصنيف مسائل علم أصول الفقه ، وبيان صلة المعرفة الشرعية بالمعرفة البشرية ، وبيان ما هي المعرفة الشرعية ، وأنها تشمل العقيدة والفقه والآداب ، وأن أصول الفقه هي أصول المعرفة الشرعية ، وأن موضوعه أشمل من الفقه الاصطلاحي ، والتفريق بين الفقه والتوحيد وأصول الفقه وعلم الكلام ، وبيان أن مهمة أصول الفقه ، وحصر مسائله في ثلاثة أبواب ، وبيان أن أهمها ولها علم الدلالة (نظرية المعرفة الشرعية) .

قال أبو عبد الرحمن : ضمن كتابي «العقل الأدبي» الصادر عن نادي القصيم الأدبي ببريدة ، فصل عن تصنيف الأدب لأخرج عنه الأوشاب التي ليست من صميمه ، وليتفطن الدارسون إلى مسأله التي هي في الصميم فيهتموا بها

واليوم أريد تصنيف مسائل علم أصول الفقه لكثرة ما دخله من أوشاب شغلت الدارس عن صميمه .

والمعرفة الشرعية الإسلامية معرفة قامت صحتها من براهين المعرفة البشرية ، فكان علم أصول الفقه نظرية للمعرفة الشرعية ، ومنطقاً لها .

وبيان ذلك أنه بالنظر إلى موقع علمي الفقه وأصوله من المعارف البشرية : نرى أن مادة هذين الفنين المعرفة الشرعية الإسلامية المتعلقة بمراد الله من المكلف أن ينويه ، أو يقوله ، أو يفعله ، أو يكف عنه فلا ينويه ، أو لا يفعله ، أو لا يقوله .. أي أن نعرف ما يريد الله منا .

كما تتعلق تلك المعرفة بامتنال المكلف ما يريد ربه منه فيؤديه .. أي أن نعرف كيفية الأداء لما أراد الله منا .

ومعرفة مراد الله منا ، ومعرفة كيفية الأداء متلازمان ، بل هما أمر واحد ، لأن معرفة الكيفية معرفة لتمام المراد الشرعي .

وإنما فرقت بينهما بالنظر إلى مصدر المراد والأداء ، فالمراد صادر عن الله بقضائه الشرعي ، والأداء صادر عن المكلف .

ومراد الله منا شامل لأعمالنا وأقوالنا ومعتقداتنا وتروكنا ، فيدخل في ذلك العقيدة (التوحيد) ، وكمالات الشرع مثل الزهد والورع والآداب ، وما اصطالحوا عليه بالفقه من العبادات والمعاملات وهو الأفعال المرادة لله من المكلفين ، وما يدخل في حيزها من أقوال ، فالصلاة فعل ينطوي على أقوال .

كما يبحث الفقه النيات المتعلقة بفعل المكلف من ناحية تمييز المقصود بالعمل، وتمييز العمل المقصود عن أعمال أخرى ذات نيات أخرى، وعلم أصول الفقه - وإن أسند إلى الفقه - ذو نظر أشمل من نظر الفقه، فهو تقنين لمعرفة مراد الله الشرعي بإطلاق سواء أكان عقيدة، أم آداباً، أم فقهاً.

كما أنه تقنين لمعرفة كيفية الامتثال بإطلاق، وعلم الكلام والتوحيد علم بمسائل العقيدة مفصلة، واستدلال عليها من المعرفة الشرعية والمعرفة البشرية.

وأدب الشريعة وكمالاتها من الفقه، لأنه أقوال وأفعال، ولهذا ألحقها بعض الفقهاء بكتبهم الفقهية بعنوان الجامع مثلاً كابن أبي زيد وابن حزم، إلا أن بعضهم تسامح فأدخل أموراً عقدية بحتة، كما أن بعض المحدثين المصنفين على أبواب الفقه ألحقوا الآداب بسنتهم.

وربما كان وجه إفراد الآداب أنها في الأغلب حقوق لله تعالى ليس فيها حدود دنوية يتقاضى حولها العباد.

والفقه الاصطلاحي يكاد يرتبط بالقضاء فيمضي بين العباد في الدنيا من إمضاء حد لله، أو حق لمخلوق، أو بيان حكم تكليفي أو وضعي لأفعال العباد.

قال أبو عبد الرحمن: وما دامت الآداب - إذا جردت من المسائل الاعتقادية الخالصة - أفعالاً وأقوالاً مراد من المكلف أداؤها أو تركها

فذلك من الفقه وهو القسم الثالث بعد العبادات والمعاملات. فعلم أصول الفقه علم أصول لعموم الفقه في الدين، وإنما توهم من توهم أنه أصول الفقه الاصطلاحي لانصراف الذهن إلى المعنى الاصطلاحي للفقه، أو لكون جمهرة شواهد من الفقه الاصطلاحي وعلم أصول الفقه تأصيل إسلامي تقام منه الحجة في الخلاف بين علماء المسلمين.

ومعنى ذلك أنه معرفة شرعية قائمة على التسليم بصدق الشرع، وعصمته ووجوب طاعته.

أي إن الشرع معرفة صحيحة، ولأصوله الفقه مهمتان هما:

تحقيق المعرفة الشرعية وتمييزها عن غيرها من المعارف، ويكون ذلك بالبرهنة على ثبوت النص عن الله سبحانه أو عن رسوله ﷺ.

وتكفل ببيان ذلك علماء القرآن والحديث، ومجال البرهنة المذكورة أنفًا فيهما، فلا يشغل كتاب أصول الفقه بذلك، ولكن من شرط الأصولي أن يحقق العلم بما هو شرع وما ليس بشرع تأصيلاً من علوم القرآن والسنة، ليرجع إلى ذلك عندما تستدعيه مهمته الأصولية للجمع بين الأدلة، أو التقنين لاستظهار مراد شرعي بالمرجحات.

والخلاصة أنه ليس من مهمة الأصولي البرهنة على حجية الشرع، بل مجال الاستدلال على الشريعة في كتب العقائد، فيستدل من براهين المعرفة البشرية بالعقل والحس على وجود الله وكماله،

وضحة النبوة وصدقها ، ولزوم الحجة بالمعرفة الشرعية .
ويستدل على المعرفة الشرعية منها ذاتها ببيان مقاصدها ،
وبيان محاسنها التي هي ثمرة مقاصدها ،
كما يكون تحقيق المعرفة الشرعية بتصحيح الدلالة ، وذلك
بالبرهان على أن هذا المعنى هو المراد الشرعي ،
وذلك هو جوهر علم الأصول الذي يضع القوانين لأخذ المدلول
الشرعي بحسبه دون إسقاط أو زيادة أو تبديل .
قال أبو عبد الرحمن : وباستقرائي لبعض مسائل أصول الفقه من
بعض كتب الأصوليين رأيت مسائل فضولية خارجة عن اختصاص
الأصولي .
ومن تلك المسائل ما عدوه مداخل كبعض المبادئ المنطقية
واللغوية .
والواقع أن من مادة الأصول وصميمه ما يتكوّن به علم الدلالة
من النحو والبلاغة والمنطق .
وما عدا ذلك فهو فضول .. وما ليس بفضول يوضع في مكانه ولا
يكون مدخلاً .
وبعض المسائل الفضولية عدّوه من صميم المسائل الأصولية
كبعض مسائل النسخ ، والنضرب المثل بإثباته أو نفيه فهذا مجاله علما
القرآن والسنة .
ولكن لابد للأصولي من اجتهاد في هذه المسألة أو تمذهب لا

يشغل به كتابه الأصولي ، وإنما يبني عليه قانونه الأصولي في
الترجيح .
وتصنيف مسائل أصول الفقه يقتضي استقراء المسائل الفضولية
من كتب الأصوليين وتسميتها بأعيانها .
وأسهل من ذلك أن يتقصى مسائل الأصول فيكون ما عداها
فضولاً .
وعناصر علم الأصول يجمعها ثلاثة أبواب لا غير وهي :
١ - الباب الأول : مداخل ضرورية ، وكل مدخل لابد من بيان
كونه مدخلاً ، وكونه ضرورياً لا يستغنى عنه .
والقاعدة في ذلك أن كل ما كان ضرورياً لتصوير مسائل الأصول
متميزة عن غيرها متميزة فيما بينها فهو مدخل ضروري .
وأول مدخل وأهمه ربط المعرفة الشرعية بالمعرفة البشرية ، وذلك
ببيان قيام صحة المعرفة الشرعية ببراهين من المعرفة البشرية ، وبيان
ثمرة ذلك بأن تأسيس المعرفة الشرعية لا يكون إلا من مصدر شرعي .
ومن المداخل الضرورية تمييز مسائل أصول الفقه عن مسائل
الْحَقِّقَتْ به بجامع المعنى اللغوي لكلمة أصل كقواعد الفقه العامة ،
ومقاصد الشريعة .
فمأخذ الأصولي من المعنى اللغوي لأصل ما أن قانونه أساس
يبني عليه .
ومأخذ القواعد والمقاصد أن الأصل جامع وجنر يتفرع عنه فروع .

والواقع أن قواعد الفقه من مسائى الفقه ، إلا أنها مسائل كلية مأخوذة من الشرع .

والمقاصد بعضها قواعد فقهية وبعضها من المسائل الجزئية العقدية كامتناع التكليف بالمجال .

ومسائل الفقه الجزئية الكلية مأخوذة من الشرع وفق قوانين أصول الفقه .

ومسائل مأخوذة من المعرفتين البشرية والشرعية .

ومن المداخل الكلام عن مصادر المعرفة الشرعية وتقسيمها إلى فئتين :

أ - مصادر شرعية لتأسيس المراد الشرعي ، ومنها مصادر مباشرة ، وهي نصوص الوحي من القرآن والسنة .

ومنها مصادر غير مباشرة ، بل التفويض الشرعي إذ جعلها الشرع مصدراً لتأسيس الحكم في بعض الأحوال كالعقل والحس .

ب - مصادر لاكتشاف المراد الشرعي الذي أسسه المصير الشرعي لتمييزه عن غيره كالعقل ، والحس ، ولغة العرب ، وبلاغة أديبها .

وتلك هي مصادر قوانين الأخذ من الشرع .

قال أبو عبد الرحمن : وأسميها علم الدلالة ، ونظرية المعرفة الشرعية .

ويلحق بمصادر المعرفة الشرعية البرهنة على بطلان مصادر معرفة اعتبرت مصدراً للمعرفة الشرعية .

٢ - الباب الثاني : قوانين الأخذ من الشرع (نظرية المعرفة الشرعية ، أو علم الدلالة الشرعية) .

وتلك لب علم أصول الفقه .

وذلك ببيان صيغة الخطاب الشرعي ، وبيان أحكامها الخبرية والإنشائية ، وبيان الأحكام التكليفية والوضعية ، والعام والخاص .

وأهم ما في قوانين الأخذ بيان وجوه الدلالة وأحكامها .

وذلك شامل لقوانين الدلالة النصية وغير النصية .

٣ - الباب الثالث : ثمرة علم الأصول ، وهي البراهين المستصحبة في الاستدلال عند البحث عن المسائل الفقهية الجزئية .

وذلك باستقراء كل ما أنتجه علم الأصول من قواعد استدلالية كالقول بأن الأصل شرعاً حرمة المناكح إلا ما استثناه دليل ، وأن الأصل في الواجب التوعد بالعقوبة على تركه ، وأن الأصل الرجوع إلى حكم ما قبل الوجوب عند إسقاط الشرع حكم الوجوب .

ويتناول هذا الباب قواعد الجمع بين الأدلة وذكر المرجحات .

وأصول الفقه والفقه علمان لهما علم يشتركان فيه ينبغي أن يكون قرعاً مستقلاً باسم علوم علم الفقه ، وأصوله ، فيدخل فيه آداب المفتي والمستفتي ، وأهلية الأصولي والفقيه ، وتاريخ التشريع .

٢ - المسألة الثالثة : دلالة الأمر في الخطاب الشرعي ببيان المعاني اللغوية ، وأصلها ، والمعنى اللغوي للأمر الطلبي ، وبيان أن الأصل فيها عرفاً وشرعاً الوجوب :

ذكر ابن فارس لمادة الهمزة والميم والراء خمسة أصول ، وهي :
الأول : واحد الأمور ، وهو بمعنى الشيء أو الشأن نقول : هذا أمر رضىته .. تريد واقع حالة ما أنت عليها .

والثاني الأمر ضد النهي وهو واحد الأوامر^(١٧) نحو قولك : افعل كذا .

(١٧) قال الزبيدي عن التفريق بين الأمر بمعنى الشيء والأمر بمعنى ضد النهي باختلاف صيغة جمعها : « وقد وقع في مصنفات الأصول الفرق في الجمع . فقالوا : الأمر إذا كان بمعنى ضد النهي فجمعه أوامر . وإذا كان بمعنى الشأن فجمعه أمور . وعليه أكثر الفقهاء . هو الجاري في السنة الأقوام .

وحقق شيخنا في بعض الحواشي الأصولية ما نصه : اختلفوا في واحد أمور وأوامر ، فقال الأصوليون : إن الأمر بمعنى القول المخصص بجمع على أوامر ، وبمعنى الفعل أو الشأن بجمع على أمور . ولا يعرف من وافقهم إلا الجوهري في وقوله : أمره بكذا أمراً وجمعه أوامر .

وأما الأزهري فإنه قال : الأمر ضد النهي واحد الأمور .

وفي المحكم : لا يجمع الأمر إلا على أمور . ولم ينكر أحد من النحاة أن فعلاً يجمع على فواعل ، ثم نقل شيخنا عن شرح البرهان كلاماً ينفي التامل فيه .

وفي المصباح : جمع الأمر أوامر ، هكذا يتكلم به الناس .

ومن الأئمة من يصححه ويقول في تأويله : إن الأمر مأثور به . ثم حول المفعول إلى فاعل . كما قيل أمر عارف وأصله معروف ، وحيثما راضية وأصله مرضية .. إلى غير ذلك . ثم جمع فاعل على فواعل ، فلوامر جمع مأثور .

وبعضهم يقول : جمع على أوامر فرقاً بينه وبين الأمر بمعنى الحال ، فإنه يجمع على فاعله .

والثالث : النماء والبركة ، وهو الأمر بفتح الميم يقال أمر الشيء بكسر الميم بمعنى كثر أمراً .

والرابع : المعلم ، والعلامة أماراً .

والخامس : العجب وعليه قوله تعالى : ﴿ لقد جئت شيئاً إمرأياً ﴾^(١٨) .

قال أبو عبد الرحمن : الأصل في هذه المعاني المعنى الثاني وهو ضد النهي ، وحقيقتها أنه طلب فعل ما كفعل القلب أو العقل أو اللسان أو بقية الجوارح .

وإذا كان المطلوب تركاً ما سمي في لغة العرب نهياً .

فالأمر أحد قسمي الطلب ، وجميع معاني أمر تعود إليه ، فالأمر بمعنى الشيء أو الشأن حاصل بأمر الله .

والأمر بمعنى النماء والبركة جاء على وزن الفعل بفتح الفاء والعين وهو مصدر أمر يكسر الميم غير المتعدي ، ويسمى بصيغة هذا المصدر ما كان بمعنى المفعول كالنفض وما كان بمعنى الفاعل كالخدم^(١٩) .

والأصل في هذا المعنى ضد النهي ، لأن النماء والبركة بأمر من

(١٨) مقاييس اللغة ١ / ١٢٧ - ١٢٩ باختصار وتفسيرات من قلبي .

قال أبو عبد الرحمن : العجب نتيجة المعنى وليس هو المعنى . قال الراغب في المفردات ص ٢٥ : « وقوله تعالى : ﴿ لقد جئت شيئاً إمرأياً ﴾ أي منكراً من قولهم أمر الأمر أي كبر وكثر وكقولهم استعمل الأمر .

(١٩) ديوان الأديب ١ / ٨٠ .

الله ، فالأمر الاسم المفتوح الميم بمعنى المأمور به من الله سبحانه
بذلاله صيغة الفعل .

وليست لمطلق المأمور به من الله ، بل لخصوص المأمور به أمر
بركة ونماء ، بدليل صيغة فعل الأمر بكسر الميم لأن هذا الفعل
للأعراض كالحزن وضده ، والعيب وضده (٢٠) .

وبقيد مدلول الصيغة بخصوص النماء والبركة دون غيرها من
العلل بمقتضى الوضع اللغوي لمادة الهمزة والميم والراء على صيغة
الفعل بفتح الفاء وكسر العين .

وبذلك على أن الأمر بمعنى النماء والبركة مأخوذ من ضد
النهي لأنه بأمر من الله : أن بعض اللغويين ربط بين أمر ضد نهى ،
وأمر بكسر الميم بمعنى كثر ربطاً يراد به تفسير الثاني بالأول ،
فابن فارس مثلاً لما ذكر أمر بكسر الميم بمعنى كثر عطف عليه
قول الأصمعي تفسيراً له .. قال : « قال الأصمعي : يقول العرب
خير المال سكة مأبورة (٢١) أو مهرة مأبورة ، وهي الكثيرة الولد
المباركة .

(٢٠) انظر شرح شافية ابن الحاجب للإسكندراني ١ / ٧١ - ٧٣ .

(٢١) قال الزبيدي في تاج العروس ١٠ / ٦ طبعة الكويت : « السكة المأبورة المصطفة من
الحل ، والمأبورة الملقحة يقال : أبرت النحلة وأبرتها ، فهي مأبورة ومؤبرة .
وقيل : السكة سكة الحرث ، والمأبورة المصلحة له .. أراد خير المال نتاج أو زرع » .

ويقال أمر الله ماله وأمره (٢٢) ومنه مهرة مأبورة (٢٣) .

والعلامة أمارة لأنه ياتمر بها ، أو يستدل بها على أمره
بمعنى شأنه .

وأما المعنى الخامس وهو العجب فقد مضى في التحشية بيان
رجوعه للمعنى الثالث وهو النماء .

وقد أسلفت بيان عود معنى النماء إلى الأمر بمعنى أحد قسمي
الطلب الذي هو ضد النهي .

قال أبو عبد الرحمن : اتضح أن أصل المادة معنى الأمر الذي هو
ضد النهي .

وها هنا تحديد المعنى اللغوي (بجمع ومنع على قدر الطاقة) لما
عرفناه بأنه أمر ضد النهي .

(٢٢) أي أمره بالنماء والبركة فأمر بكسر الميم أي نما وثبارك .

(٢٣) مقاييس اللغة ١ / ١٢٨ .

واختار الراغب في المفردات ص ٢٥ اشتقاقاً آخر ، إذ جعل الأمر من الأمير فقال :
« وقيل أمر القوم إذا كثروا ، وذلك لأن القوم إذا كثروا صاروا ذا أمير من حيث أنهم
لا بد لهم من سانس » .

قال أبو عبد الرحمن : لا يصح هذا التعليل على كثرة مال الفرد ،
وما استدللت به انفاً مرجح لما اخترته .

وفي عمدة الحفاظ للسمين ١٠ / ١٢٨ : « لأنهم لما كثروا صاروا ذوي أمر من حيث إنه
لا بد لهم من سانس » .

قال أبو عبد الرحمن : الصواب : ذوي أمر ، وأما كلمة أمر فطبيخ .

وأقدم لذلك بذكر اختلاف بين عبارات اللغويين والنحاة في تعريف الأمر ، فهو عند اللغويين استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء .

وصرح صاحب المفتاح بأن الأمر في اللغة عبارة عن استعمال نحو لينزل ونزال على سبيل الاستعلاء (٢٤) .

وقال الجرجاني : « الأمر قول القائل لمن دونه افعل » (٢٥) .

وهو في عرف النحاة صيغة افعل خاصة بلا قيد الاستعلاء والعلو .

قال الكلوي « على ما هو الظاهر من عبارة السيد الشريف » (٢٦) .

وقال الفاكهي : « الأمر كلمة دلت على الطلب بذاتها مع قبول ياء المخاطبة » (٢٧) .

قال أبو عبد الرحمن : النحاة في تعريفهم للأمر لا يهتمهم من معناه غير مدلول الطلب سواء كان أمراً باصطلاح أهل الأصول ، أم

(٢٤) الكليات ١ / ٢٩٢ .

(٢٥) التعريفات ص ٣٨ .

(٢٦) الكليات ١ / ٢٩٢ وفي معجم الشامل في علوم اللغة ص ١٧٩ أن فعل الأمر ما دل على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب .

وفي معجم القواعد العربية ص ٨٩ ما يطلب به حصول شيء نحو اقرأ .

وفي المعجم المفصل ١ / ٢٢٥ - الأمر طلب فعل صادر ممن هو أعلى درجة إلى من هو أقل منه .

قال أبو عبد الرحمن : هذا تعريف اللغويين لا النحويين .

(٢٧) شرح كتاب الحدود في النحو ص ١٠١ .

دعاء ، أو التماساً ، أو تعجيزاً ... إلخ ، لأن أهم ما يهم النحوي الشكل المتعلق بصيغة الأمر هل هو مبني على السكون أم مبني على غير ذلك ؟ . أما وظيفة الصيغة - أي معنى صيغة افعل مثلاً - فلا يهتم بها إلا بقدر ما يخدم الشكل .

وإعراب صيغة الطلب لا يتأثر بكون وظيفة الصيغة للأمر أو الدعاء أو الالتماس ، فالإعراب واحد .

لهذا لا يشترط التحوي معنى الاستعلاء ، وإنما حسبه أن تكون الصيغة طلبية .

وأشار محمد سعيد أسبر وبلال جنيدي إلى اصطلاح البلاغيين فقالوا : « الأمر عندهم من أنواع الإنشاء الطلبي ، وهو طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام » (٢٨) .

قال أبو عبد الرحمن : تحديد معنى الأمر لغة لا يتوقع سماعه من عربي فصيح ، ولا يتوقع وجوده منصوباً عليه في المعجم . لأن العربي الأمي الفصيح لا يحدد معاني كل كلمة يقولها ، فيقول مثلاً إنني أستعمل : افعل للأمر والندب والإباحة والتعجيز ... إلخ .

وإنما يستعمل مثل اضرب والعب وأبعد فيعرف سامعه معنى كلمته في سياقها ويشواهد حالها وقرائنها .

وكل تعريف للأمر في كتب اللغة أو النحو أو البلاغة إنما هو

(٢٨) الشامل ص ١٨٠ - ١٨١ .

اصطلاح علماء ، فليس هو سماعاً من القاصعاء بحيث يقال : لا اجتهد مع النص .

إنه اجتهد علماء ، ولهذا حصل فيه الاختلاف .

وإن نحرص على اجتهد محرر نجزم فيه بالنتيجة بيقين أو رجحان ، وسبيل ذلك الاستقراء ، فنرى من استقراء كلام العرب للصيغ التي عرفت بأنها طلبية كصيغة افعل أنها تدل على طلب فعل يطلب المتكلم إحداثه من المخاطب .

والأصل تفريزه اللغة من العبث لأنها للتفاهم بين البشر وتحديد المراد ، فيكون الأصل من المتكلم عازم على إيقاع الفعل من قبل المخاطب .

وأن يكون المأمور قادراً على فعل المأمور به ، لأن طلب غير المقنن عليه عبث إلا لنكتة تخرج الأمر عن أصله .

ووجدنا في اللغة طلباً يسمى دعاء ، وطلباً يسمى التماساً ، وطلب الأمر ، فعلمنا من الاستقراء أن الأمر حالة طلب الأعلى أو من يدعي العلو ، وأن التماس من الند ، وأن الدعاء من الأدنى .

ووجدنا في اللغة طلب غير مقنن عليه من قبل المأمور لنكت منها التعجيز ، فعلمنا أن تحقيق المطلوب غير مراد ، وإنما المراد إظهار العجز عنه ، فكان هذا غير أمر لتخلف عنصر القدرة .

وإن فتحليل أركان الأمر من الأمر والمأمور والمأمور به أمام صيغة الأمر التي عرفت بأنها طلبية يخل لنا تحديد الأمر بتحديد

تنسبه إلى العرب ، ونقول : إنه هو مفهوم الأمر عندهم ، لأنه مستقراً من لغتهم .

وحينئذ يكون تحديد الأمر لغة بأنه صيغة الطلب إذا صدرت من الأعلى أو مدعي العلو إلى الأدنى لتحقيق مأمور به مقنن عليه على سبيل الإلزام ، لأن هذا المعنى هو المستقراً ، وهو الأصل ، ولا يخرج عن هذا الأصل إلا ما دل الاستقراء على اقتترانه بنكتة تخرجه عن المفهوم المذكور آنفاً للأمر .

وكل دليل قام على أن الأمر لا يريد تحقيق المأمور به ، أو أن المأمور به غير مقنن عليه ، أو أن الأمر غير عالٍ أو لا يدعي العلو ، أو يتخلى عن مسؤوليته أمراً (أي في درجة العلو كالأمر المحمول على التبرؤ) : فإن الطلب حينئذ يفسر بأحد أمرين :

إما أنه غير أمر كالتعجيز ، ولكنه ورد على صيغة الأمر مجازاً وهو مصروف عن جميع معناه .

وإما أنه أمر صرف عن بعض معناه كالأمر بمعنى الندب .

قال أبو عبد الرحمن : إذن الأصل في كل صيغة طلبية أنها أمر للوجوب .

وما قام الدليل على أنه مراد به غير الوجوب فهو خلاف الظاهر ، وقد صحت إرادة المتكلم له وخروجه عن ظاهر اللغة إلى مجازها بدليل .

وما كان أصلاً فيستصحب وقت الخلاف ، ويبنى عليه حتى يوجد برهان على خلافه .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم : «الذي يفهم من الأمر أن الأمر أراد أن يكون ما أمر به ، وألزم المأمور ذلك الأمر» (٢٩) .

ومن أنكر أن الأصل في الأمر ليس هو الوجوب ، ورأى التوقف حتى يقوم دليل آخر على تعيين المراد من بين الاحتمالات التي تحتلها صيغة الأمر يدفع القول بأن الأصل في الأمر الوجوب على هذا النحو من الاعتراض الذي قرره أبو محمد بلسان أهل الوقف : لو كان لفظ الأمر موضوعاً للإيجاب لم يوجد أبداً إلا كذلك .

لكل ما وجدنا - بلا خلاف من أحد - أوامر معناها التدب أو الإباحة : وجب أن لا تصرف الألفاظ إلى بعض ما تحتمله من المعاني دون بعض إلا بدليل (٣٠) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا التقرير يوحى بأنهم سيحملون صيغة الأمر على كل معانيها .

ولكن ما ذكره أبو محمد عنهم بعد ذلك دل على أنهم عطلوها عن جميع معانيها بتوقفهم .

وقد قرر أبو محمد هذا الصنيع منهم (٣١) .

٤ - المسألة الرابعة : بيان معاني أوامر في قوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ ، وبيان الأصل في دلالة الأمر بعد الحظر ، وبيان المذاهب في ذلك ، وتحرير محل النزاع فيها ، وحل

(٢٩) الأحكام ٣ / ٢٢٩

(٣٠) الأحكام ٢ / ٢٢٠

(٣١) راجع الأحكام ٢ / ٢٢٠

هذه المسألة بتفريع موضوعين يحتمل تعلق الأمر بهما :

ثمة خمسة أوامر وردت في قوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ ، وهي قوله تعالى : ﴿ فالآن يا مشركون ﴾ ، وقوله ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ وقوله ﴿ وكلوا ﴾ ، وقوله ﴿ واشربوا ﴾ وقوله ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ .

ومباحث هذه المسألة ذات شقين :

الشق الأول : نوعية هذه الأوامر في هذا الموضع بالذات بدلالة سياق الآية ، ودلالة سبب نزولها ، ودلالة معهود الشرع في حكم هذه الأشياء .

والشق الثاني : نوعية الأمر بعد الحظر إذا عدت القرائن ، وذلك مبحث أصولي .

فأما الشق الأول : فالأمر بالنكاح هنا للإباحة وارتفاع الحرمة ، ولا يجب على المسلم أن ينكح في كل ليلة ، وإنما يفعل إذا وجدت رغبته في أية ليلة .

وأما الأكل والشرب فولجيان ، لأن غيرهما الوصال وهو محرم . وأما ابتغاء ما كتب الله لنا فيأتي حكم الأمر به إن شاء الله ذيلاً لمعنى الابتغاء المطلوب .

وأما إتمام الصيام إلى الليل فواجب بدليلين :

أولهما : نصوص الشرع التي حددت وقت الصيام خلال كل يوم بيليته .

وثانيهما : هذه الآية ذاتها ، لأن الأمر فيها ليس مستثنى ولا بديلاً من الحكم المنسوخ ، إذ المنسوخ بدلائل الشرع حظر المفطرات في الليل فقط ، وأما إتمام الصيام إلى الليل فهو حكم جديد .
والأصل في الأمر الوجوب حتى يقوم دليل على خلافه .
وأما الشق الثاني وهو نوعية الأمر بعد الحظر إذا عدت القرائن ، فالأمر ما هنا لرفع المحذور ، وهو إباحة ما كان منهيّاً عنه من قبل .
وللأصوليين ستة مذاهب في نوعية الأمر إذا جاء بعد الحظر ، فالمذهب الأول : أن الأمر للإباحة .
والمذهب الثاني : أن الأمر للوجوب .
والمذهب الثالث : أن الأمر كما هو قبل الحظر ، وعلى هذا لا يكون الحظر قرينة مؤثرة .
والمذهب الرابع : أنه للحظر إن كان بمادة أمر ، وللإباحة إن كانت دلالته دلالة صيغة من غير مادة الأمر كصيغة بأشمر وكل واشرب .
والمذهب الخامس : أن الحظر إن كان عارضاً بعبء وعلقت صيغة الأمر بزوالها فالأمر يعود إلى حالة قبل الذم مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حُلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ ، فالاصطياد قبل الحكم مباح ، فهو بعده كذلك .
فإن كان الحظر غير عارض بعبء ولم تكن الصيغة من مادة أمر فالأمر متردد بين الإيجاب والنسب .. الحظر قرينة ترجح احتمال الإباحة .
فإن كانت الصيغة من مادة أمر فالأمر يحتمل الوجوب والنسب ولا يحتمل الإباحة .

وهذا المذهب كما ترون رخو لا يحدد شيئاً .
والمذهب السادس : التوقف .
قال أبو عبد الرحمن : وبين هذه المذاهب تداخل فالمذهب الثالث القائل : إن الأمر كما هو قبل الحظر : يدخل فيه من قال أصل الأمر الوجوب بإطلاق ، ومذهب من قيد إطلاق الوجوب بمرور المادة من صيغة أمر ، ومذهب من قال بالتوقف .
ولا يدخل فيه مذهب من قال بالإباحة لأنني لا أعلم قائلًا يقول أصل الأمر قبل الحظر الإباحة .
وأما المذهب الخامس الذي وصفته بالرخاوة وأنه جعل كل الصور احتمالية : فقد أدخل في محل النزاع ما ليس منه مثل إباحة الاصطياد مع العلم أن الاصطياد بعد الحل ليس إباحة للاصطياد في الإحرام قبل الحل .
وإنما محل النزاع لو كان ربنا سبحانه حرم الاصطياد في الإحرام ثم أمر باصطياد في الإحرام .
وأما التفريق بين صيغة أفعل من غير مادة أمر ، وبين الإيجاب من مادة أمر فلا أرى صحته . لأن الإيجاب من مادة أمر دلالة مادة ، والإيجاب من صيغة كصيغة أفعل دلالة صيغة ، وكلاهما دلالتان لغويتان عربيتان .
والمذهب الثالث : خارج عن محل النزاع ، لأن التماس درجة الأمر قبل الحظر التماس دلالة خارجية .

ومحل النزاع إنما هو مقدار دلالة الأمر بعد الحظر دون دلالة من خارج .

والخلاف بين الأصوليين في هذه المسألة وسيع الهوة ، وسبب ذلك عدم تحرير محل النزاع بدقة .

والذي أراه في هذه المسألة أن الله إذا حرم شيئاً ثم تكرم سبحانه برفع حرمة أمراً بفعله : فإن ذلك الأمر يحتمل تعلقه بأحد موضوعين أو بهما معاً .

أحدهما رفع الحرمة ، فالأمر برفعها أمر إيجاب في الأصل . فإذا كان المحرم ترك فعل ما فلا يتصور رفع الحرمة إلا بفعل ما كان محرماً .

وإذاً فلا يتصور الأمر برفع حرمة مباشرة النساء ليلة الصيام إلا بفعل المباشرة .

فالأمر بعد الحظر من هذه الجهة للإيجاب ، فواجب اعتقاد أن المحرم أصبح مرتفعاً جاتراً فعله .

وتحليل ما حمله الله يكون بفعله ، ويكون باعتقاد حله وإن لم يفعله . فالمكلفون مأمورون باعتقاد الحل وزوال الحظر ، واعتقاد الحل يعني الخيار في الفعل والترك .

ودلالة الأمر ها هنا استنباطية عقلية لا يحتمل العقل بواسطة النص غيرها .

وبيان ذلك أن الأمر بفعل الشيء - سواء أكان أمر إيجاب أم

ندب - بعد تحريم فعله تضمن الأمر باعتقاد أن الحرمة زالت ، وأدنى ما تزول به الحرمة الإباحة ، لأن من لم يستريح فعل ما كان منهيًا عنه بعد الأمر بفعله عاصٍ للأمر .

ومن فعل المنهي عنه بعد الأمر به مرة واحدة في عمره - وظل على عقيدته بأن المنهي عنه أصبح مباحاً - فقد فعل المأمور به القاضي برفع الحرمة .

وموجز القول : إن الأمر بالفعل أمر بفعل المباح ، وفعل المباح يكون بفعله ولو مرة واحدة مع اعتقاد الحل .

والأمر ها هنا أمر إيجاب ، والامتثال يكون بمقدار ما يحقق زوال الحرمة .

وثاني الموضوعين الذي يُظنُّ أنه يتعلق به الأمر بعد الحظر : فعل المأمور به بقض النظر عن ارتباطه بالحظر الملغى .

والصواب أن هذا الموضوع لا يتعلق به الأمر لذاته ، وإنما أمر به لأجل رفع الحرمة .

وحينئذ يقال : المأمور به بعد الحظر يُفعل لأجل زوال الحظر ، فهو أمر بالفعل لتحقيق معنى الإباحة وزوال الحظر .

من هذا الوجه يقال : الأمر بعد الحظر للإباحة ، لأن المكلف غير مطلوب منه لذات المأمور به ، وإنما طلب منه لأجل تحقيق رفع الحظر ، فهذا معنى كون الأمر بعد الحظر للإباحة .. والأمر بامتثال رفع الحظر أمر إيجاب ، فهذا معنى كون الأمر بعد الحظر للإيجاب .

والنصوص التي جاء فيها الأمر بعد الحظر ، ثم كان المأمور به راجعاً ، يفسر وجوبها بأن ذلك الإيجاب علم بدليل من خارج ، ومسألتنا هذه إنما هي عن دلالة أصل الأمر بعد الحظر بكون وجود دلالة من خارج .

وتحديد دلالة الأمر بعد الحظر بأنها لرفع الحظر واعتقاد الحل نفسك بظاهر النص حتى تقوم زيادة دلالة عليه ، لأن رفع الحظر بعد الأمر مطلب نصي لا يجوز إلغاؤه ، ولا تجوز الزيادة عليه بلا برهان . وما قررته هنا خلال تأصيل الإمام أبي محمد ابن حزم - رحمه الله تعالى - فقد ذهب إلى أن الأمر بعد الحظر للإيجاب ، ولم يستدل عليه ، وإنما اعترض على مذهب ودليل من خالفه ، والمنهج أن يستدل المجتهد لمذهبه ثم يعترض بعد ذلك على المذاهب الأخرى ويناقشها بالعدل والإنصاف .

قال أبو محمد : «وقد ادعى بعض من سلف أنه تقرأ الأوامر كلها الواردة بعد الحظر فوجدتها كلها اختياراً أو إباحة . وذكر من ذلك قول الله تعالى : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ . قال علي [أبو محمد ابن حزم] : وقد أغفل^(٣٣) هذا القائل ... فقد قال الله تعالى : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ .

(٣٣) غفل : ترك شيئاً ينبغي الالتفات إليه .

فكان الفطر بالأكل والشرب فرضاً لا بد منه .
بين ذلك النهي عن الوصال^(٣٤) .

قال أبو عبد الرحمن : المتع من الوصال الدال على وجوب الأكل والشرب دليل خارجي ، فلا يرد اعتراض أبي محمد على من قال : الأصل الإباحة حتى يقوم دليل .

ثم إن أبا محمد أغفل دليلهم الذي استدلوا به ، ونصب للاعتراض ما لم يستدلوا به ، فإن دليلهم حل مباشرة لا وجوبها ، ولم يستدلوا بأمرى الأكل والشرب على أنهما للإباحة .

فدليلهم على أن الجماع للزوجة وملك اليمين حلال قائم على قاعدة أن أصل الأمر بعد الحظر للإباحة إذا عدت القرائن . وأبو محمد لم يدفع هذا بشيء ، وإنما كلامه عن الأكل والشرب ، خارج عن محل الدعوى .

وعوداً على بدء أقول : من ذهب إلى أن الأمر بعد الحظر للإباحة «ولم يفصل التفصيل الذي ذكرته عن تعلق الأمر بفعل المأمور به لذاته ، أو تعلقه بالمأمور به لأجل رفع الحظر» فلا تلزمه دعوى تعطيل الأمر ، بل مذهبه أنه مأمور أمر إيجاب بأن يفعل المأمور به بمقدار ما ترتفع الحرمة ، ويكون ذلك ولو بفعل المأمور به مرة واحدة مع اعتقاد الحل . أما من قال : الأمر للإيجاب ، فيلزمه أن المأمور به واجب لذاته

(٣٤) الإحكام في أصول الأحكام ٣ / ٨ - ٩ - ١٠

في الأصل ، ويلزمه إغفال دلالة علاقة الأمر ببعدية الحظر .

٥ - المسألة الخامسة : بيان معنى التأويل ، والتمثيل لصور من التأويل الباطل :

السلف يثبتون معاني أسماء الله وصفاته بدون تشبيه أو تعطيل أو تحريف أو تأويل .

والمقصود بالتأويل المحرم ، ولهذا يلزم بيان معنى التأويل وما يحرم منه وما يحل .

لقد ذكر ابن قيم الجوزية وغيره أنه استعمل التأويل في عرف المسلمين بمعنيين :

أحدهما : تفسير الكلام كما نجد في تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري حينما يعبر عن تفسير كل آية بقوله : تأويل الآية .

ويقول : قال أهل التأويل .. وهو يريد أهل التفسير .

ووجه التعبير بالتأويل عن التفسير : أن التفسير يكشف عن معنى الكلام الذي يؤول إليه مراد المتكلم .

ولقد بين ابن فارس معنى تأويل الكلام في لغة العرب ، فقال :

«تأويل الكلام ، وهو عاقبته وما يؤول إليه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ [سورة الأعراف / ٥٣] .

يقول : ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم» (٢١) .

وقال الراغب الأصفهاني : «تأويله : بيانه الذي هو غايته المقصودة منه» (٢٥) .

والذي قبل هذه الآية مباشرة عن يوم القيامة قال تعالى :

﴿ فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ ثم ذكر القرآن الذي أخبر بالبعث فقال : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ .

ثم قال : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

فمعانيهم لحالهم يوم البعث هو معنى البعث الذي أُنذِر به القرآن والذي يؤول إليه الأمر .

وثانيهما : صرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى غير ظاهر بدليل من خارج .

قال أبو عبد الرحمن : ليس هذا قسماً مستقلاً ، ولكنه جزء من المعنى الأول ، فهو يذكر مال الكلام وعاقبته بدليل من خارج .

وهذه الصورة من التأويل التي عدّها ابن قيم الجوزية وغيره معنى آخر للتأويل اختلف العلماء في وجودها .

فمنهم من أثبت معنى غير ظاهر دل عليه الدليل ، وسموه المعنى المرجوح وسموا المعنى الظاهر الراجح .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴾ [سورة البقرة / ١٨٧] .

فالمعنى الظاهر غير المراد خيوط الحبال .

والمعنى غير الظاهر المراد بياض النهار وسواد الليل وليس هو خيوط الحبال .

وقد قام الدليل من السنة المطهرة على أن المراد المعنى غير الظاهر .
ومنهم - أمثال ابن قيم الجوزية في كتابه «الصواعق المنزلة» -
من يرى أن المراد هو الظاهر ، والعبرة بسياق الكلام الدال على مراد
المتكلم مثقال ذلك قوله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد
جمعوا لكم﴾ [سورة آل عمران / ١٧٣] فليس المعنى الظاهر جميع
الناس ، وغير الظاهر المراد بعض الناس .

بل الظاهر المراد بعض من الناس لأنه يمتنع ويستحيل إرادة
جميع الناس الموجودين على الأرض وقت نزول الآية ، وممتنع إرادة
جميع الناس ممن ولد ومات وممن سيولد .

قال أبو عبد الرحمن : ما سماه ابن قيم الجوزية ها هنا ظاهراً
إنما هو ظاهر الدليل من خارج ، وليس هو ظاهر الكلام مجرداً من
دليل من خارج .

ألا ترى أن ظاهر الكلام في قوله تعالى من سورة النحل : ﴿فإذا
قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ غير ظاهر البرهان
الخارجي القاضي بأن الاستعاذة قبل التلاوة لا بعدها .

والمراد هو ظاهر البرهان الخارجي لا ظاهر الكلام مجرداً من
برهان خارجي .

وقد قسم ابن قيم الجوزية مدلول الكلام لبيان ما هو الظاهر ،
وجعل تقسيمه على هذا النحو :

أ - أن يحتمل الكلام عدة معانٍ مثل الخيط بمعنى الحبل ،
ويعنى البياض والسواد .

فمراد المتكلم هو الظاهر ، لأنه لا يكون ظاهراً مراداً إلا بآلة
ومرجحات .

قال أبو عبد الرحمن : الأدلة والمرجحات تظهر المراد ، ويكون
المراد غير ظاهر الكلام في ذاته ، بل يظهر المراد - وهو غير ظاهر
الكلام - بآلة أخرى .

ب - أن لا يحتمل سوى معنى واحد كقوله تعالى ﴿قل هو الله
أحد﴾ فليس له معنى آخر سوى أن الله أحد .

فهذا ظاهر غير محتمل ، وذلك ظاهر عارضه احتمال مرجوح .
ج - أن يكون مجعلاً غير ظاهر المراد كالأمر بقطع يد السارق
فهذا مجمل أظهرت السنة وبيئت المراد منه بتحديد العضو الذي يقطع ،
والمبلغ الذي يقطع فيه ، ومتى يكون القطع .

قال أبو عبد الرحمن : قد يكون بيان السنة ظاهراً شرعياً ، ويكون
مجمل الشرع ظاهراً لغوياً ، فيبين ظاهر اللغة الأعم بظاهر المراد
الشرعي الأخص .

ويقول ابن قيم الجوزية : «الصواب تأويل التفسير لا تأويل
التحريف» .

وسماه تحريفاً لأنه تحريف للمعنى المراد إلى معنى غير مراد .
أما تحريف اللفظ فيعني تغييره ليبدل على معنى آخر كصرف
اليهود كلمة راعنا الفعل إلى كلمة راعنا الاسم ، وكإسقاط بعض
النص وهذا فعله اليهود عندما حذفوا كلمة : ﴿ غير ﴾ في قوله تعالى :
﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ في طبعة من المصحف الكريم
سوقها في إفريقيا منذ خمسة وعشرين عاماً .

ولقد نقص ابن قيم الجوزية الطرق التي يكون فيها التأويل تأويل
تحريف محرم ، وذلك في الجزء الأول من كتابه « الصواعق المنزلة » .

قال أبو عبد الرحمن : ومن صور التأويل الباطلة التالية :

١ - أن ينفي التأويل سياق الكلام وإن كان صحيحاً في
استعمال العرب كالرجل يصلح تجوزاً استعمالها بمعنى جماعة الناي
على التشبيه بالرجل من الجراد .

ولكن هذا المعنى لا يصلح في كل سياق كما في سياق قوله ﷺ
عن النار : « ثم يضع رب العزة عليها رجله » .

رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير .

فلا يجوز تفسير الرجل ها هنا بجماعة الناس .

٢ - تفسير الكلام بمعنى لا وجود له في لغة العرب كتفسير
الاستواء بالاستيلاء .

٣ - نقص المعنى وإذهاب شرفه كتفسير ﴿ فوق ﴾ في قوله
تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ بمعنى فوقية الشرف كما يقال

الدرهم فوق الفلس .

والآية لا تقارن بين فوقية الله وفوقية العباد في الشرف جاشاً لله
من ذلك .

وإنما المراد علو الله ومباينته لهم .

٤ - الفرار إلى معنى أشنع كتأويل الاستواء بالاستيلاء فمعنى
هذا أنه كان غير مستول عليه ثم قهره واستولى عليه ، وهذا معنى
شنيع يناقي الربوبية والقدرة .

وبين ابن القيم أن من أسباب التأويل المحرم أن المأول يفهم
النص فهماً باطلاً فيصرفه إلى أشنع منه .

فيفهم مثلاً من إثبات الرجل لله تشبيهه بخلقه فيصرف دلالة
الرجل إلى معنى الجماعة ، وربما صرف المعنى إلى أشنع وهو العدم
حينما يعطل الكلمة من معناها فيقول : سميع بلا سمع .

٦ - المسألة السادسة : الاعتبار الشرعي مع المعنى اللغوي ، وذكر
نماذج من المغالطة في المناظرة التي بنى عليها الأسمندي كتابه في الخلاف :
قال أبو عبد الرحمن : من الكتب النفيسة في منهجها كتاب
« طريقة الخلاف في الفقه » للفقير الأصولي الجدلي العلاء محمد بن
عبد الحميد الأسمندي الحنفي المتوفى سنة ٥٥٢ هـ ، وقد ألفه على
سبيل المناظرة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي (١٦) .

(١٦) قال أبو عبد الرحمن : ألف في ذلك البيهقي والزمخشري ، وقد حقق كتاب الأول وطبع كتاب الثاني

ومن مسائل هذا الكتاب : انتصاره لجواز الصلاة بوضوء دون نية ولا ترتيب بأدلة مغلطائية، وسبب المغالطة في دليله الأول أنه فصل بين الاعتبار الشرعي والمعنى اللغوي، فجعل حصول معنى الطهارة لغة كافياً في جواز الصلاة، فالطهارة تحصل باستعمال الماء، والماء طهور، فالخلاصة أن الطهارة تحصل باستعمال الماء الطهور لا بالنية ولا بالترتيب .

قال أبو عبد الرحمن : الشرع قد يرتب الحكم على وجود الطهارة دون شرط كالنجاسة العينية تحصل الطهارة منها بزوالها دون اشتراط نية أو ترتيب في تطهير المحل .

وقد يرتب الشرع الحكم على المعنى اللغوي ويشترط مع ذلك اعتبارات أخرى ، فلا يعتبر الطهارة إلا بنية وبهينة مخصوصة كطهارة الوضوء .

وحينئذ لا يجوز الشغب على الشرع في الأخذ بالمعنى اللغوي والصد عن الاعتبار الشرعي ، بل المعنى اللغوي والاعتبار الشرعي مطلبان شرعيان .. بل قد يكون الاصطلاح الشرعي مكوناً من المعنى اللغوي والاعتبار الشرعي كالعمل ، فإنه جزء من معنى الإيمان في الاصطلاح الشرعي ، لأنه اعتبار شرعي .

ومعنى الاعتبار : أن الشرع حكم بالعمل ، فصار جزءاً من معنى الإيمان باعتبار الشرع لا بمدلول اللغة .

قال أبو عبد الرحمن : وحينما يصير الأسمندي - رحمه الله

تعالى - على المعنى اللغوي للطهارة نرى إصراره على إلغاء الاعتبار الشرعي .

فالطهارة من نجاسة عينية تكون بزوالها ، ولم نجد في الشرع اعتبار النية والترتيب .

والطهارة من نجاسة حكمية كالوضوء تكون باستعمال الماء الطهور ولكن بإضافة اعتبارات شرعية كالنية والترتيب .

إلا أن الأسمندي سوى بين الطهارتين تسوية تتعسك بالمعنى اللغوي وتلغي الحكم الشرعي ، فزعم أن الاختلاف بين الطهارتين اختلاف في النوع لا يمنع من دخولهما في مطلق اسم الطهارة ! .

وجعل الاختلاف بين الطهارتين كالاختلاف بين الرقبة التركية والهندية لا يمتنع دخولهما في مطلق اسم الرقبة في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٌ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٌ ﴾ [سورة النساء / ٩٢] .

قال أبو عبد الرحمن : هذا تسوية مع الفارق ، لأن الله لم يعلق الحكم في عتق الرقبة بغير وصف الإيمان ، فإذا وجد الوصف صح عتق الرقبة المسترققة من كل بلد وجنس ، فالاختلاف بالنوع ما هنا غير معتبر .

وهذا بخلاف الوضوء فلم يعلق الله الحكم فيه بحصول استعمال الماء الطهور في غسل الأعضاء فتحصل الطهارة الشرعية . بل شرع

لهذا الاستعمال أحكاماً من النية والترتيب ، فلا يكون الوضوء معتبراً شرعاً إلا بها .

فالمناظرة العادلة تنصب على الأحكام المتعلقة بالوضوء ليعلم هل هي مشروعة ، وما درجة مشروعيتها من الوجوب أو الندب أو الإباحة ، وما مدى صحة الوضوء بدونها .

والمناظرة الظالمة هي التي تتمسك بالمدلول اللغوي وتتجاهل ما ورد شرعاً منعلقاً بالوضوء واعتبره العلماء مقيداً للمدلول اللغوي ، إذ أسلفت أن الاعتبار الشرعي يكون جزءاً من المدلول باصطلاح شرعي . ولا يقولون قائل : إن الأسمندي ناقش أدلة من اشترط الترتيب والنية .. فهذا لا يكفي ، لأن الأسمندي أصل أولاً بإلغاء الوارد شرعاً متعلقاً بالوضوء .. ألغى دلالة الزائدة على المدلول اللغوي .

واللغوي منهج ، فالصواب جعل هذا الإلغاء آخر المسألة ليقول في النهاية : لم يصح عندي بما أوردته من استدلال اشتراط الترتيب والنية ، فإنا أتمسك بالمفهوم اللغوي أن الطهارة تحصل باستعمال الطهور بدون ترتيب ولا نية .

والفرق بين المنهجين : أن التقديم بالتمسك بمدلول اللغة يعني أن الوارد شرعاً غير معتبر .

أما تأخير التمسك بمدلول اللغة فيعني أنه الأصل إذا عدم الوارد شرعاً .

وارتكب الأسمندي - رحمه الله - مغالطة ثانية عندما جعل

حصول الطهارة حسيماً مجزئاً للصلاة ، وعد هذا قياساً على مواضع الإجماع .

والواقع أن العلماء أجمعوا على أن استعمال الطهور لغة ما تحصل به الطهارة شرعاً .

ولم يجمعوا على أنه كل ما تحصل به الطهارة .

واقترض الأسمندي أن الشافعية ستقول : ليس الطهور اسماً لما يظهر غيره ، بل هو اسم للطاهر على سبيل المبالغة مثل الأكل فهو اسم للأكل على سبيل المبالغة .

واكتفى في رد ذلك بقوله : « بل اسم للعطهر في اللغة والتفسير » . قال أبو عبد الرحمن : هذا أردأ منهج في المناظرة ، لأنه واجه المثال بصيغة فاعول دالة على الأكل دون المؤكل بمجرد الاستمسك بدعواه . ومجرد الإصرار على الدعوى لا يكون برهاناً على ما يستجد من إيراد . قال أبو عبد الرحمن : والصواب في ذلك الإقرار بأن طهوراً - وما جاء على وزن فاعول - أبلغ مما جاء على فاعل .

فإن كان الأبلغ حقيقياً فقد اقترحت في كتابي عن « قبيل المغتاب » أن تسمى الصيغة صيغة بلوغ الغاية .

وإن كان البلوغ ادعائياً سميت الصيغة صيغة مبالغة .

وقد يقول قائل : إن مبالغة لا تعني الادعاء

قال أبو عبد الرحمن : فاعل تقتضي المتابعة من طرق واحد مثل سافر ، أو من طرفين مثل سائر .

وعلى هذا يبلغ المبالغ غاية حقيقة لا ادعاء بجهد .

قال أبو عبد الرحمن : وإنما اخترت بلوغ الغاية الحقيقي لأمرين :
أولهما : أنه استجد عرف لغوي بأن المبالغة تكون للادعاء ،

والبلوغ بجهد .

أما البلوغ فلا يعني الادعاء ، ولا الجهد .

وثانيهما : أن العبرة في الحقيقة بالوصول لا بالتوصيل .
فالمعبر لذلك البلوغ الذي يشمل البلوغ التلقائي والبلوغ عن مبالغة :
أي جهد .

كما أن العبرة في الادعاء المفاعلة - أي محاولة التوصيل - .

وليست العبرة بالوصول (وهو البلوغ) لأن المدعي لا يصل ،
فاختير للادعاء المبالغة .

قال أبو عبد الرحمن : وأعود إلى دفع الأسمندي ، فأقول : لا
معنى لإنكاره أن طهوراً تأتي للمبالغة والبلوغ .

وإنما ننظر مدلول المبالغة فنرى أن الماء طهور لأنه مطهر لغيره .
ولنا أن تصف شخصاً بأنه طهور لا بمعنى أنه يطهر غيره ،
ولكن بمعنى أنه كثير الطهارة بلوغاً أو مبالغة .. كالأكل كثير الأكل .

فالمبالغة أو البلوغ موجودان في الطهور الذي هو الماء ، وفي
الطهور الذي هو الرجل .

وإنما الخلاف في مدلول المبالغة أو البلوغ ، فالماء بلغ الغاية في
مفعوله ، والرجل بلغ الغاية في فعله .

والوصف بالفاعل (الطاهر) مشترك بين صيغتي طهورية الماء

وطهورية الرجل إلا أن في الطهور زيادة في الفعل أو المفعول .

والماء لا يحصل الطهر لنفسه ، بل خلقه الله طهوراً ، فمعنى
ذلك أن بلوغ الغاية في مفعوله (أو فعله في غيره) ، وليس في فعله
في نفسه .

وموجز القول أن مجيء طهور للمبالغة أو البلوغ لا ينبغي كونه
مطهراً لغيره ، لأن كونه مطهراً لغيره مع طهره في نفسه اقتضى
صيغة الطهور .

ومن الخلل في مناظرة الأسمندي أنه رد المثال الواقعي بأقول
بدعوى أن الطهور اسم للمطهر في اللغة والتفسير .

والموجود في هذين الحقلين الاختلاف لا الاتفاق ، فلا منفعة له
بالإحالة إلى مصادر الاختلاف ، وإنما عليه أن يحقق .

ووجه التحقيق أمران :

أولهما : ما ذكرته من أن الماء لا فعل له في نفسه حتى يكون
كثير الطهارة كالأكل كثير الأكل ، وإنما يعود إلى أصل خلقه فيكون
طهوراً .

فالطهورية صفة خلق عليها .

وثانيهما : دلالة الشرع المبينة لدلالة اللغة .

فنجده قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾

[سورة الفرقان / ٤٨] .

قلم يذكر الله تطهيره لغيره اكتفاءً بصيغة طهور ، وذكر منافعه الأخرى فقال : ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وآناسي كثيراً ﴾ [سورة الفرقان / ٤٩] .

ولما لم يذكر الله صيغة الفعول ذكر وظيفة التطهير فقال تعالى : ﴿ ... وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ... ﴾ [سورة الأنفال / ١١] . ودعوى الأسمندي أن الماء الطهور مطهر لغيره دعوى صحيحة ، وإنما الخلاف في طريقة الاستدلال .

على أن هذه الدعوى الصحيحة بخلاف ما روي عن إمامه ، فقد روي عن أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - أن الطهور بمعنى الطاهر ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ ... وسقاهم وبهم شرباً طهوراً ﴾ [سورة الإنسان / ٢١] .

قال أبو عبد الرحمن : لا يرد في كتاب الله العنول من طاهر إلى طهور بدون زيادة مدلول يحقق مقتضى الصيغة .

فإن كان المراد بالشراب في الآية الكريمة الماء فهو طاهر مطهر بمقتضى الصيغة ومقتضى المعهود عن حال الماء في الشرع . وإن كان المراد بالشراب شراب أهل الجنة غير الماء من اللبن والخمر ... إلخ ، فالمراد أنه شديد الطهر في ذاته لم يعلقه دنس عيني أو حكمي .

وإذا قام دليل على أن هذا النص لا يراد به ظاهر معناه ، فلا يعني ذلك صرف ظاهر نص آخر عن معناه بلا دليل .

وما أحسن كلمة ثعلب التي أسندها ابن فارس إذ قال : «سمعت محمد بن هارون الثقفي يقول : سمعت أحمد بن يحيى ثعلباً يقول : الطهور الطاهر في نفسه المطهر لغيره» .

ومن المغالطة في المناظرة قول الأسمندي عن تحقيق معنى الطهارة شرعاً دون ترتيب ولا نية : «لأن الطهارة إذا حصلت وجب القول بجواز الصلاة لقوله عليه السلام : لا صلاة إلا بطهارة ... نفى واستثنى والاستثناء من النفي إثبات» .

قال أبو عبد الرحمن : الطهارة طهارتان : حسية مشاهدة كزوال النجاسة العينية بالماء ، ولم يصف الشرع إلى هذه الطهارة اعتباراً آخر ، وطهارة حكمية كالوضوء وقد قيدها الشرع بالنية والترتيب ، وإذن فلا تجوز الصلاة إلا بحصول الطهارة الشرعية . وقوله ﷺ : «لا صلاة إلا بطهارة» : لا يسقط حكمه ﷺ أنه لا طهارة إلا بنية وترتيب إذا كانت الطهارة وضوءاً .

وقوله ﷺ : «لا صلاة إلا بطهارة» = الصلاة بطهارة .. هذا هو معنى إثبات الاستثناء الذي ذكره ، إلا أن نهاية القضية هكذا : الصلاة بطهارة شرعية .

وحيث نذكر تبحيث عن الاعتبار الشرعي بعد تحقق المفهوم اللغوي للطهارة .

٧ - المسألة السابعة : تنظيم المسلمين للإدارة والوقائع المستجدة يؤسّس على التماس مرضاة الله ، وتحقيق المصلحة العامة للأمة ، وتحليل الأنظمة البلدية في المملكة العربية السعودية وفق هذين المبدأين المذكورين آنفاً :

فمضية «المصلحة العامة» هي شعار لكل تنظيم بشري بحيث تكون أم البواعث وملتقى الأهداف .

وكل تنظيم في حكومة إسلامية ينشأ عن الخطاب الشرعي نصاً ، أو مفهومًا ، أو عن التفويض الشرعي بالاجتهاد ؛ فلا بد أن يكون أحد شقي أهدافه تحقيق المصلحة العامة .

لأن الشرع الإسلامي مبشّر بهذا الهدف ضامنٌ له في أوامره ونواهيه .

والشق الآخر التماس مرضاة الله وتحاشي عقابه في الأمور التعبدية المحضة .

ومن هذا المنطلق حصر أصوليو علماء الإسلام أمهات المصالح البشرية التي راعاها الشرع كسلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام في كتابه عن «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» .

بل بنى أبو إسحاق الشاطبي كتابه «الموافقات» على أمهات المصالح ، وهي

إما ضرورة كحفظ الدين ، والنسل - أو العرض - والنفس ، والمال ، والعقل .

وإما حاجة كالتمتع بالطيبات من الحلال .

وإما تحسينية ، ومثل لذلك باداب الأكل والشرب ، ويدخل في ذلك تقصّد كل مظهر جمالي مباح .

ولم يشذ أي عنصر من عناصر التنظيم البلدي في المملكة عن هذه الأصول .

فالمادة الخامسة من نظام البلديات والقرى الصادر عام ١٣٩٧هـ حددت وظائف البلدية في عشرين عنصراً إذ بوبّتها تبويباً موضوعياً - من ناحية الهدف والباعث - وجديتها تطبيقاً أميناً للمصلحة العامة التي راعاها الشرع .

ومن تلك العناصر تنظيم وتنسيق البلدة وفق مخطط تنظيمي ، ففي هذا مراعاة التحسين والجمال ، ويترتب عليه مصلحة حاجية ، لأنه بالتنظيم تتحدد مواقف الباعة والسيارات مما يسهل ويسر حاجات المسلمين .

وإنشاء الحدائق والمتنزهات عنصر جمالي يترتب عليه مصلحة ضرورية لحفظ النفس ، لما لذلك من مردود صحي على البيئة .

ودرء خطر السيول والحرائق لحفظ النفس .

ومراقبة المواد الغذائية لحفظ النفس والمال .

والرقابة الفتية على الحرف، حفظ للعمال والمستلكات ،

وكل عنصر من عناصر وظيفة البلدية فهو حسبة شرعية ، وفي

الحسبة حفظ الدين والعقل

وتمثل ذلك في التكافل الاجتماعي بإنشاء الملاجئ للعجزة والأيتام والمعتومين ، والرفق بالحيوان .
ومن ذلك الاحتساب التعبدى ^{١٢} التيحت في الولاية على المقابر وشؤون الموتى .

ولنا أن ننظر بعد ذلك في مسألتين مهمتين :

أولاهما : كيفية تحقيق تلك المصالح .

وأخرهما : من المسؤول عن تحقيقها .

فالمسألة الأولى تمر بثلاث مراحل :

أولاهن : الإنشاء والإيجاد كإنشاء الملاجئ .

وثانيتهن : الوقاية بالإشراف والرقابة والصيانة ، ويتمثل ذلك في تعليمات الرخص لإقامة المنشآت ، ومراقبة المواد الغذائية ، ومنع وإزالة التعدادات على أملاك البلدية الخاصة والأملاك العامة الخاضعة لسلطتها ضماناً لاستمرار فعاليتها بأداء خدماتها .

وثالثتهن : علاجية كالحلول الوقتية الحتمية يظل بقاؤها مرهوناً بالخرف الذي تقدر فيه البلدية على التغيير .

أما المسألة الثانية فهناك ما يقع جميع أعبائه على الخدمات البلدية كتأمين أراضٍ للمقابر وصيانتها .

ومنها ما تكون فيه البلدية أقوى العناصر المساعدة كمراقبة المواد الغذائية ومحاربة الغش التجاري .

ومنها ما تكون فيه مجرد عنصر مساعد مكافئ كحماية الأبنية الأثرية.

وهدف النظام مع هذا إلى إسهام المواطن في شئ قليل من العبء ، لإشعاره بمسؤولية الخدمات التي يستفيد منها .

وتمثل ذلك بفرض الرسوم والجزأت والغرامات على المخالفات ، ولم تصدر بعد اللوائح المنظمة لذلك .

والمادة الخامسة والثلاثون من النظام المذكور عن موارد للبلديات أتاحت الفرصة لإسهام المواطن .

وأذكر نموذجاً من المقاصد الشرعية وهو قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » ، ومن هذه القاعدة اشتق مبادئ عديدة مثل مبدأ رفع الحرج ، ومبدأ تحمل الضرر الخاص في سبيل الضرر العام عندما تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، ومبدأ أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح كما في قوله تعالى : ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

وفي إطار العدل ، والمصلحة ، والحكمة ، ورفع الضرر أذكر أنظمة الطرق والمباني ، فقد حدد نظام أمانة العاصمة والبلديات ، ثم بعده نظام البلديات والقرى بالمادة الخامسة جميع وظائف البلدية .

ومن تلك الوظائف : تنظيم وتنسيق البلدة وفق مخطط تنظيمي ، الترخيص بإقامة المنشآت الأبنية والتعدادات .

ونظام الطرق والمباني - وإن كان أسبق من نظام البلديات والقرى - جاء للتنظيم للعنصرين المذكورين آنفاً من وظائف البلدية وهما التخطيط ، والترخيص .

ولقد طرأ على هذا النظام عدة تعديلات ، وصدرت تعليمات كثيرة

تتعلق بموضوعه ، واشتق منه أنظمة ولوائح .

ولقد تمه وسرعة التغيرات وكثرتها فقد أوصى المؤتمر الثاني لرؤساء البلديات والمجتمعات القروية بإعادة صياغته ليواكب النمو والتطور العمراني .

والكثرة ما صدر في موضوعه من تعليمات ، وما اشتق منه من لوائح . لقد يرى المسؤولون والمختصون أنه لا حاجة إلى نظام للطرق والمباني ، وإنما الحاجة إلى لائحة تنفيذية لما حدده نظام البلديات والقرى من وظائف بلدية من بينها التخطيط والترخيص .

على أن تكون لائحة فنية بحتة في نطاق تخصص وكالة الوزارة لتخطيط المدن .

وما خرج عن الناحية الفنية فهو مخدوم بأنظمة ولوائح وتعليمات أخرى .

والفصل الأول والثاني عن التخطيط وتوظيف المرافق .

ويراعى في التخطيط الأصول الفنية والحضارية ، ويرجع في ذلك إلى خبرة ذوي التخصص .

ويراعى في التوظيف تحقيق مصالح الأمة .

وقد عولج بعض هذا الشق بنظام المحلات المعلقة للراحة ولانحته .

والفصل الثالث تنظمي تحت يفصل الفصلين الأولين السابقين .

والفصل الرابع يحكم عملية البناء وفق التخطيط والتنظيم . وينظم

العلاقة بين المواطن وسلطة المباني ، ويحدد عقوبة المخالفة .

وهناك لائحة مستقلة للجزآت والرسوم .

والفصل الخامس يأخذ الضمانات المسبقة لفنية البناء وفق ما عالجته مواده عن أهلية المعمارين والمهندسين والمقاولين .

والفصل السادس في حيز الفصل الخامس إلا أنه يتعلق بعملية البناء ذاتها بعد أهلية البناء .

وهذا الفصل هو لب النظام ، وهكذا بقي الفصول إلى نهاية

الفصل العاشر كلها عن فنية البناء ، وراحة ومتعة من يستخدم البناء .

والفصل الحادي عشر عودة إلى موضوع الترخيص وهو مكمل

للفصل الرابع .

والفصل الثاني عشر والثالث عشر ، والخامس عشر ، عن الرسوم .

والرسوم لائحة مستقلة .

وهناك نظام نزع الملكية وقد عالج أموراً مبددة في نظام

الطرق والمباني .

وبالعودة إلى تأكيد القول بأن التنظيم البلدي في المملكة تحقيق

أمين للمصلحة العامة : نرى أنها عمقت هذا الجانب - من واقع

حضارة العصر - بما لا يوجد في معهود الحسبة في تاريخنا .

فمن وظائف التنظيم البلدي رعاية المظهر الحضاري بالإسهام في

إيجاده أو ديمومته ، وذلك بالتشجيع الثقافي والرياضي والاجتماعي .

ورعاية الزجد التاريخي للأمة كحمائية الأبنية الأثرية .

ولا أرى ما يخرج المسجد عن الأهمية العامة في الأحكام

المشتركة لكل شئ ذي نفع عام .

أما الاختلاف في الصفة ككون المسجد شيئاً ذا غرض ديني ، وكون غيره كالحصون والقلاع ذا غرض حربي : فهذا فرق غير مؤثر في صفة النفع العامة ما يترتب عليها من أحكام .

ولهذا فلا يجوز إخراج المسجد عن أحكام المنفعة العامة إلا بنص . وعند تأصيل التنظيم بتخصيص المسجد بحكم فلا بد من معرفة المارق المميز .

ومما يناقش هنا أن القانون المدني لا يعد المسجد ملكاً عاماً إلا إذا كانت الحكومة قائمة بإدارته والصرف عليه .

فإذا لم يوجد هذا الشرط فهو ملك خاص تتعلق به حقوق الأفراد . قال أبو عبد الرحمن : تسليم المسجد للحكومة وعدم تسليمه فرق غير مؤثر في عده ملكاً عاماً ذا منفعة عامة .

وأما تعلق الحقوق الخاصة به فلا تعلق لها به إلا في حالة التلجئة والإضرار بثبوت الحقوق أو اتخاذ مسجد ضرار .

ولا عبرة بإفلاس أو دين يطرأ بعد إقامة المسجد .

إن العمل البلدي علاقة عامة حدد المؤتمر الأول لرؤساء البلديات والمجمعات القروية شقها الأول بأنه مسؤولية بلدية وواجب مواطن ، وحدد المؤتمر الثاني شقها الثاني بأنه علاقة مشتركة بين أجهزة الدولة لخدمة الوطن والمواطن .

فها هنا خدمة يحكمها فنية الأداء ، وينظمها خبرة إدارية

وتعليمات نظامية ، فاقتضت الضرورة أن يكون العمل البلدي الفني ، والخبرة الإدارية ، والتعليمات النظامية واقعاً ثقافياً عاماً مشتركاً مبسطاً بحيث يكون عرفاً لا يُعذر أحدٌ بجهله حتى يتحقق فهم الواجب ومعنى المسؤولية .

وثمة ثقافة عامة مشتركة ولكن لفئة خاصة من ذوي المسؤولية الإدارية في نطاق الخدمات البلدية ، وذلك حينما تعم وتبسط مفاهيم التعليمات الشرعية والقانونية والنظامية والإدارية ، ويُقرب إلى بدهة المسؤول فلسفة التنظيم في أصوله ومبادئه .

وثمة ثقافة مشتركة لذوي المسؤولية الفنية وذلك حينما يُعرض كل إنجاز فني للخدمات البلدية في أنحاء المملكة فيتيح للمسؤول مقارنة ومعادلة مع جلب الخبرات الفنية نظرياً وتطبيقياً على طول التاريخ زماناً حيث التحضر البلدي في الأمم ، وعلى عرض التاريخ مكاناً حيث التحضر البلدي في المدن . يكون هذا بالرحلات ، والاستطلاع ، واستكتاب المراسلين ، وإيجاد مجلة متخصصة .

والخدمات البلدية - وما يتعلق بها من واجد ومسؤولية وفنية وتنظيم - ذات تاريخ متجدد ، فلك ذي علاقة بالخدمة البلدية يحتاج إلى عمل توثيقي وعمل بليوجرافي يُرجع إليه ويرصد به مسار العمل بالبلدي ، وهذا أيضاً يقتضي مجلة خالصة للشؤون البلدية ، ويلزم مسؤول البلدية ما يلزم غيره من زملائه موظفي الدولة فيما يتعلق بفن الإدارة وكفاءة المسؤول في شخصيته وجاذبيته وثقافته .

فكان من الضروري استغلال مجلة البلدية متخصصة بحيث تسهم إسهاماً فاعلاً في التوعية الإدارية .

وفي الميدان الإعلامي أذكر على سبيل المثال أنه صدر عن مركز دراسات الخليج كتاب ضخيم في حدود ألف صفحة عن بلدية البصرة فيما بين ١٨٦٩ - ١٩٨١م بتحريـر رجب بركات ، فهذا عمل من عشرات الأعمال البلدية خارج المملكة .

ومن منهج أي مجلة تخصصية أن تلخص المحتوى الفني والتنظيمي لمثل هذا العمل ، ليكون في ذاكرة المسؤول وتصوره .

ومثل ذلك الأنظمة في مختلف البلاد العربية ، فقد صدر منها عن دار الغرب سنة مجلدة ، ففتح ملف لقضية يسيرة ضيقة توسع وتعمق من خلال التنظيمات العربية : دخول المسؤول وعياً بخبرة عقول وتجربة مهارات .

٨ - المسألة الثامنة : دعوى أن النظام مطاط ، ورسم المنهج للفقهاء في الوقائع ونصوص النظام :

فهم النظام يحتاج إلى فقه ، فكذلك فهم الوقائع يحتاج إلى فقه . وهذا أمر لاحظته علماء المسلمين من خلال بحوثهم ومؤلفاتهم عن طرق القضاء والفراسة والفتوى .

وخير من ترسخ في هذا المجال ابن قيم الجوزية في كتابه لا سيما

«إعلام الموقعين» و«الطرق الحكمية» .

فالأحكام النظامية كثيرة ، ووقائع القضايا كثيرة أيضاً ، ومهمة المسؤول أن يفهم الواقعة ويحددها ليطبق عليها الحكم النظامي الذي يختص بها .

والممارس لأعمال نورات القضايا الإدارية يرى أن القضية تبدأ بورقة عرض ، وتنتهي بأضابير مكدسة ، وليس ذلك بسبب مواد الأنظمة للالتباس في فهمها ، وإنما السبب الالتباس والتردد في فهم الوقائع .

بل إن المسؤول تتشابه عنده بعض مواد النظام فلا يدري أيها يطبق ، وليس ذلك بسبب أن المواد غير مفهومة ولا واضحة ، بل السبب أن المسؤول التيسر عليه الوقائع ولم تتحدد عنده الواقعة الصحيحة بيقين أو رجحان ، ولهذا يحار أي مواد النظام أولى بالتطبيق .

وعندما تضعف النفوس والوازع الديني ويقال : إن النظام مطاط ، فليس معنى ذلك أن دلالة النظام مانعة ، لأن وضع النظام يبذل فيه من الجهد والوقت والمواهب والمشورة من مختلف المختصين بأجهزة الدولة ما يضمن له تحديد الدلالة بدقة .

بل إن المسؤولين يراعون النظام منذ تطبيقه ، ويستدركون بالتعديل والتعاميم التي تسمى تعليمات ما يمنع من دلالة كل احتمال . وإنما تأتي دعوى «النظام مطاط» من فساد النية في فهم الوقائع ، حينما يتعمد مسؤول ما فهم الوقائع على غير وجهها الصحيح ،

فيطبق المادة النظامية الصحيحة غير المطاطة على واقعة مطاطة ،
لأنها مدعاة وملبس بها وغير صحيحة .
ويأتي تشويه الوقائع من أمور كثيرة :
منها أن يكون في الوقائع وقائع مؤثرة في الحكم فيخفيها الطرف
الأخر صاحب الدعوى ، أو تكون موجودة في الأوراق فيغفل المسؤول
عن دلالتها ، أو يغفل عن وجودها بالمرّة .
وأكثر ما يكون ذلك عندما يكتفي المسؤول المختص بقراءة ملخص
المعاملة ولا يتتبع جميع الأوراق ويرتبها ترتيباً تاريخياً .
أو عندما يقرأ كامل الأوراق ولا يعمق النظر في مستندات
الدعوى من وثائق ومخططات ورسوم .
ومنها الغفلة عن اجتهاد واقتراح لوسيلة تكشف عن صحة
الوقائع أكثر مما هو معروض في الأوراق .
وخير وسيلة لكشف الوقائع - إذا لم تف بها الأوراق -
التحقيقات واللجان .
وقد درج في عرف العامة أن اللجان تميز القضايا وتعمّمها ،
وهذا صحيح إذا لم يتوافر في اللجنة ذاتها مقوماتها الصحيحة .
وأهم المقومات دقة تحري الأعضاء من ناحية النزاهة والفهم
والشجاعة العلمية .
ومنها تعدد أطراف اللجنة بتعدد الاختصاص ويتعدد أصحاب
العلاقة لتكوين اللجنة ممثلة لجميع أصحاب العلاقة ، وإفنية بكل علاج

تخصصي يخدمها .

ومنها رسم عمل اللجنة مسبقاً بدقة واستيعاب بحيث تعالج
كل احتمال .

ومن بواعي اللجنة : غمغمة المسؤول في كشف الوقائع عندما
يرفع إلى مرجعه أو يجيب عن استفساره . فتدّ المعاملة بجواب مبهم ،
أو بحشر وقائع لا أثر لها في الحكم .

وخير وسيلة لكشف الوقائع وحصر مواضع الإشكال - معاً -
على سرعة البت - أن يبوّب دارس القضية دراسته على ثلاثة فصول :
الفصل الأول : أن يستوفي عرض الوقائع كلها سواء أكانت
مؤثرة في الحكم أو غير مؤثرة ، خطيرة أو نافهة .

والفصل الثاني : أن يبدي رأيه في الوقائع فيوضح ماله أثر وما
ليس له أثر ، ويوضح ما كان مجملاً مبهماً أو غير مفهوم ، ويوضح ما
كان غير موجود ووجوده ضروري .

والفصل الثالث : أن يبدي الرأي من ناحية الحكم النظامي أو
الحل الإداري .

فإن كانت الوقائع صحيحة محددة طبق المادة النظامية
باطمئنان ، وإن كانت الوقائع متعددة الاحتمال فهو بالخيار بأن يعطي
لكل احتمال الحكم الموافق له ، أو بأن يرد المعاملة لمصدرها لتحديد
الواقع الصحيح .

ويفضل الخيار الأخير عندما يشك الدارس في نيات الجهة التي

نشأت عندها القضية ، ويشعر بأنهم يريدون افتراض احتمالات الرأي النظامي ليحوروا واقع القضية ليوافق الرأي الذي يناسبهم .

والنص القانوني صياغة بشرية تعبر عن مراد بشري ، ولهذا فليس له صفة الكمال والإطلاق .

ويعتري النص القانوني ، والنص النظامي ، والتعليم الإداري عيوب كثيرة تقتضي معالجته على سبيل الضرورة والختم ، لتحقيق قاعدة «إعمال النص أولى من إهماله» .

ولهذا فإلحاطة بالأنظمة ، وحذق سياستها ، ومحاولة العمل في إطارها ضرب من الاجتهاد يوصف صاحبه بالفقيه أو الخبير .

وأهم أدوات الاجتهاد معالجة عيوب النص من خلال أهداف النص ذاته وحكمته ومقاصده .

وذلك بعد التيقن من أن موضوع النص ليس مقصوداً لذاته . وهذا التعقيد فيه غموض بلا ريب ، ولكنني أسهله بالمثل الشارح ، فأضرب المثال بالتوقيع الذي تنص عليه الأنظمة والتعليمات كثيراً في التسليم والاستلام .

فالتوقيع في العرف الحاضر يعني الإمضاء بعلامة ترمز للاسم واللقب بتميز ، فهل يدخل في مفهوم التوقيع الختم والبصمة ؟ .

أما من ناحية اللغة العرفية فلا .

وأما من ناحية المقصد فالمراد بلا ريب إثبات الإقرار والاعتراف بما يدل عليه بتميز . وليس المقصود التوقيع لذاته .

فمن كان مسؤولاً فعلياً والاجتهاد حتى يأتي نص يدخل الختم والبصمة أو يخرجهما .

ومنحى الاجتهاد أن يدخل البصمة لأنها أدل على الإثبات من التوقيع ، وأن يخرج الختم لأن التوقيع أدل منه .

والأصل في هذا قياس الأولوية والله المستعان .

٩ - المسألة التاسعة : أنماط التنظيم في بلادنا السعودية ، وتبيان أن حياة الناس على الأرض مصحوبة بتشريع الله ، والبراهين على أن الشريعة الإسلامية مصدر الأنظمة في السعودية ، وحرمة مخالفة النظام ما دام مقراً من ولاية الأمر ، وحكم الإفادة من كتب القانون الوضعي .

استعرض الدكتور عبدالسلام الترماني من القانون الروماني بعض الجرائم التي يعاقب عليها القانون . وذكر منها جريمة رعي ماشية في ملك الآخر ، أو قطع أشجاره ، أو إتلاف شيء منه .

وذكر أن عقوبة القانون غرامة مقدرة تعادل قيمة الشيء الذي أصابه الضرر .

وقرر أن هذه الغرامة تعدّ الأصل التاريخي لمبدأ المسؤولية التقصيرية .

وأنه في العصر العلمي جرى القضاء على توسيع معنى الضرر .

وعُدَّ كل فعل نشأ عنه ضرر أو إهمال أو غش عملاً غير مشروع يوجب الحكم بالغرامة (٢٧).

قال أبو عبد الرحمن : ليس الغرض استعراض الأحكام الفقهية لهذه المسألة، وإنما الغرض تبيان أن القانون الروماني ليس الأصل التاريخي لبداً مسؤولية التقصير، لأن الله - جل جلاله - منذ عمر الأرض بادم عليه السلام - وذريته لم يخلها من هدايته عقيدة وشرعية. وفي القرآن الكريم أن الله يأمر بالعدل ويحكم به .

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الاستقامة» أن العدل يعرف بالشرع وبالعقل .

والعقول تعرف أن الإضرار بأملاك الآخرين جريمة .

والعقوبة قرينة الجريمة تلازمًا في التصور .

كما أن إعطاء معنى الضرر حجمه الحقيقي ليس مما استجد في العصر العلمي ، بل هو في صميم الفقه الإسلامي .

وذلك فيما لو قال مثلاً : الطريق آمن ، ثم كان غير آمن .

وما لم ينظمه الشرع تفصيلاً فقد تركه الله لاجتهادنا في إطار

التصور الإسلامي على أن تحكم بالعدل .

ولهذا فالأمة ما زالت - ولن تزال - في حاجة إلى أنظمة جديدة .

والى تحويل وتطوير في الأنظمة القديمة .

إلا أن هذا كله ليس تشريعاً، وقد حرمت التعليمات السامية

(٢٧) الوسيط في تاريخ القانون والنظم القانونية من ٢٧٥ - ٢٧٦

الكريمة استعمال التشريع والمشرع، لأن ذلك ليس إلا لله - جل جلاله - . وإنما يستعمل التشريع والمشرع الماركسيون والعلمانيون الذين كانت أنظمتهم تأسيساً للأحكام ، وإلغاء لمعاد الله - جل جلاله - فضلاً عن مراعاته .

والتنظيم في بلادنا السعودية - بحكم أنها الدولة الوحيدة بين أمم الأرض في التزام الشريعة - على ثلاثة أنحاء :

النحو الأول : تأسيس أحكام دنيوية مستجدة ، المرجع فيها إلى خبرة البشر الحسية ومهاراتهم كتنظمة البناء والمرور ، إلا أنه يتحرى فيها مقاصد الشريعة ومضالحها التي حصرها الشاطبي في حفظ خمسة أشياء .

والله جعل لنا أموراً دنيوية نستثمرها بمواهبنا فنجتهد كيف نزرع ، وكيف نتجر ، وكيف ننمي مواردنا .

إلا أن توظيف ما نستثمره محكوم بنصوص الشرع ومقاصده .

والنحو الثاني : تفقيط وتمييز الوقائع المستجدة ، ليسهل على ذوي المسؤولية تطبيق الحكم الشرعي على واقعه .

والنحو الثالث : تنظيم إجراءات ذوي المصالح في التماسهم الحكم الشرعي قضاء أو إفتاء .

مثال ذلك نظام تنظيم الأعمال الإدارية .

ويرجع في هذا إلى اجتهاد السالفين كاجتهاد الفقهاء ، وإلى

اجتهاد الخالفين في التماس أسهل المسبل للمسلمين

وهكذا تحقيق مصالح المسلمين وفق الوقائع المستجدة تعرف بالعقل والحس كما تعرف بالشرع .

ولا يتصور ألينة أن يكون للنظام في مملكتنا مصدر غير الشريعة الإسلامية .

والبرهان على ذلك الحقائق التالية :

١ - الحقيقة الأولى : أن في الشريعة الإسلامية المعصومة الناسخة للأديان والشرائع : حكماً في كل ما وقع وما سيقع .

ووجه ذلك أن الوقائع ورد حكم الله فيها بصفتين :

الصفة الأولى : النص على الواقعة بمعناها وصفتها كبيع طعام المحتكر عند الحاجة إليه ، فلم يرد نص اسمي على هذه الواقعة وإنما نهى الشرع عن الاحتكار فحسب ، إلا أن هذه الواقعة منصوص على معناها بالأدلة الشرعية الدالة على رفع الإضرار والحرَج والتعسف في استعمال الحق .

وعلى هذا بؤب القرافي وغيره قاعدة الفرق بين الدليل على الحكم الشرعي والدليل على وقوعه .

٢ - الحقيقة الثانية : أن النظام في المملكة مادة من مواد الفقه الإسلامي ، لأنه بحث عن الأحكام الشرعية في الوقائع المستجدة ، ولهذا لا يرد النظام بالتنظيم لوقائع فرغ منها بدليل نصي أو إجماعي ، ولأن النظام يمر بمراحل - منذ بدايته مشروعاً - من أجل استشارة ذوي العلم الشرعي والتخصص الفني .

والنظام قبل أن يكون مواداً تقريرية : يصدر بمذكرات إيضاحية تفسره . وتكون المادة التقريرية خلاصة بحث وفقه وتحليل واستنباط .

وهذا يعني أن النظام عن وقائع مستجدة يكون وضع مواده شرة تفقه في الدين استمراراً لاجتهاد علماء المسلمين في الوقائع التي حدثت في عهدهم .

٣ - والحقيقة الثالثة : أن ما لم ينص الشرع على اسمه أو على ما يعين الواقعة بذاتها جعل مجاله لاجتهاد ذوي العلم بالشرع أي دليل الحكم الشرعي - وذوي العلم بالواقعة التي يبحث عن حكمها ، وهم أهل الخبرة .

أي إن الشرع جعل للخلق الاجتهاد بعقولهم وثمار معارفهم الحسية والتجريبية في إقامة حرقهم وصناعاتهم وثقافتهم ، وجعل لهم من أحكام الشرع حماية يعملون في إطارها لتحقيق مصالحهم الدنيوية .

ولهذا فأصوب تعريف للمصلحة المرسله أنها المحافظة على مقصود الشارع .

وكل وقائع تحتاج إلى تنظيم فهي من المصالح المرسله . ومعنى المحافظة على مقصود الشارع أن لا يُحل النظام حراماً ولا يحرم حلالاً .

وأن يكون في رحاب المقاصد الشرعية العامة التي فرغ علماء المسلمين من استنباطها .

فمن تلك المبادئ أن الله سبحانه وتعالى قال عن الرسول ﷺ :
﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فكل ما هو رحمة بالخلق - في اجتهادنا - ولم يرد نص بتحريمه ولا يفضي إلى محرم فهو مقصد إسلامي يراعيه النظام .

وقد أمر الله بالعدل ، وتنهانا أن نبخس الناس أشياءهم .
وقال تعالى : ﴿ ليلبروكم أيكم أحسن عملاً ﴾ وحسن العمل وإنقائه يعرف بالشرع والحس .

والعدل وإحسان العمل مقصد شرعي يحكم فقه النظام وفلسفته .
وسد الذريعة عن المحرم كالأمر بغض البصر ، وفتح الذريعة لواجب أهم كفداء المسلم : من مقاصد النظام ، لأنها مقصد شرعي .
فإشارة المورد سد للذريعة إلى إزهاق النفوس وعمل على تيسير وتنظيم تنقل المسلمين .

فالذي يخالف نظام المورد أثم دينونةً وقضاءً ، لأنه لم يطع أولي الأمر في أمور حققوا بها مراد الله ، وهو مصلحة الخلق .

وهكذا أنظمت الدولة يعصي ويأثم - دينونةً وقضاءً - من خالفها .
والمسؤول إذا كان له اجتهاد شرعي يخالف النظام فعلياً أن يعرضه لولاة الأمر ، ولكن لا يحل له أن يعطل النظام باجتهاده .

ليس هذا من ناحية القضاء فحسب ، وإنما هو من ناحية الدينونة .
لا يحل له تعطيل النظام ما نزل في واقع المسؤولية ، لأنه مؤتمن عليه متعاقد على أدائه .

٤ - والحقيقة الرابعة : أن الاقتباس من كتب القانون الوضعي واقتناعها ليس أمر مكروهاً ولا محرماً في هذه الحالة ، بل هو مستحب .

لأنك تأخذ منه ما يباح لك أخذه ، وهو الحكمة ضالة المؤمن .
فأنت تأخذ من القانون الخبرة الدنيوية كدقة العبارة ، أو وضوح الحجة ، أو الخبرة الفنية التي تحكم بعض مواد القانون .
وأنت ترجع له في وقائع مستجدة لم يفرغ اجتهاد المسلمين فيها بحيث يكون عملهم إجماعاً ، ولم يرد فيها نص باسمها .
وإنما المحرم المخرج من الملة أن تتبع مقاصد الواضع وتلقي مقاصد دين الله .

فعلى سبيل المثال العقود التي يعالجها القانون إنما يراعي فيها القانون رضى المتعاقدين فحسب .

وليس هكذا نظام المسلمين . لأن المسلم حينما ينظم لحياته يتحرى رضى الله أولاً عن مقتضى العقد قبل أن يتحرى رضى المتعاقدين .

وورد النص بأن كل صلح أو شرط يحرم حلالاً أو يحل حراماً فهو باطل .

١٠- المسألة العاشرة : حكم الضريبة والرسم والجزاء :

يلزم التفريق بين ثلاثة أمور تقنضي الظروف التاريخية أن تكون من موارد الدولة :

فالأمر الأول : هو الضريبة التي تفرض على القادرين من الأفراد في حالة عجز بيت المال عن حاجات الأمة وضرورتها . والضريبة ليس لها صفة الديومة في التنظيم ، بل هي مرهونة بظرفها ، وتقديرها يكون باجتهاد مؤقت .

وجمهور محققى علماء المسلمين يرون مشروعية الضريبة بشرطها .
والأمر الثاني : الرسم ، ولا يسمى رسماً إلا ما كان مقابل الانتفاع بخدمة دائمة تقدمها الدولة .

والرسم لم يكن قط قيمة لكامل الخدمة ، وإنما هو إسهام في جزء من قيمة الخدمة ، وتكثر باختلاف الأنظمة . ولا يزال الرسم في الأنظمة السعودية رمزياً بمنتهى مفهوم الرمز .

والرسم من المصالح المرسله الذي لا تنبأه الشريعة الإسلامية المظهرة ، لأنه يلزم المواطن الشعور بمسؤوليته تجاه الخدمة المقدمة له ليرعاها ويحافظ عليها .

ولا يجوز النظر إلى الرسم كما ينظر إلى الضريبة بأن يتضاعف إذا عجز بيت المال ، وإنما هو تبع جودة الخدمة ووفرته ، وهو مشاركة للإحساس بالخدمة والحفاظ عليها .

والأمر الثالث : الجزاءات ، ولا يكون جزاء إلا إذا كان مقابل مخالفة لتنظيم ولي الأمر .

وإذا كانت العقوبة مالية فقد تكون بمقدار نفقة المخالفة ، وقد تكون أكثر للردع إذا وجد الإصرار وتكرار المخالفة .

١١- المسألة الحادية عشرة : معنى الالتزام في اللغة والقانون ،
وبيان أن المسلم ملتزم بأمانة الشرع لمقصد أخروي ، واستثمار دنيوي :
قال ابن فارس عن لزم : « اللام ، والراء ، والميم : أصل واحد صحيح يدل على مصاحبة الشيء بالشيء دائماً » (٢٨) .

ومن هذا المعنى اللغوي الأصلي الوضعي الجامع اشتق معنى الالتزام في القانون والعرف .

فهو في العرف ما يلزمك فعله أو تركه من قول أو فعل أو اعتقاد سواء أكان بمقابل أم دون مقابل .

وما ألزمه الإنسان فهو لازم له ، ولهذا كان الوعد ملزماً عند فقهاء المالكية ، لأنه التزام .

هو في الأدب يعني ارتباط الأديب بمصلحة أمته ودينه على أن يجمع إلى عنصر الالتزام عنصر الحرية .

فالحرية والمسؤولية هي الالتزام الأدبي .

(٢٨) مقاييس اللغة ص ٩٥٣

أي تكون المسؤولية عن قناعة فكرية ، وهذا هو معنى الحرية فيخرج التقليد والنزوة الغربية .

أما في القانون فينقل عبدالرزاق السنهوري في كتابه «نظرية العقد» تعريفه بهاته العبارات :

(الالتزام حالة قانونية يرتبط بمقتضاها شخص معين بالقيام بعمل أو بالامتناع عن عمل ذي قيمة مالية أو أدبية) .

وكلمة «يرتبط» مراعاة واعية موفقة للأصل اللغوي الذي ذكره ابن فارس (مصاحبة الشيء بالشيء) .

وتعريف السنهوري هذا جاء تعديلاً لتعريف «ديموج» القائل : «الالتزام حالة قانونية المقصود منها قيام أشخاص معينين بعمل أو بالامتناع عن عمل ذي قيمة مالية أو أدبية» .

وقد لاحظ السنهوري أن ديموج أغفل الناحية الشخصية للالتزام ، وهي ارتباط الشخص بمقتضى الالتزام ، لأن جملة «المقصود منها قيام أشخاص» لا تحدد معنى الارتباط .

قال أبو عبد الرحمن : إذن الالتزام هو مقتضى العقد ، لأنه التزام بحكم العقد .

ويتحدد مفهوم الالتزام القانوني عن مفهوم اللزوم العام بأن يكون الالتزام بعمل ذي قيمة مالية أو أدبية .

والمتعبد لله بشروعه يلتزم ما يلزمه بغض النظر عن القيمة المالية والأدبية دنيوياً ، بل القيمة رضى الله وخيفه ورجاء ثوابه .

واللزوم الشرعي والقانوني في عمومته فيه معنى المعاقدية . ففي الشرع كل عمل المسلم عن وعد ووعد إلهي ، وورد النص بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وباستجاشة النفوس بأن تقرض الله قرضاً حسناً ، والله هو الغني الحميد ، وإنما أكرم عباده المؤمنين بأن عذ عملهم الصالح قرضاً حسناً .

وكل قانون على وجه الأرض فهو قائم على نظرية الحق الطبيعي والاجتماعي كما بين ذلك روسو في «العقد الاجتماعي» ، والفيلسوف اليهودي الملحد سبينوزا في «رسالة السياسة» وغيرهما .

١٢- المسألة الثانية عشرة : وجوب غسل يد القائم من الترم ثلاثاً قبل غمسها في الماء ، والتقديم بكلمة عن تعليل الأحكام واستثمار حكمها إذا علمت :

قال أبو عبد الرحمن : لو أن زيداً من الناس أشرع باب ضيعته ، وأشرع الباب المقابل له من ضيعته أيضاً في الطرف الآخر وجعل ما بين البابين المتقابلين جادة للذاهب والآيب يتصل امتداده بجادة بين أملاك الآخرين قبل الضيعة ويعدّها ، ويحزح جميع مرافقه عن جنبتي هذه الجادة ثم استمر الوضع على ذلك سنين نون نكير ، وكانت جميع السبل مقفلة إلا من هذا الجانب : لعلمنا أن زيداً جعل هذا الجزء من ضيعته سبيلاً مباحاً للمارة يعدّ مرفقاً من مرافق المسلمين ليس ملكاً خاصاً له .

ولجاز لنا أن نغلل بالعرف والعادة ، لأن أفعال البشر وأحوالهم

إنما تفهم بالتعليل والاستنتاج .. ذلك أن الحسن البشري والاستنباط العقلي أهم جوانب التفاهم بين البشر وقد قال سلم الخاسر :
لا تسأل المرء عن خلانقه

في وجهه شاهد من الخبر

وإنك لتفهم مقصد الإنسان من ملامح وجهه .
وكبار القادة والأمراء والوجهاء والأعيان إنما يدلون حاشيتهم على مقاصدهم بحركات لطيفة من ملامح وجوههم .
ومعارف البشر وأحوالهم نتيجة تجارب حسية مكررة بقوانين مفهومة ، وأهدافهم مشتركة ، ولهذا السبب كانت أفعال العباد غير معقولة إلا بتعليلات من العرف والعادة ، أو من تجارب الحس ، أو من ثمار الفكر .
أما دين الله وشرعه فعلى قسمين :

القسم الأول : الوحي المتلو وهو القرآن الكريم ، فهذا لا سبيل إلى فهمه إلا بمدلول لغة العرب مفردة وصيغة وعلاقة وسياقاً .

والقسم الثاني : وحي غير متلو وهو سنة رسول الله ﷺ فهذا إن كان قولاً فلا سبيل إلى فهمه إلا بلغة العرب ، وإن كان فعلاً أو إقراراً أو سكوتاً فيفهم بالصيغة التي يفهم بها أي فعل أو سكوت أو إقرار ، ولا يجوز أن تُفترض التعليلات لأحكام الشرع ، لأن التعليل يترتب عليه تخصيص الشرع أو تعميمه ، وهذا ليس لنا ، إنما علينا فهم الشرع كما ورد فقط .. لا نقترح عليه ، ولا نعلله بما نعال به أفعالنا وأحوالنا ، وإنما ننظر إلى نصوص الشرع المظهر أربع نظرات لا خامسة لهن :

النظرة الأولى : إذا ورد النص غير معلل من منزل الشرع امتثلنا له اعتقاداً وقولاً وفعلًا دون أن نقيد أو نعممه بعلّة أو حكمة .

والنظرة الثانية : إذا وجدنا حكمة غلب في ظننا أنها ثمرة من ثمار الشرع حمدنا الله على هذه الحكمة وقلنا : هذه مصلحة ظاهرة من مصالح الشرع يستثمرها العباد ، ولكن لا يجوز لنا مطلقاً أن نقيد الشرع أو نعممه بهذه الحكمة .. مثال ذلك نعمة الأمن والارتداع هما ثمرة مباركة من ثمار تطبيق حدود الله الشرعية ، ولكن لا يجوز لنا أن نسقط حكم القصاص في يوم من الأيام ونقول : الغرض من القصاص الأمن والردع ، وقد حصل لنا الأمن ثلاثين عاماً .. وهذا القاتل حدث منه يادرتة شنوداً ، والأمن قائم دون القصاص منه .

والسبب في ذلك أننا نعتبر بحكمة الشرع ونحمد الله عليها ، ولا يجوز لنا أن نخضع تطبيق الشرع لمناسبات الحكمة ، لأننا لا نجزم بأن هذه الحكمة هي الحكمة الوحيدة ، بل ربما كان وراء النص حكم كثيرة منوعة بالديمومة على تطبيق شرع الله .

والنظرة الثالثة : إذا وردت الحكمة شرطاً في العمل ككون نية الطلاق علة لإيقاعه : وجب علينا أن نتقيد بما قيدنا به ربنا ونجري أحكام الشرع على تعليلات الشرع .

والنظرة الرابعة : إذا ورد الشرع معللاً بعلّة غير شرط في تحصيل الحكم : وجب علينا أن نعتبر بتعليل الشرع ، ولا نقيد به الحكم ، لأن الشرع المظهر علل لنا ولم يقيد الحكم بالعلّة .. مثال ذلك

الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم لينثر ، ومن استجمر فليوتر ، وإذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يدخلها في وضوئه ، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده» .

قال أبو عبد الرحمن : لو فرض أن أحدنا بات على وضوء ، وربط يديه بلفافة ، وقال لولده : لا تنم ، وانظر أين تكون يدي إذا نمت ، فإذا استيقظ قال له ولده : يدك كما هي لم تزايل موضعها ، فلا يجوز له أن يعصي أمر رسول الله ﷺ ويدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ، ويقول : أنا أعرف أين باتت يدي !! ، فهذا من الشغب على رسول الله ﷺ لأن رسول الله علل الحكم بأن أحدنا لا يعرف أين باتت يده ، ولكنه لم يقيد تطبيق الحكم بالعلة ، ولعل اليد تلاقى رجساً من مخلوقات أخرى لا نراها ، ولهذا يظل النائم مطلقاً لا يدري أين باتت يده ، ويكون المعنى أن النائم لن يدري - ولن يدري غيره من البشر - أين باتت يده .

وبالغة والعقل ندري أن الحكمة تساعد في فهم النص ، ولكنها لا تكون شرطاً لتطبيقه إلا إذا وردت الحكمة مقرونة بالشرطية ، وعلى هذا فمن قام من نومه سواء أكان نومه طويلاً أم قصيراً ففرض عليه أن يغسل يديه ثلاث مرات قبل أن يغمسهما في الإناء ، لأن أوامر الشرع في الأصل على الوجوب والعصوم والغور إلا ببرهان آخر يصرقها عن ذلك .

والوضوء - لو فرض أن النائم يعلم أين باتت يده - طاعة للنص ، وتحقيق لشرف العبودية ، ولا يضيره أن يده نظيفة طاهرة .
قال أبو عبد الرحمن : ذهب علماء أهل الظاهر والإمام أحمد بن حنبل - رحمهم الله - إلى أن الأمر بغسل اليد للوجوب ، وذهب الجمهور إلى أنه للاستحباب .

والصواب ما ذهب إليه أحمد وأهل الظاهر ، وهو أن الأمر للوجوب ، لأن الأمر في بنية اللغة ، وفي حتميات العقل ، وفي مألوف الشرع لا يأتي إلا للوجوب والعصوم والغور إلا ببرهان من خارج يصرقه عن ظاهره ، وليس هناك ما يصرف الأمر هنا عن الوجوب .
وذهب الإمام الشافعي وأهل الظاهر وجمهور العلماء إلى أن غسل اليدين ثلاثاً مشروع لكل نوم سواء أكان طويلاً أم قصيراً ليلاً أم نهاراً .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - إلى أن غسل اليدين ثلاثاً قبل الغمس في الإناء لا يجب إلا إذا قام من نوم الليل فقط ، واحتج - رحمه الله - على ذلك بأنه ورد في الحديث : «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده» ، وحقيقة المبيت في لغة العرب لا تكون إلا ليلاً ، وقد ورد التنصيص على الليل في بعض طرق الحديث ففي مسلم إسناداً فقط وفي أبي داود وجامع الترمذي إسناداً ومتمناً : «إذا قام أحدكم من الليل» .

وفي صحيح أبي عوانة : «إذا قام أحدكم إلى الوضوء حين يصبح» .

وإن حجة أحمد بن حنبل في تخصيص الليل حجة نصية ظاهرة قوية ولا مجال للاجتهاد مع النص الصحيح .

وهذا مما أخذ فيه الإمام أحمد بالظاهر .

والذين قالوا لا يجب غسل اليدين ثلاثاً وإنما يستحب ذلك استحباباً تعللوا بتعللات :

منها أن رسول الله ﷺ لما أمر بغسل اليدين ثلاثاً علل ذلك بأمر يقتضي الشك ، وهو قوله : «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده» . والشك لا يقتضي وجوباً .

قال أبو عبد الرحمن : أوجب الرسول ﷺ الوضوء في حالة الشك ، وهذا الشك حالة لازمة ، لأن النائم لا يدري أين باتت يده مطلقاً ، فلا يجوز صرف كلام رسول الله ﷺ عن ظاهر الوجوب إلا ببرهان .

ومنها : أن رسول الله ﷺ توضأ من الشن المعلق بعد قيامه من النوم ، ولم يذكر أنه غسل يديه ثلاثاً .

قال أبو عبد الرحمن : إن المنهج السليم أن يرد ما لم يذكر إلى ما ذكر ، وإن الشن يقتضي إكفاء ولا يقتضي غمساً .

ومن غمس يديه في الإناء بعد قيامه من نوم الليل قبل أن يغسلهما ثلاثاً فقد أوجب عليه بعض الفقهاء ، وهم إسحاق بن راهويه وداود بن علي وأبو جعفر ابن جرير الطبري أن يهريق الماء .

قال أبو عبد الرحمن : الصواب أنه ما لم يغير ينتقع به في غير الوضوء والغسل ، ولا نقول : إن الماء نجس أو غير نجس .. بل نقول :

إن صحة الوضوء بالماء الذي في الإناء مشترطة بغسل اليدين ثلاثاً قبل الغمس .

وقول الرسول ﷺ : «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده» فسرته الإمام الشافعي بقوله : «أي لا يدري أين باتت يده من جسده ، فإنهم كانوا يستجمرون ويلادهم حارة فربما عرق أحدهم إذا نام فيحتمل أن تطوف يده على المحل أو على بثرة أو دم حيوان أو قدر غير ذلك» .

قال أبو عبد الرحمن : وقد يكون المراد أشياء لا تراها من رجس الجن ، فلا يدري - وإن يدري - أين باتت يده .

* * *

١٣- المسألة الثالثة عشرة ، وجوب إسباغ الوضوء ، واستحباب إطالة الغرة والتحجيل ، وآثارها يوم القيامة ، وأسباب الطرد عن الخوض ، ومعنى استثناء المشيمة في قوله [: «وإنما إن شاء الله بكم لاحقون» عندما أتى المقبرة ، والبرهان على أنه قد يوجد آخر الزمان من له أجر بعض الصحابة ، وأن فضل أهل القرون الأولى من الإسلام فضل في الجملة وليس لكل فرد ، وأن ابن تيمية ليس كجرير الشاعر حسيماً يظهر لنا في الدنيا :

قال أبو عبد الرحمن : كان أشياخنا العوام كثيرون للهج بشكر الله على نعمة الإسلام وهم على أميئتهم وقلة معارفهم تخفق قلوبهم طرباً إذا تذكر أحدهم أنه ولد بين ظهراني المسلمين ، ونشأ على

عهود الإسلام ، ولم يولد في بيئة تعبد العجل أو النار أو أمة تدعي لله ابناً .

فهذه النشأة من أعظم نعم الإسلام التي استشعرها العوام على أميتهم ولم يأبه بها أكثر مثقفي هذا الجيل .

وإن بركات البيئة الإسلامية أن رسول الله ﷺ ذكر من سيما أمة محمد أن تبعث يوم القيامة بالغرة والتحجيل ، وأن رسول الله ﷺ يناديهم على الحوض بسيماهم ، إلا أن بعض الغر المحجلين إذا دعاهم رسول الله ﷺ على الحوض صنعوا عنه .

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى نعيم بن عبدالله المجرى قال : « رأيت أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ، ثم غسل يديه اليمنى حتى أشرع في العضد ، ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد ، ثم مسح رأسه ، ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ » .

وقال : قال رسول الله ﷺ : « أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء ، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله » .

وروى بإسناده إلى أبي حازم : عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن حوضي أبعد من أيلة من عدن .. لهو أشد بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولأنيته أكثر من عدد النجوم ، وإنني لأصعد الناس عنه كما يصعد الرجل إبل الناس عن حوضه » .

قالوا : يا رسول الله : أتعرفنا يومئذ ؟

قال : نعم .. لكم سيما ليست لأحد من الأمم .. تردون عليّ غراً محجلين من أثر الوضوء » .

وروى بإسناده عن أبي هريرة في رواية أخرى : « قالوا يا نبي

الله أتعرفنا ؟

قال : نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء ، وليصدقن عني طائفة منكم فلا يصلون ، فأقول : يارب هؤلاء من أصحابي .

فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ (٢٧) .

وروى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .. وددت أنا قد رأينا إخواننا » .

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمك يا رسول الله ؟

فقال : أرايت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

(٢٧) قال أبو عبد الرحمن : هذا الإحداث هو الدعة ، والمحرم منها يوقن ما كان عادة لله بغير ما شرع . والإحداث يشمل الدعة التي يراد بها الطاعة ، ويشمل ستوف المعاصي التي يراد بها المخالفة .

قال : فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض .. ألا ليذاذن رجال عن حوضي كما يذاذ البعير الضال .. أناديهم : ألا هلم .

فيقال : إنهم قد بذلوا بعدك .

فأقول : سحقاً سحقاً .

وروي بإسناد آخر إلى أبي حازم - رحمه الله - قال : «كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة ، فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه . فقلت له : يا أبا هريرة : ما هذا الوضوء ؟ »

فقال : يا بني قروح أنتم ها هنا .. لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء .. سمعت خليلي عليه السلام يقول : تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء .

قال أبو عبد الرحمن : اختلف العلماء في هؤلاء الغر المحجلين المطرودين عن الحوض من هم ؟

فبعضهم قال : هم المنافقون والمرتنون .

قال أبو عبد الرحمن : غير متصور شرعاً أن يُبعث المنافقون والمرتنون غراً محجلين .. خُصياً أعداء الله أن تكون لهم سيما الأمة المحمدية ولا كرامة لهم ، بل لهم النار والطرود والإبعاد ، لأنهم كفار غير مؤمنين ، وإنما أجرى لهم المسلمون حكم أهل الإسلام في الدنيا لتظاهرهم به ، والله أمرهم بذلك الإجراء .

وأعد لهم في الآخرة علام الغيوب ما أعد للكفار لعلمه بباطن حالهم .

وقال جمهور العلماء : إن هؤلاء الغر المحجلين المطرودين عن الحوض هم المؤمنون من أمة محمد عليه السلام من أهل المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد ، وكذلك أصحاب البدع الذين لم يخرجوا يبدعهم عن الإسلام ، فهؤلاء العصاة المؤمنون أدركتهم بركة عهود النشأة الإسلامية فبعثوا بشعار أهل الإسلام وهو الغرة والتحجيل رغم معاصيهم وكبائرهم ، ثم طردوا عن الحوض ليلقوا عدل الله أو كرمه إن شاء عذبهم بما يستحقون ، وإن شاء غفر لهم ورحمهم بدماء .

ولله وعد لا يخلفه ، وهو أن أهل الوضوء من المؤمنين لن يخلدوا في النار مطلقاً . بل إن عذبهم ربهم بذنوبهم فلأجل ، وإنتا لنترجو الخير على كل حال لكل قامة انحنت تعظيماً لله في بيوت العبادة ، وإنتا لنترجو التكريم والعزة لكل جبهة سجدت لله في بيوت العبادة خوفاً من الله ، وطمعاً فيما عنده ، واعترافاً بربوبيته وألوهيته وكماله .

وخذوا هذه الكلمة المليحة لإمام أهل المغرب أبي عمر ابن عبد البر قال - رحمه الله - : «كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء ، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق والمعلنون بالكبائر ، فكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنا بهذا الخبر» .

وإنما قال أبو عمر ابن عبد البر هذا القول المليح تمسكاً بظاهر الحديث وهو : «وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟» .

وقد كان أبو عمر - رحمه الله - مالكيًا ثم ظاهريًا ، ثم أصبح مجتهدًا مطلقًا يغلب أصول الإمام الشافعي ، ويوافقه كثيرًا في اجتهاده .

وقد كان كتابه الكبير « التمهيد في شرح موطأ مالك » من أعظم البركات على أهل المغرب ، لأنه كسر الجمود على فتاوى الفقهاء ، وعلمهم الاستنباط من نصوص الشرع المطهر مباشرة .

ولقد من الله على أهل هذا العصر بطبع كتابيه النفيسين « التمهيد » ، و « الاستذكار » ، وما كنا نحلم بهما في عهود النشأة العلمية . قال أبو عبد الرحمن : في هذا الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ لما دخل المقبرة قال : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » مع أن الموت أمر محقق حاصل لا محالة لن يخلد أحد مطلقاً ، وما دام الموت أمراً محققاً فكيف استثنى رسول الله ﷺ ، وقال : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » ؟

وقد حار العلماء في التماس الجواب عن ذلك .

فقال بعضهم : الموت حق ولكن ليس كل ميت يقبر ، فقد تأكله الطير ، أو يبتلعه الحوت فاستثنى الرسول ﷺ المشيئة ليقبر كما يقبر المؤمنون .

قال أبو عبد الرحمن : هذا الجواب ضعيف عندي ، لأن لغة العرب لا تدل عليه ، إذ المستثنى منه هو اللحق في قوله « لاحقون » وليس للقبر ذكر .

وقال بعضهم : إن الاستثناء من اللحق بهذا المكان ، والتقدير : وإنا للآحقون بكم في هذا المكان إن شاء الله .

وهذا الجواب هو الأرجح في سياق الكلام بموجب لغة العرب ، ولكنه ليس مراداً لرسول الله ﷺ بيقين ، لأن رسول الله ﷺ عارف بمكان قبره ، وليس للمقبرة التي دخلها ميزة حتى يرجوها ويعلق رجاءه بالمشيئة .

وقيل : معنى المشيئة لبيان أن كلام الرسول إخبار بالواقع وليس تمنياً للموت ؛ لأن تمنى الموت لا يجوز .

قال أبو عبد الرحمن : هذا الرأي باطل لأن سياق كلام العرب لا يدل عليه .

والذي أختاره أن ذكر المشيئة من باب تحسين الكلام منذ قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تَقُولْنَ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ووجه تحسين الكلام في ذلك أنه امتثال لأمر الله ، وتبرك به ، وطلب للخيرة التي يختارها الله لعبده ، وقد درجت البيئة الإسلامية على وصل الكلام بالمشيئة في كل كبير وصغير سواء أكان في الكلام مستثنى منه أم لم يكن فيه مستثنى منه ، لأن المسلمين لا يراعون في ذلك ملاحن اللغة ، وإنما يعتبرون استحضر المشيئة خلقاً إسلامياً .

قال أبو عبد الرحمن : وفي هذا الحديث قول رسول الله ﷺ لما دخل المقبرة : « وددت أنا قد رأيت إخواننا » .

قالوا : أو لسنا إخوانك يا رسول الله ، قال : أنتم أصحابي .. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد .

قال أبو عبد الرحمن : أصحاب رسول الله ﷺ هم خير الأمة ، وخير الأمة قرن محمد ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. إلا أنهم هذا في الجملة . أما في الأفراد فقد دلت الدلائل والبراهين على أنه قد يوجد في آخر القرون الحميدة من له أجر بعض الصحابة ، ومنهم الذين يسعيهم الأصوليون نوي شاهد الحال ممن كانوا على طريقة مثلى ، وأسوة حسنة بالسلف الصالح مع نصر للسنة وحمية لها .

وقد أشار إلى نوي شاهد الحال الإمام ابن حزم في «الفصل» وشيخ الإسلام ابن تيمية في النبوات .

بل إنهم شاركوا في الصحبة بنياتهم ، لأنهم يفعلون بقلوبهم مع أحداث سيرة رسول الله ﷺ فيحبون من أحبه رسول الله ، ويبغضون من عادى رسول الله ، ويحزنون لحزن رسول الله وأصحابه ، وتتبلج أسارىهم في مواطن النصر والغلبة ، وتخفق قلوبهم وأرواحهم إذا تلو سيرة رسول الله ﷺ وهو يدخل مكة المكرمة فاتحاً منتصراً قد دخل الناس في دين الله أفواجا .

وما أعظم أجر أناس آخر الزمان آمنوا بالرسول ولم يروه .

قال أبو عبد الرحمن : وبهذا الحديث ذهب أبو عمر ابن عبد البر وآخرون إلى أنه قد يكون في من يأتي بعد الصحابة من هو أفضل ممن كان من جملة الصحابة . وأن قوله : ﷺ «خيركم قرني» محمول

على الخصوص ، ومعناه : خير الناس السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ومن سلك مسلكهم ، فهؤلاء أفضل أمة .

وأما من خلط فكان ممن عمل عملاً صالحاً وآخر سيئاً ممن رأى رسول الله وصحبه أو لم يكن له سابقة ولا أثر في الدين فقد يأتي بعده من هو أفضل منه .

وكلام أبي عمر هذا هو الصواب - إن شاء الله - وقد دلت عليه النصوص ، وقد وجد بعد عصر الصحابة قلة كعمر بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل والشافعي والليث وغيرهم انطوت قلوب المسلمين على محبتهم حباً لا يرجى به إلا التقرب لله بمحبتهم ، وليست هذه المحبة إعجاباً بشرياً عادياً بالبطولات والعبقریات ، ولكنه حب ولاية وقربة .

وقد ذهب بعض العلماء - رحمة الله عليهم - إلى أن من صحب رسول الله ﷺ ورآه ولو مرة واحدة من عمره وحصلت له مزية الصحبة سيكون فضل الله يؤتيه من يشاء ، واحتجوا لذلك بقوله ﷺ : «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» .

قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام صحيح لو لم يرد منصوص الشرع إلا هذا الحديث وما في معناه ، ولكن لما وردت النصوص الشرعية الأخرى الدالة على أفضلية المتمسك بدين ربه في الفتن آخر الزمان ، وأفضلية من آمن برسول الله ولم يره ، وقام البرهان بأن درجات المؤمنين في الجنة تتفاوت برحمة الله وكرمه ثم بأعمالهم .. لما صح هذا ، ثم صح قوله ﷺ : «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ

مُد الذين يلونهم» وجب علينا حينئذ أن تضم النصوص كلها ،
ونستنبط منها مجتمعة ، لأن كلام رسول الله كله حق ليس بعضه أولى
بالتصديق من بعض ، فلما جمعنا كل هذه النصوص ، وراعينا
مقاصدها مجتمعة اتضحت لنا حقيقتان :

أولاهما : أن هناك أفضلية خاصة لبعض الصحابة لا يمكن أن
يصل إليها أي خالف كأفضلية أبي بكر الذي ما طلعت شمس ولا
غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل منه ، وكالعشرة المقطوع لهم
بالجنة ، وكأصحاب بيعة الرضوان ، وأهل بدر الذين غفر الله لهم على
ما كان منهم من العمل .. ومن جملة هؤلاء حاطب ونعيمان مضحك
رسول الله ﷺ رضي الله عنهم وأرضاهم .
وإنما قلت هذا لخصوص قوله ﷺ : «ما بلغ مد أحدهم ولا
نقصه» .

أما من عدا ذلك من جملة الصحابة بون خاصتهم من وفود
البادية فهؤلاء يتنازعون درجات الفضل مع خاصة المؤمنين من
الخلف .. وإنما قلت ذلك لأجل النصوص الأخرى الدالة على أفضلية
من جاء من خاصة الخلف .

وأخرى الحقيقتين : أن القرون الثلاثة الأولى خير القرون وليس
كل فرد في تلك القرون خير الأفراد ، لأن الوصف للقرون لا للأفراد ،
لكثرة الصلاح والخير في تلك القرون .

وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى طول جدال، فأنا مزكدها بالتسوية

فالأتمودج الأول : أن القرون التي كان فيها الأمر والنهي لعلماء
المسلمين بحيث يحكم شرع الله إلا في حكومة واحدة من حكومات
المسلمين الكثيرة .

والأتمودج الثاني : أن الشاعر جريراً ، وأبا نواس الحسن بن
هاني ، ويشار بن برد ، وأبان اللاحقي ، وحمام عجرد وكل هؤلاء
منهم كثير العبث والفضول ، والماجن ، والمتهم بزندقة .. من أهل
القرون المندوحة .

وابن تيمية والذهبي وابن حجر ومحمد بن عبد الوهاب من
القرون المتأخرة ، ولا مجال للمفاضلة بين هؤلاء بالنسبة لموازنتنا المبنية
على قوانين الشرع حيث أمرنا بتمييزها وتفضيل ومحبة من ظهرت
لنا ولايته لله .

أما قضاء الله الكوني في دار الجزاء فهو محض مشيئته وحكمته
بعده ورحمته ، ولهذا لا يجوز لنا أن نقطع لأحد بجنة ولا بنار ، وإنما
نرجو للمحسن الثواب ونخاف على المسيئ العقاب .

قال أبو عبد الرحمن : النصوص صريحة جلية على استحباب
إطالة الغرة والتحجيل ، وأن ذلك فعل رسول الله ﷺ ، وفعل أبي
هريرة ، وأن إطالة التحجيل مجاوزة المرفقين والكعبيين .

إلا أن شيخي المالكية القاضي عياض وأبا الحسن بن بطال حكيا
إجماع العلماء على أنه لا يستحب الزيادة فوق المرفق والكعب ، واحتجا
لذلك بقول رسول الله ﷺ : «من زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم» .

وعارضهما الشيخ محيي الدين النووي بأن المراد بالزيادة المنهي عنها الزيادة في العدد لا في إطالة التحجيل .

قال أبو عبد الرحمن : لدينا أمور ثلاثة لا أمر واحد :

فالأمر الأول : عدد الغسلات في الوضوء ، فلا يجوز أن يزيد على ثلاث غسلات لا بنية الوجوب ولا بنية الاستحباب ، فمن تعمد الزيادة فهو مبتدع ، لأنه أساء وظلم كما قال رسول الله ﷺ .

والأمر الثاني : أن حد الغسل الواجب في الوضوء المرفقان والكعبان ولا يجوز تعديهما بنية الوجوب .

والأمر الثالث : أنه ورد الحض استحباباً لا وجوباً على إطالة التحجيل .. وإطالة التحجيل تعني مجاوزة المرفقين والكعبين ، فدل ذلك

على أن إطالة الغرة جائزة بنية الاستحباب لا بنية الوجوب ، فعلى المكلف أن يستحضر نية الاستحباب في إطالة الغرة والتحجيل ، لأن

النيات هي الميزة للأعمال المقصودة ، وبنية الاستحباب تنجلي مقاصد الشرع المطهر ، وتبين ثمرة الفروق بين نية الاستحباب والوجوب ، وهي

أن من ترك إطالة الغرة عمداً أو نسياناً فقد تم وضوؤه ، وأن المسلم غير مكلف بالتزام إطالة الغرة والتحجيل ، بل مطلوب منه في بعض

الأحيان أن لا يطيل الغرة والتحجيل إحياء لسنة الوجوب ، وأن من أطال الغرة والتحجيل بنية الاستحباب يتحرى ثواب ذلك ، وهو حصول

سيما أمة محمد ﷺ له ، فيحصل له ذلك إن شاء الله .

قال أبو عبد الرحمن : إن أبا هريرة رضي الله عنه توضأ فأوصل الوضوء

إلى إبطه امتثالاً لنadb رسول الله ﷺ إلى إطالة الغرة والتحجيل ، ولم يكن على علم بأن أحداً يطلع عليه خوفاً من اعتقاد العامة بأن

ذلك واجب ، ولهذا قال لأبي حازم : «لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء» .

فهذا برهان نير ساطع على أن أبا هريرة فعل النذب المستحب وهو يعلم أن الواجب بون ذلك .

وأبو حازم - رحمه الله - الذي اطلع على أبي هريرة من الموالي . ولهذا قال له أبو هريرة : «يا بني فروخ» .. والتسابون يزعمون أن

فروخاً من ذرية إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، وأن العجم من ولده .

١٤- المسألة الرابعة عشرة : قصر الصلاة في السفر حال الأمن

هل كان استثنافاً أو نسخاً ؟ .. وفي هذه المسألة التمثيل لغوامض الاستدلال من كلام الإمام الحافظ ابن عبد البر ، وتبيان مطلب

التحقيق الفكري لمعنى النص ، وتقرير مقدار ركعات كل صلاة في السفر في الأمن خلال التشريع ، وذكر موجز الأدلة ، وتحقيق خلاف

العلماء ، وتحقيق ما تعارض من النصوص في اجتهادهم بالجمع بينهما إن كانت غير متعارضة في الواقع ، أو بالترجيح إن كانت متعارضة ،

ونقل كلام ابن عبد البر المشار إليه آنفاً : فأفك مشكل كلامه ، وأجلى مراده ، وأنفذ التحليل الفكري في العبارة ببيان وجه الغفلة :

قال أبو عبد الرحمن : أقبل الناس اليوم لا سيما طلبة الأطروحات

العالية على تحقيق المخطوطات ، فانتشرت الكتب في أيدي المسلمين ، وتورمت بكثرة التحشيات .

وأدنى مطالب التحقيق ضبط النص كما أراده كاتبه ، وأعلامها إظهار ثقافة النص بالضرورة من التفسير والتعريف والتخريج .

وتبرم العلماء من أعمال في مخطوطات حُققت فلم تف بالضرورة من أدنى مطالب النص وتقف عنده .. بل توسعت في غير الضروري فلم نسلم من التورم والتراكم الثقافي .

ومطلب التحقيق الفكري لعنى النص داخل في منهج التحقيق الثاني الذي وصفته بأنه أعلى المناهج .

ولا يعني هذا المطلب محاورة المؤلف حجة بحجة ، واعتباراً باعتبار ، فهذا عمل الشروح والرنود والمؤلفات المستقلة .

وإنما المطلب الفكري حل العبارة الغامضة بمقدار ما يكشف عن مراد المؤلف .

وأما صحة المراد بعد وضوحه ، أو بطلانه فمسألة تقديرية ليست من ضرورات التحقيق إذا كانت المعارضة بأدلة من خارج .

ويكون من الضرورات إذا تعلق النقد بعبارة في النص احتوت على مغالطة أو غفلة ، لأن ذلك تقويم للنص فكرياً .

ومسألتني هذه اشتملت على كلام غامض للحافظ أبي عمر ابن عبد البر .

وفي بعض كلامه غفلة أنتجت خطأ .

وقد حشيت على كلامه بتعليقات تكون نموذجاً للمطلب الضروري من التحقيق الفكري .

قال أبو عبد الرحمن : فأما مقدار الركعات لكل صلاة مفروضة حال الأمن فقد تغير الحكم بالنسخ مرتين فصار له ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن الصلاة مشروعة ركعتين للظهر ، وركعتين للعصر ، وركعتين للعشاء ، وركعتين للفجر ، وثلاثاً للمغرب .

وبدل على هذا ما ورد في الموطأ والصحيحين وغيرها عن عائشة رضي الله عنها : «أن الصلوات فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضر فأكملت أربعاً» .

والحالة الثانية : نسخ الحالة الأولى بجعل صلاة الظهر أربعاً ، وصلاة العصر أربعاً ، وصلاة العشاء أربعاً حضراً أو سفيراً .

والبرهان على هذه الحالة أدلة الحالة الثالثة التي قضت باستقرار صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين لكل صلاة حال السفر في الأمن، وأن ذلك كان قصراً يقتضي تماماً قبله .

والحالة الثالثة : نسخ الحالة الثانية بجعل الصلاة ركعتين لكل من الظهر والعصر والعشاء في السفر حال الأمن .

ومشروعية هذا القصر مجمع عليها ، وإنما الخلاف في حمل القصر على الوجوب أو الإباحة .

وروى أحمد وأهل السنن عن أنس بن مالك القشيري رضي الله عنه :
عن رسول الله ﷺ : «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر
الصلاة» .

قال أبو عبد الرحمن : والدلالة في وضع ، وفي شطر .. فالمشروع
بأخرة الوضع من الصلاة في السفر بمقدار الشطر .

قال أبو عمر ابن عبد البر : «ووضع لا يكون إلا من تمام قبله» (١) .
قال أبو عبد الرحمن : وخلال العلماء على هذا النحو :

١ - المذهب الأول : ما أسلفته من تغيير التشريع على ثلاث
حالات ، وذلك اختيار الإمام ابن عبد البر كما سيأتي من تحليل كلامه .
٢ - المذهب الثاني : تغيير الشرع على حالتين ركعتين لكل صلاة
رباعية الآن حضراً وسفراً ، ثم زيادة ركعتين لكل من الصلوات
المذكورة حال الحضرة .

وهذا هو ظاهر خير عائشة - رضي الله عنها - لنصها على أن
الزيادة في الحضرة ، وأن السفر باقٍ على الأصل .

وبذلك أخذ الشعبي ، والحسن البصري في رواية ، وميمون بن
مهران ، ومحمد بن إسحاق .

وخير عائشة مصروف عن ظاهره بيزهان ضروري يعارضه
ويقضي بغيره ، وذلك أن صلاة السفر قصر ، فهي منقوصة من

صلاة أطول ، فصح أن صلاة السفر زيد فيها على الأصل الأول
ثم نقصت .

٣ - المذهب الثالث : أن الأصل فرض الصلاة في الحضرة
أربعاً ، وفي السفر ثنتين سوى المغرب والفجر .

وحجة ذلك الحديث الصحيح الذي رواه أبو عوانة ، وأحمد ،
ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وغيرهم عن ابن عباس
رضي الله عنه قال : «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضرة
أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة» .

وفي السنن الكبرى للبيهقي : من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى
عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - قال : «فرضت الصلاة في
الحضرة أربعاً وفي السفر ركعتين» .

وقد حسنه أبو عمر ابن عبد البر (١) .

قال أبو عبد الرحمن : ليس في هذين الخبرين إلا أن ذلك كان
مفروضاً ، ولا يلزم منهما أن ذلك أول الأمر .. إلا أنه ورد عند ابن
عباس من رواية نافع بن جبير بن مطعم : «أن الصلاة فرضت في أول
ما فرضت أربعاً إلا المغرب فإنها فرضت ثلاثاً والصبح ركعتين» .

وليست هذه الرواية ذات علاقة بهذا المذهب ، لأنها لم تذكر
حال السفر .

وأما قوله : « في أول ما فرضت » فيأتي بيان وجهه إن شاء الله .
قال أبو عبد الرحمن : واعتبر ابن عبد البر الخبرين خلافاً لعائشة رضي الله عنها ، فقال : « ذكر في التمهيد من خالف عائشة في ذلك من الصحابة وغيرهم [رضي الله عنهم] ، فقال : بل الصلاة في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين .

وربما قال بعضهم : فرضت الصلاة في الحضر أربعاً ، وصلى رسول الله ﷺ في السفر ركعتين .

منهم عمر ، وابن عباس ، وجبير بن مطعم .

ثم قال : وهذا يدل على خلاف ما قالت عائشة إلا أن حديث عائشة من جهة الإسناد أثبت (١٩) .

قال أبو عبد الرحمن : ومن ظن أن ظاهر الخبرين كون صلاة السفر في الأصل ركعتين ففهمه مدفوع بأدلة مشروعية القصر المقتضية تنقيصاً بعد تمام ، فامتنع بذلك أن يكون الأصل في السفر ركعتين حينما ورد الحكم بالقصر .

قال أبو عبد الرحمن : وأما تحقيق خلاف العلماء ، وتحقيق ما تعارض من النصوص في اجتهاد بعضهم ، فتحمل أقوالهم ، وتحمل النصوص على وجه صحيح يرفع التعارض ، ويكون ارتفاع التعارض دليل ترجيح .

وبيان ذلك بملاحظة المراسي في الخبر عن مشروعية صلاة السفر ، فبعضهم راعى المال فحسب ، وذلك هو مذهب عمر ومن معه رضي الله عنهم .

وبعضهم راعى ابتداء الأحوال تارة ، ومآلها تارة ، وذلك هو خبر عائشة رضي الله عنها .

قال أبو عبد الرحمن : وبمراعاة ابتداء الأحوال ، ومآلها معاً تجتمع نصوصهم ونصوص الشرع على وجه صحيح ، وتكون أحوال التشريع ثلاثاً استقرت على الحال الأخيرة .

فخبر عائشة - رضي الله عنها - صحيح الثبوت واجب التصديق ، ونصه عن الصلاة الرباعية الآن أنها كانت ركعتين ركعتين . ثم وجدنا الدلائل على أنه حصل زيادة ، ثم حصل قصر ، فعلم أن ما أخبرت به عائشة هو أول الأحوال .

وأخبرت أنه زيد في الحضر ، وأن السفر بقي على الأصل ركعتين .

ولو لم يرد غير هذا الخبر لكان المعنى الذي لا احتمال غيره : أن التشريع حالتان فقط الأخيرة منهما زيادة ركعتين في الحضر .

ولكن قام البرهان على أن صلاة السفر قصر من صلاة رباعية تامة مما يدل على أن هناك حالة ثانية كانت فيها صلاة كل من الظهر والعصر والعشاء رباعية ، ثم جاءت حالة ثالثة تنقصي قصر صلاة السفر بتنقيص شطر من صلاة الحضر .

وإذن فلا بد من حمل كلام عائشة - رضي الله عنها - على وجه صحيح يوافق دليل الترجيع القاضي بأن صلاة السفر زيد فيها قبل أن تبقى على الأصل .

والحمل أن يقال : المال الحالة الثالثة ، وهو كون الحضر أربعاً والسفر شنتين .

ونظرت عائشة - رضي الله عنها - إلى الحالة الأولى والثالثة واسقطت الثانية ، فكان مال صلاة السفر العودة إلى الأصل ، والبقاء عليه .

وكان مال صلاة الحضر مرجوح قبل الدلائل على الحالة الثانية والثالثة ، فلما وجدت الدلائل أصبح الصحيح المرجوح مراداً متعيناً بآلة الترجيع .

وخبر ابن عباس وعمر - رضي الله عنهم - ليس فيه الكلام عن حالات التشريع والأصل فيها ، وإنما أخبر عن حكم الحضر والسفر في المال الذي استقر في الحالة الثالثة .

وإنما المشكل رواية نافع بن جبير : «أن الصلاة فرضت أول ما فرضت أربعاً إلا المغرب والصبح» .

قال أبو عبد الرحمن : يحمل هذا على الجهل بالحالة الأولى التي ذكرتها عائشة رضي الله عنها ، كما يحمل الخبر أيضاً على حالة التمام قبل القصر ، وذلك هو الحالة الثانية ، لأن التعبير بأول والجهل

بحالة الحكم الأول الذي ذكرته عائشة ، والخبر بالتمام دون تفريق بين حضر وسفر يقتضي أن الخبر عنه الحالة الثانية .

وأما كلام ابن عبد البر الذي ذكرت أن فيه غموضاً وإغفالاً فهذا نصه :

قال رحمه الله تعالى : «فإن قيل : إن حديث عائشة صحيح من جهة النقل ، وهو أصح إسناداً من حديث القشيري وغيره ، وأصح من حديث ابن عباس [رضي الله عنهم] : فالجواب : أنا لا حاجة بنا إلى أصل الفرض إلا من طريق القصر^(٥٢) .

ولا وجه لقول من قال : إن حديث عائشة [رضي الله عنها] يعارضه قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

(٥٢) سيدل بقية كلامه ، وسيدل لازم كلامه على أن العلم بأصل الفرض لا يقترب عليه ثمرة عملية إن صبح أن الأصل ركعتان .

وإنما العبرة بالحالة التي كانت عليها الصلاة قبل القصر سواء كانت تلك الحال أول الأمر أو ثانية .

لهذا فلا حاجة بنا إلى العلم بأصل الفرض الأول ، وإنما حاجتنا إلى الحالة قبل القصر . هذا معنى قوله : «إلا من طريق القصر» . ولم يبين وجه الحاجة ما هو ؟ .

فلا أبو عبد الرحمن : يلزم من هذا الرأي أنه أيضاً لا حاجة بنا إلى العلم بما كانت عليه الحال قبل القصر مباشرة ، لأن الثمرة العملية فيما استقرت عليه الحال في المرحلة الثالثة .

وإنما علمنا الحالة قبل القصر مباشرة بالضرورة البديهية لا من حاجة دفعنا ، لأن المدح في السفر الشطر ، وإذن فالملقى عدا شطر

ولا حاجة إلى أصل الفرض اليوم ، لأن الإجماع منعقد بأن صلاة الحضر تامة غير مقصورة ^(١١) ، وبالله التوفيق ^(١٢) .
قال أبو عبد الرحمن : وذكر ابن عبد البر الأخبار عن فرض الصلاة في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين .
والخبر عن فرض الصلاة أول ما فرضت أربعاً .
والخبر عن وضع شطر الصلاة عن المسافر .
ثم الخبر مرة ثانية عن فرض الصلاة في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين .

(٤٨) المشار إليه بذلك هو الأحوال الثلاث التي مر ذكرها ، والمشار إليه يعود إلى أمرين لا أمر واحد ، وهما :
ما ذكره ابن عبد البر من كون القصر يقتضي تماماً .
وما أغفله ابن عبد البر ، وهو أن التمام مسبوق بحالة أولى ذكرتها عائشة كانت ينتص الشطر .
(٤٩) هذا التعليل ينفي الحاجة إلى العمل بالحالة الأولى ، ولا ينفي الحاجة إلى العلم بها : لأن هذا العلم دليل على النسخ الذي أنكره بعض المبتدعة ، وفي توجيه صحيح للأخبار الصحاح كحديث عائشة - رضي الله عنها - لتدل على المراد الصحيح فيرتفع التعارض .
والزهادة في طلب علم ذلك لا تواجه بها دعاوى المبطلين في رد صحاح الأخبار والقدح فيها بدعوى منهم أنها متناقضة ، ويدعوى على العلماء بأنهم حاروا فيها لتناقضها فلانوا بدعوى أنه لا حاجة إلى طلب العلم بها .
(٥٠) الاستنكار ١ / ١٨٠ .

جناح أن تفصروا من الصلاة ﴿ [سورة النساء / ١٠١] ﴾ ^(١٤) .
وقد أجمع العلماء أنه لا يكون القصر من ركعتين في شيء من السفر ^(١٥) . لأن حديث عائشة قد أوضح أن الصلاة زيد فيها في الحضر ^(١٦) .
ومعلوم أن الفرض فيها كان بمكة ، والزيادة كانت بالمدينة ، وأن سورة النساء متأخرة ، فلم يكن القصر مباحاً إلا بعد تمام الفرض ^(١٧) .
وبذلك يعود إلى معنى واحد في أن القصر إنما ورد بعد تمام الصلاة أربعاً ^(١٨) .

(٤٤) وجه المعارضة أن الأصل لو كان ركعتين ركعتين لاقتضى القصر الصلاة في السفر ركعة واحدة ، ولا قائل بذلك .
(٤٥) الإجماع يدل على أن القصر لما شرع كان التمام أكثر من ركعتين .
وخبر عائشة أن الصلاة كانت ركعتين ركعتين بما في ذلك صلاة السفر .
فالتعارض حاصل ، وابن عبد البر يريد إزالته .
(٤٦) أراد ابن عبد البر نفي التعارض فجعل الآية مبيحة القصر بعد الزيادة التي ذكرتها عائشة .
قال أبو عبد الرحمن : بل لا يزال التعارض باقياً ، لأن عائشة - رضي الله عنها - أخبرت عن الزيادة في الحضر ، وأن صلاة السفر بقيت على الأصل .
ولكن التعارض يرتفع بما حرره في تحقيقه لخلاف العلماء .
(٤٧) هذا السياق أخذ بحديث عائشة ، وحمل له على حالة أولى بمكة المكرمة ، ثم كانت الزيادة حضراً وسفراً بالمدينة المنورة ، ثم كان القصر في السفر بعد ذلك بمقتضى الآية من سورة النساء .

ثم قال بعد هذا كله : « فدل هذا كله على أن القصر كان من أربع إلى اثنتين ، وعلى أن الأصل كان أربعاً لا ركعتين ^(٥١) ، والله أعلم ^(٥٢) » .

وقال أبو عمر في موضع آخر : « وقد طعن قوم في حديث عائشة لقول الله عز وجل : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ [سورة النساء / ١٠١] ، فقالوا : لو كانت ركعتين لم يقصر ، لأن الإجماع منعقد أن لا يصلي المسافر الأمن في سفره أقل من ركعتين في شيء من الصلوات .

فأي قصر كان يكون لو كانت الصلاة ركعتين ؟ ! .

وهذه غفلة شديدة ، لأن الصلاة إن كانت فرضت بمكة ركعتين كما قالت عائشة فقد زيد فيها على قولها ^(٥٣) بعد قتلوم رسول الله ﷺ المدينة .

وبعد ذلك أنزلت سورة النساء بإباحة القصر للضاربين في

(٥١) ليس كل ما ذكره ابن عبد البر دالاً على ما انتهى إليه ، فالخبر بأن صلاة الفرض أربع في الحضر ركعتان في السفر لا يدل على أن القصر كان من أربع إلى اثنتين .

(٥٢) الاستذكار ١ / ١٧٧ - ١٧٩ .

(٥٣) الذي على قولها الزيادة في الحضر فحسب ، وأما السفر فقالت : إنه على الأصل ركعتان .

ولكن تصحيح خلاف العلماء الذي مر وجهه أن مرادها عودة حكم السفر بعد الزيادة الأولى إلى حال الأصل الأولى .

الأرض ، وهم المسافرون ^(٥٤) .

وهذا لا يخفى على من له أقل فهم ^(٥٥) .

على أنا نقول : إن فرض الصلاة استقر من زمان النبي ﷺ إلى

(٥٤) وذلك حال الخوف ، وخبر عائشة - رضي الله عنها - عن حال الأمن .

قال أبو عمر في الاستذكار ٦ / ٣٩ - ٤١ : « مالك : عن ابن شهاب عن رجل من آل خالد بن أسيد أنه سأل عبد الله بن عمر [رضي الله عنهم] فقال : يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ، ولا نجد صلاة السفر ؟ » .

فقال ابن عمر : يا ابن أخي : إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً ، فإنا نفعل كما رأينا يفعل .

قال أبو عمر : معنى قوله : « ولا نجد صلاة السفر » : يعني في القرآن ، لأنه لا ذكر لها في القرآن .

وسؤال السائل عن صلاة السفر في الأمن دون الخوف .

وأما في القرآن قد قال الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا ﴾ [سورة النساء / ١٠١] .

فإنجابه ابن عمر بكلام معناه أن الذي نزل عليه القرآن ﷺ قصر وهو أمن في السفر ، ونحن نفعل كما رأينا يفعل .

قال أبو عبد الرحمن : أخبر ابن عمر - رضي الله عنهما - أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والبيهقي وابن جرير ، وصححه ابن حبان والحاكم كما في تحشية محقق الاستذكار .

(٥٥) لا يخفى هذا لو أن عائشة - رضي الله عنها - حكّت الزيادة في صلاة السفر ،

فتحمل نصوص القصر في السفر في الأمن على مرحلة من التشريع ثالثة .

وتوجيهي لكلام عائشة - رضي الله عنها - بوجه صحيح خلال تحقيقي خلاف العلماء جعل خبر عائشة غير معارض للآية ، لأن الآية عن الخوف ، ولأن عائشة أخبرت عن القصر في السفر في الأمن بمال آخر الأحوال ، ولم تستقص الخبر عن مراحل التشريع .

يومنا هذا في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين لمن شاء عند قوم .
وعند آخرين على الإلزام .

فلا حاجة بنا إلى أول فرضها لما فيه من الاختلاف» (٥٦) .

١٥- المسألة الخامسة عشرة : التسبيح بالمسبحة لا يجوز ،
وبدع الذكر والتسبيح ، ومشابهة دين النصارى في الكنسية بتحول
الذكر إلى جوفة :

روى أبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « أنه
دخل مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على امرأة ، وبين
يديها نوى ، أو حصى تسبيح به ، فقال : أخبرك بما هو أيسر عليكم
من هذا ، أو أفضل ؟ .

سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق
في الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو
خالق . والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا
بالله مثل ذلك » .

وعلى الرغم من أن الشيخ الألباني ضعفه فإنتي أقترض - تنزلاً
في الاستدلال - صحته إلا أنني لا أعتبر أن فيه دليلاً على إقرار

(٥٦) الاستنكار ٦ / ٦١ .

قال أبو عبد الرحمن : لا يعمل العلم يقتضي التصووس المسيحية من أجل الاختلاف ،
بل يحقق الاختلاف ويرفع التعارض بالوسيط غير المرفوع ، أو بالترجيح .

الرسول ﷺ للمرأة .

وإنما فيه أن الرسول ﷺ لم يعنف على المرأة ورفق بها .

وبيان ذلك أنه لم يؤثر أن رسول الله ﷺ سبى بالحصى والنوى ،
ولم يؤثر أنه رأى مسيحاً بالحصى أو النوى ثم تركه وشأنه ليكون ذلك
إقراراً ، بل كان يده إلى الأيسر والأفضل .

والتسبيح عبادة ، ووسيلة عذبة عبادة ، ومبنى العبادة على التوقيف .
وقد اجتمع فعل الرسول ﷺ وقوله على أن التسبيح لا يكون
بالحصى والنوى ، لأنه لم يفعله ، ولأنه دل من فعله إلى غيره ، ولأنه
قرر الحكم ابتداءً كما في حديث يسيرة - رضي الله عنها - : وكانت
من المهاجرات .. قالت : قال لنا رسول ﷺ «عليكن بالتهليل ،
والتسبيح ، والتقديس ، ولا تغفلن فتنسين الرحمة ، واعقدن بالأنامل ،
فإنهن مسؤولات مستنطقات» رواه أحمد والترمذي وأبو داود .

قال أبو عبد الرحمن : فمن سبى بالحصى ، أو النوى ، أو بخيط
مسبحة وأصر على أن ذلك جائز وداوم عليه : فقد شغب على
المصطفى ﷺ بما ليس من قوله ، ولا فعله ، ورغب عن سنته وهو على
ملة أبيه إبراهيم ، وما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه .

ومثل حديث سعد حديث صفية - رضي الله عنها - قالت :
«دخل علي رسول الله ﷺ وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبى بها ، فقال:
لقد سبحت بهذا ؟ .. ألا أعلمك بأكثر مما سبحت به ؟ » فقالت :
علمني .. قال : فقولي : سبحان الله عدد خلقه » .. رواه الترمذي .

على أن الترمذي قال : « حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من هذا الوجه من حديث هاشم بن سعيد الكوفي وليس بمعروف » .
قال أبو عبد الرحمن : غرضي التفقه في الدلالة ، ولهذا افترضت صحته .

قال أبو عبد الرحمن : ودلالة الرسول ﷺ إلى الأفضل والأيسر والأكثر تحتل الإشارة إلى أن التسبيح بالحصى جائز ولكنه مفضل . هذا احتمال لا يقين .

ولكن لما رأينا رسول الله ﷺ لم يفعله ، ورأيناه كلما رأى مسيحاً بالحصى دله على غيره ، ورأيناه يقرر الحكم استئنافاً بالأمر بعقد الأثامل لا بعقد الحصى والنوى والخرز : علمنا يقيناً أن الحصى مفضل غير جائز .

الأفضل يكون واجباً ومستحباً .

المفضل يكون حراماً ومكروهاً وجائزاً .

ومن البراهين على ذلك قول الله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : لا خير ولا حسن لأهل النار .

وإن فلا نستطيع أن نحكم بأن التسبيح بالحصى سنة جائزة لمجرد قوله ﷺ : « أيسر » ، لأن أفضل محتملة للجواز ، ومحتملة للمنع والتلطف في صرف الفاعل إلى الأفضل دون التصريح بخطئه . .
يضاف إلى ذلك أن النبي ﷺ لم يفعله ، ولم يترك فاعله دون توجيه

رقيق ، وأمر بغيره استئنافاً ، وذلك كله عبادة ، والعبادة تؤخذ من قوله وفعله عليه الصلاة والسلام ، ولا تؤخذ من فعل غيره .

قال أبو عبد الرحمن : ليس المنطق المطالبة بدليل التحريم ، بل المنطق المطالبة بدليل الإباحة ، لأن الأصل أن ذلك ليس من فعله ولا قوله عليه الصلاة والسلام ، ولأن قوله وفعله بخلاف ذلك ، لأن أدلة فعله وقوله ﷺ أرجح ثبوتاً من أدلة فعل غيره الذي ادعى المدعون أنه أقره .

وما أشار إليه الشوكاني - رحمه الله - من أفعال بعض الصحابة - رضي الله عنهم - اعتماداً على كتاب « المنحة في السبحة » للسيوطي فما صح منها ثبوتاً فلا يعارض بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بل يوجه بأن الصحابي لا يحيط بجميع السنة ، بل يخفى عليه بعضها حتى يبلغه زميله بما خفي عنه .

وقد أطنب العلماء في تبيين خفاء بعض السنن عن بعض الصحابة ، وأن من خفيت عنه سنة يكون عنده سنة خفيت عن غيره .

قال أبو عبد الرحمن : دعا الله نبيه محمداً ﷺ إلى مباهلة نصارى نجران برئاسة السيد والعاقب وابن الحارث في شأن عيسى ابن مريم - عليه السلام - فقال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نهمل فجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ [سورة آل عمران/ ٦٧] .

إلا أنهم أبوا ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم

إن باهلوه اضطرم عليهم الوادي ناراً .

وفي الأمور الواضحة المعلومة من دين الله بالضرورة قد يسلك فيها المؤمنون أو طائفتهم سبيل المناظرة بالمباهلة ولا تؤمن العقوبة العاجلة لمن باهل وهو كاذب .

وبين فرق المسلمين من يدعي حب رسول الله ﷺ وينفي هذا الشرط الإيماني عن من لا يعبر عن حبه بطقس أو طقوس معينة كالذكر جماعياً بذكر غير ماثور توظيفه ، وكالقيام المشهور ، وكالانصراف عن الأحكام والعظات إلى الأنوار والجماليات ، وكالإلغاء لبلاغ أهل التخصص من المحدثين والمفسرين والأصوليين والفقهاء ، والاستعاضة بشرع العوام ومدعي النوق .

وبعد ذلك تتحول العبادة إلى جوقة ، ويكون الدين أناشيد كثيرة الدخل .

قال أبو عبد الرحمن : وهناك من يشفق أن يظهر للملأ بحب لرسول الله ﷺ ويكون ذلك الحب يبغضه رسول الله ﷺ .

وأنت إن صدقت في الحب لا تحب ما يبغضه حبيبك . ويشفق أن يكون ذلك الحب مما كان يبغض في القرون المصوغة ولا يفعل .

ولو تباهل الطرفان بعد نفاد حسن النية ونزاهة الاجتهاد لكانت الكارثة محقق واقعة بمن خرج عن الولاء لله ولدينه بما لا يرضاه الله ولا رسوله ولا دينه ولا ولاية الأمر من مستحدثات البدع .

فإن قيل : ما المقياس لوضوح الأمر وجليته ؟

فالجواب أن دلائل الله على خلقه في ضرورات الدين شמוש ساطعة .

قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فانيعوني بحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [سورة آل عمران / ٣١] ، فهذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله جعل فيه المحبة اتباعاً ، ثم أعقب ذلك بياناً بقوله : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [سورة آل عمران / ٣٢] ، فكفر الله المتولي عن الطاعة ، وطاعة رسول الله لا تحصل إلا بمعرفة بلاغه ، وأهل البلاغة عنول الأمة من المحدثين والفقهاء .

فالخلاف فيما بينهم فقهي ، وخلاف غيرهم لهم أصولي . ومن المقياس أن يسأل المسلم : هل هذا من هدي محمد ﷺ ، لأن في صحيح مسلم من قوله ﷺ : «خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة» .

وزاد النسائي والبيهقي بإسناد صحيح : «وكل ضلالة في النار» . والبدعة في اصطلاح الشرع المطهر كل ما اتخذ ديناً ولم يكن في عصر رسول الله ﷺ مما جرت به السيرة ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ هم أهل الاتباع ، وقد قرر رسول الله ﷺ صفتهم المشرقة فقال - كما في صحيح مسلم - : «ما من نبي يبعثه الله عز وجل في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ،

ويقتلون بأمره ... الحديث .

قال أبو عبد الرحمن : أمة محمد ﷺ خير الأمم، فصحايبته خير الصحاب .

ومن استحيا كل بدعة ، ولم يفرق بينها وبين السنة فقد عطل نصوص البدعة من مفهومها . ولزمه أن الشرع نهى عن معصوم لا جود له ألبة ، ولزمه أن لا غلو في الدين ألبة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ [سورة النساء / ١٧١] .

وأهم مقاييس فهم البدعة أنها إحداث ما ليس بشرع الله لغرض التدين به ، فتكون خارجة عن أمر مبلغ الشرع وتكون مردودة كما في قوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » .

وقد صح عند الدارمي وغيره أن أبا موسى الأشعري قال لابن مسعود - رضي الله عنهم - : « إني رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة .. في كل حلقة رجل ، وفي أيديهم حصى ، فيقول : كبروا مئة .. فيكبرون مئة .

فيقول : هلاوا مئة .. فيهللون مئة .

فيقول : سبحوا مئة .. فيسبحون مئة .

قال : فماذا قلت لهم ؟

قال : ما قلت لهم شيئاً إلا انتظار رأيك أو انتظار أمرك .

قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع

من حسناتهم .

ثم مضى ومضيئنا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟

قالوا : حصى نعد بها التكبير والتهلل والتسبيح .

قال : فعدوا سيئاتكم فإننا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيئاً ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم .. هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون وهذه ثيابه وأتيته لم تكسر .

والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدي من ملة محمد ، أو مفتتحو باب ضلالة ؟ !

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير .

قال : وكم مرید للخير لن يصيبه .

وقال لهم ﷺ : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

وقال : « تعلموا العلم قبل أن يقبض ، وقبضه ذهاب أهله .

ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق » .

وأولئك القوم الذين يعدون بالحصى قال عنهم الراوي : « رأينا

عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج » .

قال أبو عبد الرحمن : إنكار ابن مسعود ﷺ لعصوم الواقع الذي

لم يكن سلفياً وهو التحلق لترديد الذكر جماعة ، وإحصاؤه بالحصى .

وأما الذكر المقيد فيحصى بالأنامل لأنهن مستنطقات بنص الحديث .

قال أبو عبد الرحمن : وكان بعض السلفيين ينكر السبحة الألفية ،
والآن صار التسبيح عن طريق التقنية ، فوجد جهاز في حجم البيضة
يهمز زر فيه فتخرج أربع خانات بأربعة أصفار ، ثم يهمز مرة بعد مرة
حتى يصل إلى ألف ، ثم يصفر لعد ألف آخر .. وهكذا .
ويتوقع أن يغزو هذا الجهاز السبحة الألفية .

١٦- المسألة السادسة عشرة : ما يقرؤه الإمام في صلاة الفجر :
قال أبو عبد الرحمن : من المصالح في أولوية الأقرأ والأفقه
بالإمامة في الصلاة أنه يعلم السنة فيما يقرأ في الصلاة ، ويحفظ ما
ترشد إليه السنة من أحكام الصلاة .
وغير الحافظ قد يعلم مقتضى السنة ولا يقدر على امتثاله لأنه
غير حافظ .

وغير الفقيه وإن كان حافظاً قد يقرأ ما يعجبه ويعجز عن اتباع
المسنون لأنه غير متفقه ، وقد يتلقى المواظبة على سورة وآيات في
بعض الصلوات تقليداً ، ويكون ما تلقاه غير موافق للمستحب .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا أمر جريت عليه سنن طويلة من
عمري ، فكان الشيخ إبراهيم بن ناصر من آل صالح إمام مسجد
سدِير بشقراء - رحمه الله رحمة الأبرار - كثيراً ما يقرأ في صلاة
العشاء : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ من سورة يونس .

وكان سليمان بن علي - رحمه الله - إمام مسجد الحسيني
بشقراء ، وابن عباس ، وشقران ، وابن داود إمام مسجد شارع
السويلم بالرياض - رحمهم الله - يقرؤون آخر سورة النمل ﴿ وإذا
وقع القول عليهم ﴾ وآخر سورة الكهف ، وآخر سورة مريم ، وآخر
سورة المؤمنون ، وآخر سورة القصص ، وآخر سورة يس ... إلخ ...
إلخ ، فيعجبني ذلك وأتأسأه غفلة مني عن المأثور ، وغلبة تقليد ، ومحبة
لأولئك الأشياخ سلوكاً وصوتاً .

واليوم بحمد الله كثر الحفاظ لكتاب الله ، وانتشر التفقه ، فلزم
التذكير بالسنن فيما يقرؤه الأئمة في الصلوات .

قال أبو عبد الرحمن : وقد سهل الله أمر التكليف على العباد ،
فمن كان لا يحفظ شيئاً من القرآن فإنه يسبح ويحمد ويكبر ويهلل ،
ويجزئه ذلك عما فاتته من القرآن كما في حديث رقاعة بن رافع وعبد الله
ابن أبي أوفى عند أبي داود والترمذي وغيرهما رضي الله عنهم .
ثم عليه أن يتعلم ما ينقصه من أمر دينه .

ومن كان يحفظ أجزاء من القرآن ولا يوجد في جماعة المسجد
أحفظ منه يُفرغ للإمامة ، فيؤم المسلمين بحفظه ، ويحرص على حفظ
ما جرت السنة بتلاوته في الصلوات .

قال أبو عبد الرحمن : وبعض حفاظ القرآن في هذا العصر يتلون
القرآن من أوله إلى آخره خلال أشهر خلال الصلوات الجهرية ، أو
خلال الصلوات الجهرية والسرية

وهذا رغبة عن السنة .

قال أبو عبد الرحمن : وقد رتني في هذا السفر على تحرير السنة في صلاة الفجر فحسب .

فقد ذكر برهان الدين البخاري عن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - أنه قال : « تلقيت من رسول الله ﷺ سورة والذاريات لكثرة ما كان يقرأها في صلاة الفجر » (٥٧) .

قال أبو عبد الرحمن : ولم يخرج النص ، وسورة الذاريات من طوال المفصل ، ورسول الله ﷺ يقرأ طوالة في الفجر .

وروى مسلم في صحيحه والنسائي في تفسيره بإسنادهما إلى عمرو بن حريث رضي الله عنه قال : « صليت خلف النبي ﷺ الصبح فسمعتة يقرأ ﴿ فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ﴾ (٥٨) .

قال أبو عبد الرحمن : هذه السورة من وسط المفصل .

(٥٧) المحيط البرهاني ١ / ١٣٢ وهو من كتب الأحناف المطولة لا يزال خطأ كرم علي بصورته الدكتور عبدالعزيز قاري .

(٥٨) تفسير ابن كثير ٤ / ٥١٠ .

وفي رواية : « سمعت النبي ﷺ يقرأ في الفجر ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ . »
انظر إرواء الغليل ٢ / ٦٢ .

وفي المحيط البرهاني ١ / ١٣٢ « وهما ﷺ أنه قرأ في الفجر ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وفي السماء انقضت ﴾ .

وقال البرهان البخاري : « وروى عنه عليه السلام أنه قرأ في الفجر سورة المزمل والمدثر » (٥٩) .

قال أبو عبد الرحمن : هما من مطول المفصل .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا إسرائيل ، ويحيى ابن آدم : حدثنا إسرائيل : عن سماك بن حرب : أنه سمع جابر بن سمرة يقول : « كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف .. كانت صلاته أخف من صلاتكم ، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور » (٦٠) .

وعند عبد الرزاق : عن أبي بردة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ في الفجر : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : هي قبيل طوال المفصل ، لأن الطوال من سورة ﴿ ق ﴾ إلى سورة ﴿ عم ﴾ .

وفي مصنف ابن أبي شيبة : عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ في الفجر بسورة يونس وهود .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر : عن شعبة : عن عبد الملك بن عمير : سمعت شبيب بن روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم ،

(٥٩) المحيط البرهاني ١ / ١٣٢ .

(٦٠) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٠٢ .

فأوهم ، فلما انصرف قال : « إنه ليس علينا القرآن ، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء » .

قال ابن كثير : « هذا إسناد حسن ، ومتم حسن ، وفيه سر عجيب ، ونبا غريب وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من اتهم به ، فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام » (١) .

وأخرج البخاري في صحيحه عن أم سلمة - رضي الله عنها - تعليقاً أن رسول الله ﷺ قرأ في الفجر والطور .

قال أبو عبد الرحمن : هي من طوال الفصل .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عبدالله بن السائب رضي الله عنه قال : « صلى النبي ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر عيسى أخذته سعة فركع » .

وأخرج مسلم في صحيحه وغيره عن قطبة بن مالك رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر في الركعة الأولى ﴿ ق ﴾ والقرآن المجيد » .

وروى أحمد ومسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿ ق ﴾ والقرآن المجيد ونحوها .

وكانت صلاته بعد إلى تخفيف .

قال أبو عبد الرحمن : سورة ﴿ ق ﴾ أول الفصل .

قال الحافظ ابن كثير : « سورة ﴿ ق ﴾ أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات .

وأما ما يقوله العوام إنه من ﴿ عم ﴾ فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء - رضي الله عنهم - المعترين فيما نعلم .

والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه باب تحزيب القرآن ثم قال : حدثنا مسدد : حدثنا قراب ابن تمام .

وحدثنا عبدالله بن سعيد أبو سعيد الأشج : حدثنا أبو خالد : حدثنا سليمان بن حبان وهذا لفظه : عن عبدالله بن عبد الرحمن بن يعلى : عن عثمان بن عبدالله بن أوس : عن جده .

قال عبدالله بن سعيد : حدثني أوس بن حذيفة ثم اتفقا .

قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبه رضي الله عنه وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له .

قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف .. قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا .

قال أبو سعيد : قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش ثم يقول ﷺ : لا أساء .. وكنا مستشعفين مستذلين - قال مسدد بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا .

فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ،
فقلنا لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ : إنه طرأ علي حزبي من القرآن
فكرمت أن أجيب حتى أتمه .

قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ : كيف يحزبون القرآن ؟
فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث
عشرة ، وحزب المفصل وحده .

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبه : عن أبي خالد
الأحمر به . ورواه الإمام أحمد : عن عبد الرحمن بن مهدي : عن
عبد الله بن عبد الرحمن (هو ابن يعلى الطائفي) به .

إذا علم هذا فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن
سورة ﴿ ق ﴾ .

بيان ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، والنساء .. وخمس : المائدة ،
والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة .. وسبع : يونس ، وهود ،
ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل .. وتسع : سبحان ،
والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ،
والفرقان .. وإحدى عشرة : الشعراء ، والنمل ، والقصص ،
والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والم ، السجدة ، والأحزاب ، وسبا ،
وفاطر ، ويس .. وثلاث عشرة : الصافات ، وص ، والزمر ، وغانغ ،
وحم السجدة ، وحم عسق ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ،
والأحقاف ، والقتال ، والفتح ، والحجرات .. ثم بعد ذلك الحزب

المفصل كما قاله الصحابة - رضي الله عنهم - ، فتعين أن أوله سورة
ق ، وهو الذي قلناه والله الحمد والمنة (٦٢) .

قال أبو عبد الرحمن : قول جابر بن سمرة رضى الله عنه لما ذكر قراءة
رسول الله ﷺ لسورة ﴿ ق ﴾ في الفجر : « وكانت صلاته بعد إلى
تخفيف » : تحتل ثلاثة أمور :

أولها : أنه كان يخفف صلاة الفجر فيما بعد ذلك بتقليل القراءة ،
وثانيها : أن صلاته آخر الأمر إلى تخفيف منذ كان يقرأ في
الفجر بسورة ﴿ ق ﴾ .

وثالثها : أن بقية الفرائض من الصلوات الخمس إلى تخفيف ،
إذ صلاة الصبح أطولهن .

ويشهد لهذا الاحتمال الأخير أن جابر بن سمرة رضى الله عنه لما ذكر
قراءة رسول الله ﷺ في الظهر والعصر قال : « وفي الصبح أطول
من ذلك » .

رواه أحمد ومسلم .
وفي رواية عند أبي داود : « والصلوات كلها كذلك إلا الصبح
فإنه كان يطيلها » .

قال ابن قيم الجوزية : « وأما الحديث الذي رواه مسلم في
صحيحه عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر

(٦٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٢٥ - ٢٢٦ .

﴿ق والقرآن المجيد﴾ وكانت صلاته بعد تخفيفاً فالمراد بقوله «بعد» أي: بعد الفجر : أي إنه كان يطيل قراءة الفجر أكثر من غيرها ، وصلاته بعدها كانت تخفيفاً .

ويدل على ذلك قول أم الفضل (وقد سمعت ابن عباس يقرأ ﴿المرسلات عرفاً﴾ ، فقالت) : يا بني لقد ذكرتني بقراءة هذه السورة ، إنها لاخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب فهذا في آخر الامر ^(٦٣) .

وابيضاً فإن قوله : «وكانت صلاته بعد تخفيفاً» : قد حذف ما هي مضافة إليه ، فلا يجوز إضمار ما لا يدل عليه السياق ، وترك إضمار ما يقتضيه السياق ، والسياق إنما يقتضي أن صلاته بعد الفجر كانت تخفيفاً ، ولا يقتضي أن صلاته كلها بعد ذلك اليوم كانت تخفيفاً ، هذا ما لا يدل عليه اللفظ ، ولو كان هو المراد لم يخف على خلفائه الراشدين ، فيتمسكوا بالمنسوخ ، ويدعوا الناسخ .

(٦٣) الاستدلال بقراءة سورة ﴿المرسلات عرفاً﴾ ما هنا قد يعارض بأنه غير محقق ، لأن هذا ليس تخفيفاً ، وهو يتألفي حمل كلمة «بعد» على ما سوى الفجر . قال أبو عبد الرحمن : الجواب أن ابن قيم الجوزية أراد الاستدلال على ما هو بصده من نفي دعوى أن التطويل في القراءة في الصلوات منسوخ ، ووجه الاستدلال لو كان معنى حديث سمرة أن آخر أمره عليه الصلاة والسلام تخفيف صلاة الفجر بتخفيف القراءة لكان يخفف فيما سوى الفجر ، لأنه ﷺ يطيل الفجر أكثر من غيرها . فلما ثبت أن آخر أمره إطالة المغرب بقراءة سورة المرسلات علم أنه لا يراد بحديث سمرة أنه خفف الصلاة في آخر الأمر ، وإنما المراد أن ما سوى الفجر خفف من الفجر .

وأما قوله ﷺ : «أيكم أم الناس ، فليخفف» ، وقول أنس رضي الله عنه : «كان رسول الله ﷺ أخف الناس صلاة في تمام» ، فالتخفيف أمر نسبي يرجع إلى ما فعله النبي ﷺ ، وواظب عليه ، لا إلى شهوة المأمومين ، فإنه ﷺ لم يكن يأمرهم بأمر ثم يخالفه ، وقد علم أن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة ، فالذي فعله هو التخفيف الذي أمر به ، فإنه كان يمكن أن تكون صلاته أطول من ذلك بأضعاف مضاعفة ، فهي خفيفة بالنسبة إلى أطول منها .

وهديه الذي كان واظب عليه هو الحاكم على كل ما تنازع فيه المتنازعون ، ويدل عليه ما رواه النسائي وغيره عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : «إن رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بـ ﴿الصفات﴾ ، فالقراءة بـ ﴿الصفات﴾ من التخفيف الذي كان يأمر به ، والله أعلم» ^(٦٤) .

وأسند أبو داود في سننه إلى رجل من جهينة : أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الصبح ﴿إذا زلزلت الأرض﴾ في الركعتين كليهما . قال : فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ أم قرأ ذلك عمداً . قال الشوكاني : «تردد الصحابي في أن إعادة النبي ﷺ للسورة هل كان نسياناً : لكون المعتاد من قراءته أن يقرأ في الركعة الثانية غير ما قرأ به في الأولى» ^(٦٥) .

(٦٤) زاد المعاد ١ / ٢١٢ - ٢١٤ .

(٦٥) نيل الأوطار ٢ / ٢٣٠ - ٢٣١ .

وقال الشوكاني عن إسناده : «سكت عنه أبو داود والمنذري ، وقد قدمنا أن جماعة من أئمة الحديث صرحوا بصلاحيته ما سكت عنه أبو داود للاحتجاج .

وليس في إسناده مطعن ، بل رجاله رجال الصحيح ، وجهالة الراوي لا تضر عند الجمهور ، وهو الحق» (٦٦) .

قال أبو عبد الرحمن : هذه السورة من قصار المفصل .

وقال البخاري في صحيحه : حدثنا حفص بن عمر قال : حدثنا شعبة عن أبي المنهال (هو سيار بن سلامة) : عن أبي هريرة : «كان النبي ﷺ يصلي الصبح وأحدنا يعرف جليسه ، ويقرا فيها ما بين الستين إلى المئة» (٦٧) .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن مقاتل قال : أخبرنا عبد الله (يعني ابن المبارك) قال : أخبرنا عوف (يعني الأعرابي) :

عن سيار بن سلامة .. ثم ساقه إلى أن قال : ويقرا بالستين إلى المئة (٦٨) .

قال الحافظ : وقدرها في رواية الطبراني بسورة الحاقة ونحوها (٦٩) .

وقال البخاري : حدثنا آدم قال : حدثنا شعبة قال : حدثنا سيار

(٦٦) نيل الأوطار ٢ / ٢٢٠ .

(٦٧) السابق ٢ / ٢٢٠ .

(٦٨) فتح الباري ٢ / ٢٢ ومن ٨٧ .

(٦٩) السابق ٢ / ٢٢ .

ابن سلامة .. ثم ساقه إلى أن قال : وكان يقرأ في الركعتين أو إحداهما ما بين الستين إلى المئة (٧٠) .

قال أبو عبد الرحمن : إحدى روايتي شعبة عن أبي المنهال ، ورواية عوف الأعرابي عن أبي المنهال بالجزء على أنه يقرأ في الصبح هذا العدد .

فدل ذلك على أن هذا العدد يقرأ في الركعتين معاً ، لأنها صلاة الصبح .

ورواية الشك وهي «في الركعتين أو إحداهما» تُردُّ إلى روايتي اليقين .

وبناء على رواية الشك قال الحافظ ابن حجر : «وهذه الزيادة (٧١) تفرد بها شعبة عن أبي المنهال ، والشك فيه منه .

وقد تقدم عن رواية الطبراني تقديرها بالحاقة ونحوها .

فعلى تقدير أن يكون ذلك في كل الركعتين فهو منطبق على حديث ابن عباس في قراءته في صبح الجمعة تنزيل السجدة وهل أتت (٧٢) .

وعلى تقدير أن يكون في كل ركعة فهو منطبق على حديث جابر

(٧٠) فتح الباري ٢ / ٢٤٩ .

(٧١) يعني قوله «في الركعتين أو إحداهما» وهي رواية الشك .

(٧٢) السورتان كلاهما معاً إحدى وستون آية .

عدد الآيات	اسم السورة
٢٩	سورة الحديد
٢٢	سورة المجادلة
٢٤	سورة الحشر
١٣	سورة الممتحنة
١٤	سورة الصف
١١	سورة الجمعة
١١	سورة المنافقون
١٨	سورة التغابن
١٢	سورة الطلاق
١٢	سورة التحريم
٣٠	سورة الملك
٥٢	سورة القلم
٥٢	سورة الحاقة
٤٤	سورة المعارج
٢٨	سورة نوح
٢٨	سورة الجن
٢٠	سورة المزمل
٥٦	سورة المدثر
٤٠	سورة القيامة
٢١	سورة الإنسان
٣٠	سورة المرسلات

ابن سمرة في قراءته في الصبح ب ﴿ق﴾ ^(٧٣) أخرجه مسلم ، وفي رواية له بالصفات ^(٧٤) ، وفي أخرى عند الحاكم بالواقعة ^(٧٥) .
قال أبو عبد الرحمن : قياس الستين آية إلى مئة إنما كان بآيات سور طوال المفصل بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي سيأتي عن قراءة رسول الله ﷺ بطوال المفصل ، وبدليل التقدير بسورة الحاقة كما في رواية الطبراني .
وسورة الحاقة من المفصل .

وآيات سور طوال المفصل على هذا النحو :

عدد الآيات	اسم السورة
٤٥	سورة ق
٦٠	سورة الذاريات
٤٩	سورة الطور
٦٢	سورة النجم
٥٥	سورة القمر
٧٨	سورة الرحمن
٩٦	سورة الواقعة

(٧٣) سورة ﴿ق﴾ خمس وأربعون آية ، فلا انطباق .

وكان ﷺ يقرأها في الركعة الأولى كما في حديث قطبة بن مالك رضي الله عنه الذي سبق إيراده .

(٧٤) الصفات ١٨٢ آية . وليس من المفصل .

(٧٥) فتح الباري ٢ / ٢٩٤ .

قال أبو عبد الرحمن : فليس في طوال المفصل ما يزيد على ٩٦ آية، فكان ﷺ يقرأ في الركعتين سورة لا تقل عن ستين آية ، أو يقرأ سورتين في الركعتين لا تزيدان على مئة آية ، ولا تقلان عن ستين آية . وكلهن من طوال المفصل ، وذلك في الغالب من عمله عليه الصلاة والسلام .

وحديث أبي هريرة برواية الشك أورده الإمام أبو محمد ابن حزم ^(٧٦) ، وجعله دليلاً على ما أسلفه من قوله : «تستحب أن يقرأ في صلاة الصبح من أم القرآن في كل ركعة من ستين آية إلى مئة آية من أي سورة شاء» .

قال أبو عبد الرحمن : هذا على الجواز لا على الاستحباب . أما المستحب فأن تكون الآيات من طال المفصل ، وليس من أي سورة شاء .

كما أن ستين آية إلى مئة تكون في الركعتين معاً ، وليس في كل ركعة .

وقد مر الدليل على هذين الأمرين .

(٧٦) قال في المحلى ٤ / ١٠١ : «حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله بن خالد : حدثنا إبراهيم ابن أحمد : حدثنا الفربري : حدثنا البخاري» .

قال أبو عبد الرحمن : هذا إسناد لنسخة أبي محمد من صحيح البخاري برواية شيخ أبي محمد عبد الرحمن الهمداني . عن المستعلي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد ، وانظر إسناد الحافظ ابن حجر إليها في فتح الباري ٩ / ٩ .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت رجلاً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان (إمام كان بالمدينة) .

قال سليمان بن يسار : قصليت خلفه ، فكان يطيل الأوليين من الظهر ويخفف الآخرين ، ويخفف العصر ، ويقرأ في الأوليين من المغرب بقصار المفصل ، ويقرأ في الأوليين من العشاء من وسط المفصل ، ويقرأ في الغداة بطوال المفصل .

رواه أحمد والنسائي وابن خزيمة وصححه ، وصحح ابن حجر في بلوغ المرام إسناد النسائي .

وورد على الاستدلال بهذا الحديث أن المشابهة في معظم أجزاء الصلاة لا في جميع ما لاحظته ابن يسار ^(٧٧) .

قال أبو عبد الرحمن : على هذا يحتمل أن قراءة إمام المدينة بطوال المفصل ليست من الأجزاء التي شابه فيها صلاة رسول الله ﷺ ، إذ يحتمل أن تكون المشابهة في غير ذلك .

قال أبو عبد الرحمن : الذي حكم بالمشابهة صحابي جليل ، والذي استقرأ فقيه تابعي جليل .

فالأصل المشابهة في هيئات الصلاة التي تلاحظ من مرة واحدة من هيئة القيام والقعود والسجود .. إلخ .

أما ما يعرف من صلواته بالاستقراء كتتبع قراءاته في الصبح

(٧٧) انظر فتح الباري ٢ / ٢٩٠ و ٢٩٢ .

والمغرب ... إلخ ، فليس له حكم الرفع ، وأنه شبيه فعل رسول الله ﷺ ، لأن أبا هريرة لم يحكم لصلوات والي المدينة ، ولم يذكر استقراءً لصلواته ، وإنما حكم لصلاته .

قال أبو عبد الرحمن : ولكن يوجد دليل من خارج دل على أن قراءة والي المدينة لطوال المفصل في الصبح مما شابه فيه صلاة رسول الله ﷺ ، وهو أن أكثر السور التي مرت وذكر أن رسول الله ﷺ يقرأها في الفجر كانت من طوال المفصل .

وكان ﷺ كما في حديث أبي هريرة يقرأ في ركعتي فريضة الفجر ستين آية إلى مئة آية ، ولم يتقل أنه انتزع تلك الآيات من طوال السور ، بل نقل عنه في الفجر قراءة سور كاملة من طوال المفصل في أغلب الأوقات .

فصح أن الستين إلى مئة سورة كاملة ، أو سورتان ، وأكثر ما يكون ذلك في طوال المفصل .

وقال برهان الدين البخاري : صح [أن] النبي ﷺ قرأ في صلاة الفجر في السفر سورة المعوذتين (٧٨) .

وهذا في حالة الضرورة ، وفسر الضرورة بالتعجيل في السير أو الخوف من العدو (٧٩) .

(٧٨) يعني حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وانظر عنه تفسير ابن كثير ٤ / ٦١١ - ٦١٣ .

(٧٩) المحيط المبرهاني ١ / ١٢٣ .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه قال : «كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿هل أتى على الإنسان﴾» .

والطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : «يديم ذلك» (٨٠) .

قال أبو محمد ابن حزم : «روينا من طريق عبد الرزاق : عن معمر بن الزهري : عن أنس رضي الله عنه : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أم الصحابة رضي الله عنهم في صلاة الصبح بسورة البقرة قرأها في الركعتين» .

قال أحمد شاكر : رواه البيهقي من طريق الشافعي : عن ابن عيينة : عن الزهري .

ورواه مالك في الموطأ : عن هشام بن عروة : عن أبيه (٨١) .

قال أبو عبد الرحمن : وقد سلم منها قريباً من طلوع الشمس ، فقالوا : يا خليفة رسول الله : كادت الشمس تطلع ؟

فقال : لو طلعت لم تجدنا غافلين .

وقال الإمام أبو محمد ابن حزم : «عن قتادة : عن أنس رضي الله عنه : أن أبا بكر رضي الله عنه أمهم في الصبح بال عمران» (٨٢) .

قال أبو محمد : «روينا عن أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما : أن كل واحد منهما صلى الصبح بالصحابة رضي الله عنهم

(٨٠) سبل السلام ١ / ٣٦٣ .

(٨١) المعنى ٤ / ١٠٤ .

(٨٢) المسبق ٤ / ١٠٤ .

فقرأ في الركعة مئة آية من آل عمران، ثم قرأ في الثانية باقي السورة.
 وضح مثل هذا أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه ^(٨٣).

قال أبو محمد : «وعن سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة كلاهما :
 عن الأعمش : عن إبراهيم التيمي : عن حصين بن سبرة : أن عمر بن
 الخطاب رضي الله عنه قرأ في الفجر يوسف ، ثم قرأ في الثانية ﴿ والنجم ﴾
 فسجد ، ثم قام قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ ^(٨٤).

وقال أبو محمد : «من طريق عبدالرحمن بن مهدي : عن شعبة :
 عن الحكم بن عتيبة : أنه سمع عمرو بن ميمون يقول : إن عمر
 ابن الخطاب رضي الله عنه صلى الصبح بذي الحليفة فقال : سبحانك الله
 وبحمدك .. تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك .
 وقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ . و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .
 وكان يتم التكبير» ^(٨٥).

وقال البرهان البخاري : «وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ في الركعة
 الأولى سورة النحل ، وفي الركعة الثانية سورة بني إسرائيل» ^(٨٦) .
 وقال ابن قيم الجوزية : «كان عمر رضي الله عنه يقرأ في الفجر بيوسف
 والتحل ، ويهود ويمني إسرائيل ونحوها من السور .

(٨٣) المطي ٤ / ١٠٥ .

(٨٤) السابق ٤ / ١-٤ .

(٨٥) نفسه ٤ م / ١٠٤ .

(٨٦) المحيط البرهاني ١ / ١٣٣ .

ولو كان تطويله رضي الله عنه منسوخاً لم يخف على خلفائه الراشدين
 ويطلع عليه النصارون» ^(٨٧).

وقال البخاري : «قرأ الأحنف بالكهف في الأولى ، وفي الثانية
 بيوسف أو يونس . وذكر أنه صلى مع عمر رضي الله عنه الصبح بهذا» ^(٨٨) .
 قال الحافظ ابن حجر : «وصله جعفر الفريابي في كتاب الصلاة
 له من طريق عبدالله بن شقيق .

وقال في الثانية يونس .. ولم يشك .
 ومن هذا الوجه أخرجه أبو نعيم في المستخرج» ^(٨٩) .
 قال أبو محمد : «عن علقمة أنه كان يقرأ في الأولى من صلاة
 الصبح سورة الدخان ، والطور ، وسورة الجن ، ويقرأ في الثانية آخر
 البقرة ، وآخر آل عمران ، والسورة القصيرة» ^(٩٠) .
 قال أبو محمد : «عن أبي وائل أنه قرأ في إحدى ركعتي الصبح
 ثم القرآن وآية .

وعن إبراهيم النخعي نحو هذا» ^(٩١) .
 قال أبو عبدالرحمن : الأصل جواز قراءة ما تيسر من القرآن
 من الفاتحة في الأوليين من الفرائض ، وفي جميع النوافل .

(٨٧) زاد المعاد ١ / ٢٦٢ .

(٨٨) فتح الباري ٢ / ٢٩٨ .

(٨٩) السابق ٢ / ٣٠٠ .

(٩٠) المطي ٤ / ١٠٦ .

(٩١) السابق ٤ / ١٠٦ .

فيجزئ للجواز آية واحدة .

وأما الجزء من الآية لمن يحفظ الآية أو يحفظ غيرها فلم تجز به سنة ، ولا يعرف له مسوغ (كمن يورد جزءاً من الآية في غير الصلاة للاستشهاد به على حكم ، فإن هذا مسوغ) ، فالأحرى أن ذلك لا يجوز ، لانتفاء المسوغ .

واستحب الإمام أحمد كون الآية طويلة كآية الدين ، وآية الكرسي . والأصل في جواز قراءة الآية الواحدة حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر النافلتين في الأولى منهما الآية ١٣٦ من سورة البقرة وهي قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وفي الثانية بالآية ٦٤ من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولَا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ رواه أحمد ومسلم .

ومنع بعضهم من قراءة آية لا يتعلق بها حكم نحو : ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ و ﴿ مَدَامَتَانِ ﴾ (١١) .

(١٢) انظر حاشية الوضوح المربع ٢ / ٢٢٧

قال أبو عبد الرحمن : كلام الله مستودع الفوائد ، ويتر جملة لا تفيد معنى إلا بغيرها عبث بكلام الله . وكره الحنابلة القراءة بكل القرآن في فرض لعدم نقله ، وللإطالة .

قال أبو عبد الرحمن : وإذا اتضح الجائز وغير الجائز في القراءة في الصلاة : فإن الاستمرار على الجائزة أو تغليبه يكون مكروهاً لأنه رغبة عن السنة ، والسنة في صلاة الصبح ما كان الأغلب من فعل رسول الله ﷺ وهو القراءة من طوال المفصل في الحضر .

والدوام على المستحب يظهر المنوب في صورة الواجب ، فلا بد من فعل الجائز المفضل بعض المرات .

ولا كره القراءة في الصبح يقصر المفصل في حالات العذر كمرض وسفر وغلبة نعاس ولزوم غريم وخوف .

ولبرهان الدين البخاري تفريع ينبغي أن يناقش ، وذلك أنه - رحمه الله - وجد قراءات الرسول ﷺ في الصبح متعددة ، فاعتبر التعدد اختلافاً يحتاج إلى توفيق ، فقال عن فقهاء الحنفية : « والمشايخ وفقوا بين الروايات فممنهم من قال : أربعون للملك ، وما فوق ذلك إلى الستين للوسط من الناس ، وما من الستين إلى المئة للذين يتجهجون ويستأنسون بالقراءة ولا يملون .

وممنهم من وفق من رجا آخر فقال : المراد من الأربعين إذا

كانت (٩٣) الآية طوالاً لا كسورة الملك فإنها مع طولها ثلاثون آية .
والمراد من الخمسين والستين إذا كانت الآية متوسطة بين الطول
والقصر ، أو مختلطة منها القصار والطوال .
والمراد بين الستين إلى المئة إذا كانت الآية قصاراً (٩٤) كسورة
المزمل والمدثر وكسورة ...

ومنهم من وفق من وجه آخر فقال: إن كان الوقت ... (٩٥) نحو الصيف
يقرأ أربعين وإن كان الوقت ... (٩٦) كالشتاء يقرأ ما بين الستين إلى المئة .
وإن كان لهما بينهما يقرأ من خمسين إلى ستين .
ومنهم من يقول: إذا كانت طوالاً يقرأ ما بين الستين إلى مئة ،
وإذا (٩٧) كانت مما بين ذلك يقرأ خمسين أو ستين (٩٨) .
قال أبو عبد الرحمن : هذا التفريق بين الملوك والقراء والعامة
يحتاج إلى دليل وإلا فهو دعوى على الشرع .

(٩٣) في الأصل : كان .

وإنما ذكر الأربعين لأنه نقل عن الكتاب لمحمد بن الحسن الشيباني أنه يقرأ في الفجر
في الركعة بأربعين أو خمسين آية سوى فاتحة الكتاب .
ولم يعد ذلك إلى سنة منقولة .

(٩٤) في الأصل : قصار .

(٩٥) في الأصل كلمة لم أستبها .

(٩٦) في الأصل كلمة لم أستبها .

(٩٧) في الأصل بنون ولو .

(٩٨) المحيط البرهاني ١ / ٨٢٦ .

وهو دعوى غير معقولة التطبيق إلا بقرئ مساجد للملوك ، وأخرى
للقراء ، وأخرى للعامة !! .

قال أبو عبد الرحمن : ولا داعي للتوفيق أصلاً لأن رسول الله ﷺ
لم يحدد عدد آيات معيناً ، وإنما كان - عليه الصلاة والسلام - يقرأ
سورتين من طوال المفصل ، أو سورة ، فقدّر أبو برزة رضي الله عنه ذلك بما
بين ستين آية إلى مئة .

وهذا هو واقع آيات سور طوال المفصل .

وأما التفريق بين الشتاء والصيف فقد يغلل به التفريق بين قراءة
الرسول ﷺ بطوال المفصل وسور طوال من غير المفصل .

وشاهد هذا التفريق حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : بعثني
رسول ﷺ إلى اليمن فقال : «يا معاذ إذا كان في الشتاء ففلس
بالفجر وأطل القراءة قدر ما يطيق الناس ولا تملهم .

وإذا كان الصيف فأسفر بالفجر ، فإن الليل قصير ، والناس
يتأمون ، فأمهلهم حتى يتركوا» .

رواه البخاري في شرح السنة ، ويحيى بن مخلد في مسنده ، وأبو
نعيم في الحلية (٩٩) .

قال أبو عبد الرحمن ليل الشتاء طويل ، ونهاره قصير فشرع الإسفار
مع طول القراءة أخذاً من طول الليل ، واحترازاً من مفاجأة نهاره .

(٩٩) نيل الأوطار ٢ / ٢٠ .

وشرع التطويل لأن أهل العبادة شبعوا نوماً ، ونشطوا لقرآن
الفجر المشهود .

وعلى هذا فمشروعية التغليس في الشتاء .
وليل الصيف قصير ، ونهاره طويل ، فشرع عدم التغليس
لانتظار المصلين ليقوموا من نومهم ، ولا تطول القراءة بأكثر من سور
طوال المفصل ، لأن الصلاة لن تقام إلا بعد الغلس .
واختلف العلماء في التغليس والإسفار أيهما أفضل ، وعندي أن
حديث معاذ هذا هو الفيصل في النزاع .

وإنما المشكل هاهنا حيث حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح مرة بغلس ، ثم صلى مرة أخرى
فأسفر بها ، ثم كانت صلاته بعد ذلك التغليس حتى مات لم يعد إلى
أن يسفر .

رواه أبو داود بإسناد صحيح .

قال أبو عبد الرحمن : والجواب عنه أن وفاة رسول الله ﷺ في
يوفيو بعيد الشتاء ولا يزال الليل طويلاً ، وذلك وقت التغليس سب
وقسم برهان الدين البخاري حالة الحضر إلى حالة ضرورة ،
وهو الخوف من فوات الوقت ، فيقرأ في الفجر مقدار ما لا يفوته وقت
الصلاة .

فإن كان في حالة اختيار (وهي سعة الوقت) يقرأ في الفجر
بأربعين أو خمسين أو ستين آية سوى فاتحة الكتاب .

وروى الحسن بن زياد : عن أبي حنيفة : أن يقرأ ما بين الستين
إلى مئة .

وفي غيره : رواية الأصول : عن أبي حنيفة أن يقرأ في
الركعة الأولى ﴿ ألم تنزيل ﴾ السجدة ، وفي الثانية ﴿ هل أتى على
الإنسان ﴾ (١٠٠) .

قال أبو عبد الرحمن : إنما ذلك في صبح الجمعة .

قال ابن قيم الجوزية : « وكان يصليها يوم الجمعة بـ ﴿ ألم
تنزيل ﴾ السجدة وسورة ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ كاملتين ولم يفعل
ما يفعله كثير من الناس من قراءة بعض هذه وبعض هذه في الركعتين ،
وقراءة السجدة وحدها في الركعتين ، وهو خلاف السنة .

وأما ما يظنه كثير من الجهال أن صبح يوم الجمعة فُضِّلَ
بسجدة ، فجعل عظيم ، ولهذا كره بعض الأئمة قراءة سورة السجدة
لأجل هذا الظن ، وإنما كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين لما اشتملتا عليه
من ذكر المبدأ والمعاد ، وخلق آدم ، ودخول الجنة النار ، وذلك مما كان
ويكون في يوم الجمعة ، فكان يقرأ في فجرها ما كان ويكون في ذلك
اليوم ، تذكير للأمة بحوادث هذا اليوم ، كما كان يقرأ في الجامع
العظام كالأعياد والجمعة بسورة ﴿ ق ﴾ و ﴿ واقترت ﴾ و ﴿ سبح ﴾
و ﴿ الغاشية ﴾ » (١٠١) .

(١٠٠) المحيط البرهاني ١ / ١٣٣ .

(١٠١) زاد المعاد ١ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

لما قسم برهان الدين البخاري السفر إلى حالة ضرورة ، وحالة اختيار : فسر حالة الاختيار بالأمن وأن لا يريد عجلة السير .
ثم قال : « أما حالة الاختيار في السفر يقرأ في الفجر سورة البروج وأنشقت ليحصل الجمع بين مراعاة السنة في القراءة وبين التخفيف » (١٠١) .

قال أبو عبد الرحمن : الستة في الصبح القراءة من طوال الفصل ، وهاتان السورتان من أوساطه .
والرسول ﷺ قرأ في السفر من قصاره .

ولما ذكر البخاري حديث أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قرأ بالطور وحديث أبي برزة رضى الله عنه عن قراءة رسول الله ﷺ الصبح ما بين الستين إلى المئة : علق الحافظ ابن حجر بقوله : « كان المصنف قصد بإيراد حديثي أم سلمة وأبي برزة بيان حالتي السفر والحضر » (١٠٢) .

قال الحافظ ابن حجر عن حديث أم سلمة المعلق عند البخاري : « وصله المصنف في بابا طواف النساء من كتاب الحج من رواية مالك عن أبي الأسود : عن عروة : عن ربيب : عن أمها أم سلمة قالت : شكوت إلى النبي ﷺ أنني أشتكى .. أي إن بها مرضاً .. فقال : طوفي وراء الناس وأنت راكبة » .

(١٠٢) المحيط البرهاني ١ / ١٣٣ .

(١٠٣) فتح الباري ٢ / ٣٩٤ .

قالت : قطعت حينئذ والنبي ﷺ يصلي .. الحديث .

وليس فيه بيان أن الصلاة حينئذ كانت الصبح ، ولكن تبين ذلك من رواية أخرى أوردها بعد ستة أبواب من طريق يحيى بن أبي زكريا الغساني : عن هشام بن عروة : عن أبيه .. ولفظه : فقال : « إذا أقيمت الصلاة للصبح فطوفي » .

وهكذا أخرجه الإسماعيلي من رواية حسان بن إبراهيم عن هشام . وأما ما أخرجه ابن خزيمة من طريق ابن وهب : عن مالك وابن لهيعة جميعاً : عن أبي الأسود في هذا الحديث قال فيه : قالت وهو يقرأ في العشاء الآخرة : فشاذ .

وأظن سياقه للفظ ابن لهيعة : لأن ابن وهب رواه في الموطأ عن مالك فلم يعين الصلاة .. كما رواه أصحاب مالك كلهم أخرجه الدارقطني في الموطأ له من طرق كثيرة عن مالك .. منها رواية ابن وهب المذكورة ، وإذا تقرر ذلك فابن لهيعة لا يحتاج به إذا انفرد فكيف إذا خالف .

وعرف بهذا اندفاع الاعتراض الذي حكاه ابن التين عن بعض المالكية حيث أنكز أن تكون الصلاة المذكورة صلاة الصبح فقال : ليس في الحديث بيانها ، والأولى أن تحمل على النافلة ، لأن الطواف يمتنع إذا كان الإمام في صلاة القريضة . انتهى .

وهو رد للحديث الصحيح بغير حجة .

وعن سر إطالة صلاة الصبح قال ابن قيم الجوزية : وكان ﷺ

يطيل الركعة الأولى على الثانية من صلاة الصبح ومن كل صلاة ، وربما كان يطيلها حتى لا يسمع وقع قدم ، وكان يطيل صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات ، وهذا لأن قرآن الفجر مشهود ، يشهده الله تعالى وملائكته .

وقيل : يشهده ملائكة الليل والنهار ، والقولان مبنيان على أن النزول الإلهي هل يدوم انقضاء صلاة الصبح ، أو إلى طلوع الفجر ؟ ، وقد ورد فيه هذا وهذا .

وأيضاً فإنه لما نقص عدد ركعاتها جعل تطويلها عوضاً عما نقصته من العدد .

وأيضاً فإنها تكون عقيب النوم ، والناس مستريحون . وأيضاً فإنها تكون في وقت تواطأ فيه السمع واللسان والقلب لقراغه وعدم تمكن الاشتغال فيه ، فيفهم القرآن ويتدبره . وأيضاً فإنها أساس العمل وأوله ، فأعطيت فضلاً من الاهتمام بها وتطويلها ، وهذه أسرار إنما يعرفها من له التفات إلى أسرار الشريعة ومقاصدها وحكمها ، والله المستعان» (١٠٤) .

وقول جابر بن سمرة رضي الله عنه : «كان النبي ﷺ يقرأ بـ ﴿ق﴾ والقرآن الحميد ﴿ق﴾ ونحوها ، نو دلالتين :

أولاهما : أن قراءته من طوال المفصل ، لأن سور طوال المفصل نحو سورة ﴿ق﴾ ، لأن سورة ﴿ق﴾ من طوال المفصل .

وثانيتهما : أن ذلك غالب حاله في بدلالة «كان» (١٠٥) .

قال أبو عبد الرحمن : يمنع من حمل كان هاهنا على مجرد الوقوع أن الأصل فيها الاستمرار ، وأنه قام الدليل على أن غالب حاله عليه السلام في السفر في غير الشتاء قراءة طوال المفصل .

١٧- المسألة السابعة عشرة : وظائف المسجد في شرع الله ، وبيان أن هذه المسألة خاصة بالمسجد المبني ، وحرمة اتخاذ المسجد للتأليب على ولي الأمر المسلم ، وبيان أن النصوص في التفاضي عن أخطاء ولي الأمر المسلم أخص من عموم النصوص في الحسبة ، ثم سرد وظائف المسجد ، وخلال ذلك الكلام عن دلالة قوله تعالى : ﴿وأن المساجد لله﴾ على أن المسجد للعبادة ، وأن الولاية عليه للمؤمنين ، وقصة مسجد الضرار ، وما يشمل حكم الضرار ، والحث على بناء المساجد باقتصاد ، والنهي عن الزخرفة ، ومناسبة النهي لوظائف المسجد ، واحتمالات تأويله حديث «ترب وجهك» ، والأمر بتنظيف المساجد ، وتطهيرها ، وتطيبها ، وحكم دخول المسجد بالنعال :

المسجد بيت عبادات لله سبحانه ورد بها النص من صلاة وقرآن وذكر لله واعتكاف .

ولأجل ذلك شرع تعظيم المسجد واحترامه ، والتطهر والتزين والتطيب به ، ولما يؤدي فيه من عبادات ، ولهذا جعل الله ولايته للمؤمنين .

ومن دخل المسجد يصلي ركعتين قبل أن يجلس ، وقد سماهما العلماء تحية المسجد ، وفي حديث أبي قتادة رضي الله عنه حسب رواية الأثرم في سننه قال ﷺ : أعطوا المساجد حقها . قالوا : وما حقها ؟

قال : أن تصلوا ركعتين قبل أن تجلسوا .

قال أبو عبد الرحمن : والعبادات المذكورة هي التي شرع من أجلها المسجد ابتداء ، فكل ما نافاها أو شغل عنها فلا يباح جعل المسجد ظرفاً له إلا بدليل فيوقف عند الدليل .

وما أبيع في المسجد ولم يكن من وظائف المسجد التي شرع المسجد من أجلها ابتداء فيقتفقه في مقاصدها ليعلم ما يدخل في حكمها مما استجد ولم يرد النص عليه باسمه .

ولابد من تقصي ما نهى عنه في المسجد ، لأن المقارنة بين ما أوجب في المسجد أو استحب أو أبيع ، وبين ما حرم أو كره : ينتج اجتهاداً موفقاً فيما استجد مما لم يذكره النص باسمه .

وسيبين - إن شاء الله - من استعراض النصوص أن الله أباح في المسجد أموراً عادية غير عبادية توسعة على المسلمين ، وأباح فيه أموراً لعلها من باب الضرورة كريط الأسير ، وتمريض الجريح ، لأن

المسلمين يومها لم يتوسعوا في العمران ، فتوجد المصحات والسجون وبيت الإمارة .

ولقد استجدت اليوم أمور ربما اختلفت معها أحكام المساجد ، فتأثيث المساجد بالفرش والأجهزة الثمينة ، وفساد الناس ، وعدم تورع الفسقة عن ممارسة المحرمات في المسجد . كل ذلك اقتضى قفله في أكثر الأوقات ، والتشديد في منع ما يلوثه كالصلاة بالنعال . لا لأنها لا تجوز شرعاً ، بل صيانة للفرش .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا البحث عن أحكام المكان الذي بني فسمي مسجداً ، فلا يدخل في ذلك الأحكام التي يكون بها المكان مسجداً مما بحثه الفقهاء عن مبارك الإيل ، والمجزرة ، والحمام ، والمقبرة ، والأرض المغصوبة ، والراحلة وظهر الكعبة ، ومعابد الكفار .

وكل ما شرع للمسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ فهو عام للمساجد حتى يقوم دليل الخصوصية .

والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم واجبة ، وهي من الوعظ والتعليم الذي يكون في خلق الذكر بالمسجد .

والنصيحة لأئمة المسلمين وولاة الأمر متهم تكون بالدعاء لهم ، ونشر محاسنهم ، والكف عن مساوئهم خوفاً من تعبئة العامة وتجريتهم ، والتهوين من هيبة السلطان ، وتفريق الجماعة ، وإتاحة الفرصة لتدخل العدو أرشاماته .

ومواضع النصع تكون في السر والمكاتب والمصابرة وإظهار الطاعة والولاء ليقبل النصع .

فإن اتخذت حلقات الذكر في المسجد تأمراً على ولي الأمر المسلم الذي لا يخلو من أخطاء وتآليبها عليه ، فذلك خروج وشقاق ، وخطب فتنة ، ومن لم يستطع التغيير فعليه هجر مثل هذه المساجد ما ظلت بهذه الحال .

ففي الحديث المتفق عليه عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة رضي الله عنه : من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتة جاهلية .

قال أبو عبد الرحمن : من راغم السلطان المسلم ، وعياً العامة وأكثر النقد : فلم يصبر على أميره .

وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم .

وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم .

قال : قلنا : يا رسول الله : أفلا ننايذهم عند ذلك ؟

قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة إلا من ولى عليه والفرأه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزعن يداً من طاعة . رواه أحمد ومسلم .

قال أبو عبد الرحمن : من خطب في العامة ينقد ولاية الأمر - في غير كفر بواح - أو أكثر التعريض بهم في شعر أو نثر : فقد نابذهم ، ونزع عن طاعتهم ، ومهد السبيل للخروج عليهم .

وروى الترمذي وأحمد والطيالسي بإسناد حسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أهان السلطان أهانه الله .

قال أبو عبد الرحمن : من عيا العامة بهفوات السلطان أو تقصيره وجرائهم عليه فقد أهانه .

ومثل هذه النصوص أخص من عموم النصوص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال أبو عبد الرحمن : السجود مصطلح شرعي على انحناء تلتصق فيه الجبهة والأنف بالأرض مع بقية الأعضاء السبعة .

والمسجد مسمى لمكان يفعل فيه ذلك على سبيل التعبد لله وحده خلال هيئات الصلاة المفروضة التي أوجب الله لها حضور الجماعة في مسجد ، وشرع لذلك الأذان والإقامة .

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [سورة البقرة / ٤٣] .

فها هنا معيتان : زمانية ومكانية .

وإن فإن الصلاة المفروضة هي الوظيفة الأولى للمسجد في الإسلام ، والمسلم يحبس نفسه في المسجد وجوباً إذا تعينت فيه

الصلاة ، وذلك إذ نودي للصلاة وهي في المسجد ، ويحرم عليه الخروج إلا لضرورة ثم يعود لأداء الصلاة .

صح بذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الجماعة إلا البخاري كما رواه أبو الشعثاء قال : خرج رجل من المسجد بعدما أذن فيه ، فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أما هذا فقد عصى أبا القاسم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : أمرنا رسول الله ﷺ : إذا كنتم في المسجد فنودي بالصلاة فلا يخرج أحدكم حتى يصلي رواه أحمد ١١ .

وشرع الله للمسجد وظائف أخرى من العبادات كالصلوات النوافل ، والذكر ، والاعتكاف ، وتعلم العلم وتعليمه .

وكل تلك الوظائف عبادات محضة لوجه الله سبحانه ، ولهذا سمي المسجد بيت الله ، لأن وظائفه من أجل الله .

ودليل التسمية ببيت الله أن الله سمي المساجد بيوتاً في قوله تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع .. ﴾ [سورة النور / ٣٦] .

وحكم بأن المساجد له سبحانه ، فقال : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [سورة الجن / ١٨] .

(١٠٦) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٢ / ١٦٥ : وفي الباب عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من ترك الأذان وهو في المسجد ثم خرج (لم يخرج لحاجة ، وهو لا يريد الرجعة) فهو منافق . رواه ابن سنجر ، والترمذي في أحكامه ، وابن سيد الناس في شرح الترمذي ، وأشار إليه الترمذي في جامعه .

قال أبو عبد الرحمن : إذن المساجد بيوتة .

ومناط التسمية من جهتين :

الأولى : ما أسلفته من كون المسجد بيت عبادة لا تصرف إلا لله .

والثانية : أن البشر يكون لهم ولاية على المسجد ، ولا تكون لهم ملكيته ، بل ملكيته لله وحده .

وإذا أضيف المسجد إلى بشر فقبل : مسجد فلان : فليست

الإضافة للملكية ، وإنما هي إضافة لخصوص علاقة ككون ذلك الإنسان بناء ، أو وقفه ، أو له فيه حلقة علمية ... إلخ .

والدليل على هاتين الجهتين قول الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله

فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [سورة الجن / ١٨] .

فالنهي عن دعاء غير الله إيجاب لدعاء الله وحده مما يعبد الله في المسجد .

واللام في قوله تعالى ﴿ لله ﴾ تقتضي أن ملكيتها لله وحده .

ولهذا أورد أبو محمد ابن حزم هذه الآية وعلق بقوله : « فلا يكون

مسجداً إلا خارجاً عن ملك كل أحد دون الله تعالى » (١٠٧) .

ولكن المساجد لله ، ولكون الأعمال فيها لله ألنحت آيتان كريمتان

إلى رفع ولاية الكفار على المساجد ، ومنع سلطانهم عليها وعلاقتهم بها .

فالآية الأولى قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن

(١٠٧) المحلى ٤ / ٢٤٨ مسألة ٥٠٣ .

يذكر فيها اسمه وسمى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ... ﴿ [سورة البقرة / ١١٤] .

قال أبو عبد الرحمن : هذا حدث للمؤمنين بأن تكون الولاية لهم على المساجد ، وإغراء بالكفار بأن لا يدخلوا المساجد .

قال الشوكاني عن هذا النص الكريم : « ليس فيه الإذن لنا بتعكينهم من الدخول حال خوفهم ، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا بأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يفتن لهم أحد من المسلمين فينزلوا بهم ما يوجب الإهانة والإذلال » . (١٠٨) .

قال أبو عبد الرحمن : وأرجح شئ أن الآية عن ظلم كفار قريش لرسول الله ﷺ حين منعه من الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام كما روى ذلك ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما . والآية في سياق كفار قريش ، إذ الذي قبلها مباشرة : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ .

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن

يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [سورة التوبة / ١٧ - ١٩] .

قال أبو عبد الرحمن : والآية في كفار قريش ، وهي في الرد على مباهاتهم بعمارة المسجد الحرام وخدمته . ونصت على إثبات ذلك للمؤمنين .

ولما كانت المساجد لله أمر الله أن يكون اتجاه المصلي إليه حسب القبلة التي ارتضاها .

قال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد .. ﴾ [سورة الأعراف / ٢٩] .

المعنى : توجهوا إليه في صلاتكم .

قال أبو عبد الرحمن : وهكذا ورد اعتراف المصلي في أحاديث التوجه والاستفتاح مثل حديث : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ... إلخ .

وفي حال الخوف أذن الله لموسى - عليه السلام - ولقومه أن يجعلوا بيوتهم مساجد بشرط اتجاهها إلى القبلة التي رضيها لهم .. قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشرك المؤمنين ﴾ [سورة يونس / ٨٧] .

وإذا بني المسجد لغير الله ، وكان في مخالفة من حاد الله امتنعت

الصلوة فيه كمسجد الضرار الذي قال الله عنه ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتظاهروا والله يحب المتظاهرين . ألمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾ [سورة التوبة / ١٠٧ - ١١٠] .

وقصة هذا المسجد فصلها ابن كثير بقوله : سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير .

فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر : شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتنعهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ،

وكان هذا القاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفيين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم ، فجرح وجهه ، وكسرت ربايعيته اليمنى والسفلى ، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه .

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرقوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر .

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فابى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالت هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ ، فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدمهم ويمتنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ، ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتيه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه ، فرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته .

بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه، وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله : إنا قد بيننا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشتائية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال رسول الله ﷺ - ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى آتيناكم فصلينا لكم فيه .

فلما نزل بندي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ ملك ابن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي (أو أخاه عامر بن عدي) أخا بلعجلان فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه .

فخرجوا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : انظرهم حتى أخرج إليك بنار من أهلي .

فدخل عند أهله فأخذ سعفاً من النخل ، فاشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشندان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾ ... إلى آخر القصة ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد بن بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف (ومن داره أخرج مسجد الشقاق) ، وثعلبة بن حاطب بن بني عبيد وموالي بني أمية بن زيد - ومعتب بن قشير بن بني ضبيعة بن

وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشتائية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله .

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض اليوم : نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس في أول يوم على التقوى .

فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجداً واستعنوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فأتي بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه .

فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ ، فقالوا له قد فرغنا من بناء مسجداً فنحن أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ إلى قوله : ﴿الظالمين﴾ .

وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبدالله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمرو بن قتادة ، وغيرهم .. قالوا : أنزل رسول الله ﷺ (يعني من تبوك) حتى نزل بندي أوان بلد

زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد ، وعبيد بن حنيفة أخو سهل بن حنيفة من بني عمرو بن عوف ، وحارثة بن عامر ، وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ، وتبث الحارث وهم من بني ضبيعة ، ومخرج وهم من بني ضبيعة ، ويجاد بن عمران وهو من بني ضبيعة ، ووديعة بن ثابت وموالي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر (١٠٩) .

ونزل حكم الله بمنع الصلاة فيه ، والأمر بهدمه .

قال أبو عبد الرحمن : واستنبط الفقهاء من الآية الكريمة صفة أي مسجد يستحدث فيتصف بالضرار كما في قول أبي محمد ابن حزم : «ولا تجزى» الصلاة في مسجد أحدث مباهاة أو ضراراً على مسجد آخر إذا كان أهله يسمعون نداء المسجد الأول ، ولا حرج عليهم في قصده .

والواجب هدمه وهدم كل مسجد أحدث لينفرد فيه الناس كالرهبان (١١٠) .

وذكر أبو محمد أن رسول الله ﷺ نـم تقارب المساجد ، واستدل بحديث عائشة رضي الله عنها - عند أبي داود : أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور .

(١٠٩) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(١١٠) المحلى ٤ / ٤٤ .

قال أبو محمد مبيناً وجه الدلالة : «قلم يأمر عليه السلام ببناء المساجد في كل مكان، وأمر ببناء المساجد في الدور، وهي المحلات» (١١١) . وذكر أن ابن مسعود رضي الله عنه هدم مسجداً بناء عمرو بن عتبة بظهر الكوفة وزده إلى مسجد الجماعة (١١٢) .

ومن وظائف المسجد أن يؤدي فيه ذكر الله . قال الله تعالى ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً .﴾ [سورة الحج / ٤٠] .

ومن النصوص التي حددت وظائف للمسجد حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد وابن ماجه قال : قال رسول الله ﷺ : من دخل مسجداً هذا ليعلم خيراً أو يعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله . ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له .

وورد حديث أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه المتفق عليه : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر ، فاقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ ، وذهب واحد ، فوقفوا على رسول الله ﷺ .

فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر

(١١١) المحلى ٤ / ٤٥ .

(١١٢) السابق ٤ / ٤٥ .

فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً .

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة :

أما أحدهم فتأوى إلى الله فتأواه الله إليه .

وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه .

وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه .

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند مسلم : أن رسول الله ﷺ

قال : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، وإنما هي لذكر الله تعالى ، وقراءة القرآن .

وقال الله تعالى عن وظائف المسجد : ﴿ في بيوت أذن الله أن

ترفع ويذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ [سورة النور / ٣٦ - ٣٧] .

ومن النوافل المشروعة في المسجد صلاة ركعتين عند القدوم من السفر لحديث كعب بن مالك رضي الله عنه المتفق عليه : أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين .

ودعا رسول الله ﷺ إلى الصدقة وجمعها في المسجد لحديث أبي عمرو جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .. قال : كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ ، فجاءه قوم عراة مجتأبي النصار ^(١١٣) . أو العباء

(١١٣) النصار : أكسة من صوف مخطط ، واجتياها ليسها وقد خرقت من جهة رؤوسهم

متقلدي السيوف عامتهم من مضر - بل كلهم من مضر - فتمعر ^(١١٤) وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فاذن وأقام ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [سورة النساء / ١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [سورة الحشر / ١٨] .

تصدق ^(١١٥) جل من ديناره .. من درهمه .. من ثوبه .. من صاع بره .. من صاع تمره .. حتى قال : ولو بشق تمره .

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت .. ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب .. حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهب .

فقال رسول الله ﷺ : من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل

(١١٤) تمعر : تغير

(١١٥) تصدق : ليتصدق .

بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء .. رواه مسلم .
 ووردت السنة السكوتية الإقرارية بجواز المسافة في المسجد ،
 وتلك حديث أبي بكر رضي الله عنه عندما قال لرسول الله ﷺ : دخلت المسجد
 فإذا أنا بسائل يسأل فوجدت كسرة خبز بين يدي عبد الرحمن فأخذتها
 فدفعتها إليه .

رواه أبو داود ومسلم والنسائي والبخاري .

وكان رسول الله ﷺ (وهو إمام المسلمين وولي أمرهم) يخطب
 في المسجد في أي وقت كما في حديث أبي حميد عبد الرحمن بن سعد
 الساعدي رضي الله عنه .. قال : استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن
 اللبابة على الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم ، وهذا أهدي إلي .
 فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 أما بعد : فإني أستمع الرجل منكم على العمل مما ولاني الله ، فيأتي
 فيقول : هذا لكم ، وهذا هدية أهديت إلي .. أفلا جلس في بيت أبيه أو
 أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ١٩ .

والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله
 يوم القيامة .

فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بغيراً له رغاء ، أو بقرة لها
 خوار ، أو شاة تيعر ^(١١٦) .

(١١٦) تيعر : تصيح .. واليعار صوت الشاة

ثم رفع يديه حتى رئي عقرة إبطيه ، فقال : اللهم هل بلغت ..
 ثلاثاً . الحديث متفق عليه .

وكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه ويذكرهم في المسجد ،
 فعن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول
 الله ﷺ الفجر وصعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل
 فصلى ، ثم صعد المنبر حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم
 صعد المنبر حتى غربت الشمس .

فأخبرنا ما كان وما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا . رواه مسلم .
 وكثيراً ما يجلس رسول الله مع أصحابه في المسجد في غير
 وقت صلاة كما في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه حينما علم
 أبوطالحة رضي الله عنه جوع رسول الله ﷺ من صوته ، فسأل أم سليم عن
 الطعام ، وذهب ينادي رسول الله ﷺ إليه فوجده جالساً في
 المسجد ومعه الناس .

والاحتباس في المسجد للعبادة من وظائفه ، ففي الحديث
 الصحيح عن أبي داود وغيره عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كان
 النبي ﷺ إذا صلى الفجر تربع في مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء .
 وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنهم انتظروا النبي ﷺ فجاءهم
 قريباً من شطر الليل فصلى بهم .. يعني العشاء .

قال : ثم خطبنا فقال : ألا إن الناس قد صلوا ثم رقدوا ، وإنكم
 لن تزالوا في الصلاة ما انتظرتهم الصلاة .

قال أبو عبد الرحمن : فتلخص مما مضى أن المسجد بيت عبادة لله وحده ، ووردت النصوص الشرعية بتحديد عبادات معينة يوظف لها المسجد وهي الصلوات المكتوبة ، وصلوات النوافل ، وقراءة القرآن ، والتسبيح والذكر ، والاعتكاف والاحتباس فيه لانتظار الصلاة ، وتعلم العلم وتعليمه .

ومن وظائف المسجد جمع المسلمين ليتألفوا ، وهذا مفهوم من نصين : أولهما : فضحه تعالى لأهل مسجد الضرار بقوله : ﴿ وتفرقاً بين المؤمنين ﴾ .

قال الشوكاني : « لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة ، ويطلان الألفة ما لا يخفى » (١١٧) .

وثانيهما : حث رسول الله ﷺ على كثرة الجماعة كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تعالى » .

رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان ، وصححه ابن السكن والعقيلي والحاكم ، وأشار ابن المديني إلى صحته ، وأخرجه البزار والطبراني (١١٨) .

(١١٧) فتح القدير ٢ / ٤٠٣ .

(١١٨) ميل الأوطار ٣ / ١٢٣ .

ووظف رسول الله ﷺ المسجد لفعل الخير يجمع الصدقة للمضربين .

قال أبو عبد الرحمن : هناك مباحات ورد بها النص ليست من وظائف المسجد ، ولكن الشرع أباحها إرفاقاً بالمسلمين .

وهناك أمور نهى عنها الشرع نصاً لأنها ليست من وظيفة المسجد ، أو لأنها تنافي وظيفته .

قال أبو عبد الرحمن : واستعراض هذين الأمرين يحقق لنا الظواهر النصية عما يباح وما لا يباح إضافة إلى الظواهر النصية عما أمر الله به لأنه من وظيفة المسجد .

ويأتي بعد ذلك دور الظواهر العقلية في الأمور التي لم يرد باسمها نص هل معانيها من المأمور به ، أو من المباح ، أو من المنهي عنه .

ومن خلال هذه الظواهر يعرف ما هو أصل أو مستثنى . فمن المحظور المباهاة في تشييد المساجد وزخرفتها ، فإن الشرع المطهر حث على بناء المساجد على سبيل الاقتصاد .

فمن ناحية الحث على البناء ورد حديث عثمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله (١١٩) في الجنة » .. متفق عليه .

(١١٩) انظر نيل الأوطار ٢ / ١٤٩ عن استحصال الغناء معنى المثبة ، ولعل المثلية في البناء لأن نعيم الآخرة لا يماثله شيء في الدنيا .

وعند الإمام أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص^(١٢٠) قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» .

قال أبو عبد الرحمن : وأما من ناحية الاقتصاد في البناء فقد صرح حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أمرت بتشديد المساجد» .

قال ابن عباس «لترخفتها كما رخفت اليهود والنصارى» .
رواه أبو داود وصححه ابن حبان .

قال أبو محمد ابن حزم : «التشديد البناء بالشيد»^(١٢١) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا المعنى هو المراد هنا ، لأن الطلاء زخرفة ، وقد فسر ابن عباس التشديد بالزخرفة .
وذهب الفيروزآبادي إلى أن الشيد من شاد بمعنى طلاء الحائط بالشيد وهو الجص ونحوه .

أما التشديد من شيد المضعفة فهو بمعنى البناء^(١٢٢) .

(١٢٠) مفحص القطاة المكان الذي تعده لتضع فيه بيضها وترقد عليه ، ولا يكتفي مقداره لأداء الصلاة ، فالخير مبالغة على أسلوب لغة العرب ، أو على حقيقته إذ قد يشترك جماعة في بناء مسجد فيكون نصيب الفرد كمفحص القطاة بسبب كثرة الشركاء المتساوين في البذل ، أو لكونه بذل قليل حسب قدرته .

(١٢١) المحلى ٤ / ٤٤ .

(١٢٢) القاموس المحيط ٢ / ٢١٧ .

قال أبو عبد الرحمن : كذلك شاد تأتي بمعنى رفع كما في قول عدي بن زيد :

شاده مرمرأ وجلله كلأ

فللطير في ذراه ركور

وتأتي بمعنى الطلاء كما في قوله تعالى : ﴿... وشر معطلة وقصر مشيد﴾ [سورة الحج ٤٥] .

وقول الراجز :

لا نحسبني وإن كنت امرأة غمرأ

كحبة الماء بين الطين والشيد

وكذلك التشديد تأتي بمعنى الطلاء بالشيد ، وتدل صيغة التضعيف على معنى الإحكام .

ولقد حكى المعنيين ابن منظور ، فقال : «الشيد بكسر الشين المعجمة كل ما طلي به الحائط من جص أو بلاط»^(١٢٣) .

وبناء مشيد معمول بالشيد ، وكل ما أحكم من البناء فقد شيد ، وتشديد البناء إحكامه ورفعته .

قال أبو عبد الرحمن : ويدل على المعنى المراد السياق كما في قوله تعالى : ﴿أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [سورة النساء / ٧٨] .

(١٢٣) الفيروزآبادي في القاموس ٢ / ٢١٧ . الصواب ملاط باليم ، لأن البلاط حجارة لا يطلّى بها .

ومعنى الارتقاع مفهوم من البروج ، فعلم أن مشيدة هنا بمعنى مطلية .

قال أبو عبد الرحمن : وما دام رسول الله ﷺ المبلغ للقرآن لم يؤمر بتشديد المساجد : فقد صح إذن أن قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ لا يراد به رفع البناء ، بل المراد مجرد البناء ، أو تعظيمها ^(١٢٤) .

وهذا هو الأصح عند ، لأن التشديد مبالغة في الرفع ، ويدخل في معناه التزيين .

والرفع في الآية الكريمة يشمل الأمرين المأمور بهما شرعاً ، وهما البناء والتعظيم المعنوي .

وروى الخمسة إلا الترمذي عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد » .

ورواه أيضاً أبو يعلى في مسنده ، وصححه ابن خزيمة ، ورواه أبو نعيم في كتاب المساجد ^(١٢٥) .

وروى البغوي بإسناده إلى أبي قلابة قال : غدينا مع أنس بن مالك إلى الزاوية ، فحضررت صلاة الصبح فمررنا بمسجد ، فقال أنس : أي مسجد هذا ؟

(١٢٤) انظر نيل الأوطار ٢ / ١٥٠ .

(١٢٥) السابق ٢ / ١٥١ .

قالوا : مسجد أحدث الآن .

فقال أنس : إن رسول الله ﷺ قال : « سيأتي على الناس زمان يتباهون في المساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلاً » .

وقد ذهب محققو العلماء إلى أن تشديد المساجد وزخرفتها بدعة ، لأنها ليست من أمره عليه الصلاة والسلام ، وقد قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رده » ، ولأن نيتك من عمل أهل الكتاب ، وكان ﷺ يحب مخالفتهم .

وكان أشد الناس في ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال البخاري : قال أبو سعيد : كان سقف المسجد من جريد النخل ، وأمر عمر ببناء المسجد ، وقال : « أكن الناس ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس » .

وقد روى ابن ماجه عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » .

قال أبو محمد ابن حزم : « وروينا عن أبي الدرداء : إذا حلّيتم مصاحفكم وزخرفتكم مساجدكم فالدمار عليكم » .

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : إن القوم إذا زينوا مساجدهم فسدت أعمالهم ، وأنه كان يمر على مسجد للثيم مشوف ^(١٢٦) فكان يقول : هذه بيعة الثيم ^(١٢٧) .

(١٢٦) مشوف : مزين .

(١٢٧) المشوف ٤ / ٢٤٨ .

وقد رخص قلة من الفقهاء في تشييد المساجد ، وقابلوا النصوص الشرعية باجتهادات عقلية كأبي حنيفة وبعض الهادوية والبدر بن المنير ، وقد ناقشهم الشوكاني فأجاد وأفاد (١٢٨) .
والمنع من التشييد والزخرفة يحتمل أن يكون لأجل الزهد وترك الرفاقية .

وفيهما ما عرف وجهه بيقين وهما :
مخالفة أهل الكتاب للنص على ذلك ، وللمنع من شغل بال المصلي بالزينة والزخرفة ليحصل له الخشوع .
وهذا الأمر الأخير وردت النصوص بمراعاته ، ففي حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لعائشة - رضي الله عنها - : «أميطي عني قرامك هذا ، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي» .
والقرام ستر رقيق من صوف ذي ألوان ، وكانت عائشة - رضي الله عنها - قد سترت به جانب بيتها .
والحديث رواه أحمد والبخاري .

قال أبو عبد الرحمن : لما كان من وظيفة المسجد أداء الصلاة بخشوع كان ما يشغل عن الخشوع منهياً عنه .
ومما ورد دالاً على مراعاة الخشوع حديث عثمان بن طلحة رضي الله عنه عندما دعاه رسول الله ﷺ بعد دخوله الكعبة ، فقال : «إني

كنت رأيت قرني الكباش حين دخلت البيت . فنسيت أن أمرك أن تخمرها ، فخر فإنه لا يتبغي أن يكون في قبلة البيت شيء يلهي المصلي» .

رواه أحمد وأبو داود .

وإذا صح مراعاة الزهد والتواضع في المنع من الزخرفة فذلك يناسب وظيفة المسجد بأنه بني للتواضع لله ، والزهد في المظاهر الدنيوية .

وهذا لا ينافي ما صح عن رسول الله ﷺ من الصلاة على المفارش من الحصر والبسط والطنافس والغررة المدبوعة والخمرة ، وهي سجادة من سعف النخل على قدر ما يسجد عليه المصلي (١٢٩) .
وهذا لا ينافي الحديث الصحيح : «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» ، لأن جعلها مسجداً لا ينفي جعل غيرها مسجداً .

ولكن هذا لا يعني الصلاة على المفارش دائماً ، لأن ذلك ليس هو الأكثر من فعل رسول الله ﷺ ، وليس هو الأفضل .

وفي مسند الإمام أحمد : عن أم سلمة - رضي الله عنها - : أن النبي ﷺ قال لأفطح : «يا أفطح ترب وجهك» - أي في سجوده - .
قال الشوكاني : إن العراقي أوكه بأن المراد تمكين الجبهة من الأرض وإن كان نون الأرض سائر (١٣٠) .

قال أبو عبد الرحمن : لم تُنقل لنا الواقعة كاملة ، ولها ثلاث احتمالات :

أولها : ما ذكره العراقي .

وثانيها : أن يكون رآه يصلي على سائر جائز كالسجاد والساذج ، فدل على الأفضل ، وهو مباشرة التراب .

وثالثها : أن يكون رآه يصلي على فراش مزين ملون يشغل بال المصلي ، فثبته إلى المستحب وهو التراب ليصرفه عن المكروه .

قال أبو عبد الرحمن : وغرض المساجد وتبليطها أمر عمت به البلوى ، فلا مجال للفرد أن يترب وجهه إلا بالشوذة عن الجماعة .

ولكن العجب أن الناس اليوم يتاح لهم التراب في الأسفار والمنتزهات ليحيوا السنة على الأقل - لو فرض أن مباشرة التراب ليس هو الأفضل - فلا يحرصون على تلك الإتاحة ، بل يحملون الفرش .

قال أبو عبد الرحمن : والمسجد بيت عبادة للرب ، وتلك وظيفته ، والله شرع أنواع الطهارة لأنواع العبادات ، فكان من حق المسجد التنظيف والتطهير وصونه مما يستقبح ويثير الغثيان ، وعلى داخل المسجد التطهر والتنظيف والتزئ .

قال الله تعالى عن المسجد الحرام : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ [سورة البقرة / ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي

شيئاً وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود [الحج / ٢٦] .

قال أبو عبد الرحمن : والأصل أن حكم المساجد واحد حتى يفر دليل الخصوصية لأحد المساجد الثلاثة المفضلة .

وقد جاء النص بأن حكم المساجد واحد في النظافة .

قالت عائشة - رضي الله عنها - : « أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تطيب وتنظف » .

رواه الخمسة إلا النسائي .

وعن سمرة بن جندب قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا وأمرنا أن ننظفها » .

رواه أحمد والترمذي وصححه ، وأبو داود يلفظ : « كان يأمرنا بالمساجد أن نصنعها في ديارنا ونصلح صنعتها ونطهرها » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد » .

وعرضت علي ذنوب أممي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها » .

رواه أبو داود والترمذي وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه واستغفريه ، وقال : لا أعرف للمطلب بن عبد الله سماعاً من أحد من أصحاب النبي ﷺ .

وأَنكر علي بن المديني أَن يكون المطلب سمع من أَنس .
وفي إِسناده عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد الأزدي تكلم
فيه غير واحد .

وصححه ابن خزيمة كما قال ابن حجر في بلوغ المرام (١٣١) .
قال أبو محمد ابن حزم «أمر النبي ﷺ بتنظيف المساجد
بطينها يقتضي إبعاد كل محرم وكل قذر وكل قمامة» (١٣٢) .
قال أبو عبد الرحمن : والأصل منع الكفار من دخول المساجد
عموماً لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا
يقرروا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ [سورة التوبة/٢٨] .

لأن الله حكم بنجاستهم والمساجد تُصان وتنظف بصريح النص ،
ولأن الأصل عموم الحكم للمساجد في الصيانة حتى يقوم دليل
التخصيص ، وقد أخذ بعموم حكم الآية للمساجد الإمام مالك ،
والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وفقهاء أهل المدينة (١٣٣) .
قال أبو عبد الرحمن : وفيه خلاف للعلماء حول تجاسة نوات
المشركين ، والمرجح عندي أَنهم نجس الذات والأديان ، لأنهم لا
يتطهرون طهارة معتبرة شرعاً .

(١٣١) نيل الأوطار ١٥٢/٢ .

(١٣٢) المحلى ٢٤٧/٤ .

(١٣٣) انظر المحلى ٢٤٢/٤ ، وتفسير ابن كثير ٢ / ٣٦٠ ، وفتح القدير للشوكان ٢ /

٢٤٩ - ٢٥٠ .

وكونهم تجسين في نواتهم لا يعني أَنه ينجسون غيرهم ، لهذا
أحل الله طعامهم ، وأكل رسول الله ﷺ في أنيتهم وشرب منها ،
وتوضأ فيها .

وكل هذا لا ينافي حكم الله بنجاستهم .
والآية الكريمة نزلت سنة تسع أو عشر ، فمن عمم المساجد يجعل
هذه الآية الكريمة ناسخة .

ومن لم يعمم فعله أن لا ينزل المشركين مساجد المسلمين إلا
بالصفة التي أنزل بها الرسول ﷺ بعض المشركين .
فقد كان ثمامة بن أثال أسيراً لا سلطان له .

ووفد ثقيف يطمع في إسلامهم ، ولم يتوسع المسلمون بعد في
البيتان ، ووضعوا بيوتاً للإمارة وسجوناً .

فثمامة ووفد ثقيف استثناءات والأصل صيانة المسجد ، وبه
جاءت السنة القولية بأخرة .

وكل ما يستقذر يصرح عنه المسجد ، فعن أَنس بن مالك رضى الله عنه
قال : رأى رسول الله ﷺ نخامة في قبلة المسجد فغضب حتى احمر
وجهه ، فقامت امرأة من الأنصار فحككتها وجعلت مكانها خلوقاً ، فقال
رسول الله ﷺ : «ما أحسن هذا» .

رواه النسائي .

وروى البخاري في صحيحه عن أَنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال
النبي ﷺ : البصاق في المسجد خطيئة ، وكفارتها دفنها .

قال النووي : « المراد بدفنها إذا كان المسجد تراباً أو رملأ ونحوه ، فيوارئها تحت ترابه . »

قال أبو الحسن الروياني في كتابه البحر : وقيل المراد بدفنها إخراجها من المسجد .

أما إذا كان المسجد مبلطاً أو مجصصاً فذلكها عليه بعداسه أو بهيره كما يفعله كثير من الجهال فليس ذلك يدفن ، بل زيادة في الضلعة ، وتكثير للقذر في المسجد ، وعلى من فعل ذلك أن يمسحه بعد ذلك بثرابه أو بيده أو غيره أو يغسله » (١٣٤) .

قال أبو عبد الرحمن : حينما يمكن الدفن نتعبد لله بطاعة الرسول ﷺ بدفنها .

وحينما لا يمكن الدفن نتخذ أفضل الطرق لتنظيف المسجد منها . ويحتاط للمسجد من مظان القذر أو النجاسة .. هذا هو الأصل ، وما ورد خلاف ذلك فهو استثناءات للضرورة حينما كانت المساجد من تراب ورمل يسهل تنظيفها بدون إضاعة مال ، وحينما كان المسلمون غير متوسعين في البنيان .

أما بعد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ من زخرفة المساجد ، والمباهاة فيها فقد أصبحت من فرش وأثاث وأصباغ وتزيين ، فتصان من مظان النجاسة توفيراً للأثاث والبنيان فلا يضاع المال .

فمن الأحوال التي كان أمرها سهلاً في عهد رسول الله ﷺ إيواء الجرحى في المسجد .. قالت عائشة - رضي الله عنها - : « أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق .. رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة في الأكل . »

فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب . متفق عليه ، وفي البخاري : فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم ... الحديث .

قال أبو عبد الرحمن : لو اضطر المسلمون إلى إيواء جرحاهم في المساجد لقله في المباني لجاز لهم ذلك بعد تطهيرها من الفرش ، أو العمل على وقايتها بعازل .

ومن مظان النجاسة الصلاة بالنعال ، ولكن الصلاة بها سنة لأن الرسول ﷺ أمر وعمل ، فقال كما في حديث شداد بن أوس : « خالفوا اليهود بأنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم » . رواه أبو داود وابن حبان .

واشترط رسول الله ﷺ لذلك طهارتها ونظافتها ، ففي حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - عند أبي داود قال رسول الله ﷺ : « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليتنظر فإن رأى في نعليه قذراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما » .

قال أبو عبد الرحمن : ومخالفة اليهود تحصل بمرة أو مرات ، ولا

يعني ذلك المداومة على الصلاة في النعال ، ولهذا جاء في حديث عمرو ابن شعيب : عن أبيه : عن جده عند أبي داود وابن ماجه : « رأيت رسول الله ﷺ يصلي حافياً ومتنعلاً » .

والمسلم اليوم يلقي حرجاً من الصلاة بنعاله ، لأن المسجد فرشت بالفرش الثينة ، ووطؤها بالنعال يؤثر فيها وإن كانت طاهرة نظيفة ، وقد تصل فتنة من التصميم على الصلاة في النعال ، ودفع المفسدة مقدم هاهنا .

ولكن بإمكان المسلم إحياء السنة بالصلاة في نعاله في مسجد غير مفروش ، وفي بيته ، وفي نزته وسفره .

ومن مظان النجاسة دخول الأطفال المسجد إذ يحتمل أن تصدر عنهم النجاسة ، أو أن يشغلوا المصلين بحركاتهم .

والأصل أن المسجد للعبادة والخشوع والطهارة والنظافة فيبعد الصبيان غير المأمونين من النجاسة والعيث عن المسجد .

ويشهد لذلك ما أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جنبوا مساجدكم صبيانكم وخصوماتكم وحدودكم وشراكم وبيعكم وجمروها يوم جمعكم واجعلوا على أبوابها مطاهركم » .

وأعل بأن مكحولاً لم يسمع من معاذ ، وشهد له حديث واثلة بن الأسقع عند ابن ماجه ، وأعل بالحارث بن شهاب .

قال أبو عبد الرحمن : وما صح من الأحاديث عن دخول الصبيان المساجد فمحمول على الضرورة بأنهم دخلوا مراغمة ، أو أن أحد والديهم لم يجد من يكفيه أمرهم ، وأن الوالد مطلوب منه إذا حضروا معه في المسجد ضرورة أن يحبسهم عن العيث .

فكما ورد في ذلك حديث زينب فإذا ركع وضعها وإذا قام حملها . قال أبو عبد الرحمن : والمسألة شائكة وأبناء العصر لا يصبرون على مشاهدة إمام يعمل مع طفله في الصلاة كما عمل رسول الله ﷺ مع أمانة وهو أتقى الخلق وأخشعهم لربه .

ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد قال : « كنا نصلي مع النبي ﷺ العشاء ، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره ، فإذا رفع رأسه أخذهما من خلفه » ... الحديث .

وقد أعل بكامل بن العلاء .

وعند البخاري : عن أبي قتادة : عن أبيه : عن النبي ﷺ : « أني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » .

قال أبو عبد الرحمن : الصبي الذي يمشي بجانب المسجد ، فإن اقتضت ضرورة دخوله المسجد ، أو هجم مفاجئة عومل كمعاملة رسول الله ﷺ لأمانة والحسن والحسين .

وأما الصبي الذي لا يمشي فهو في حضيض أمه تحبس نجاسته عن

المسجد، ولا يقدر على عبث، ولا يقتضي صياحه إخراجاً من المسجد.
ويضاد النظافة دخول الدابة في المسجد، وقد استدلل ابن حزم
على جواز دخولها بحديث أم سلمة - رضي الله عنها - عند مالك
والبخاري قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي قال: «طوفي
من وراء الناس وأنت راكية» (١٣٤).

قال أبو عبد الرحمن: هذه حال ضرورة، وليس معنى هذا أن
المساجد تفتح للنواب.

ومن ذلك الأكل، فعن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه قال: «كنا نأكل
على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الخبز واللحم» (١٣٥).

قال أبو عبد الرحمن: ليس معنى ذلك أن المسجد يجعل منتدي
لتصيب الموايد، بل ذلك ضرورة لمن اقتضت الضرورة إيواؤه إلى
المسجد كأهل الصفة والأسير والصائم يخشى فوات صلاة المغرب
فيفطر في المسجد.

ومثل الأكل النوم فهو حالة ضرورة وإرفاق بالمسلمين وإن لم تكن
الضرورة حالة ملجئة، وقد تقتضي مصلحة أرجح فقفل المسجد
بعض الأوقات ومنع الناس من النوم فيه صيانة لموجودات المسجد
بعد زخرفة المساجد وتأثيثها بالأجهزة الثمينة، أو خوفاً من

(١٣٥) المحلى ٢٤١/٤ - ٢٤٢.

(١٣٦) ذكر الشوكاني في نيل الأوطار ١٦٣/٢ أن النصوص في ذلك كثيرة.

امتهانها بممارسة المحرمات فيها من شرب خمر أو فعل لواط أو
زنى أو إنخال لقيط أو قتل.

ومن الإرفاق أن يريد المسلم المكث في المسجد للقراءة وطلب العلم
وانتظار الصلاة القادمة فيأخذه النوم سوية فيرتاح ثم يعود لنشاطه.
فمن الحديث المتفق عليه حديث عباد بن تميم: عن عمه أنه
رأى رسول الله ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه
على الأخرى (١٣٧).

وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه كان ينام وهو
شاب عزب لا أهل له في مسجد رسول الله ﷺ.
رواه البخاري والنسائي وأبو داود وأحمد (١٣٨).

قال أبو عبد الرحمن: ما دام المسجد بيت عبادة فمن حقه أن
يحترم ويعظم ويكرم.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة
الأعراف/٣١].

قال أبو عبد الرحمن: الآية عن قوم يطوفون عراة، فلما أمروا
بالستر بلفظ الزينة لعموم كل مسجد صح أن الستر داخل في عموم
الزينة فيدخل فيها نظافة اللباس والجسم وزكاء الرائحة.

(١٣٧) وره النهي عن ذلك في صحيح مسلم وأبي داود فيقدم النهي لأنه سنة قولية، وفعل
الرسول ﷺ خصيصاً لأن الله يتولى ستره وصيانته.

(١٣٨) انظر الخلاف في جواز النوم في المسجد بتل الأوطار ١٦٢/٢.

ولهذا يجتنب المسجد أكل الثوم والبصل حتى تنزل رائحتها ،
واختلف العلماء في إنشاد الشعر في المسجد ، وفي تذاكر العلوم
الدنيوية ، وفي الحديث العادي من أمور الدنيا مما ليس فيه إثم .
فذهب الإمام محمد ابن حزم إلى جواز كل ذلك ، قال - رحمه
الله تعالى - : « والتحدث في المسجد بما لا إثم فيه من أمور الدنيا
مباح ، وذكر الله تعالى أفضل .
 وإنشاد الشعر فيه مباح .

والتعلم فيه للصبيان وغيرهم مباح » (١٣٩) .

وقال : « والخبر الذي فيه النهي عن إنشاد الشعر لا يصح ، لأنه
من طريق عمرو بن شعيب : عن أبيه عن جده ، وهي صحيفة ، أو من
طريق أسقط منها » (١٤٠) .

قال أبو عبد الرحمن : نص حديث عمرو بن شعيب : « نهى رسول
الله ﷺ عن الشراء والبيع في المسجد وأن تنشد فيه الأشعار ، وأن
تنشد فيه الضالة ، وعن الحلق يوم الجمعة قبل الصلاة » .

رواه الخمسة ، وقد حسنه الترمذي وصححه ابن خزيمة .

قال الحافظ ابن حجر : « إسناده صحيح إلى عمرو بن شعيب ،
فمن يصحح نسخته يصححه » .

(١٣٩) المحلى ٢٤١/٤ .

(١٤٠) السابق ٢٤٣/٤ .

قال الترمذي : « قال محمد بن إسماعيل : رأيت أحمد وإسحاق
- وذكر غيرهما - يحتجون بحديث عمرو بن شعيب .

وقد سمع شعيب بن محمد : عن عبدالله بن عمرو بن العاص .
ومن تكلم في حديث عمرو بن شعيب إنما ضعفه لأنه يحدث عن
صحيفة جده كأنهم رأوا أنه لم يسمع هذه الأحاديث من جده .

قال علي بن عبدالله المديني : قال يحيى بن سعيد : حديث عمرو
ابن شعيب عننا واه » (١٤١) .

وبعارضه أحاديث صحيحة من ذلك حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه
قال : « شهدت النبي ﷺ أكثر من مئة مرة في المسجد وأصحابه
يتذكرون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية فربما تبسم معهم » .
رواه أحمد والترمذي وصححه .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « كان رسول الله ﷺ
ينصب لحسان منبراً في المسجد فيقوم عليه يهجو الكفار » .
رواه الترمذي والحاكم وصححه .

وعن سعيد بن المسيب قال : « مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في
المسجد وحسان فيه ينشد ، فلحظ إليه ، فقال : كنت أنشد فيه ، وفيه
من هو خير منك » .
متفق عليه .

(١٤١) نيل الأوطار ١٥٩/٢ ونقل عن الحافظ ابن حجر قوله : وفي المعنى أحاديث ولكن في
أسانيدهما مقال . وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المحلى ٢٤٢/٤ .

قال أبو عبد الرحمن : والصواب الجمع بين النصوص لصحة حديث عمرو بن شعيب .

وأحسن وجوه الجمع أن الشعر الجائز إنشاده في المسجد هو ما لا إثم في قوله وسماعه .

قال الشوكاني : « قال الشافعي : الشعر كلام ، فحسنه حسن . وقبيحه قبيح .

والد ورد هذا مرفوعاً في غير حديث ، فروى أبو يعلى عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الشعر فقال : « هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » .

قال العراقي : وإسناده حسن .

ورواه أيضاً البيهقي في سننه من طريق أبي يعلى ثم قال : وصله جماعة ، والصحيح عن النبي ﷺ مرسل .

وروى الطبراني في الأوسط من رواية إسماعيل بن عياش : عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم : عن عبد الرحمن بن رافع ، وحبان ابن حبة ، ويكر بن سواده : عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « الشعر بمنزلة الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام » (١٤٢) .

قال النووي عن حديث حسان : « فيه جواز إنشاد الشعر في

(١٤٢) نيل الأوطار ١٥٩/٢ ، وانظر الرسول ﷺ والشعر الدكتور الدعيس من ٦٦-٦٧ .

المسجد إذا كان مباحاً ، واستحبابه إذا كان في ممدوح الإسلام وأهله ، أو في هجاء الكفار والتحريض على قتالهم » (١٤٣) .

قال أبو عبد الرحمن : الشعر والتاريخ والآداب واللغة كلها لخدمة الشرع فتكون من العلم والتعليم المنسوب إليه الذي هو من وظيفة المسجد بالنص .

فإن كان دنيوياً بحثاً وليس فيه إثم ، فهو من المباح إرفاقاً بالمسلمين لينشوا للعبادة ، وليذكروا أنهم في مسجد فيكثر تحفظهم ، ويكونوا من ذكر الله على ذكر .

وأما نشدان الضالة فقد بين رسول الله ﷺ سبب النهي عنه بقوله : « فإن المساجد لم تبني لهذا » ، أو « إنما بنيت المساجد لما بنيت له » . هكذا ورد في حديثي أبي هريرة ويريده - رضي الله عنهما - عند أحمد ومسلم وابن ماجه .

قال أبو عبد الرحمن : ففهم من هذه الواقعة أنه رفع صوت لمسألة دنيوية فردية ليست من عموم مصالح المسلمين .

وإنشاد الضالة إعلام ، ويظهر لي أن الإعلام لا بأس به - إن شاء الله - كان يقول : من ضاعت له ذاهبة فليراجع فلاناً وليصفها له ، ومن كان له دين على فلان فيراجع وارثه فلاناً ، وأنتم مدعوون للفداء عند فلان ، لأن في هذا مصلحة عامة للمسلمين ، وقد قال ﷺ في

(١٤٣) شرح النووي لصحيح مسلم ٤٦/١٦ .

حديث أبي طلحة الذي مر : «قوموا».. يعني للطعام عند أبي طلحة .
وفي حكم ذلك مناوله دعوات الأفراس ما دام لم يصحب ذلك
رفع صوت .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال «إذا رأيتم
من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أبيع الله تجارتك» .
رواه الترمذي وحسنه ، والنسائي في عمل اليوم والليلة .
وهكئ العراقي إجماع العلماء على أن ما عقد من البيع في
المسجد لا يجوز نقضه .

قال الشوكاني : «وصحة العقد لا منافاة بينه وبين التحريم ، فلا
يصح جعله قرينة لحمل النهي على الكراهة» ^(١٤٤) .

وقد أباح ابن حزم البيع في المسجد بدعوى أنه لم يرد النهي إلا
في حديث عمرو بن شعيب ، وابن حزم لا يصح صحيفته ^(١٤٥) .

وليس المسجد مكاناً لإقامة الحدود لحديث حكيم بن حزام رضي الله عنه
قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقام الحدود في المساجد ولا
يستقاد فيها» .

رواه أحمد وأبو داود والدارقطني والحاكم وابن السكن والبيهقي .
وقد ضعف الحافظ ابن حجر إسناده في بلوغ المرام ، وقال في
التلخيص : «الابأس بإسناده» .

(١٤٤) نيل الأوطار ٢/١٥٩ .

(١٤٥) المحلى ٤/٢٤٩ .

وروي عن ابن عباس ، وجبير بن مطعم ، وعمرو بن شعيب : عن
أبيه : عن جده رضي الله عنهم .

فالأول والثالث مضعفان بسبب الحفظ، والثاني مضعف بالواقدي .
وأجاز أبو محمد ابن حزم الحكم في المسجد والخصام
والتقاضي، واستدل بقصة كعب بن مالك رضي الله عنه في صحيح البخاري
حيث تقاضى ابن أبي الحدرد ديناً كان له عليه في المسجد
فارتفعت أصواتهما حتى سمعهما رسول الله ﷺ وهو في بيته
فخرج إليهما ، فتأدى : يا كعب : ضع من دينك هذا - وأما إليه - :
أي الشطر .

قال : لقد فعلت يا رسول الله .

قال : قم فاقضه ^(١٤٦) .

قال أبو عبد الرحمن : يضاف إلى ذلك حديث سهل بن سعد رضي الله عنه
أن رجلاً قال : يا رسول الله : رأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقظته ؟
فتلامنا في المسجد وأنا شاهد .

متفق عليه .

قال أبو عبد الرحمن : مر حديث معاذ وواثلة بتجنيب المساجد
الخصومات والحدود فنظّل على هذا الأمر إلا أن ترد مسائل مستثناة
فنستثنى ما استثناه النص .

(١٤٦) المحلى ٤/٢٤٩-٢٤٢ .

والملاعنة خصوصاً ، وهي التخويف والتحذير من الكذب ،
والمسجد أدعى للهيبة .

وأما حديث كعب فالرسول ﷺ أصلح بينهما خارج المسجد ، ولم
يفتح لهما باب الخصومة في المسجد ، ولا يمكن أن يكون - عليه
الصلاة والسلام - رضي بارتفاع صوتيهما ، وقد نهى عن رفع الصوت
في المسجد في حديثي وثلاثة .

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حصب اللذين
رفعا صوتيهما في مسجد رسول الله ﷺ وعنفهما .

* * *

١٨ - المسألة الثامنة عشرة : العبرة بثبوت رؤية الهلال للصوم
والفطر والحج :

هل توجد ليلة آخر الشهر لا يمكن أن يرى فيها الهلال ، ويكون
من نواحي رؤية الهلال واحداً أو كاذباً ؟ .

هذا علم لا أفقهه ، وقد تحمس له أخي الدكتور أحمد بن
عبد العزيز اللبيب ، وهو أدرى منه به .

إنما هدفي أن يتبصر نوا العلم المادي الحسي ونوا العلم
الشرعي في اجتماع ينتهون فيه إلى قناعة بأن مثل تلك الليلة توجد
أو لا توجد .

أعني الليلة التي يترأى الناس فيها الهلال ، ويقول العلم المادي :
لا يمكن أن يرى الهلال فيها .

فإن اقتنع علماء الشريعة أن نقي رؤية الهلال في تلك الليلة قائم
على براهين حسية يقينية أو راجحة ، أو بشكل أغلبي فتراعى تلك
البيئات في وزن شهادة شهود الرؤية .
ذلك أنه لا اجتهاد لنا في تغيير العلامة التي نصيبها الشرع
وهي الرؤية .

ولنا اجتهاد في وزن بينات الرؤية ، لأن معرفة العدالة ، والثقة
بعلم الناقل ، ومعرفة البيئة الحسية : مما فوضه الشرع إلى عقولنا
ومداركنا .

وحسبي أيضاً أن أنبه إلى أمور يجب أن يراعيها المتنازعون في
هذه المسألة حتى لا يأخذ الهوى والعصية والعناد مأخذهما من أحد
منهم ، لأن الشيطان حريص وموالبه خفية .

وهذه المسألة لي بها عناية منذ ستة وعشرين عاماً ، فخلال عامي
١٣٨٨ - ١٣٨٩ هـ نشرت لي بحوث بجريدتي البلاد والتنويع عن مسائل
الهلال ونشرتها عام ١٣٩٩ هـ بكتيب بعنوان «مسائل الهلال» صدر عن
دار الوطن .

وكانت المسألة الثالثة بعنوان : إنما يعرف الهلال بالرؤية لا
بالحساب ولا بالعدد .

وقد قلت في هذه المسألة : «ولو أن علم الهيئة يرشدنا إلى أن

الشهر يهل هذه الليلة - أخذاً باليد - لم يكن من الجائز أن نعتبر غير الرؤية أو إكمال العدة ... لنص الحديث .

وإذ قضى النص بمراعاة الرؤية فقد قضى نص آخر (بتعريضه) أن لا يراعى غيرها ، وهو قوله ﷺ في صحيح البخاري من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا - يعني مرة تسعة وعشرين ، ومرة ثلاثين -» .

لפי هذا لنص التعريض بالحساب أنه لا يلزم الأمة تعلمه لإثبات الأهلة، وفي هذا النص مع نص الرؤية التيسير على الأمة الأمية لتعمل بالرؤية، ولتعلم أن الشهر لا يزيد على ثلاثين ولا ينقص عن تسع وعشرين. قال أبو عبد الرحمن : وفرق بين قول : «لا يلزمنا تعلم الحساب» وبين قول : «لا يلزمنا علم الحساب إذا تعلمناه فكان يقيناً حسياً» .

فأقول الأخير لا أقول به .

قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث : «فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التسيير ، واستمر الحكم في الصوم ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك ، بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلاً ، ويوضحه قوله في الحديث الماضي : «فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» ، ولم يقل فسلوا أهل الحساب .

قال أبو عبد الرحمن : هذا صحيح فلا نعمل بالحساب من غير رؤية. ولكن لا نعمل برؤية يدفعها الحساب إذا كان الحساب حسياً

يقينياً ، لأن الرؤية تخطئ ، وإنما العصمة للشرع ، والشرع إنما يعلق برؤية مسلم ثبتت عدالته وأنه غير واهم .

وفي الأيام الأخيرة رأيت مباحث نفيسة للدكتور أحمد بن عبدالعزيز اللهيب عن مسألة الحكم برؤية الرائي لإمكانها ، وعدم الحكم بها لإحالتها .

ولم أكتف بقراءة ما كتبه بل استوضحته على رؤوس الملام مراراً لأعرف مقصده .

وفي الوقت نفسه رأيت نصاً للشيخ صالح الفوزان يقول : «لمن جاء بشيء يزعم أنه يعلم به دخول الشهر غير ما بينه الشارع فقد عصى الله ورسوله كالذي يقول : إنه يجب العمل بالحساب في دخول شهر رمضان» .

ورأيت بيد الدكتور اللهيب ورقة يقول إنها من تقرير الشيخ محمد الصالح العثيمين عن الحالة التي لا يقبل فيها شهادة الرائي لكون المشهود عليه غير ممكن .. قال : «من زعم أن الشمس يمكن أن تطلع قبل الفجر» .

قال أبو عبد الرحمن : وبناء على كل ما سبق سرده ، ونظراً إلى أن الشحنة عظمت حول هذه المسألة مع أنها من مسائل الفروع - أي من الخلاف في المسائل العلمية التي لا يستبشع فيها الخلاف - ونظراً أيضاً إلى أنه كثر في الآونة الأخيرة انتقاد بعض الصحف العربية للمنهج الشرعي الذي سلكته المملكة في إثبات الأهلة تصريحاً تارة

وتلميحاً تارة ، ونظراً إلى أن الساكت عن الإدلاء بالحق حال قدرته عليه شيطان أخرس : فإنني مدلل بدلوي حول ما أعتقد في المسألة لعل المختلفين يراعون فذلِكَ حال النزاع ، ولأن المتعبد لله بعلمه لا يلجمه عن الحق خوف ضياع مكانته الشعبية عند عوام الجمهور ، أو مكانته الخاصة عند ولاة الأمر ... وتلك القذلكات كالتالي :

١ - لو صام المسلمون أو أفطروا أو وقفوا بعرفة بناء على توثيق القضاء الشرعي لرؤية الرائي ثم ثبت بعد ذلك بيقين حسي قاطع أن الرؤية خاطئة أو مدعاة ، وأن واقع الهلال بخلاف الرؤية : فلا غشاضة ولا هرج .

لأنه لا فرق بين صوم اليوم الأول من الشهر الذي يظن أنه الثلاثون من الذي قبله ، أو اليوم الثلاثين الذي يظن أنه الأول من الشهر الذي بعده .

لا فرق في هذا كله إلا باعتبار الشرع .

وإذا قرر القضاء إثباتاً شرعياً أمضاه أهل الحل والعقد كان ذلك اعتباراً شرعياً وإن كان دليلاً الحسي ظنياً أو ثبت فيما بعد بطلانه .

وقوله ﷺ : «صومكم يوم تصومون وأصحاكم يوم تضحون» قضى بجمع الكلمة على المسلك الشرعي ، لأن الجماعة المسلمة لا ينبغي لها أن تصوم وأن تضحى إلا وفق مسلك شرعي . ومن تلك المسالك ثبوت شهادة العدول .

٢ - قال رسول الله ﷺ في الأحاديث الصحاح : «صوموا

لرؤيته وأفطروا لرؤيته» .

وقال : «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا» .

قال أبو عبد الرحمن : ولهذين التصيين الصحيحين فلا وجه عندي

لأن فرق بين مدلولي : صوموا لرؤية الهلال بمعنى حين إمكان رؤيته ، وصوموا لرؤيتكم إياه .

قال أبو عبد الرحمن : بل قوله ﷺ «لرؤيته» في معنى «لرؤيتكم

إياه» لأن الهلال محل الرؤية .

أما كون الهلال تلك الليلة محالة رؤيته ، وأما كون رؤية بعضنا معرضة للخطأ أو الكذب فتلك مسألة أخرى لها حكمها بدليل آخر غير التعليق بالتفريق بين رؤيته ورؤيتكم .

وهذا الفرق معقول لغة ولكنه ملغى شرعاً بإناطة الحكم برؤية الجماعة في قوله ﷺ «رأيتموه» .

وإذا أمضى أهل الحل والعقد رؤية بعضنا لزمت جميعنا ، فأصبحت رؤية لنا كلها .

٣ - الذي حققته من أخي الدكتور اللبيب محادثة وقراءة أنه لا يدعو إلى إثبات دخول الشهر بالحساب .

وإنما يدعو إلى مراعاة الأمور الحسية اليقينية عند تزكية الشهود وإرادة العمل بشهادتهم ، ودعا إلى ملاحظة أن شهادة الشهود إحدى طرق الإثبات .

وليس وسيلتنا لإثبات الرؤية شهادة الشهود فحسب ، بل نعمل

بأقوى البينات الشرعية ، وشهادة الشهود من عرض البينات لقول
عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب : ألا إني جالست أصحاب رسول الله
ﷺ وسألتهم ، وإنهم حدثوني أن رسول الله ﷺ قال : «صوموا
لرؤيته وأفطروا لرؤيته وانكسوا لها فإن غم عليكم فأكملوا ثلاثين .

فإن شهد شاهدان فصوموا وأفطروا» .

رواه النسائي وأحمد والدارقطني ، وزاد أحمد : «مسلمان» .

وزاد الدارقطني : «نوا عدل» .. كل ذلك عن إرواء الغليل .

إذن إنما الدعوة إلى العمل بالرؤية ، وإنما المطلوب تمحيص من

تقبل رؤيته بمراعاة البينات الحسية القطعية .

٤ - البينات الحسية القطعية التي تراعى كما تراعى شهادة
الشهود ذكرها العلماء كالقرطبي والشاطبي وابن تيمية وابن قيم
الجوزية والسبكي وهو أكثر من فصل في ذلك وغيرهم ، وكل ذلك ذكره
أخي الهميم .

قال أبو عبدالرحمن : شيخ الإسلام فرّق بين معرفة الكسوف
والخسوف بالحساب وعدم معرفة الهلال بذلك ، فربما استبعد مستبعد
أن يكون شيخ الإسلام يذهب إلى حالة يُعرف بالحساب امتناع رؤية
الهلال فيها .

قال أبو عبدالرحمن : بل الحكم في تلك الحالة هو مذهب شيخ
الإسلام وعليه صريح كلامه ، وقد استثناء من عموم مذاهب أهل
الحساب .

قال رحمه الله : «فاعلم أن المحققين من أهل الحساب كلهم
متفقون على أنه لا يمكن ضبط الرؤية بحساب بحيث يحكم بأنه يرى لا
محالة ، أو لا يرى ألبتة على وجه مطرد ، وإنما قد يتفق ذلك ، أو لا
يمكن بعض الأوقات .

ولهذا كان المعتنون بهذا الفن من الأمم (الروم ، والهند ،
والفرس ، والعرب ، وغيرهم مثل بطليموس الذي هو مقدم هؤلاء ، ومن
بعدهم قبل الإسلام وبعده) لم ينسبوا إليه في الرؤية حرفاً واحداً ، ولا
حدثوه كما حدثوا اجتماع القرصين .

وإنما تكلم به قوم منهم في أبناء الإسلام مثل كوشيار الديلمي ،
وعليه وعلى مثله يعتمد من تكلم في الرؤية منهم .
وقد أنكر ذلك عليه حذاقهم مثل أبي علي المروزي القطان وغيره ،
وقالوا إنه تشوف بذلك عند المسلمين ، وإذا فهذا لا يمكن ضبطه»^(١٤٧) .
ولما بين أن الكسوف والخسوف يعلمان بالحساب نفى أن يعلم
الهلال بذلك على الإطلاق بل في حالة واحدة .

فقال : «وأما الإهلال فلا له عندهم من جهة الحساب ضبط ، لأنه
لا يضبط بحساب يعرف كما يعرف وقت الكسوف والخسوف ، فإن
الشمس لا تكشف في سنة الله التي جعل لها إلا عند الاستسرار إذا
وقع القمر بينها وبين أبصار الناس على محاذاة مضبوطة ، وكذلك

القمر لا يخسف إلا في ليالي الإبدار على محاذاة مضبوطة ، لتحول الأرض بينه وبين الشمس ، فمعرفة الكسوف والخسوف لمن صبح حسابه مثل معرفة كل أحد أن ليلة الحادي والثلاثين من الشهر لابد أن يطلع الهلال ، وإنما يقع الشك ليلة الثلاثين .

فنقول : الحاسب غاية ما يمكنه إذا صبح حسابه أن يعرف مثلاً أن القرصين اجتماعاً في الساعة الفلانية ، وأنه عند غروب الشمس يكون قد فارقهما القمر إما بعشر درجات مثلاً ، أو أقل ، أو أكثر .

والدرجة هي جزء من ثلاثمائة وستين جزءاً من الفلك .
أما كونه يرى أو لا يرى فهذا أمر حسي طبيعي ليس هو أمراً حسابياً رياضياً .

وإنما غايته أن يقول : استقرأنا أنه إذا كان على كذا وكذا درجة يرى قطعاً أو لا يرى قطعاً ، فهذا جهل وغلط ، فإن هذا لا يجري على قانون واحد لا يزيد ولا ينقص في النفي والإثبات .

بل إذا كان بعده مثلاً عشرين درجة ، فهذا يرى ما لم يحل حائل ، وإذا كان على درجة واحدة فهذا لا يرى» (١٤٨) .

وما أحال إليه شيخ الإسلام من أمر الخسوف والكسوف علم لا كهانة .

قال رحمه الله : « الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة ، كما

لطلوع الهلال وقت مقدر ، وذلك ما أجرى الله عادته بالليل والنهار والشتاء والصيف ، وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر .

وذلك من آيات الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي خلق

الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ وقال تعالى :

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد

السنين والحساب وما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ وقال تعالى :

﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال تعالى : ﴿ فالتق الإصباح وجعل

الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾

وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾

وقال تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب

الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون

والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه

منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك

القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ .

وكما أن العادة التي أجراها الله تعالى أن الهلال لا يستهل إلا

ليلة ثلاثين من الشهر أو ليلة إحدى وثلاثين ، وأن الشهر لا يكون إلا

ثلاثين أو تسعة وعشرين (فمن ظن أن الشهر يكون أكثر من ذلك أو

أقل فهو غلط) : فكذلك أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف إلا

وقت الاستسرار ، وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار .

وقت إبداره هو الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها : ليلة الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي .

والهلال يستسر آخر الشهر : إما ليلة وإما ليلتين كما يستسر ليلة تسع وعشرين وثلاثين ، والشمس لا تكسف إلا وقت استسارها وللشمس والقمر ليالي معتادة من عرفها عرف الكسوف والخسوف ، كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية أو التي قبلها .

لكن العلم بالعادة في الهلال علم عام يشترك فيه جميع الناس ، وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما ، وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ، ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه . وقال رحمه الله : « من قال إن الشمس تكسف في غير وقت الاستسار فقد غلط وقال ما ليس له به علم » (١٤٩) .

وقال رحمه الله : « وكسوف الشمس إنما يكون وقت استسار القمر آخر الشهر ، وخسوف القمر إنما يكون ليالي الإبدار الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كما أن الهلال قد يكون ليلة الثلاثين أو الحادي والثلاثين .

هذا الذي أجرى الله به عادته في حركات الشمس والقمر . وما ذكره بعض الفقهاء من تقدير اجتماع الكسوف وصلاة العيد فهذا لم يقله أحد من الصحابة ، ولا ذكره أكثر العلماء ، لا أحمد ولا غيره . ولكن ذكره طائفة من الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما تبعاً لما ذكره الشافعي فإنه عليه السلام لما تكلم فيهما إذا اجتمع صلاتان كيف يصنع ، وذكر أنه يقدم ما يفوت على ما لا يفوت ذكر من جملة التقدير صلاة العيد والكسوف طرداً للقاعدة مع إرضاه عن كون ذلك يقع أو لا يقع .. كما يقدر الفقهاء مسائل كثيرة كطرد القياس مع إرضاهم عن وقوع ذلك في الوجود ، بل يقدرون ما يعلمون أنه لا يقع عادة ، كعشرين جدة ، وفروع الوصايا ، فجاء بعض الفقهاء فأخذ يكابر ويقول إن هذا قد يقع» (١٥٠) .

قال أبو عبد الرحمن : وجاء العلم الحديث ولم يبطل قول أسلافنا بل أقره .

واليقين في قلوبنا من نتائج العلم الحديث الحسية ، وما سبق إليه تحقيق علماء الأمة كالذين مر ذكرهم لا يقل عن شهادة الشهود العنود الذين يحكم القضاء برؤيتهم .

وحينئذ يجب على القضاء الموازنة بين البيئات من شهود الشهود وحقائق العلم وتحقيقات العلماء .

والموازنة كيّفها الشرع ببيدهياته ، فقد أطلال ابن قيم الجوزية النفس بكتابه « إعلام الموقعين » عن عموم البيّنة ، وأنها ليست وقفاً على شهادة الشهود ، وليست شهادة الشهود أقوى البيّنات ، والقاعدة الفكرية الشرعية أن الظني يُردُّ بالقطعي .
ومن منقولات اللهيّ : قول ابن العربي في الأحكام : « الشاهد إذا قال ما قام الدليل على بطلانه فلا تقبل شهادته » .
٥ - من قال : يعرف الهلال بغير شهادة الشهود لا يحكم بآئه هضى الله حتى يثبت أن ما قاله معارضاً لبيان رسول الله ﷺ ، وأنه غير معذور باجتهاده .

وأقول هذا احتياطاً لإعراض سلف من علماء الأمة نوي علم وفضل أخذوا بالمشترك اللفظي من قوله ﷺ : « فاقدروا له » إذ يتناول الإكمال للثلاثين ، والحساب ، والعدد .

فمنهم مطرّف بن عبدالله بن الشّخير من كبار التابعين ، ومتكلم أهل السنة والجماعة ابن قتيبة قال : يعول على الحساب عند الغيم أخذاً بالمشترك من قوله ﷺ : « فاقدروا له » .. وبه قال بعض أصحاب أبي حنيفة والشافعي كآبي العباس ابن سريج وآبي جعفر الطحاوي إلا أنه اعتبر إكمال الثلاثين ناسخاً لكلمة « فاقدروا له » .

على أن ابن عبدالبر ضعف نسبة المذهب إلى ابن الشّخير .

٦ - من قال : إثبات الهلال ليس وقفاً على شهادة الشهود بل تُراعى البيّنات الحسية فليس عاصياً لله ورسوله ، ولم يجئ بشيئ

يزعم أنه يعلم به دخول الشهر غير ما بينه الشارع .

ولنما دعا إلى إدخال الشهر وفق طرق الإثبات الشرعي .

قال أبو عبدالرحمن : ومن مشكل الحديث حديث أبي بكرة رضي الله عنه في صحيح البخاري : « شهران لا ينقصان : شهرا عيد رمضان وذو الحجة » .
ففي معنى هذا الحديث الشريف عدة أقاويل استوفاهما ابن حجر في « فتح الباري » منها مذهب الإمامين أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه : أنهما لا ينقصان في سنة واحدة ، وبذلك قال أبو بكر أحمد ابن عمرو البزار .

قال الحافظ ابن حجر : « يدل عليه رواية زيد بن عتبة : عن سمرة ابن جندب مرفوعاً : شهرا عيد لا يكونان ثمانية وخمسين يوماً » .

قال أبو عبدالرحمن : يلزم من أخذ بهذا المذهب أن يرد شهادة الشهود بنقص شهر رمضان وذو الحجة في عام واحد إلى هذا الحديث .
قال الحافظ ابن حجر عن حديث سمرة : « وأما ما ذكره البزار من رواية زيد بن عتبة : عن سمرة بن جندب فإسناده ضعيف ، وقد أخرجه الدارقطني في الأفراد ، والطبراني من هذا الوجه بلفظ : « لا يتم شهران ستين يوماً » .

وقال أبو الوليد بن رشد : « إن ثبت فمعتاه لا يكونان ثمانية وخمسين في الأجر والثواب » (١٥١) .

قال أبو عبد الرحمن : إذا أمضى ولاية الأمر الحكم بدخول الشهر فلا يجوز لأحد الشغب على الجماعة أو الخروج عنهم بقطر أو صيام . وإنما يرجو رجال العلم الشرعي وعلماء الهيئة الذين لهم علم حسي يقيني محقق من ولاية أهل الحل والعقد فينا أن يغربلوا شهادة الشهود وفق البيانات الأخرى ، وأن يتحققوا الأمر في حالة من الحالات بالبرهان فيها العلم الحديث ويقول فيها محققو علمائنا السالفين : إن الرؤية فيها غير ممكنة .

* * *

١٤ - المسألة التاسعة عشرة : البرهان على مشروعية الإجارة :
أول مسألة من كتاب الإجازات والأجراء - وهي المسألة رقم ١٢٨٥ من مسائل المحلى - عن جواز الإجارة ، والدليل عليه .. إلا أن الإمام أبا محمد ابن حزم قصر في الاستدلال ، إذ لم يذكر غير حديث عبدالله بن معقل إذ قال : زعم ثابت [يعني ابن الضحاك] أن رسول الله ﷺ نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة .. رواه مسلم والدارمي . وقال : قد صح سماع عبدالله بن معقل عن ثابت بن الضحاك . وقال : وقد جاءت في الإجازات آثار ، وبإباحتها يقول جمهور العلماء .

ونذكر استئجار رسول الله ﷺ لابن أرقط دليلاً إلى مكة .
ونذكر أبو محمد عن إبراهيم بن علي أن الإجارة لا تجوز لأنها أكل مال بالباطل .

وقد رد عليه أبو محمد باستئجار الرسول ﷺ لابن أرقط دليلاً إلى مكة .

ونذكر أبو محمد ابن قدامة والنووي والكاساني وغيرهم ما يحكى عن أحد شيوخ المعتزلة أبي بكر عبد الرحمن ابن الأصم قال : « لا تجوز الإجارة لأنها غرر ، إذ العقد على منافع لم تخلق » .
فرد عليه ابن قدامة بالإجماع ، وبالدليل العقلي عن مسيس حاجة العباد إلى الإيجار .

وقد تبسط أبو محمد ابن قدامة يذكر الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع .

ودليله من النصوص قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضُكُمْ نَكَم فَاْتَوْهِنْ أَجُورَهِنْ ﴾ [سورة الطلاق / ٦] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنْ خَيْرٌ مِنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِي الْأَمِينُ ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي لِمَآنِي فَحِجْ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ [سورة القصص / ٢٦-٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [سورة الكهف / ٧٧] .

قال أبو عبد الرحمن : وجه الاستدلال بالآيتين الأخيرتين أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت من شرعنا ما ينفيه .

وأن شرائع الله معصومة فلا تأتي بما يدفعه العقل أو يرجع العقل سواء .

وجه الاستشهاد بالآيات أنهم جئنا بنماذج من جواز الإجارة في الرضاع ، وعمل البدن بالبناء أو الخدمة ، فصار ذلك دليلاً على جواز الرضاع ، في هذه الصور ، وفي الصور الأخر ككراء الدار لعدم وجود الفرق المؤثر في الحكم .

والى هذا أشار الشافعي الإمام .. قال رحمه الله تعالى : «فأجاز الإجارة على الرضاع ، والرضاع يختلف ، وهي إذا جازت عليه جازت على مثله ، وهو في مثل معناه» (١٥٦) .

ونكر ابن قدامة حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فآكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرأ فاستوفى منه ولم يوفه أجره» .

قال أبو عبد الرحمن : وجه الدلالة أن الترهيب من عدم إيفاء الأجر أمر بإيفائه ، وذلك يعنى مشروعية الأجر ، فالأجرة مشروعة . وتبسيط البيهقي في كتابه « السنن الكبرى » في إيراد الأحاديث الدالة على مشروعية الإجارة .

وأضاف الكاساني الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ .

والإجارة ابتغاء للفضل .

وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن نبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

ونذكر سبب النزول وأنها في حج المكاري .

ثم ذكر جملة من الأحاديث ومنها تقرير رسول الله ﷺ .

قال : «بعث رسول الله ﷺ والناس يؤاجرون ويستأجرون فلم ينكر عليهم ، فكان ذلك تقريراً منه ، والتقرير أحد وجوه السنة» (١٥٦) .

وأما الدليل من العقل فيوردونه في معرض الرد على الأصم ،

وهو دليل لتقرير مشروعية الإجارة لو لم توجد شبهة الأصم وابن عليه ،

كما أنه دافع للشبهة ، فهو يؤسس دعوى الجمهور ويدفع الشبهة من

جهة بيان الحرج في الأخذ بدعوى الأصم .

والبرهنة على ضرورة الإيجار عقلاً هو التأسيس الذي أعنيه .

وتضمن ردهم على الأصم استدلالاً آخر نافياً لشبهة الأصم غير

مؤسس لدعوى الجمهور في ذاتها ، وذلك في كلام ابن قيم الجوزية

بإبطال دعوى الأصم في قوله : «إن الشرع يمنع من بيع المعنوم» .

أو بإقرار بعض دعواه والمنع من دخول الإيجار في المعنوم

الممنوع بيعه .

والعجيب أن الإمام ابن حزم لم يقرر دليلاً عقلياً على إجارة

الإيجار في تأسيسه للحكم ، ولا في معرض رده على ابن عليه ، وإنما

رد على ابن علية بصورة من صور الإيجار ورد بها الشرع إذ قال :
« هذا باطل من قول ابن علية ، وقد استأجر رسول الله ﷺ ابن أرقط
دليلاً إلى مكة » .

وقد شرح ابن قدامة دليله العقلي التأسيسي بعدم الفرق المؤثر
بين المنافع والأعيان لاستوائهما في حاجة العباد إليهما .

فلما جازت في الأعيان وجب أن تجوز في المنافع .

وشرح وجه الحاجة بالضرورة الحسية ، وذلك قوله : « ولا يخفى ما
بالناس من الحاجة إلى ذلك ، فإنه ليس لكل أحد دار يملكها ، ولا يقدر
كل مسافر على بيع أو دابة يملكها ، ولا يلزم أصحاب الأملاك
إسكانهم وحملهم تطوعاً ، وكذلك أصحاب الصنائع يعملون بأجر ،
ولا يمكن كل أحد عمل ذلك ، ولا يجد متطوعاً به ، فلا بد من الإجارة
لذلك ، بل ذلك مما جعله الله تعالى طريقاً للرزق ، حتى إن أكثر
المكاسب بالصنائع » (١٥٤) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا دليل على جواز الإجارة بالضرورة
الحسية ، والشرع يرفع الحرج .

ثم رد شبهة الغرر المعللة بالعقد على منفعة لم توجد بأن العقد
على المنافع لا يمكن بعد وجودها .

قال أبو عبد الرحمن : وجه هذا الرد أن الإجارة ضرورة . وأن

العقد لا يمكن بعد وجود المنفعة ، فأصبحت الأجرة على صورة
تقتضيها الضرورة وهي العقد على المنفعة قبل وجودها ، وما لا تتم
الضرورة إلا به فهو ضرورة ، ولا يجوز مكابرة الضرورة .

وجه عدم إمكان العقد بعد وجود المنفعة أن التراضي على
الأجرة لا يتحقق بعد استيفاء أحد الطرفين لحاجته من العين محل
الأجرة والمنفعة .

وشرح النووي معنى الضرورة الحسية وكون المعارضة على
المنافع أمس ضرورة من المعارضة على الأعيان ، وذلك بقوله : « وإن
تحقق ما يتصوره الأصم صواباً لتعطلت الصنائع والمساكن والمتاجر
والمواصلات بكل أنواعها ، لأنها كلها - وهي تستغرق مظاهر الحياة
قديمًا وحديثًا - قائمة على المؤاجرات .

والمعاوضات على المنافع كالمعاوضات على الأعيان سواء بسواء .
بل إن المعاوضات على المنافع أوسع مدى ، وأكثر عددًا وأشمل
مرفقًا ، ولأن المنافع المتاحة أوسع آفاقًا من الأعيان والعروض » (١٥٥) .

قال أبو عبد الرحمن : وابن حزم ينفي الإجماع على جواز الإجارة ،
لأن ما حكاه أبو محمد في « المطى » أن إباحتها مذهب جمهور العلماء .
وقال في مكان آخر : « الإجازات لا إجماع فيها ، فقد منع منها كل
قوم من أهل العلم وإن الجمهور على إجازتها » (١٥٦) .

قال أبو عبد الرحمن : وغير ابن حزم كابن قدامة استدلوا بالإجماع على أن جواز عقد الإيجار مجمع عليه قبل خلاف المخالف .
وتعالي الإجارة سيرة عملية شرحها الشافعي بقوله : « فمضت بنا السنة ، وعمل بها غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولم يختلف أهل العلم ببلدنا في إجازتها وعوام فقهاء الأمصار » (١٥٧) .
قال أبو عبد الرحمن : وتلخص من كل ما سبق أنه لا توجد نصوص شرعية صحيحة تجيز كل صور الإجارة ، وإنما الدليل على مشروعية عموم صور الإجارة في المناقع المباحة حينما يتخلف الفرق المؤثر حكماً بين الصور المنصوص عليها ، والصور المسكوت عنها .
وصح الدليل العقلي عن ضرورة التعامل بالإجارة .

* * *

٢٠ - اثنتان العشر ، عقد الإجارة مظهر للقياس الصحيح ، وتحقيق الخلاف بين الحنفية وابن قيم الجوزية ، ومعنى القياس هاهنا :
الإجارة باب في كتب الفقه والقانون المدني ماضية به السيرة العملية .

والمسلمون فيها على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : مذهب قلة شاذة لم تجزها بدعوى أنها غرر لأنها

(١٥٧) معرفة السنن والآثار ٨ / ٣٣٣ .

عقد على منافع لم تخلق ، ولهذا فلا تجوز لأنها أكل مال بالباطل .
ولم يلتفت الفقهاء إلى هذا المذهب ، وإنما حكوه تعجباً واستغراباً .
والمذهب الثاني : أن الإجارة عقد جائز شرعاً إلا أنه عقد خلاف القياس .

وعلى هذا فالشرع ها هنا جاء خلاف القياس !

والمذهب الثالث : مذهب جمهور علماء المسلمين أنها عقد جائز ، وأنها مقتضى القياس الصحيح .

وممن قال بالمذهب الأول إبراهيم بن علي ، والأصم المعتزلي .
وذهب إلى الثانية بعض فقهاء الحنفية مثل علاء الدين الكاساني الحنفي ، وفسر موافقة مذهب الأصم للقياس بكون الإجارة بيعاً للمنفعة ، والمنافع للحال معدومة ، والمعدوم لا يحتمل البيع ، فلا يجوز إضافة البيع إلى ما يؤخذ في المستقبل .

فإذا لا سبيل إلى تجويزها لا باعتبار الحال ولا باعتبار المال فلا جواز لها قياساً (١٥٨) .

وجعل الكاساني إجازة الإجارة استحساناً لمخالفة القياس بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع (١٥٩) .

قال أبو عبد الرحمن : استظهر الكاساني واقعة شرعية ، وهي أن الإجارة بيع منفعة .

(١٥٨) بدائع الصنائع ٤ / ١٧٣ .

(١٥٩) السابق ٤ / ١٧٣ .

واستظهر واقعة حسية ، وهي أن تلك المنفعة معدومة عند إجراء عقد الإجارة .

وأعطى الواقعتين حكماً عقلياً ، وهو أن المعلوم لا يحتمل البيع . وهذا الحكم العقلي هو القياس الذي يعنون ، ومن ثم صار عقد الإجارة شرعاً مخالفاً للقياس .

وقبل ذكر مناقشة ابن قيم الجوزية لهذا المذهب ، وبرهنته على أن الإجارة موافقة للقياس أحب أن أشرح ضرورة في مذهب الكاساني يبين منها معنى الحكم العقلي (أي مخالفة القياس) الذي يعنيه .

فالحكم العقلي عنده لا يعني أن إجارة العقد غير معقولة ، بل إجازة العقد حكم ضروري عنده ، ولهذا لما ذكر أدلة الشرع المخالفة للقياس فسر حكمتها بقوله : «ويه تبين أن القياس متروك لأن الله تعالى إنما شرع العقود لحوائج العباد وحاجتهم إلى الإجارة ماسة ، لأن كل واحد لا يكون له دار مملوكة يسكنها ، أو أرض مملوكة يزرعها ، أو دابة مملوكة يركبها ، وقد لا يمكنه تملكها بالشراء لعدم الثمن ، ولا بالهبة والإعارة لأن نفس كل واحد لا تسمح بذلك ، فيحتاج إلى الإجارة ، فجوزت بخلاف القياس لحاجة الناس كالسلم ونحوه .

تحقيقه أن الشرع شرع لكل حاجة عقداً يختص بها ، فشرع لتمليك العين بعوض عقداً وهو البيع ، وشرع لتمليكها بغير عوض عقداً وهو الهبة ، وشرع لتمليك المنفعة بغير عوض عقداً وهو الإعارة ، فلو

لم يشرع الإجارة مع امتساس الحاجة إليها لم يجد العبد لدفع هذه الحاجة سبيلاً وهذا خلاف موضوع الشرع» (١٦٠) .

قال أبو عبد الرحمن : إن من غير المعقول عنده العقد ذاته لا إجازته ، ووجه انتفاء المعقولة أن المعقود عليه وهو المنفعة غير موجود حال العقد ، والمعقول في العادة أن التعاقد على موجود .

ولا يقولن قائل : مراد الكاساني بمخالفة القياس أن الشرع لا يجيز بيع المعلوم ، فيكون بيعه في عقد الإجارة مخالفاً لحكم الشرع الذي يقاس عليه .

قال أبو عبد الرحمن : هذا توجيه صحيح لوجه مخالفة القياس ، إلا أن هذا التوجيه الصحيح ليس هو مقتضى كلام الكاساني الذي أسلفت سوقه ثم تفسيره ، وإن فهو غير مراد .

وأبى ابن قيم الجوزية دعوى أن الإيجار على خلاف القياس ، ورد على أهل هذه الدعوى بالتنقيح في مدلول المقدمتين اللتين بنوا عليهما ، وهما أن الإجارة بيع معلوم ، وأن بيع المعلوم باطل .

فقيد المقدمة الأولى : بأن الإجارة ليست بيعاً خاصاً يكون العقد فيه على الأعيان دون المنافع .

وقيد المقدمة الثانية : بأن بيع المعلوم ليس باطلاً بإطلاق ، بل هناك بيع معلوم جائز .

قال : « فإن الشارع جواز المعاوضة العامة على المعلوم ، فإن قيس بيع المنافع على بيع الأعيان فهذا قياس في غاية الفساد ، فإن المنافع لا يمكن أن يعقد عليها في حال وجودها ألينة بخلاف الأعيان . وقد فرق بينهما الحس والشرع ، فإن النبي ﷺ أمر أن يؤخر العقد على الأعيان التي لم تخلق إلى أن تخلق ، كما نهى عن بيع السنين وحبل الحبلية والتمر قبل أن يبدو صلاحه ، والحب حتى يشتد ، ونهى عن الملاقيع والمضامين ونحو ذلك . وهذا يعتنع مثله في المنافع ، فإنه لا يمكن أن تباع إلا في حال عدمها ، فهذا أمران :

أحدهما : يمكن إيراد العقد عليه في حال وجوده وحال عدمه ، فنهى الشارع عن بيعه حتى يوجد ^(١٦١) ، وجوز منه بيع ما لم يوجد تبعاً لما وجد إذا دعت الحاجة إليه ^(١٦٢) ، ويدون الحاجة لم يجوزه . والثاني : ما لا يمكن إيراد العقد عليه إلا في حال عدمه كالمنافع ^(١٦٣) ، فهذا جواز العقد عليه ولم يمنع منه ^(١٦٤) .

قال أبو عبد الرحمن : بيع الأعيان يتأخر فيه الملك إلى حين

(١٦١) يعني بذلك بيع الأعيان .

(١٦٢) يعني بذلك مثل بيع التمر بعد بدو صلاحه .

(١٦٣) يعني الإيجار ، وليس هذا بصحيح ، بل مقتضى العقد وجود المنفعة ، وإنما الذي لم يوجد بعد الانتفاع .

(١٦٤) إعلام الموقعين ٢/٢٨ .

الإيجاب والقبول اللذين يظهرهما عقد البيع .

وهكذا عقد الإيجار يتأخر فيه الانتفاع إلى حين الإيجاب والقبول اللذين يظهرهما عقد الأجرة .

والزعم بأن الإيجار بيع منفعة معنوية زعم خاطئ فيه مجازفة ، لأن ما لا منفعة فيه لا يؤجر ، لأنه خلاف مقتضى العقد . فلا يؤجر إلا ما كان ذا منفعة تستأجر العين من أجلها في العرف والعادة . وإنما المعلوم حال العقد الانتفاع لا المنفعة ، والعبرة بالإنزاع بالانتفاع بمقتضى العقد دون حائل من العين أو المالك .

قال أبو عبد الرحمن : وبهذا يناقش قول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : « لا يمكن أن تباع المنافع إلا في حال عدمها » . والصواب أن المعلوم الانتفاع لا المنفعة .

والبائع لا يلزم المشتري التصرف في ملكه ، وكذلك لا يلزم المستأجر الانتفاع بالمنفعة .

وإذن فالذي يوجد منذ الإيجاب والقبول إذن البائع والمؤجر بالتصرف والانتفاع لا وجودهما مباشرة من المشتري والمستأجر .

وما سلف من كلام ابن قيم الجوزية إنما يرد على دعوى أن قياس الشريعة المنع من الإيجار ، وإنما كان جواز الإيجار استثناءً شرعياً .

ولا يرد على كلام من جعل المنع من الإيجار حكماً عقلياً . ولقد سلك ابن قيم الجوزية في رد مقدماتهم الثانية المانعة من بيع

المعلوم مسلكين :

المسلك الأول : يرد المقدمة بإطلاق .. قال : « ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا في كلام أحد من الصحابة أن يبيع المعلوم لا يجوز ، لا بلفظ عام ولا بمعنى عام ، وإنما في السنة النهي عن بيع بعض الأشياء التي هي معدومة ، كما فيها النهي عن بيع بعض الأشياء الموجودة . »

فلم يستعلة في المنع لا لعدم ولا الوجود ، بل الذي وردت به السنة النهي عن بيع الغرر ، وهو ما لا يقدر على تسليمه ، سواء كان موجوداً أو معدوماً كبيع العبد الأبق والبعير الشارد وإن كان موجوداً ، إذ موجب البيع تسليم المبيع ، فإذا كان البائع عاجزاً عن تسليمه فهو غرر ومخاطرة وقمار ، فإنه لا يباع إلا بوكس ، فإن أمكن المشتري تسليمه كان قد قمر البائع ، وإن لم يمكنه ذلك قمره البائع .

وهكذا المعلوم الذي هو غرر نُهي عنه للغرر لا لعدم ، كما إذا باع ما تحصل هذه الأمة أو هذه الشجرة ، فالمبيع لا يعرف وجوده ولا قدره ولا صفته ، وهذا من الميسر الذي حرمه الله ورسوله . ونظير هذا في الإجارة أن يكره دابة لا يقدر على تسليمها ، سواء كانت موجودة أو معدومة .

وكذلك في النكاح إذا زوجه أمة لا يملكها أو ابنة لم تولد له ، وكذلك سائر عقود المعاوضات .. بخلاف الوصية فإنها تبرع محض فلا غرر في تعلقها بالموجود والمعلوم وما يقدر على تسليمه إليه وما لا

يقدر ، وطرده الهبة إذ لا محذور في ذلك فيها .

وقد صح عن النبي ﷺ هبة المشاع المجهول في قوله لصاحب كبة الشعر حين أخذها من المغنم وسأله أن يهبها له فقال : أما ما كان لي وبني عبد المطلب فهو لك » (١٦٥) .

قال أبو عبد الرحمن : ليس بصحيح أن الشرع لم يمنع من بيع المعلوم بمعنى عام ، بل الأصل في الشرع المنع منه بالمعنى العام .

والمعنى العام هو الغرر والقمار والاكل بالباطل ، لأن المعلوم يُخاطر بالبيع على وجوده ، والأصل امتناع تسليم المعلوم ، وما أبيع شرعاً من بيع المعلوم فهو مستثنى بدليله .

ولكن الحق في محل الخلاف هاهنا أن الإيجار عقد على منفعة موجودة تستأجر العين من أجلها ، ومقتضى العقد تحقيقها .

قال أبو عبد الرحمن : ومسلك ابن قيم الجوزية الثاني يقيد مقدمتهم .. قال : « بل الشرع صحح بيع المعلوم في بعض المواضع ، فإنه أجاز بيع الثمر بعد بنو صلاحه والحَب بعد اشتداده . »

ومعلوم أن العقد إنما ورد على الموجود والمعلوم الذي لم يخلق بعد ، والنبي ﷺ نهى عن بيعه قبل بنو صلاحه ، وأباحه بعد بنو الصلاح ، ومعلوم أنه إذا اشتراه قبل الصلاح بشرط القطع كالحصرم جاز .. فإنه نهى عن بيعه إذا كان قصده التيقية إلى الصلاح ، ومن

جوز بيعه قبل الصلاح ويعدّه بشرط القطع أو مطلقاً ، لم يكن عنده لظهور الصلاح فائدة ، موجب العقد التسليم في الحال ، فلا يجوز شرط تأخيره سواء بدا صلاحه أو لم يبدأ .

والصواب قول الجمهور الذي دلت عليه سنة رسول الله ﷺ والقياس الصحيح (١٧٧) .

وقوله : إن موجب العقد التسليم في الحال جوابه : أن موجب العقد إما أن يكون ما أوجبه الشارع بالعقد أو ما أوجبه المتعاقدان مما يسوغ لهما أن يوجياه .

وكلاهما منتفٍ في هذه الدعوى ، فلا الشارع أوجب أن يكون كل مبيع مستحق التسليم عقيب العقد ، ولا العاقدان التزماً ذلك ، بل تارة يعقدان العقد على هذا الوجه ، وتارة يشترطان التأخير إما في الثمن وإما في المثمن .

وقد يكون للبائع غرض صحيح ومصلحة في تأخير التسليم للبيع ، كما كان لجابر رضي الله عنه غرض صحيح في تأخير تسليم بغيره إلى المدينة .. فكيف يمنعه الشارع ما فيه مصلحة له ولا ضرر على الآخر فيها ، إذ قد رضي بها كما رضي رضي الله عنه على جابر بتأخير تسليم البعير؟ ! .

ولو لم ترد السنة بهذا لكان محض القياس يقتضي جوازه ،

(١٧٧) قال أبو عبد الرحمن : هذا يعني أن جواز بيع صود من العلوم مستثنى بدليل يخصه ... لا أن ذلك هو الأصل والقاعدة .

ويجوز لكل بائع أن يستثنى من منفعة المبيع ما له فيه غرض صحيح ، كما إذا باع عقاراً واستثنى مكانه مدة ، أو دابة واستثنى ظهرها ، ولا يختص ذلك بالبائع ، بل لو وهبه واستثنى نفقه مدة ، أو أعتق عبده واستثنى خدمته مدة ، أو وقف عيناً واستثنى غلتها لنفسه مدة حياته ، أو كاتب أمةً واستثنى وطأها مدة الكتابة ، ونحوه ، وهذا كله منصوص أحمد .

وبعض أصحابه يقول : إذا استثنى منفعة المبيع فلا بد أن يسلم العين إلى المشتري ثم يأخذها ليستوفي المنفعة بناءً على هذا الأصل الذي قد تبين فسادُه ، وهو أنه لا بد من استحقاق القبض عقيب العقد ، وعن هذا الأصل قالوا : لا تصح الإجارة إلا على مدة تلي العقد ، وعلى هذا بنوا ما إذا باع العين الموجرة فممنهم من أبطل البيع لكون المنفعة لا تدخل في البيع فلا يحصل التسليم .

وممنهم من قال : هذا مستثنى بالشرع بخلاف المستثنى بشرط . وقد اتفق الأئمة على صحة بيع الأمة المزوجة وإن كانت منفعة البضع للزوج ولم تدخل في البيع .

واتفقوا على جواز تأخير التسليم إذا كان العرف يقتضيه كما إذا باع مخزناً له فيه متاع كثير لا ينقل في يوم ولا أيام ، فلا يجب عليه جمع دواب البلد ونقله في ساعة واحدة ، بل قالوا : هذا مستثنى بالعرف .

فيقال : وهذا من أقوى الحجج عليكم ، فإن المستثنى بالشرط

أقوى من المستثنى بالعرف ، كما أنه أوسع من المستثنى بالشرع فإنه يثبت بالشرط ما لا يثبت بالشرع ، كما أن الواجب بالنظر أوسع من الواجب بالشرع» (١٧٧) .

قال أبو عبد الرحمن : عن مناقشة ابن قيم الجوزية لقولهم : «موجب العقد التسليم في الحال» نحتاج إلى إضافة تخفف دعوى التهورين من شأن ضرورة التسليم في الحال التي هي مقتضى العقود .

فيقال : الأصل في العقود تمكين المشتري والمستأجر من التصرف والانتفاع بمقتضى العقد .

والأصل أن المشتري والمستأجر يتصرفان ويتنفعان بعد الإيجاب والقبول مباشرة .

فإذا ورد شرط بالتأجير كان الشرط لازماً ، وكان وارداً على أصل المقتضى ، وهو حرية المشتري والمستأجر فور التعاقد .

وما ذكره ابن قيم الجوزية من امتناع تسليم المخزن فوراً لا يعني امتناع الحكم بأن الأصل في العقود إذا خليت من الشروط تفاق مقتضى العقود فوراً ، وإنما يعني مراعاة العرف والإمكان الحسي في الفور والمهلة .

وقوله : «المستثنى بالشرط أقوى من المستثنى بالعرف» لا يعني

المنع من نفاذ مقتضى العقد فور إبرامه ، بل ذلك هو الأصل ، بل يعني أن الأصل نفاذ مقتضى العقد فور إبرامه ما لم يقيد هذا الأصل عرف .

فإذا وجد شرط كان مقتضى العقد في الأصل مقيداً بمقتضى الشرط ، وأمد الشرط من مقتضيات العقد .

وكون الشرط أقوى من العرف فرق غير مؤثر هاهنا ، وصواب العبارة أن يقال : المستثنى بالشرط أصرح من المستثنى بالعرف .

والسر في هذا الاستدراك أن المعاقدين ساكتان ، ولا ينسب لساكت قول ، فلما وجد العرف لزمهما مقتضاه ، لأن العرف مراد الجماعة ، والعاقدان من الجماعة .

والشرط أصرح لأنه صرح بخصوص مرادهما فتعيز عن عموم مراد الجماعة بالعرف .

وليس معنى كون الشرط أصرح وأولى من العرف أن الشرط أقوى من العرف ، لأن القوة تكون مع التعارض ، ولا تعارض بين الشروط والعرف أصلاً ، بل العرف غير دال حالة الشرط .

قال أبو عبد الرحمن : وفرق ابن قيم الجوزية بين تعليل النهي عن بيع المعلوم لمجرد العدم ، وبين النهي عن بيعه بعدم خاص وهو كونه معلوماً يمكن تأخير بيعه إلى زمن وجوده ، فقال محاوراً من جعل علة مجرد العدم : «ما ذكرناه علة مطردة ، وما ذكرته علة منتقضة ، فإنك

إذا علقت بمجرد العدم ورد عليك التقض بالمتافع (١٧٦) كلها وبكثير من الأعيان وما علنا به لا ينتقض .

وأيضاً فالقياس المحض وقواعد الشريعة وأصولها ومناسباتها تشهد لهذه العلة ، فإنه إذا كان له حال وجود وعدم كان في بيعه حال العدم مخاطرة وقمار ، وبذلك علل النبي ﷺ المنع حيث قال : أرأيت إن منع الله الثمرة ، فيم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ ! ٩ .

وأما ما ليس له إلا حال واحد والغالب فيه السلامة فليس العقد عليه مخاطرة ولا قماراً ، وإن كان فيه مخاطرة يسيرة فالحاجة داعية إليه (١٧٧) .

ومن أصول الشريعة أنه إذا تعارضت المصلحة والمفسدة قُدم أرجحهما ، والفرر إنما نُهي عنه لما فيه من الضرر بهما أو بأحدهما ، وفي المنع مما يحتاجون إليه من البيع ضرر أعظم من ضرر المخاطرة ، فلا نزيل أدنى الضررين بأعلامهما .

بل قاعدة الشريعة ضد ذلك ، وهو دفع أعلى الضررين باحتمال أدناهما ، ولهذا لما نهاهم عن المزاينة لما فيها من ربا أو مخاطرة أباحها لهم في العرايا للحاجة ، لأن ضرر المنع من ذلك أشد من ضرر المزاينة .

(١٦٨) أسلفت أن المتافع في الإيجار موجودة غير معنومة ، وأن الانتفاع معلق بإرادة المستأجر .

(١٦٩) قال أبو عبد الرحمن : معنى ذلك أن هذه الصورة خرجت بدليلها ، وليس المعنى أن الأصل جواز بيع المعلوم .

ولما حرم عليهم الميتة لما فيها من خبث التغذية أباحها لهم للضرورة .
ولما حرم عليهم النظر إلى الأجنبية أباح منه ما تدعو إليه الحاجة للخاص والمعامل والشاهد والطبيب» (١٧٠) .

وتبعاً لذلك عدل ابن قيم الجوزية عبارة المقدمة الثانية بأن المنهي عنه ليس هو بيع المعلوم لمجرد أنه معنوم ، بل بقيد أنه معنوم يمكن تأخير بيعه إلى زمن وجوده .

وعلى هذا التقدير فالعلة مقيدة بعدم خاص .

قال أبو عبد الرحمن : إطلاق أن ذلك الحكم الشرعي خلاف القياس نوع من المعارضة بين المعقول والمنقول .

ولذلك الإطلاق صور كالآتي :

١ - الحكم بأن ذلك الحكم الشرعي خلاف القياس بمعنى خلاف المعقول .

ولا يقول بذلك إلا من مذهبه أن أحكام الشرائع أمثلة ، وأن المعقولات والمحسوسات قواعد ، وأن القاعدة قبل المثال بمعنى أن الشرع يرد أو يؤول حتى يوافق القاعدة .

٢ - الحكم بأن ذلك الحكم الشرعي خلاف القياس ... بمعنى

(١٧٠) إعلام الموقعين ٢/٢٥-٢٦ .

قال أبو عبد الرحمن : وكل استدلال ابن قيم الجوزية هاهنا يعقق معقولة المستثنى منه من المعنومات ، وليس هذا محل نزاع .

ولا يعني أن الأصل بيع المعلوم ، فإن هذا هو محل النزاع .

خلاف القاعدة الشرعية ، لأن لديه قاعدة استنبطها من نص واحد أو من عدة نصوص .

والأصل أن الشرع كله أصل ، كله قاعدة ، وكله واجب الطاعة ليس بعضه أولى بالطاعة من بعض .

وإنما يرد في الشرع أحياناً تععيد واستثناء كاستثناء بيع السلم لدليل خاص به .

وهينئذ لا يكون القول بأن ذلك الحكم خالف القياس قولاً سليماً مطلوباً إلا بمعنى أن هذا حكم شرعي مبيح مستثنى من حكم شرعي مانع ، أو العكس .

ولا يكون المستثنى منه معقولاً والمستثنى غير معقول ، بل كل ذلك شرع الله .

وإنما المعنى أن المستثنى هو الأقل ، والحكم فيه لدليل من خارج .
٢ - الحكم بأن ذلك الحكم الشرعي خلاف القياس لأنه مستثنى من أحكام يقاس عليها وهو لا يقاس عليه .

وهذا وارد على مذاهب أهل القياس ، وعلى مذاهب فيما يقاس عليه وما لا يقاس عليه .

قال أبو عبد الرحمن : القياس عمل مجتهد ، وليس هو تصاً شرعياً ، وهذا العمل قد يكشف عن الحكم بدليله فيكون المتبع الدليل ، وقد لا يكشف عن حكم بدليله يقيناً أو رجحاناً فيكون القياس غير معتبر لأنه موصل .

وقد يكشف القياس عن حكم ويقوم البرهان على خلافه فيكون القياس خطأ .

إن في القياس ما يكشف عن حق فيكون قياساً صحيحاً لكشفه عن البرهان وليس هو البرهان ذاته ، لأنه عمل من يريد البرهنة . ومنه ما يوقع في باطل ، ومنه ما لا يحصل حقاً ولا باطلاً .

٤ - الحكم بأن ذلك الحكم خلاف قياس ذلك النص الشرعي . وهذا فضول من القول ، لأن ما قام عليه برهان من الشرع فلا مجال للعمل على إلحاقه بحكم من الشرع آخر .

ولا يكون عمل المجتهد بالقياس - في مذاهب من يقول بالقياس - إلا إذا عدم البرهان المتعين على الحكم المتعين .

ولهذا فسر ابن قيم الجوزية معنى كون الحكم خلاف القياس بقوله : «والحكم إنما يكون على خلاف القياس إذا كان النص قد جاء في موضع يشابهه بنقيض ذلك الحكم ، فيقال : هذا خلاف قياس ذلك النص ، وليس في القرآن ولا في السنة ذكر فساد إجارة شبه هذه الإجارة » (١٧١) . قال أبو عبد الرحمن : المشابهة لا تقتضي القياس إلا عند أهل القياس إذا ارتفعت الماثلة - والمماثلة أخص من المشابهة - بفرق غير مؤثر ، غير معتبر في الحكم .

وإن ورد النص على حكم صفة ما ، ووجدت الصفة في صطين ،

فالصفة تقتضي مشابهة والحكم منصوص عليه في المحليين ما وجل
المقتضي ، وتختلف المانع .

والمقتضي الصفة المنصوص عليها الموجودة فيهما .

أو كان الحكم نصاً على الشئ بصفته ومعناه لا باسمه ، وكانت
أوجه المشابهة هي المعاني التي ورد فيها الحكم .

ولا يمكن أن يرد حكم في واقعة بخلاف حكم في واقعة ثانية
ويكون الفارق غير مؤثر ، أو يكون الحكم وارداً في الأوصاف شبيهتين
في الوجود .

ودلل ابن قيم الجوزية على بطلان دعوى أن المستحق بعقد
الإجارة إنما هو المنافع لا الأعيان فقال : « وهذا لم يدل عليه كتاب ولا
سنة ولا إجماع ولا قياس صحيح ، بل الذي دل عليه الأصول أن
الأعيان التي تحدث شيئاً فشيئاً مع بقاء أصلها حكمها حكم المنافع
كالشجر في الشجر ، واللبن في الحيوان ، والماء في البئر ، ولهذا سوى
بين النوعين في الوقف ، فإن الوقف تحببب الأصل وتسبيل الفائدة
فكما يجوز أن تكون فائدة الوقف منفعة كالسكنى ، وأن تكون ثمرة .
وأن تكون لبناً كوقف الماشية للانتفاع بلبنها ، وكذلك في باب التبرعات
كالعارية لمن ينتفع بالمتاع ثم يردده ، والعارية لمن يأكل ثمر الشجرة ثم
يردها ، والمنيحة لمن يشرب لبن الشاة ثم يرددها ، والقرض لمن ينتفع
بالدراهم ثم يرد بدلها القائم مقام عينها : فكذلك في الإجارة تارة

تكون العين للمنفعة التي ليست أعياناً ، وتارة للعين التي تحدث شيئاً
من بعد شئ مع بقاء الأصل كلبن الظئر ونقع البئر ، فإن هذه الأعيان
لما كانت تحدث شيئاً بعد شئ مع بقاء الأصل كان كالمنفعة ، والمسوغ
للإجارة هو ما بينهما من القدر المشترك ، وهو حدوث المقصود بالعقد
شيئاً فشيئاً ، سواء كان الحادث عيناً أو منفعة .

وكونه جسماً أو معنى قائماً بالجسم لا أثر له في الجواز والمنع
مع اشتراكهما في المقتضي للجواز ، بل هذا النوع من الأعيان
الحادثة شيئاً فشيئاً أحق بالجواز ، فإن الأجسام أكمل من صفاتها ،
وطرد هذا القياس جواز إجارة الحيوان غير الأدمي لرضاه ،
فإن الحاجة تدعو إليه كما تدعو إليه في الظئر من الأدميين بطعامها
وكسوتها .

ويجوز استئجار الظئر من البهائم بعلفها ، والماشية إذا عاوض
على لبنها فهو نوعان :

أحدهما : أن يشتري اللبن مدة ، ويكون العلف والخدمة على
البائع ، فهذا بيع محض .

والثاني : أن يكون علفها وخدمتها عليه ، ولبنها له مدة الإجارة ،
فهذا إجارة وهو كضمان البستان سواء وكالظئر ، فإن اللبن يستوفى
شيئاً فشيئاً مع بقاء الأصل ، فهو كاستئجار العين ليستقي بها أرضه .
وقد نص مالك على جواز إجارة الحيوان مدة للبنه ، ثم من
أصحابه من جوز ذلك تبعاً لنصه ، ومنهم من منعه ، ومنهم من شرط

فيه شروطاً ضيقوا بها مورد النص ولم يدل عليه نصه .

والصواب الجواز ، وهو موجب القياس المحض ، فالمجوزون أسعد بالنص من المانعين ، وبالله التوفيق» (١٧٢) .

قال أبو عبد الرحمن : لا نقول المستحق بالأجرة المنافع لا الأعيان ولا العكس .

بل نقول : الأصل في عقد الإجارة أن من استأجر فقد ملك مدة الإجارة ، فالعين والمنفعة والانتفاع والتصرف كل ذلك ملك المستأجر مدة العقد .

هذا هو الأصل في العقد ، فيعمل عليه عند الاختلاف حتى يقيد ذلك شرط أو عرف أو نص شرعي .

وقال ابن قيم الجوزية : «ومنشأ وهمهم ظنهم أن مورد عقد الإجارة لا يكون إلا منافع هو أعراض قائمة بغيرها ، لا أعيان قائمة بنفسها ، ثم افترق هؤلاء فريقين :

فقال فرقة : إنما احتملناها على خلاف القياس لورود النص ، فلا نتعدى محله .

وقالت فرقة : بل تخرجها على ما يوافق القياس ، وهو كون المعقود عليه أمراً غير اللبن (١٧٣) ، بل هو إلقاء الصبي الشدي ، ووضعه

(١٧٢) إعلام الموقعين ١/ ٥١ - ٥١١ .

(١٧٣) قال أبو عبد الرحمن : بل المعقود عليه اللبن ، وما لا يحصل إلا به اللبن .

في حجر المرضعة ، ونحو ذلك من المنافع التي هي مقدمات الرضاع ، واللبن يدخل تبعاً غير مقصود بالعقد .

ثم طربوا ذلك في مثل ماء البئر والعيون التي في الأرض المستأجرة ، وقالوا : يدخل ضمناً وتبعاً ، فإذا وقعت الإجارة على نفس العين والبئر لسقي الزرع والبستان قالوا : إنما وردت الإجارة على مجرد إدلاء الدلو في البئر وإخراجه ، وعلى مجرد إجراء العين في أرضه ، مما هو قلب الحقائق ، وجعل المقصود وسيلة الوسيلة مقصودة ، إذ من المعلوم أن هذه الأعمال إنما هي وسيلة إلى المقصود بعقد الإجارة ، وإلا فهي بمجرد ما ليست مقصودة ، ولا معقوداً عليها ، ولا قيمة لها أصلاً ، إنما هي كفتح الباب وكقود الدابة لمن اكرى داراً أو دابة» (١٧٤) .

قال أبو عبد الرحمن : وناقش ظفر أحمد العثماني ابن قيم الجوزية فقال : «وقد أغرب ابن القيم وابن تيمية حيث أنكر كون مورد عقد الإجارة منفعة ، وقالوا : هذا غير مسلم ولا ثابت بالدليل» (١٧٥) .

ولا يخفى أن حدود الألفاظ المستعملة في الشرع هي المعاني المستعملة في اللغة ، ولم يتصرف الشرع فيها إلا يسيراً ، والإجارة لا تستعمل لغة إلا على بيع المنافع دون الأعيان ، فمن ادعى عمومها لبيع الأعيان شرعاً فعليه البيان .

(١٧٤) إعلام الموقعين ١/ ٤٩٦ .

(١٧٥) زاد المعاد ٢/ ٤٥٤ [ظفر] .

وقد اعترف ابن القيم ببطلان إجارة الشارب للبن عند الجمهور .
ولم يقل بجوازها أحد قبل ابن تيمية فيهما تعلم ، وعللوا عدم
الجواز بأن مورد عقد الإجارة إنما هو المنافع دون الأعيان .
وفيه دليل على أن استعمالها في بيع الأعيان لم يعرفه أحد قبل
ابن تيمية أصلاً .

فهل قوله يتعميم موردها إلا من القياس في اللغة ؟
وأيضاً فقد اتفقوا على الفرق بين البيع والتجارة استعمالاً ومعنى .
وليس إلا أن مورد البيع هو الأعيان ، ومورد الإجارة المنافع ، وإنكار
ذلك مكابرة للعيان لا يجترئ عليها إلا ظاهري قد جبل على الشنؤ من
بين الأمة بإحداث أقوال أكثرها مخترع لم يسبق إليه أحد قبله .^(١٧٦)

قال أبو عبد الرحمن : كون مورد عقد الإجارة منفعة أو عين غير
مؤثر في مسألتنا وهي أن الإجارة عقد لا يخالف القياس الصحيح ،
لأن وجود المنفعة من مقتضى عقد الإجارة كما أسلفت بيان ذلك .
والتسوية بين حدود الألفاظ في اللغة واصطلاح الشرع غير
صحيحة فمعنى الصلاة الشرعية بهيئاتها وأقوالها غير جميع معانيها
في اللغة .

وهذه التسوية إيجاباً وسلباً فضول من القول هاهنا ، لأنه لا تأثير
لها في محل النزاع .
والقول بأن الإجارة في لغة العرب بيع المنافع دون الأعيان دعوى

(١٧٦) إعلال السنن ١٦/١٨٢-١٨٣ .

على اللغة ، فليس في اللغة إلا أن الأجر جزاء عمل ، وكراء على عمل .
وإنما جرى العرف من أهل اللغة على أن الإجارة في اللغة تعبير
عن صورة محسوسة تكون فيها العين المملوكة بيد غير مالِكها مدة من
الزمن بمقتضى عقد ومعاوضة .

وما عدا ذلك من تقييد الصورة بملك مؤقت ، أو ملك منفعة ، أو
ملك تصرف وانتفاع فذلك اصطلاحات فقهاء وليس معاني لغة .
قال أبو عبد الرحمن : والفروق بين البيع والإجارة فروق ظاهرة ،
وليس ذلك محل خلاف .

ولكن التسليم بالفروق لا يعني أن الإجارة خلاف القياس .

* * *

٢١ - المسألة الحادية والعشرون : من صور الربا المحرم :

نشر مفتي مصر فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي مباحث في
الأهرام عن بعض صور الربا استوجبت مني هذا التعليق .
وقد تضمن البحث وتعليقي عليه العناصر التالية :

١ - بيان إجماع العلماء على حرمة الربا ، وأنه من الكبائر ،
وبيان النصوص الشرعية القطعية على حرمة .

٢ - أن الزيادة في ربا الفضل تكون مشروطة مقدماً فيقرض
إنسان إنساناً مبلغاً ويشترط رده بأكثر منه بعد مدة .

قال أبو عبد الرحمن : اشتراط الزيادة مقدماً يعني أن العقد

ربوي محرم .

وهذا لا يعني حل الزيادة التي تطرأ عند التسديد أو بعده .

فالقرض إذا جر نفعاً يكون ربياً وإن لم يكن النفع مشروطاً بصريح العبارة كما يأتي بيان ذلك بعد قليل إن شاء الله .

٣ - استعراض خلاف العلماء حول الصور الربوية المحرمة شرعاً وتمييزها عما ليس بربا .

ويدخل في ذلك ما كان محل اشتباه .

واعتبر من المجمع عليه ربا الجاهلية حينما يقول الدائن بعد حلول الأجل : إما أن تقضي ، وإما أن تربني .

وبسط شرح ذلك بقوله : «ومن كل هذه النصوص يتبين لنا بوضوح : أن العلماء على اختلاف مذاهبهم قد حددوا بعبارات متقاربة : أن الربا الذي كان فاشياً في الجاهلية ونزل القرآن بتحريمه : أن يكون لشخص على آخر مائة جنية مثلاً لأجل معين ، فإذا حل موعد السداد ، وعجز المدين عن السداد ، قال له الدائن : إما أن تدفع وإما أن ترابي .

أي : إما أن تدفع لي ما عليك من ديون الآن ، وإما أن تدفعها بعد شهر أو أكثر أو أقل ولكن بزيادة معينة يحددها الدائن .

فهذا هو الربا الجلي الصريح ، وهو الذي تتجدد فيه الزيادة على المدين بتجدد الأجل ، وهو الذي توعد الله تعالى المتعامل به يسوء المصير . والذي يتأمل هذه الصورة يرى أن هذا اللون من التعامل يبدو في أوله قرضاً حسناً وعملاً طيباً ربما يكون لصاحبه أجره عند الله تعالى ،

لأن الدائن في هذه الصورة لم يشترط على المدين إلا شرطاً واحداً ، وهو أن يدفع له حقه في وقت معين وهذا أمر لا غبار عليه .

ولكن هذا التعامل تحول من القرض الحسن ، ومن العمل الطيب إلى الربا المحرم الذي يعد من أكبر الكبائر ، ومن فحش الفواحش ،

عندما حل وقت سداد الدين وعجز المدين عن السداد ، واستغل الدائن هذا العجز ، فقال للمدين : إما أن تدفع وإما أن تربني .

وهذه الصورة وما يشبهها هي التي يسميها الفقهاء ربا النسيئة . أي التأخير .

وهناك صورة أخرى من صور الربا لا تقل في شناعة وقبحها عن الصورة السابقة ، وهي أن يطلب إنسان محتاج من آخر مبلغ مائة جنية مثلاً فيشترط عليه هذا الآخر مقدماً أن يرد له هذا المبلغ بعد مدة قلت أو كثرت ، بزيادة معينة قد تكون عشرة أو عشرين .

فهذه الصورة اجتمع فيها ربا النسيئة وriba الفضل ، لأن الدائن اشترط على المدين مقدماً زيادة معينة ، وهذا هو عين ربا الفضل ، كما أنه اشترط عليه هذه الزيادة ولو بعد أخذه هذا المبلغ منه بساعة واحدة ، وهذا هو ربا النسيئة .

وهناك صورة ثالثة من صور الربا المحرم ، وتتمثل فيما تفعله بعض المؤسسات من بيعها مسكناً من المساكن بعشرة آلاف جنية مثلاً على أن يدفع المشتري ألف جنية مقدماً ، ويدفع الباقي على أقساط بفائدة سنوية معينة ، فهذه الفائدة من باب الربا .

والبديل الحلال عن هذه المعاملة المحرمة أن يبيع المسكن بعشرة آلاف جينه نقداً ، أو باثني عشر ألفاً مقسماً على عشر سنوات مثلاً بأقساط يتفق عليها .

وهو بديل ميسر يرفع الحرج عن الناس ولا تقترب عليه خسارة مادية لأحد .

والصورة الرابعة من صور الربا المحرم تتمثل فيما تفعله الدول الفقيرة لسد مطالب الحياة الضرورية ، ثم تفرض الدول الغنية على الفقيرة فوائد باهظة صارت بسببها هذه الدول الفقيرة عاجزة عن سداد هذه الفوائد المركبة ، فضلاً عن الديون الأصلية .

قال أبو عبد الرحمن : الصورة الأولى ليس من الضروري أن تكون قرضاً حسناً ، فقد تكون معاملة ربوية في الأصل ، فيطراً الربا المضاعف عند طلب التسديد ، وقد تكون بيعاً حالاً فطراً الربا عند طلب التسديد ، وقد تكون قرضاً حسناً كما قال الدكتور ثم يطرأ التعامل الربوي .

٤ - نقل الدكتور المفتي عن الشيخ إبراهيم زكي الدين بنوي قول عمر رضي الله عنه : «وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا عهداً تنتهي إليه في أبواب من الربا» .

وقوله : «لقد خفت أن نكون قد زدنا في الربا عشرة أشعافه بمخالفته» .

وقوله : «تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا» .

ولعل هدفه من هذه الإبانة عن صور ليست من الربا القطعي ، وأنه يسع فيها الاختلاف ، وأنه قد يقوم البرهان على أنها ليست من الربا في شيء .

ثم نقل الشيخ بنوي تورع الصحابة والتابعين وكبار الأئمة رضوان الله عليهم من المشتبه من المعاملات .

ثم استدرك عليهم عدم التفريق بين ما كان أصل المنهي عنه لذاته لتحقيق الربا القطعي منه ، وما نهي عنه لغيره من أجل سد الذريعة ، ولم يرتض الشيخ بنوي سد الذريعة ، ورأى التمسك باستصحاب أصل الإباحة في المعاملات ، ولم يعكر الإباحة بالاشتباه في الحرمة الذي يقتضي الورع .

والذي أراه أن التورع وسد الذريعة (حال الاشتباه ورجحان الإفضاء إلى المنهي عنه) أصل شرعي يُقيد به التوسع في استصحاب البراءة الأصلية بكون حل المعاملات هو الأصل ، لأن الاشتباه ورجحان الإفضاء إلى المحرم يعكر مطلق الإباحة .

فالتوجب أن يشاع في نفوس المسلمين أن الأصل في هذه الحالة التورع وسد الذريعة لا الإباحة .

هذا هو الأصل ، فإذا وجدت صورة مشتبهة وقام البرهان على أنها ضرورية ، وأن في إباحتها مصلحة أصبحت تلك الصورة مستثناة من سد الذريعة بأدلة من أصول أخرى ، وهي الضرورة ، والعلم بأن الحرج ليس من الدين .

٥ - دفع الدكتور المفتي الحرج عن أخذ العوض مقابل الخدمات الإدارية بقوله: تأخذ العوض الجهة المقرضة مثلاً من الطرف المقترض. وهذا صحيح ولكن لابد من تحديد دقيق لنوع الخدمات الإدارية وتحديد أجورها تقريباً بحيث تكون قيمة للخدمات الإدارية بتقويم أهل الخبرة .

أما إذا فحش ما يأخذه المقرض باسم الخدمات الإدارية وهو فوقها أضعافاً مضاعفة فلا معنى لذلك إلا الاحتياال على الربا وأخذه باسم الخدمات الإدارية المبالغ فيها .

٦ - تعالج دراسة الدكتور المفتي التعامل بين الأفراد ، والتعامل بين الدول ، ويرى أن الإثم على الدول الغنية التي تفرض الربا على الدول الفقيرة إذا تعاملت معها ، وتُعذر الدول الفقيرة للضرورة . وهذا صحيح إذا تحققت الضرورة بأن تكون الحاجة التي اقتضت القرض ضرورية ، وأن لا يكون اشتراء الأعيان التي تحتاج إليها الدولة - بثمن مؤجل يزيد على سعر الثمن الحاضر - أمراً ممكناً من جهة أخرى لا تتعامل بالربا أو بما هو أخطر من الربا مما يضر بالأمة ، وأن لا يوجد بديل يقرض بلا فائدة .

٧ - أطلق فضيلته القول بأن العقوبات والغرامات التي تحكم بها الهيئات القضائية على المدين المعامل ليست ربا ، لأنها تعويض للدائن .

ولابد من تقييد ما أطلقه فضيلته بأمرين :

الأول : أن المدين القادر على السداد المعامل مستحق للعقوبة بلا ريب ، إلا أن الدائن لا يعرض عما فاتته من مصالح لقاء أجل المعاملة الذي لم يستلم فيه الدائن حقه . وإنما تسمع دعواه فيما لحقه من أضرار لقاء المطالبة بحقه من واجد .

والثاني : أن تكون الهيئات القضائية شرعية تحكم بالشرع المطهر وتتحرى مقاصده عند سماع دعوى الضرر .

٨ - رفع الدكتور المفتي الحرج عن قبول المقرض زيادة على قرضه عند التسديد إذا دفع ذلك المقرض عن مروة وشكر . والصواب عند خلاف ذلك ، لأن الأصل أخذ المال المقرض بلا زيادة ، لأن المطلوب عدم تشوُّف المقرض إلى زيادة ، وعلى هذا حمل بعض المفسرين قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ .

فإذا فتح باب قبول الزيادة على عمل جعله الله قربة ، وعلى مال منع الله من أخذ الزيادة عليه مقابل أجل فحينئذٍ يستقر العرف في المجتمع على أن كل من يسر الله عليه ينبغي أن يدفع زيادة على القرض مروةً وشكراً .

وحينئذٍ يتشوف المقرضون للزيادة بعد استحكام العرف . فاجتهاد الدكتور فتح باب الذريعة لغير ضرورة أو برهان ، والشرع يسدها .

٩ - ذهب الدكتور المفتي إلى إباحة المضاربة بتحديد مبلغ من المال مسبقاً يحدده صاحب المال ربحاً له .

وخلاصة حجة أنه لا نص في الشريعة يمنع من ذلك .

قال أبو عبد الرحمن : هذا استعمال للدليل في غير موضعه ، وبيان ذلك أن المضاربة صورة شرعية من صور المعاملات ليس فيها غير تحديد العوض بجزء مشاع من الربح يعد تحققه ، فمن ادعى صورة للمضاربة جاء بها الشرع بغير هذه الصفة فعليه الدليل . إذن لا يطلب الدليل على المنع من تحديد الربح بمبلغ مسبق ، وإنما يطلب الدليل على جوازها .

ونفي التحديد معقول المعنى شرعاً ، ومعقوليته البعد عن أكل المال بالباطل الذي حُرِّمَتْ من أجله عقود الغرر والجهالة والمقامرة .

وتعيين مبلغ مسبق ربحاً لصاحب المال ضمان لحق أحد المتعاقدين بون الآخر ، وهذا يناهض مقتضى عقد المضاربة القائم على التعاون وابتغاء الرزق للطرفين .

وكثيراً ما نبه الدكتور على التقاضي شرعاً فيما لو حصل غبن لا ينشأ نزاع بسبب العقد ذاته .

أما معالجة ما يترتب على العقود الفاسدة قضاءً فذلك قضية أخرى .

وتمسك الدكتور بخراب الذمم بحيث ينكر العامل في المال الربح ، أو يعترف بجزء يسير منه .

والواقع أن هذا تعليل غير مؤثر لأن التوثق من الذمم الخارية لا يكون بإباحة المحرم ، وشرع غير المشروع ، بل يكون بالقيود والاشتراطات ، وإشراف ذوي الأمر ، ورسم البرامج لاكتشاف حقائق الاستثمار .

وتمسك فضيلة الدكتور بأنه على فرض فساد عقد المضاربة بالتحديد المسبق للربح بمبلغ معين فإن هذا لا يجعل المضاربة ربا ، بل تكون عقداً فاسداً فينقلب المستثمر أجيراً له أجر مثله . قال أبو عبد الرحمن : في هذا مغالطة من وجهين : أولهما : أن المحرم شرعاً أعم من الربا .

وثانيهما : أن اجتهاد الدكتور ينحو إلى جعل المضاربة عقداً صحيحاً بالتحديد المسبق ، وهذا يناهض قناته بفساد العقد .

١٠ - هذه الدراسة عن صور حصل الخلاف هل هي ربوية أم غير ربوية .

وانتهيت إلى مساندة الدكتور في بعضها إلا أن هذه المساندة مشروطة بالتعامل بين طرفين أو أطراف ليس بينها بنك ربوي .

٢٢ - المسألة الثانية والعشرون : شذوذ القول بالقصاص للكافر من المسلم ، وأن ذلك محض الرأي البشري لا الفقه الشرعي ، وأن الفقه عبودية لله :

تحت عنوان «نماذج للرأي والرواية» تحدث الشيخ محمد الغزالي في كتابه (الذي أثار الضجة الكبرى) ، وهو كتاب السنة النبوية ، عن بُنية طريق من أراء أبي حنيفة ينبغي أن يُعتمد له فيها بأنه أراد الحق لما خطاه ، وذلك أجدي وأبر وأصدق وأعدل من جعله إماماً في هذه المسألة ، وجعل جمهور الأمة (وفيهم خيار الصحابة وعدول المجتهدين) مخطئين غير مقسوم له في الفقه بنصيب !! .
وتلك هي مسألة القصاص من المسلم إن قتل كافراً .

قال الشيخ الغزالي : «من أجل ذلك كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب ، يعتمد على القرآن أولاً ، فإذا وجدوا في ركam المرويات ما يتسق معه قبلوه ، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع .

وحديث الأحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلّة القادحة وإن صحّ سنده .

فأبو حنيفة يرى أن من قاتلنا من أفراد الكفار قاتلناه ، فإن قُتل فإلى حيث أُلقت ، أما من له ذمة وعهد فقاتله يقتص منه .

ومن ثم رفض حديث لا يقتل مسلم بكافر (مع صحة سنده) لأن

المتن معلول بمخالفته للنص القرآني : ﴿ النفس بالنفس ﴾ [سورة المائدة/٤٥] وقوله : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [سورة المائدة/٤٨] .

وقوله : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [سورة المائدة/٥٠] .

وعند التالي نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة ، وإلى توثيق حقوق الإنسان ، وإلى احترام النفس البشرية نون نظر إلى البياض والسواد ، أو الحرية والعبودية ، أو الكفر والإيمان ١٩ .

لو قُتل فيلسوف كانس طريق قُتل فيه ، فالنفس بالنفس !! .

وقاعدة التعامل مع مخالفينا في الدين ومشاركينا في المجتمع : أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

فكيف يهدر دم قتيلهم ؟ .

وقد بلغني أن بدياً قُتل مهندساً أمريكياً في إحدى دول الخليج ، وقال أهل الحديث : لا يجوز القصاص ! .

وشعرت الحكومة بالحرص ، ولكن تم الخروج من المأزق بقتل المجرم من باب السياسة الشرعية ! .

القصاص شريعة الله ، وهو ظاهر القرآن الكريم ، والأحناف يقدمون ظاهر القرآن على حديث الأحاد .

قال أبو عبد الرحمن : تحقيق مراد الله (حكمه الشرعي) في هذه المسألة مطلب نفيس في ذاته ، ولكن قبل ذلك أحب أن أحقق أموراً في منطق الشيخ وطريقة استدلاله هي من الضلال مسبقاً في سلوك طريق الاجتهاد .

وإذا كان الطريق غير موصل ، فسلوكه مَضَيعة .
فأول ما في كلام الشيخ افتراءً - لعل الشيخ لم يقصده وإنما وقع فيه خطأ - على أئمة الفقه الإسلامي وهو أنهم يردون الحديث بالقرآن .

قال أبو عبد الرحمن : ما كان أئمة الفقه يفعلون ذلك ، بل القرآن والحديث عندهم مصدران معصومان لا فرق بينهما إلا أن القرآن وحي متلو ، والسنة المطهرة وحي غير متلو .
والسنة عندهم بيان للقرآن .

ولم يجدوا صحيحاً من الحديث يعارض القرآن بلا جَمْع مقبول في حجج العقول والحس .
وإنما ذهب قلة منهم إلى رد خير الواحد أن يكون مبيناً للقرآن بياناً يخصه أو يعممه .

والسنة ليست كلها خبر آحاد ، وليس كل خبر آحاد عارض القرآن ، وإذن فلا يصدق قول الشيخ أن الحديث يُرد بالقرآن .
قال أبو عبد الرحمن : فإن قال قائل : إن الشيخ قال « .. فإن وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه » .

ولم يقل : إن الحديث يُرد بالقرآن إذا وُجد الاتساق .
قلت : من وجوه الاتساق تخصيص القرآن بالسنة الصحيحة .
والشيخ رد حديث عدم قتل المسلم بالكافر ، ولم يجعله مخصصاً للآية .. فالتخصيص عنده عدم اتساق .

وهو عَم ركام المرويات قلم يستثن خبر الآحاد .
فإن كان للشيخ مذهب غير هذا فليدقق ويحقق ، لأنه يخوض في قضايا فقه وأصول لا يقبل فيها تعميمات الأدباء ، وشطح الأسلوب الإنشائي الصحفي .

وثاني ما في كلام الشيخ : حكمه بأن حديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القاذحة وإن صح سنده .

قال أبو عبد الرحمن : يريد الشيخ بالشذوذ والعلة القاذحة ما يتعلق بالمتن ، لأنه قال : وإن صح سنده .

ولن يجمع الله في عقل نير علة الإسناد القاذحة ، وصحة الإسناد في سند واحد !! .

لهذا استثنيت للشيخ تعليق العلة بالمتن .
وهذا قدرني ما دام الشيخ يتعامل صحفياً مع دقائق أصولية !! .
قال أبو عبد الرحمن : رد الحديث بالعلل المتنّية القاذحة ليس وقفاً على خبر الآحاد ، بل يُرد أحاديث تتعدد طرقها وهي حسنة الإسناد أو صحيحة .

ونقد المتن ركن ركين في تراث المسلمين في مكتبتهم الأصولية فلا أهمل به .

إنن لا معنى لرد حديث الآحاد بعلة المتن القاذحة ، بل كل حديث وإن لم يكن خبر آحاد يرد بذلك .

وإنن لا معنى لرد حديث الآحاد لاحتمال ورود علة قاذحة .

فالأصل العمل بالخبر الصحيح حتى يكون الاحتمال واقعاً متعيناً .
وثالث ما في كلام الشيخ : أنه فخر بغير مفخر ، وأعني بذلك
ترحيبه بموقف أبي حنيفة من نص الحديث الصحيح ، ذلك أن رد
الحديث الصحيح إذا كان يبين القرآن بالتخصيص ليس حنية يفخر
بها ، لأن ذلك إيمان ببعض النص ورد لبعضه ، وإنما يعتذر للمجتهد
المخطئ بحسن القصد .

ورابع ما في كلام الشيخ : أن استشهاده بالآيتين يوصل إلى أن
حديث رسول الله ﷺ الصحيح ليس حكماً بما أنزل الله ، وأنه من
حكم الجاهلية .

فمن راجع صحاح النصوص يمثل هذه المواجهة فإنما يخشى
عليه الفتنة .

وخامس ما في كلام الشيخ : تمجيده لمذهب أبي حنيفة في هذه
المسألة بأنه يحترم النفس البشرية دون نظر إلى الكفر والإيمان .
قال أبو عبد الرحمن : وهذا والله إلغاء لما جعله الله معياراً ومحكاً ،
والكتاب والسنة وأقوال أهل العلم مشحونة بأن النظر إنما هو إلى
الإيمان والكفر والميزان بهما ، وأن المؤمن والكافر لا يستويان ،
فالأصل التفريق بين المسلم والكافر في الأحكام ، ولا تكون التسوية
بينهما في بعض أحكام الدنيا إلا بدليل .

أقول هذه هو بيان الشرع ، وإما رأي شيخنا الغزالي فما تعبدنا

الله به ، والعقوبة مذخورة لمن اتبع البشر وترك دين خالق البشر .
ولو كان رأي الشيخ في مسألة أدبية لا تعارض الشرع لكنت
أحتي عليه من الأم ، وأحذب من الشيخ على حنين ورزق إياه بعد الكبر .
وقد يقتازل الإنسان عن بعض رأيه لمن يعارضه إذا كان حبيباً
إلى قلبه ما لم تكن المسألة تتعلق بالديانة .
وسادس ما في كلام الشيخ : حكمة بأن فقه أبي حنيفة أدنى إلى
العدالة في هذه المسألة .

قال أبو عبد الرحمن : يعني أن ما يقرده به أبو حنيفة ما هذا أدنى
إلى العدالة من قول عمر وعثمان وعلي ، وهم من الظلماء الراشدين
الذين ورد الشرع المظهر بالعض على سنتهم والتمسك بها .
ويعني أن ما تقرده به أبو حنيفة أعدل من أقوال بقية الصحابة
الذين نقل قولهم ولم يعارضهم معارض منهم كزيد ومعاوية رضي الله
عنهما .

وأعدل من أقوال أئمة الفقه ، والحديث كعمر بن عبد العزيز وعطاء
وعكرمة والحسن والزهري وابن شبرمة والثوري والأوزاعي وإسحاق
وأبي عبيد وأبي ثور وابن المنذر والأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد .
قال أبو عبد الرحمن : وكان الإمام أبو محمد ابن حزم في
الرسالة الباهرة يذكر عن بعض المقلدين المتعصبين أنهم لا
يتورعون - لو قدروا - عن دعوى أن صاحبهم تكلم في المهد !! .

وإنما يكون هذا القول الشاذ الذي سوى بين الكافر والمؤمن

أقرب إلى العدالة لو بين لنا ربنا أننا إخوة في الإنسانية ليس بيننا ولاء ولا براء ولا حب ولا بغض ولا تفريق في الأحكام من الدين والصلاة والترحم واللين والجهاد .

ولكن دين ربنا جاء بفضل المؤمن ، وانحطاط الكافر .. هذا هو الأصل .

فمن قال بعد ذلك : نحن إخوة في الإنسانية ولا نظر من جهة الإيمان والكفر فقد تعقب ربه وتعرض للفتنة ، ويخشى عليه سوء الغاتمة إلا أن يسرع بالتوبة ، ويفر إلى الله عن كيد الشيطان وشركه . وسابع ما في كلام الشيخ : أن كلامه جاء تسويلاً وتزييناً ولم يأت هدايةً وبياناً ، وذلك أنه عطف بحرف الواو أمراً محرماً على أمر جائز ، فيظن من لا بصر له أن هذه الأمور متساوية .

أعني عطف الإيمان والكفر على السواد والبياض في استواء البشرية .

وهذا تمويه لا يليق ، لأن الله سوى بين الأسود والأبيض ، ولم يسو بين الكافر والمؤمن .. بل فاضل بين المؤمنين بالتقوى .

وثامن ما في كلام الشيخ : أن الشيخ أدخل في دعواه ما ليس منها كقتل فيلسوف بكائس طريق .

لهذا ليس محل خلاف ، ولم يفرق ربنا في الدماء بمقتضى الوظائف ، ولم يفرق الأئمة الوظيفة حتى يلزمهم الغرالي بتسوية الإسلام .

وإنما التفريق بالإيمان والكفر ، وذلك هو محل الدعوى .
وتاسع ما في كلام الشيخ : أنه يضرب النص بالنص ، وهو - حفظه الله وهده - يعلم أن الأحكام لا تؤخذ من النصوص مجتمعة حتى لا تكون على الدين شغب شاغب .

والشيخ تمسك بنص : «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» .. ونسى النصوص الأخرى التي فرقت .

قال أبو عبد الرحمن : ومعلوم أن ما لم يجعل الله لهم حقاً فيه وهو دم المسلم فليس داخل في قوله ﷺ : «لهم ما لنا» .

وعاشر ما في كلام الشيخ : أنه وضع علامة تعجب عند جملة «السياسة الشرعية» ... ولا أدري ما وجه العجب إذا اقتضت المصلحة المرسله قتل المؤمن الذي قتل ذمياً ، ويكون قتله تعزيراً لا قصاصاً .

ولكنني مزيل عجب الشيخ ببيان أن الشرع المطهر لم يبح للمسلم قتل الذمي ، بل المسلم ظالم بقتله إياه ، محرم عليه فعل ذلك .

وهذا الذمي حرمة الله لم يجعل الله عقوبته في الدنيا القتل قصاصاً لعلم المكافأة ، بل جعل الله ذلك من صلاحية الإمام واجتهاد نوبي الأمر يعزرونه بأي عقوبة رادعة ، وقد تصل العقوبة إلى القتل تعزيراً .

والقتل قصاصاً عقوبة معينة إلا أن الشرع لم يعينها في قتل المسلم للكافر الذمي .

والقتل تعزيراً ليس عقوبة متعينة بل جائزة في نظر نوي الأمر إذا رأوا المصلحة في ذلك .

وشعور الجهة التي أشار إليها الشيخ الغزالي بالخرج لا يعني أن حكم الله مُحَرَج ، وإنما يعني حرج المسلمين أنفسهم وضعفهم بحيث أصبح القتل تعزيراً متعيناً عليهم مكرهين عليه .

وإذا كان المسلمون قتلوا مسلمهم بكافر غيرهم تعزيراً فذلك يعني زكاء ونقاوة هذا الدين وأهله .. بينما شباب ورجال من المسلمين يُحْمَلُونَ من بلاد الكفر قُتِلُوا في توابيت لم يحكم لهم القانون - ولم تتحرر لهم سلطات التنفيذ - أدنى حق من حقوق العدالة من سجن أو تغريم أو برقية اعتذار فضلاً عن القتل قصاصاً أو تعزيراً .

وسواء أَرْضِي الشيخ الغزالي بكلامي أم كَعَّ عنه فما أردت إلا لفت نظره إلى ما أغفلته كليماته العاجلة عن قضايا كبرى تفرغ لها فحول العلماء أهل الورع بعد أن سألوا الله مراداً الهداية فيما اختلف فيه من الحق ، وبعد أن أضرع عابدهم عرنينه وجيبته في تراب المسجد وقال : يا معلم إبراهيم علمني .

وأسأل الله أن يوفق الشيخ الغزالي إلى اعتقاد الحق وقوله والعمل به ، وأن ينطق بالحكمة لسانه ، وأن يبيض صحيفته فتظل بيضاء إلى أن يلقي ربه فلا يدنسها بشبهة أو شهوة ، وأن يجعله خيراً مما نقول ، وأن يغفر له ما لا تعلم .

ونسأل الله لنا ولوالدينا وأهلنا وذرياتنا وإخواننا أمثال ذلك .

وأما تحقيق المسألة فقهاً فلي مع الشيخ ثلاث مقامات :

المقام الأول : المنع من دخول الكافر في آية النفس بالنفس .

والمقام الثاني : المنع من دعوى أن عدم قتل المسلم بالكافر خير واحد .

والمقام الثالث : التزل في الاستدلال بأن دخول الكافر في الآية ، وكون الحديث خبر أحاد : لا يمنع من تفسير كلام الله بهيأت رسول الله ﷺ .

وأما أبو حنيفة - رحمه الله - فورد عنه كلام كثير من أئمة السلف كما في كتاب « السنة » لعبدالله بن الإمام أحمد ، وكما في كتاب « تاريخ بغداد » .

وقد ذهب جمهور المحققين والمنصفين - محتاطين لدينهم - أن الظاهر من سيرة أبي حنيفة أنه عالم فاضل من علماء المسلمين ، وأن المعتقد فيه أنه يتحرى الحق ويريده .

وهم مع هذا - من ناحية العلم والفقه لا السلوك - لا يجعلونه في سمط من قِيَّضَهُ الله لجمع الحديث وتمحيصه كأصحاب الكتب الستة ، ولا يجعلونه في مقام من جمع بين الفقه والنص كالأئمة الثلاثة وكفقهاء الحديث من أمثال السفينانيين والليث وغيرهم .

وهم مجمعون على غلبة الرأي في مذهبه ، وأن القاعدة الفكرية البشرية أسبق عنده من المثال من النص الشرعي ، ولهذا عقد الحافظ

أبو بكر ابن أبي شيبة في مصنفه فصلاً بعنوان : « هذا ما خالف به أبو حنيفة الأثر الذي جاء عن رسول الله ﷺ » .

وقتل المسلم بالكافر مما خالف فيه أبو حنيفة الأثر .

قال أبو عبد الرحمن : وإن يكون مذهبه أعدل المذاهب ، وأدنى إلى موافق حقوق الإنسان حتى يكون أدخل في السنة والإجماع .

إن تطبيق أحكام الله العملية وتصديق أخباره عبودية لله .

فالمصلي عابد لله بصلاته ، والدولة المنفذة لأحكام الله عابدة لله بإقامة شرعه ، والمصدق بخبر الله عن الجنة والنار عابد لله بإيمانه .

وهذا أمر يشترك فيه العلماء والعوام .

وهناك عبودية لله يتميز بها العالم النكي للخاص ، وهي عبودية عقله وذكائه ولاحيته لربه ، فيكون متلقياً لشرع ربه ، فإعماله ، متميزاً له عن غيره ، غير مقترح عليه ، ولا سالماً منهجاً يلزم منه تسفيه الشرع وتجهيله .

فإذا رجحت في ذهنه مقاييس صحة الثبوت وصحة الدلالة المنتجة ضرورة أن المسلم بما يراه أهل الحل والعقد رادعاً وإن أدى إلى القتل تعزيراً لا قصاصاً .. إذا صح هذا فلا تستغزه الظنون بأن هذا غير عدل ، وأن البشر سواء فينسى الأصل الشرعي الذي فرق بين المؤمن والكافر ، وينسى أن الحكم بالعدل والظلم ليس لظنون العقول وهوى النفوس ، وإنما هو لشرع الله ، لأنه تنزيل من خلق العقول والنفوس .

قال أبو عبد الرحمن : وقول الله تعالى : ﴿ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ﴾ إخبار من الله جل جلاله عما شرعه لئني إسرائيل من القصاص .

وهذا الشرع لازم لنا لأن شريعة الله دين الإسلام لعبده ورسوله محمد بن عبدالله ﷺ لم تبطله ، ولأنها جاءت بإقراره .

برهان ذلك أن الله قال أول الآية الرابعة والأربعين من سورة المائدة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا .. ﴾ ثم قال سبحانه في الآية بعدها : ﴿ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ .. ﴾ .

فالضمير أن للتوراة وللذين هادوا .

وأما دليل أنها شرعنا فيقول الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ .

وأما أن آية القصاص لا تشمل الكافر فقد نقى العلماء كقاضي المالكية إسماعيل بن إسحاق فيما نقلوه من كتابه أحكام القرآن فرأوا أن قول الله سبحانه وتعالى في الآية نفسها : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ ناف دخول الكافر، ذلك أن عمله حابط لا ينفعه القيام بشيء من فروع الشريعة كالصدقة، وحبوط عمله ثابت بالنصوص القطعية .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا المفهوم الظاهر من الآية الكريمة

وضحه بيان رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه في باب كتابة العلم، وفي باب لا يقتل المسلم الكافر : أنا أبا جحيفة سأل علياً عليه السلام : هل عندكم شيء ما ليس في القرآن ؟

فقال : لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسعة إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتابه ، وما في هذه الصحيفة .

قلت : وما في الصحيفة ؟

قال : العقل ، ولكاك الأسير ، وأن لا تقتل مسلم بكافر .

قال ابن كثير في تفسيره : ولا يصح حديث ، ولا تؤويل يخالف هذا . وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن الجارود والبيهقي الحديث الصحيح : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ولا يقتل مؤمن بكافر » .

قال أبو عبد الرحمن : وأختتم هذه المسألة بكلمات نفيسة للإمام أبي محمد ابن حزم ، والشيخ الغزالي ممن يرتاح لإيقاع أبي محمد ، قال رحمه الله في المسألة ٢٠٢٥ من المحلى - وهي من تنمة ابنه أبي رافع الفضل من الإيصال - عن عموم نصوص القصاص : « فإن كل ذلك يخص بقول الله عز وجل : ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ [٦٨ : ٢٥ ، ٢٦] .

ويقوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يسترون ﴾

ويقوله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ [٤ : ١٤١] .

فوجب يقيناً أن المسلم ليس كالكافر في شيء أصلاً ، ولا يساويه في شيء ، فإذا هو كذلك فباطل أن يكافى دمه بدمه ، أو عضوه بعضوه ، أو بشرته ببشرته .

فباطل أن يستفاد للكافر من المؤمن ، أو يقتصر له منه فيما دون النفس إذ لا مساواة بينهما أصلاً .

ولما منع الله عز وجل أن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً : وجب ضرورة أن لا يكون له عليه سبيل في قود ، ولا في قصاص ، أصلاً ، وجب ضرورة استعمال النصوص كلها ، إذ لا يحل ترك شيء منها .

ومن فضائح الحنفيين المخزية لقاتلها في الدنيا والآخرة قطعهم يد المسلم بيد الذمي الكافر ، ومنعهم من قطع يد الرجل المسلم بيد المرأة الحرة المسلمة .

نعم ولا يقطعون يد الذمي الكافر إن تعمد قطع يد امرأة حرة مسلمة ، فاعجبوا لهذه المصائب مع قول الله عز وجل : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [٤٩ : ١٠] .

فإن اعترضوا في الآية المذكورة بما روي من طريق سفيان الثوري عن الأعمش : عن زر : عن يسيع الكندي قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال له : كيف تقرأ هذه الآية ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ [٤ : ١٤١] وهم يقتلون ، يعني المسلمين .

فقال علي : فالله يحكم بينهم يوم القيامة ، وإن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلاً .

قال أبو محمد عليه السلام : يسع الكندي مجهول لا يدري أحد من هو ؟ .
وجواب هذا السائل : أن هذه الآية حق واجب في الدنيا والآخرة .
إنما منع الله تعالى من أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل بحق يجعله الله تعالى له ، ويأمر بإتفاذه للكافر على المسلم في الدنيا ويوم القيامة .
وأما بالظلم والتعدي فلم يؤمننا الله تعالى قط من ذلك ، كما أطلق أيدي الكفار فيما خلا على بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقتلوه ، وعلى رسوله محمد عليه السلام فجرحوا وجهه المقدس ، وكسروا شيعته ، بنفسه هو وبآبائه وأمي .

وكما أطلق السنة الحنفيين ، وأيدي من وافقهم بإيجاب الباطل في القصاص للكافر من المسلم ، وكل ذلك ظلم لم يأمر الله تعالى به ، ولا رضى ولا جعله حقاً ، بل أنكره عز وجل أشد الإنكار ؟ .

نعم ، وفي الآية التي فيها ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيئاً فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ [١٧٨: ٢] وهذا النص جلي بأنها في المؤمنين خاصة ، بعضهم في بعض فقط ، لأنهم إخوة كلهم فاسقهم وصالحهم ، عبيدهم وحرهم ، وليس أهل الذمة رخصة لنا ولا كرامة لهم .
وكذلك قوله تعالى : ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ [١٧ : ٢٢]

لعماد الله أن يكون هذا الكافر ، والله ما جعل تعالى لهم قط - بحكم

دينه سلطاناً ، بل جعل لهم الصغار ، قال عز وجل : ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [٩ : ٢٩] .

فإن قالوا : فإذا لا يساؤوننا فلم تقتلهم الكافر بالمؤمن ؟ .
قلنا : ولا كرامة أن تقتله به قوداً ، بل قتلناه لأنه نقض الذمة ، وخالف العهد بخروجه عن الصغار ، وكذلك تقتله إن لمع مسلماً أو سبه ، وتستوفي جميع ماله بذلك ونسبي أهله وصغار ولده .
فإن قالوا : فلم تحكمون على المسلم برد ما نصبه من الأمي أو منعه إياه من المال .

قلنا : ليس في هذا سبيل له على المسلم ، إنما هي مظلمة يبرأ منها المسلم تنزيهاً له عن حبسها فقط « (١٧٧) » .

* * *

٢٢ - المسألة الثالثة والعشرون : معرفة الخسوف والكسوف ،

وخشوع النيرين لله سبحانه وتعالى :

هناك خلاف لغوي في استعمال الخسوف والكسوف : فهناك من يجعل الخسوف للقمر ، والكسوف للشمس ... قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : هو المشهور في استعمال الفقهاء ، واختاره ثعلب ، وذكر الجوهرى أنه أفصح .
وبعضهم قال بتعين هذا التفريق ووجوبه لغة .

وهناك من يعكس القضية فيجعل الخسوف للشمس .
حكاه عياض عن بعضهم ، ويرد عليه بقول الله تعالى : ﴿ فإذا
برق البصر وخسف القمر ﴾ .
ويرد على التفريقين الأولين باستعمال نصوص الشرع الخسوف
والكسوف معاً لكل من الشمس والقمر .
قال **الإمام** : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان
لموت أحد ولا لحياته» .

فاستعمل الخسوف لهما .
وفي حديث محمود بن لبيد **رضي الله عنه** عند أحمد : « لا ينكسفان » .
وهكذا هو في حديث المغيرة المتفق عليه .
واستعمل الصحابة - رضوان الله عليهم - اللفظين للشمس
والقمر في روايتهم لنصوص الكسوف والخسوف .
وهذا يصحح قول من قال : الكسوف والخسوف لهما ، وهذا يرد
انتقاد الأدباء لابن دريد عندما استعمل الكسوف للقمر كما ذكر ذلك
الكفوي ^(١٧٨) .

قال الحافظ ابن حجر : «ولا شك أن مدلول الكسوف لغة غير
مدلول الخسوف ، لأن الكسوف التغير إلى سواد ، والخسوف
النقصان أو الذل .

ولا يلزم من ذلك أنهما مترادفان .
وقيل الكسوف في الابتداء ، والخسوف في الانتهاء .
وقيل الكسوف لذهاب جميع الضوء ، والخسوف لذهاب بعضه .
وقيل : الخسوف لذهاب كل اللون ، والكسوف لتغيره » . اهـ
بتصرف .
وصح عن عروة بن الزبير : لا تقولوا كسفت الشمس ولكن
قولوا خسفت .

رواه عنه سعيد بن منصور ومسلم بإسنادين صحيحين .
قال أبو عبد الرحمن : إن كان ذلك اجتهاداً في اللغة تبع
الاستعمالين ، وإن كان ذلك اجتهاداً شرعياً فقد صححت الأحاديث
بخلقه .

قال أبو عبد الرحمن : لم يوضع الكسوف والخسوف وصفاً لحالتي
الشمس والقمر ، وإنما وضع لغةً لمعنيين مختلفين أيتما وجدا في ذات
غيرهما عبر بهما .

فهما اسمان لحالتين ، وليسا اسمين لذاتين ، وهناك نوات غير
الشمس والقمر توصف بالكسوف والخسوف .

ووجه استعمال الكسوف والخسوف لكل من الشمس والقمر :
أنهما ليسا اسمين لحالة واحدة ، بل هما اسمان لحالتين توجدان في
الشمس كما توجدان في القمر .

فأي من الحالتين وجد في الشمس أو في القمر فيسمى باسمه .

فالخسوف يدل في اللغة على الغور والغمر كما في مقاييس اللغة لابن فارس .

ولهذا يطلق الخسوف على ذهاب كل القمر ، وذهاب كل الشمس . ومادة كسف روعي فيها لغة التغير والقطع ، وأن يكون ذلك التغير غير سار كالتغير إلى سواد .

ولهذا فالخسوف للقمر والشمس إذا لم يذهبا . والدليل على أن الكسوف والخسوف لغة اسم لحالتين تعارضان : أن ابن آدم يوصف بكسوف البال ، ووصف قارون بأنه خسف به . ولهذا قال الراغب في المفردات : «كسوف الشمس والقمر استتارهما بعارض» .

وهناك مسألة مهمة فاصلة في قضايا الفقه والعقيدة ، وهي مسألة أسباب الكسوف والخسوف ، فالأسلاف من علماء المسلمين ورجال العلم الحديث متفقون على التعليل العلمي للأسباب المعروفة حسيًا للكسوف والخسوف .

قال أبو حامد الغزالي^(١٧٩) : «إن الكسوف القمري عبارة عن

(١٧٩) تهافت الفلاسفة ص ٨٠ ، وانظر مستزود العلماء ١٢٤/٢ و ٨١/٢ ، والقاموس الإسلامي ٢٤٣/٢ ، من عجائب المخلوقات للزويني ، ودائرة معارف القرن العشرين ١٣٧/٨ - ١٣٨ ، ودائرة معارف الشهاب ص ٨٢٢ - ٨٢٣ ، والموسوعة الذهبية ٤٤٧ - ٤٤٥/٦ ، وموسوعة الشهاب المصورة ٥٠/٢ قسم الكون ، وبهجة المعرفة ١٤٨/٢ - ١٥٠ قسم الكون ، والموسوعة العربية الميسرة ص ١٤٦٣ - ١٤٦٤ .

اتحساء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس .

والأرض كرة ، والسماء محيط بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس .

وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس . ا هـ .

فهذا تعليل علمي حسي صحيح لظاهرتي الكسوف والخسوف ، وهناك حالات خسوف وكسوف يحدثها الله ابتداءً بون أن يحكمها نظام أطوار العادة .

وعدم الإيمان بهاتين القضيتين ، والاقتصار على التعليل الأول - وهو التعليل العلمي الحسي - يوقع في أخطاء شرعية .

ويكفي هاهنا أن أذكر مسائل تتعلق بالتعليل العلمي ، فمن تلك المسائل : أن معرفة أوقات الكسوف والخسوف وتحديدتها بدقة ليست من الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، ولا هي من الآيات التي تحدى الله الخلق على العلم بها وألزمهم الجهل بها .

بل هي من العلم الحسي الخاص : أي من علم أهل التخصص من البشر .

والشرع يدل على إمكان هذه المعرفة بالنسبة للبشر ، قال تعالى : ﴿ جعل الليل سكناً والشمس والقمر حاسبان ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل

الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ .

وبنا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا علم بشري عقب بقوله : « ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل » (١٨٠) .

والعلم الحديث يدعي هذا ففي الموسوعة الذهبية : « فلقد فهم العلماء ظاهرة الخسوف والكسوف حتى إنهم يعرفون كل ما سيقع منهما في بضعة آلاف مقبلة من السنين » .

وقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن إخبار العلماء بوقت الخسوف والكسوف بمنزلة إخبارهم بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثاء وإما ليلة إحدى وثلاثين، فإن هذا أمر أجرى الله به العادة لا يخرم أبداً (١٨١) .

قال رحمه الله : « لكن العلم بالعادة في الهلال علم عام يشترك فيه جميع الناس » .

وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من عرف حساب جريانهما » (١٨٢) .

(١٨٠) مجموع الفتاوى ١٧٥/٢٥ .

(١٨١) السابق ١٧٥/٢٥ ، ٢٥٤/٢٤ ، ٢٥٧ .

(١٨٢) نفسه ٢٥٨/٢٤ .

وفي الفتاوى كلام نفيس عن حكم تصديق أو تكذيب المخبر بوقت الكسوف .

وهناك بين أنه لا يترتب على علمهم وخبرهم علم شرعي ، لأن صلاة الكسوف والخسوف لا تُصلّى إلا عند مشاهدة الخسوف أو الكسوف .

وقبل الإمام ابن تيمية الإمام ابن حزم قرراً أن الفلك والهيئة مصادر علم حسي حسابي ، واستدل على ذلك بمثل قوله تعالى : ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾ .

ثم منع رحمه الله من القضاء بهذا العلم شرعاً ، وأقام براهينه على ذلك (١٨٣) .

ومن تلك المسائل أن شيخ الإسلام حدد أوقات الكسوف والخسوف فقال : « لا يكون خسوف القمر إلا في وسط الشهر وليالي الإبدال » (١٨٤) .

وقد بنى شيخ الإسلام على ذلك أحكاماً كتصحيح تاريخ موت إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، وكمنع تقدير الفقهاء اجتماع عيد وكسوف .

قال أبو عبد الرحمن : أسند النسائي إلى النعمان بن بشير ﷺ قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فخرج يجر ثوبه

(١٨٣) انظر الفصل ١٤٨/٥ - ١٥٠ .

(١٨٤) مجموع الفتاوى ١٧٥/٢٥ وانظر ٢٥٧/٢٤ .

فرعاً حتى أتى المسجد فلم يزل يصلي بنا حتى انجلت ، قلما انجلت قال : « إن ناساً يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء ، وليس كذلك إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله عز وجل .

إن الله عز وجل إذا بدا لشيء من خلقه خشع له ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا كما حدث صلاة صليتموها من المكتوبة . »

قال أبو عبد الرحمن : أسلفت أن العلم البشري حساً وحسباً أدرك للكسوف والخسوف سبباً عادياً مطرداً .

وهذا الحديث نص بطريق الإيماء على أن سبب الخسوف والكسوف خشوع الشمس والقمر لله جل جلاله إذا بدا لهما .

ولهذا اختلفت مذاهب العلماء في الجمع بين الخسوع وبين اقتران السبب العادي على هذا النحو :

المذهب الأول : تكذيب الخبر الذي نص على الخسوع ، أو وجوب تأويله .

والى هذا ذهب أبو حامد الغزالي في صد كتابه تهافت الفلاسفة فقال : « فإن قيل : فقد روي أنه قال في آخر الحديث : « ولكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » .

فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي ؟

قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها .

كيف ولو كان صحيحاً لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ،

فكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تنتهي في الوضوح إلى هذا الحد .

وأعظم ما يفرح به الملاحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ، فيسهل عليه طريق إبطال الشرع إن كان شرطه أمثال ذلك « اهـ .

قال أبو عبد الرحمن : يلاحظ في هذا المذهب توحيد السبب ، وهو التعليل العلمي الحسابي المذكور آنفاً .

المذهب الثاني : تصحيح خبر الخسوع مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ، وجعل الخسوع والتعليل العلمي سببين مقترنين .

والى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال في رده على أبي حامد الغزالي : « والتجلي المذكور لا ينافي السبب المذكور .

فإن خشوع الشمس والقمر لله في هذا الوقت إذا حصل لنوره ما يحصل من انقطاع يرفع تأثيره عن الأرض ، وحيل بينه وبين محل سلطانه وموضع انتشاره وتأثيره ، فن الملك المتصرف في مكان بعيد لو منع ذلك لذل لذلك » (١٨٥) .

قال أبو عبد الرحمن : إلا أن السبكي في كتابه منع الموانع الكبير بين الأمر أجلى بيان ، فقال بعد ذكر السبب العلمي : « ويكون ذلك وقت تجليه سبحانه وتعالى عليهما . فالتجلي سبب لكسوفهما .

قضت العادة بأنه يقارن توسط الأرض ووقوف جرم القمر ،
لامانع من ذلك ولا ينبغي منازعة القوم فيه إذا دلت عليه
براهين قطعية» (١٨٦) .

وقد بين السبكي أن الحديث صحيح ، وأن إنكاره ليس بجيد ،
لأنه مردي في النسائي وغيره .

وابن تيمية فيما سبق من كلامه بين اقتران الخشوع بالسبب
العلمي على أنه نتيجة له .

والسبكي بين اقتران السبب العلمي بالتجلي .
المذهب الثالث : القول بأن الخشوع نتيجة للسبب العلمي ويكون
التجلي بعد ذلك .

وهذا مذهب لابن قيم الجوزية حوّر به مذهب ابن تيمية ، وأخذ
كثيراً من عبارته ، فقال : « على أن هنا مسلماً بديع المأخذ ، لطيف
المنزع ، يقبله العقل السليم والفطرة السليمة ، وهو أن كسوف الشمس
والقمر يوجب لهما من الخشوع والخضوع - باتمحاء نورهما
وانقطاعه عن هذا العالم - ما يكون فيه ذهاب سلطانهما وبهائهما .

وذلك يوجب لهما لامحالة من الخشوع والخضوع لرب العالمين
وعظمته وجلاله ما يكون سبباً لتجلي الرب تعالى لهما» (١٨٧) .

(١٨٦) زهر الرئي ١١٦/٢١ .

(١٨٧) مفتاح دار السعادة ٢١٤/٢ .

قال أبو عبد الرحمن : وبما أن في هذا المذهب تأولاً فقد أوضح
ابن قيم الجوزية مأخذه فقال : « ولم يقل النبي ﷺ إن الله تعالى إذا
تجلى لهما انكسفاً ، ولكن اللفظة عند أحمد والنسائي : «إن الله إذا
بدا لشيئ من خلقه خضع له» .

ولفظ ابن ماجه : « فإذا تجلى الله تعالى لشيئ من خلقه
خضع له» .

فها هنا خشوعان : خشوع أوجب كسوفهما بذهاب نورهما
وانمحائه ، فتجلى الله لهما فحدث لهما عند تجليه تعالى خشوع آخر
بسبب التجلي» ا هـ .

المذهب الرابع : احتمال احتمله ابن قيم الجوزية ، وهو أن يكون
الخبر بالتجلي والخشوع ليس من كلام رسول الله ﷺ .

قال في مفتاح السعادة : «لعل هذه اللفظة مدرجة في الحديث
من كلام بعض الرواة، ولهذا لا توجد في سائر أحاديث الكسوف» (١٨٨) .

قال أبو عبد الرحمن : والحديث رواه النسائي بإسناد آخر إلى
قبيصة الهلالي بلفظ : « وإن الله عز وجل إذا تجلى لشيئ من خلقه
يخضع له» .

ورواه ابن ماجه بإسناده إلى النعمان بلفظ : « فإذا تجلى الله
لشيئ من خلقه خضع له» .

(١٨٨) زهر الرئي ١١٥/٣ .

وأُسند ابن خزيمة الحديث في صحيحه إلى قبيصة البجلي ،
وأُسند حديث النعمان بإسنادين إلى أبي قلابة ، وقدم لذلك بقوله : « إن
صح الخبر ، فإني لا أخال أبا قلابة سمع من النعمان بن بشير ، ولا
أقف القبيصة البجلي صحبة أم لا ؟ » (١٨٩) .

ومدار حديث النعمان وقبيصة على أبي قلابة عن النعمان تارة ،
وعن قبيصة تارة ، وعن رجل عن النعمان تارة .

رواه أحمد في مسنده عن أيوب عن أبي قلابة عن رجل عن
النعمان .

ورواه النسائي وابن ماجه وابن خزيمة عن خالد الحذاء عن أبي
قلابة عن النعمان .

ورواه ابن خزيمة عن أيوب عن أبي قلابة ... إلخ .

ورواه النسائي وابن خزيمة : عن هشام : عن قتادة : عن أبي
قلابة : عن قبيصة .

وهذا الحديث صححه الجمهور ، وقد أسلفت كلام ابن قيم
الجوزية والسبكي ، وقال الحاكم في المستدرک : « صحيح على شرط
الشيخين » .. وأقره الذهبي ، وإنما أوصى الغزالي بتكذيبه ، وشكك
ابن خزيمة في اتصاله .

ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني ضَعَفَ إسناده بعدم

تصريح أبي قلابة بسماعه إياه من قبيصة أو النعمان .

وتابعه الأعظمي في تحقيقه لصحيح ابن خزيمة .

قال أبو عبد الرحمن : هذه هي الأقوال في تفسير معنى الحديث ،

وليس من بينها واحد يعجني .

أما القول في رواية الحديث فالصواب عندي أنه صحيح كما

ذهب إليه جمهور المحققين .

أما تضعيف بعض المعاصرين فليس بشيء .

فإن كان تضعيفهم بمعنى تضعيف الترمذي فذلك من أطل

الباطل ، لأنه لم يقم برهان على بطلانه .

وإن كان تضعيفهم بمعنى تضعيف الجمهور فليس ذلك بصحيح

أيضاً ، لأن شاهد الصحة قائم بوجود المقتضى ... وهو اتصال السند

وعدالة الناقل ... ويتخلف المانع ، وهو أنه لا يعارض معناه ضرورة

عقلية بالشرع أو الحسن .

بل قام الدليل على أن الجمادات تخضع وأن الله يتجلى .

ولا يضر كونه خير واحد مداره على أبي قلابة ، لأن أبا قلابة

عدل إمام .

وأعمال خبر الواحد العدل الصحيح أدخل في تقوى الله من

إهماله إذا أراد المجتهد نزاهة التحري لوجود المقتضى وتخلف المانع

الذين أشرت لهما .

وأما عننة أبي قلابة فلا تضر ، ولا يشترط تصريحه بالسماع

لأنه لا يعرف بالتدليس ، وقد أدرك قبيصة والنعمان ، واسمه عبدالله ابن زيد البصري .

فالأصل سماعه منهما ما لم يقد دليل على خلاف ذلك .

وأما النعمان بن بشير فلا خلاف أنه من صغار الصحابة رضي الله عنهم ، ويكون روى هذا الحديث وعمره تسع سنين إلا بضعة أشهر ، وحديثه حديث شاهد عيان لقوله : فلم يزل يصلي بنا .
وقبيصة لا خلاف في أنه صحابي جليل ، وقد روى الخبر رواية شاهد عيان ، ففي سنن أبي داود قال قبيصة : فصلى وأنا معه في المدينة .

وأما دعوى الاضطراب في الاستناد فليس ذلك اضطراباً ، لأنه لم يقد دليل على أن رواية أبي قلابة عن المذكورين على الشك والتردد ، بل يكون رواه عن رجل عن النعمان ، ويكون رواه عن النعمان .
وأما روايته عن قبيصة فلا شك فيها .

قال أبو حاتم : « لا يعرف لأبي قلابة تدليس » .

وقال أبو قلابة نفسه : « لقد أقمت بالمدينة ثلاثاً مالي حاجة إلا رجل عنده حديث يقدم فأسمعه منه » .

وإنما شك ابن خزيمة في كون قبيصة صحابياً لأنه ظن أن قبيصة البجلي غير الهلالي ، وقد بين ابن حجر أن الهلالي يقال له البجلي .

وإذا كان ابن خزيمة شكك في سماع أبي قلابة عن النعمان فسياق ابن حجر في تهذيب التهذيب أن السماع هو المرجح .

أما سماعه من قبيصة فليس محل شك .

وعن دعوى اضطراب الإسناد المذكورة آنفاً قال الإمام ابن حزم : « فإن قيل إن أبا قلابة قد روى هذا الحديث عن رجل عن قبيصة العامري ؟ »

قلنا : نعم ، فكان ماذا ؟

وأبو قلابة قد أدرك النعمان فروى هذا الخبر عنه .

ورواه أيضاً عن آخر ، فحدث بكنا روايتي ، ولا وجه للتعامل بهذا هذا أصلاً ولا معنى له .

قال أبو عبد الرحمن : الأصول تقتضي تصحيح الخبر عن الخشوع والتجلي ، وذلك هو الأرجح في الذهن بكل مقاييس الاجتهاد .
وإنما استشكل بعضهم معناه لأنه سبق إلى ذهنه ترجيح ضعفه ، فسبق الحكم الاجتهاد ، فجاء الاجتهاد متعسفاً .

وأما احتمال الإدراج فالأصل عدمه حتى يقوم دليل عليه .

وأما أن هذه الجملة لم ترد في الروايات الأخرى فالجواب أنها من خطبة الرسول ﷺ ، وقد رويت مجزأة مفارقة .. حدث كل واحد بما حفظه .

وأما المعنى فليس مشككاً عندي ، لأنني لا أقصر سبب الكسوف على مجرى العادة ، بل يكون الكسوف أيضاً بإحداث الله على غير توقع .

* * *

٢٤ - المسألة الرابعة والعشرون : معاني الترف ، وأحكامه

الشرعية :

أحصى الفيروز آبادي معاني الترف الواردة في القرآن الكريم ، وهي :

- ١ - النعمة .
- ٢ - الطعام .
- ٣ - الشيء الطريف تخص به صاحبك .
- وكل واحدة من هذه الأشياء تسمى ترفة .
- ٤ - أترفته النعم أطغته .
- ٥ - أو نعمته ، وتترف تنعم .
- ٦ - ترف أصر على البغي .
- ٧ - المترف المتروك يصنع ما يشاء (١٩٠) .

وأما ابن فارس فلم يذكر ترفاً لهذه المادة ، وإنما قال : «رجل مترف منعم ، وترفه أهله إذا نعموه بالطعام الطيب ، والشيء يخص به» (١٩١) .

وأما كتاب الراغب فلم تضبط فيه كلمة الترفه المحتملة للتاء المربوطة بآخرها وتشديد التاء قبل الراء ، وللهاء بآخرها وتشديد الغاء .

(١٩٠) القاموس المحيط ١٢٤/٢ .

(١٩١) مقاييس اللغة ٢٤٥/١ .

قال الراغب : «الترفه التوسع في النعمة» (١٩٢) .

قال أبو عبد الرحمن : التوسع مصدر ، وقد ورد شرحاً للترفه ، فدل على أن الترفه مصدر من ترفه .

ومعنى الترفه التوسع في النعمة (١٩٣) .

قال أبو عبد الرحمن : إلا أن مادة رفه غير مادة ترف ، وحينئذ يكون الراغب خلط بين المادتين .

وأم الترفة - بالتاء المربوطة - من ترف فهي النعمة ، وليس التوسع في النعمة .

قال أبو عبد الرحمن : من تتبعني لمعاني المادتين ، ولعلمي بأنه لا يمكن أن تكون الترف بمعنى النعمة في الأصل ، لأنه لا يوجد أصلان يتطابقان على معنى واحد ، بل لابد أن يكون واحد المترادفين مجازياً أو كلاهما : أرى أن أصل الترف النعومة الصادرة عن نعمة ، ونعومة ذاتها .. فهي نعومة في الجسم والقوت .

وأما الرفاهية فتعني سعة العيش .

وبقية معاني الترف مجازية ، فأتعرفته النعمة بمعنى أطغته مجازاً ، لأن النعمة تترفه : أي تجعله ناعماً .. ولا يصل إلى هذا الحد في مجرى العادة إلا الطغاة والعصاة .

(١٩٢) المفردات ص ٧٤ .

(١٩٣) مقاييس اللغة ٤١٩/٢ .

ووردت نصوص القرآن الكريم عن المترفين بالمعنى الغالب من أحوالهم .. قال تعالى عن أصحاب الشمال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [سورة الواقعة / ٤٥] .

فهؤلاء تنعموا بما لا يحل لهم، وصرفوا النعمة فيما لا يحل لهم . والمترف الذي استفرغته النعمة حتى كان ناعماً حقيقة أمره أنه لم يعارس مزايا الأمور ، والجنة مشروطة بمشاق وصعوبات وتضحيات ومكاره .

قال أبو عبد الرحمن : وأرى في واقع اليوم أن عصاة المسلمين وأقلهم عبادة : أكثر ترفاً من أهل المساجد في المأكل ، والمشرب ، والركب ، والملبس ، ونبرات الكلام ، ونوعية المفردة !!

وقد ورد ذم الترف من الكافر إيماءً إلى إنه سبب كفره كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ . قَالُوا يَا رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء / ١١ - ١٥] .

قال أبو عبد الرحمن : لا يزال صدى هاته الآيات الكريمات في أذني بصوت شيخ صالح بن غصون متعه الله بالصحة والعافية ، والشيخ عمر أبابطين لكثرة ما أسمعتهن منهما في خطبة الجمعة .

قال أبو عبد الرحمن : العيش الناعم والمساكن نعمة من الله ،

ولكنها أصبحت نقمة لما كانت سبب كفرهم الذي استؤصلوا به في الحياة الدنيا .

وأمرؤ بالرجوع إلى ما أترفوا فيه استهزاء بهم ، وإيماءً إلى أنه سبب ما حل بهم من عذاب جعلهم يركضون .

قال أبو عبد الرحمن : وأرجح شيئاً عندي في تفسير ﴿ تَسْأَلُونَ ﴾ أن يعاد معناها إلى ما يناسب العودة إلى الترف والمساكن ، وذلك الرغد والجاه ، فالمعنى : ارجعوا لعله يعود لكم منكم فيسألكم العاقبة والمستوجهون .

وكان كفار مكة مستكبرين بالحرم بدعوى أنهم أهله وسدنته ، متناسين كفرهم واستخفافهم بالقرآن الكريم في سمرهم ، يتناولونه بهنو ، فقال الله عن تعذيب مترفيهم الذين هم أسرع الناس إلى الشر وأقلهم تحملاً للعذاب ، وما جلد على النار بجليد : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ . لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون / ٦٤ - ٦٧] .

وذكر الله أحوال الأمم الخالية التي استأصلها بعذاب من عنده فقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [سورة مود / ١١٦] .

قال أبو عبد الرحمن : المعنى : هلأ كان منهم أولو بقية من عقل ودين ورأي ينهون عن الفساد فلا يحل لهم من العذاب ما حل بهم بدليل قوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [سورة مود / ١٦٧] ١٩ .

لقد استنصروا بالعذاب ، وإن كان فيهم أولو بقية إلا قليلاً .
قال أبو عبد الرحمن : وترى الذين ظلموا هاهنا له صفتان :
أولاهما : أنه سبب العذاب والاستئصال ، إذ لم يوجد من ينهى عنه .

وأخراهما : أن أهله متصفون بالإجرام والظلم واتباع الفساد ،
لأنه لما لم يوجد أمر بالإصلاح يتبعونه اتبعوا ما أترفوا فيه ، وهو الفساد الذي لم يوجد من ينهى عنه .

وقال تعالى عن منكري البعث من قوم أحد الرسل بعد نوح عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة والسلام : ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ [سورة المؤمن / ٢٢] .

قال أبو عبد الرحمن : هذه هي الآية الوحيدة التي أضاف الله فيها فعل الإتراف إليه سبحانه .
والسر في ذلك أن إتراف الله لهم عقوبة منه ، وليست أمراً مبتدأ

منه سبحانه ، وذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم .
كما أن الترف نتيجة النعمة الغضة الوافرة التي منحهم الله إياها فاستعملوها على غير وجهها ، بل في خيلاء وسرف .

والمترفون هم قادة الشر والهلاك في سياق آيات القرآن الكريم .
قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ [سورة سبا / ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [سورة الزخرف / ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ [سورة الإسراء / ١٧] .
قال أبو عبد الرحمن : وهاهنا إشكال في أمر الله ما هو ؟
فقد زعم الزمخشري أن الله أمر بالفسق !
ثم أول ، فتناقض !! .

وهذا هو نص عبارته السيئة . قال : « أي أمرناهم بالفسق ففعلوا » .

والأمر مجاز ، لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : أفسقوا .
وهذا لا يكون ، فبقي أن يكون مجازاً .
ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صيباً ، فجعلوها ذريعة إلى

المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إبلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ، ويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر كما خلقهم أصحاب ألقوياء ، وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إثبات الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول ، وهو كلمة العذاب فدمرهم .

لأن قلت : فلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟
قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز .. فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ١٩ .

وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه ، وهو كلام مستفيض .. يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ .. لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة .

ولو ذهبت تقدر غيره فقد رُميت من مخاطبك علم الغيب !
ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصاني ، أو فلم يمثل أمري ، لأن ذلك مناف للأمر ، مناقض له .. ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا يتوي لأمره مأموراً به .. وكأنه يقول : كان مني أمر فلم تكن منه طاعة .

كما أن يقول : فلان يعطي ويمنع ، ويأمر وينهي غير قاصد إلى مفعول .

فإن قلت : فلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير دليلاً على أن المراد : أمرناهم بالخير ففسقوا ؟
قلت : لا يصح ذلك ، لأن قوله : ﴿ ففسقوا ﴾ يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه .

ونظير « أمر » « شاء » في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه .

تقول : لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك .. تريد لو شاء الإحسان ، ولو شاء الإساءة .

فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت ، وقلت : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان ، أو من أهل الإساءة .. فأتى الظاهر المنطوق به ، وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة : لم تكن على سداد .

وقد فسر بعضهم (أمرنا) بكثرتنا ، وجعل أمرته فلم من باب فعلته ففعل ، كثيرته فثير .

وفي الحديث « خير المال سكة مأبورة ، ومهرة مأبورة » : أي كثيرة النتاج .

وروي أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ : إني أرى أمرك هذا حقيراً .

فقال ﷺ : « إنه سيأمر » : أي سيكثر ، وسيكبر .

وقرئ (أمرنا) من أمر وأمره غيره .

و (أمرنا) بمعنى أمرنا .. أو من أمر إمارة ، وأمره الله : أي جعلناهم أمراء وسلطانهم « (١٩٤) » .

قال أبو عبد الرحمن : لهذه المسألة مزيد تحقيق وإشاع ، وحسبي الآن ملازمة نص الزمخشري ببعض الوقفات :

الوقفة الأولى : أن الزمخشري لم يجعل الأمر قضاءً علمياً قدرياً ، فنقول قضاء الله علم مسبق وليس أمراً .

ولم يجعل الفسق إلجاء من الله لهم فيكون ذلك أول عقوبة لهم في الدنيا ليزدادوا إثماً .

أما حقيقة فلا يأمر الله بالفحشاء لأشريعاً ولا قدراً .

(١٩٤) الكشف ٤٤٢/٢ ، وتعقبه أبو حيان في البحر المحيط ١٩/٦ إلا أن تلميذ أبي حيان أحمد السمين في البر المصون ٢٢٨/٧ طلق على رد شيخه بقوله : «والشيخ رد عليه رد مستريح من النظر ، ولولا خوف السأمة على الناظر لكان للنظر في كلامهما مجال» .

قال أبو عبد الرحمن : أبو حيان علم ضلال عبارات الزمخشري بتطورات ثاقبة فانتشار إلى مواقع الزلل ، وبين ما لا يسلم للزمخشري والباقي تركه لظنة القارئ خوفاً من السلم أيضاً ، وليظل في نشاط لعمله التفسيري الذي هو بصده ، ولأن كل شبهة محكمة التعقيد والمغالطة في أسطر يحتاج حلها إلى صفحات ، فلوثر الباحث من استئناف معارف جديدة ما هو أجدى من إرماق الذهن في حل سقطات يكفي العذاق الإشارة إلى موضع الزلل فيها .

وجه ذلك : أن الله يضل الفاسقين ، ويختتم على قلوب الكافرين عقوبة لهم ليزدادوا إثماً مع إثمهم نتيجة محادثته لله وعنادهم .

الوقفة الثانية : المجاز الذي ذكره الزمخشري لا يصح بحال ، لأن كفرهم بالنعمة التي منحهم إياهم ربنا سبحانه فسق ، ولا يسمى منحهم النعمة أمراً بالفسق بأي وجه لا حقيقة ولا مجازاً .

ولم يذكر الزمخشري وجهاً معتبراً يجعل منحهم النعمة التي كفروا بها أمراً بالفسق مجازاً .

وإنما وجه المجاز : أن صبب النعمة عليهم كإنه أمر كوني بأن ينعموا بها .

أما القول بأنه أمر بأن يفسقوا من جرائمها فتأويل لا تحتمله لغة العرب .

الوقفة الثالثة : أن الزمخشري سد كل منفذ نور لإبعاد دعوى أن الله سبحانه وتعالى أمر بالفسق .. وإذا به أثناء كلامه يقول بالمذهب الصحيح من حيث لا يشعر .. قال بالحرف الواحد : « .. وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إثبات الطاعة على المعصية ، فأتروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول ... » .

قال أبو عبد الرحمن : هذه هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الله أمرهم بإيثار الطاعة ففسقوا .. فما باله بعد هذه النهاية السعيدة يصير على نسبة الأمر بالفسق إلى الله بدعوى مجاز لا تتحملة لغة العرب ؟

الوقفة الرابعة : إذا جعلت الآية بمعنى الأمر الذي هو نقيض النهي : فلا وجه لتأويلها إلا بأن الله أمرهم بالطاعة ففسقوا .
ولكن الزمخشري ادعى أن تقدير « أمرناهم بالطاعة » لا دليل عليه .

قال أبو عبد الرحمن : هذا سهو من الزمخشري ، أو تعام منه عن منهج التفسير السلفي الذي يفسر النص المحتمل في نطاق قطعيات الشريعة القائمة على البراهين الشرعية بأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر .

فلما احتملت الآية معني « أمرناهم بالفسق » ، وأمرناهم بالطاعة تعين المعنى الجائز وهو أمرناهم بالطاعة ، وامتنع المعنى المحرم اعتقاده شرعاً وهو الأمر بالفسق .

الوقفة الخامسة : زعم الزمخشري أن الدليل قائم على تقدير معنى « أمرناهم بالفسق » .

ثم كان دليله كلمة « ففسقوا » بدعوى أنها تدل على أن المقدر « أمرناهم بالفسق » .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا شبيهة وليس دليلاً ، وغاية ما حصله هاهنا الاحتمال ، والمسألة مسألة الترجيح ببرهان ، فلما حرم اعتقاد أن الله يأمر بالفسق ، ولما علم أن المأمورين كفار عصاة تعين تقدير أنهم أمروا بالحق لا بالفسق ففسقوا .

الوقفة السادسة : ادعى الزمخشري استفاضة تقدير ما يدل عليه المظهر في مثل قولك : أمرته فقام : أي أمرته بالقيام .
ويريد الزمخشري من ذلك استفاضة تقدير الفسق هاهنا ليكون المعنى : أمرناهم بالفسق ففسقوا .

قال أبو عبد الرحمن : في هذا المثال مغالطة ، وهي أن المثالين غير متساويين من جهتين :

أولاهما : أن مثال الزمخشري أثبت طاعة المأمور بقوله : « فقام » ، والآية الكريمة أثبتت عصيان المأمور .. ورتبت على ذلك أثره بقوله تعالى : ﴿ فحق عليها القول .. ﴾ .

وأخراهما : أن الأمر بالقيام متعين في مثال الزمخشري ، والأمر بالفسق غير متعين في الآية الكريمة ، بل محرم .. فشتان ما بين المثالين .

الوقفة السابعة : أن الزمخشري لما ضرب المثال بـ « أمرته فقام » على أساس أن المأمور به المقدر القيام قال : « ولو ذهبت تقدير غيره : فقد رمت من مخاطبك علم الغيب » .

قال أبو عبد الرحمن : هذا صحيح لأنه ائتمر فقام ، فأتضح أنه مأمور بما أداه من القيام .

ولكن لو قلت : « أمرته فعصاني » لم يفهم من ذلك أنك أمرته بالقيام ، ولا أنك أمرته بالعصيان .

وهذا المثال الأخير الذي لم يطرحه الزمخشري هو اللائق أن

يكون مثلاً للآية الكريمة ، لأن الآية الكريمة تقول : ﴿ أمرنا مترفياً ففسقوا ﴾ فالتقدير ضرورة : أمرته بالطاعة ففسق ، وكذلك في المثال السابق ، التقدير : أمرته بطاعتي فعصاني .

إلا أننا لا نعرف جنس المأمور به في المثال المذكور ، ونعرفه في الآية الكريمة ، لأننا نعلم من الشرع أن الله لا يأمر بغير الحق والخير والجمال والعدل والإحسان ، وأن الفسوق خروج عن الشرع .

الرواية الخامسة : جاء الزمخشري بعبارة مغلقة باطلة تحتاج إلى إقامة تصوراً ، ثم إلى تنفيذ حكماً ، لأنه لما منع من تقدير: أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وقرر أن المراد: أمرنا بالفسق - تعالى الله عن ذلك - ففسقوا قال : « ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصاني - أو فلم يمثل أمري - لأن ذلك منافٍ للأمر مناقض له .. ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالاً أن يُقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به . فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به ، كأنه يقول : كان مني أمر فلم تكن منه طاعة .

كما أن من يقول : فلان يعطي ويمنع ، ويأمر وينهى : غير قاصد إلى مفعول « ا . هـ .

قال أبو عبد الرحمن : معنى هذا الكلام : أنه لا يلزم من تقدير الفسق في الآية - بحيث يكون المعنى : أمرناهم بالفسق ففسقوا - تقدير العصيان في « أمرته فعصاني » بحيث يكون التقدير : أمرته

بعصياني فعصاني .

وبنى انتفاء اللزوم على أمرين :

أولهما : أن العصيان نقيض الأمر ، فلا يكون النقيض مأموراً به .

ولانيهما : إلغاء المثال من مأمور به منوي .

قال أبو عبد الرحمن : أما الأمر الأول فيؤكد اللزوم ولا ينفكه ، لأننا

نقول : كذلك الفسق في الآية الكريمة خروج عن الطاعة ، فلا يكون مأموراً به ما دام نقيض الأمر .

وأما الأمر الثاني ففيه تناقض لأنه زعم أن المأمور به غير منوي

ولا متعين في قولك : أمرته فعصاني .

قال أبو عبد الرحمن : هذا يعني أن الكلام لغو .

ثم عاد الزمخشري يفسر هذا الكلام بغير المعنى الذي خلعه عليه

فقال : كأنه يقول : كان مني أمر فلم تكن منه طاعة .

قال أبو عبد الرحمن : إذن هناك أمر معين في علم الأمر ، وإنما لم

يخبر بتعيينه .

وعدم الإخبار بالتعيين لا يعني عدم التعيين في الواقع .

ثم عاد الزمخشري إلى المعنى الثاني الذي خلعه على المثال « أمرته

فعصاني » فنفاه فقال : « كما أن من يقول : فلان يأمر وينهى غير

قاصد إلى مفعول » .

قال أبو عبد الرحمن : شتان ما بين المثالين ، لأن قولك : يأمر

وينهى إثبات لاهليته لذنبك لكثرة ما يصدر عنه منهما ، وأنت غير قاصد إلى مفعول بعينه ، وإنما تقصد جنس الفعل وكثرته .

أما قولك : « أمرته فعصاني » فأنت قاصد إلى مفعول معني في علمك لم تخبر به المخاطبين .

الوقفه التاسعة : أن الزمخشري ادعى الأمر بالفسق لفظاً وتنازل عنه معنى ، ويكفي من الرد عليه ما مضى من إبطال دعوى الأمر المجازية .
قال أبو عبد الرحمن : إلا أنني خشيت أن يغفل غافل عن تنازله المعنوي فيخدع بشبهه المتشبهة بتقدير الأمر بالفسق .

الوقفه العاشرة : أقر الزمخشري بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير - والفسق ليس قصداً ولا خيراً - لأنه أقر ثبوت العلم بذلك ، ثم أهمل هذه العقيدة ، ونفى أن الله أمرهم بالخير إذ فسقوا ، ولا حجة له إلا دعوى أن قوله تعالى : ﴿ ففسقوا ﴾ يدافع أمر الله لهم بالخير !

قال أبو عبد الرحمن : كيف تجتمع دعوى الإيمان بأن الله لا يأمر بالفسق ، وأنه يأمر بالخير والقصد مع دعوى امتناع أمره بالخير وضرورة أمره بالفسق في آية واحدة ؟ !

إنه ليس في التناقض أكثر من ذلك !

الوقفه الحادية عشرة : فسر الزمخشري مدافعة كلمة : ﴿ فسقوا ﴾ لمعتقده بأن الله لا يأمر بالفسق بقوله : « فإنك أظهرت

شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه » .

وهاب الزمخشري رحمه الله تعالى - بدافع من إيمانه - نسبة الأمر بالفسق إلى الله حقيقة فاضطر إلى دعوى المجاز الباطلة .
قال أبو عبد الرحمن : ليس هناك إظهار شيء والمدعى خلافه .

بل المضمرة الأمر بالطاعة فهي مرادة ، والمظهر فسقهم وذلك مراد الإخبار به ، والجمع بينهما مراد ولا تناقض ، لأن الطاعة مأمور الله ، والفسق فعل المأمور .

الوقفه الثانية عشرة : أن الزمخشري احتج بمقايضة مع الفارق ، فقال : « ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاد في الحذف لدلالة ما بعده عليه » .

ثم مثل بجملته : « لو شاء لأحسن إليك » .

والمراد : « لو شاء الإحسان » .

قال أبو عبد الرحمن : ها هنا وهلات من أمور :

أولها : ليس نص الآية : « لو شاءوا فسقوا » ، فنقول المقدر الفسق .

وثانيها : أن المفعول في مثال الزمخشري مصدر الفعل ، وكل

فعل نص عليه فمصدره ينوب عنه .

وليس كذلك الآية الكريمة ، لأن الطاعة التي قدرها العلماء ،

والفسق الذي قدره الزمخشري ليسا مصدرين للفعل المنصوص عليه ،

وهو قوله تعالى ﴿ أمرنا ﴾ .

وثالثها : أننا نتبرع للزمخشري - رحمه الله تعالى - بتقدير المفعول الذي يريده بدلالة : «فسقوا» فلا ينفعه ذلك ، إذ التقدير : أمرناهم بالطاعة ففسقوا الفسق .

ونحن لا نبحث عن مفعول القعل الذي فعلوه ، وإنما نبحث عن مفعول الفعل الذي صدر عن الله وهو : ﴿أمرنا﴾ .

الواقعة الثالثة عشرة : قال الزمخشري عن مثال : لو شاء لأحسن إليك : «فلو ذهبت تغمصم خلاف ما أظهرت ... إلخ» .

قال أبو عبد الرحمن : يجوز : «لو شاء الإساءة لأحسن إليك» على معنى أن المخاطب ليس محلاً للإحسان .

ولا ينافي ذلك تقدير الإحسان هكذا : «لو شاء الإساءة لأحسن الإحسان إليك» .

وبهذا يسقط مثال الزمخشري الذي اعترض به على فهم العلماء للآية من حائق ، ذلك أن الذي حتم مفعول الإحسان فعل أحسن لا فعل شاء .

الواقعة الرابعة عشرة - وهي الخاتمة - : لو لم ترد الآية إلا بقراءة : ﴿أمرنا﴾ بمعنى الأمر ضد النهي لكان أمر الله شرعياً ، وكان أمره بالطاعة ، ولكان فسقهم هو المعصية للأمر .

ولا تعني إرادة الله الكونية إهلاك القرية أن الله أمرهم بالفسق ليهلكهم .

بل يفسر ذلك بسنة الله الكونية في الرسل - عليه الصلاة والسلام - وأمرهم ، وهو أن الرسول يدعو قومه بالترغيب والترهيب الأخرى ، وبالموعظة ، وبالحجة والبرهان ، ويصبر على عصيانهم وأذاهم حتى إذا استفرغ وسعه عزم عليهم في الطاعة ، وحذرهم العذاب الدنيوي العاجل ، ولم يقبل منهم إلا الطاعة أو ضرب المدة لأمد العذاب الدنيوي .

والمترفون هم قادة الشر في كل زمان ومكان ، فكونه لا يقبل منهم إلا الطاعة الجبرية بعد استفراغ الوسع في الدعوة باللسان والجنان والعقل ، أو انتظار العذاب : هو لأمر للمترفين بالصلاح ، وهذا غاية العدل لا يفجزهم بالعذاب - مع صبر الرسل وطول عناد المترفين ومحادثهم - بل قبيل إحقاق الكلمة عليهم يأمرهم أمر عزيمة لا إهمال بعده ، ويضعهم بين خيار الطاعة والنجاة ، والعصيان والهلكة ، فيختارون الفسق فيدمرهم تدميراً .

قال أبو عبد الرحمن : وفي الآية قراءات ، فقراءة الجمهور ﴿أمرنا﴾ بقصر الهمزة وتخفيف الميم .

قال الإمام أبو منصور الأزهرى : لها وجهان :

أحدهما : أمرناهم بالطاعة ففسقوا فحق عليهم العذاب .

وثانيهما : كثرناهم .. واحتج لهذا المعنى بمهرة مأمورة .

وأمر بنو قلان إذا كثروا .

ونكر قول لبيد :

إِنْ يُغْطُوا يُهْطُوا وَإِنْ أَمَرُوا

يَوْمَا يَصِيرُوا لِلْهَلِكِ وَالْكَدِّ

وهي بفتح الهمزة وكسر الميم .

ورجح أبو منصور قراءة أمرنا المقصورة المخففة على كل القراءات ، ورجح المعنى الأول من معنيها المختلفين (١٩٥) .

وذكر ابن فارس مثل العرب : من قل ذل ، ومن أمر قل .

ونقل عن الأصمعي قوله : « تقول العرب : خير المال سكة مأبورة أو مهرة مأبورة » (١٩٦) .

والمعنى الثاني نفاء أبو عمرو بن العلاء عن لغة العرب ، وقال : « لا يقال : أمرت بالتخفيف في معنى كثرت » .

وأبى ذلك أبو عبيدة ، واحتج بمهرة مأبورة (١٩٧) .

قال أبو عبد الرحمن : والمعنى الأول فيه وجهان :

الوجه الأول : أن الأمر شرعي ، وأن المأمور به الطاعة .

الوجه الثاني : أن الأمر قدرى كوني ، وأن المأمور به الفسق ،

وقد اختار ذلك ابن قيم الجوزية فقال : « لا حاجة إلى تكلف تقدير أمرنا مترقيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها ، بل الأمر ما هنا أمر

(١٩٥) القراءات وعلل التحوين فيها - أو علل القراءات ٢١٧/١ - ٢١٨ بتصرف واختصار .

(١٩٦) مقاييس اللغة ١٣٨/١ .

(١٩٧) المفردات من ٢٥ .

تكوين وتقدير ، لا أمر تشريع لوجوه :

أحدها : أن المستعمل في مثل التركيب أن يكون ما بعد الفاء هو المأمور به كما تقول : أمرته فقام ، وأمرته فأكل كما لو صرح بلفظه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [سورة البقرة / ٢٤] .

وهذا كما يقول : دعوته فأقبل .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [سورة الإسراء / ٥٨] .

والثاني : أن الأمر بالطاعة لا يخص المترفين ، فلا يصح أن يكون أمر المترفين على إهلاك جميعهم (١٩٨) .

قال أبو عبد الرحمن : ومال إلى هذا الحافظ ابن كثير بتقديره إياه

فقال : « أمرنا أمراً قدرياً كقوله تعالى : ﴿ أَنَا هِيَ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ .. إن الله لا يأمر بالفحشاء .

قالوا : معناه إته سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا

العذاب (١٩٩) .

قال أبو عبد الرحمن : ولم يذكر الشيخ ابن سعدي غير هذا

المعنى (٢٠٠) .

(١٩٨) التكت والعيون للماوردي ٢٣٥/٢ [هاشية المحقق عن شفاء الغليل ص ٤٨] .

(١٩٩) تفسير ابن كثير ٢٥/٢ ، ثم ذكر بقية الأقوال .

(٢٠٠) تفسير ابن سعدي ٢٦٧/٤ .

وما اختاره ابن قيم الجوزية - رحمه الله - لم يخل من التقدير فلا داعي لاعتبار قول الجمهور مرجوحاً لأجل التقدير .

وتقديره - رحمه الله - أكثر تكلفاً : لأنه قدر لفظين والجمهور قدروا لفظاً ، ولأن تقدير الأمر الكوني خلاف الظاهر فيحتاج إلى دليل ، ولأن قيام دليل على أن الأمر الكوني لا يعني أن المأمور به فسق ، فلا بد من دليل على أن قضاء الله بفسقهم لعلمه بذلك منهم ، يعني أنه الجاهم وجبرهم على الفسق عقوبة لهم ، وليس ذلك مجرد نفاذ القضاء المسبوق بعلمه .

فحمل ابن القيم حملاً على أمر جائز غير متعين ، وحمل الجمهور على أمر جائز متعين لرجحانه .

وقلت : إن حمل ابن القيم حمل على جائز : لأن الله يعاقب الكافر بعد قيام الحجة عليه ، وإصراره على محادة الله ، وعذابه : بأن يضلّه . ويجبره على زيادة إثم ليستأصله ويضاعف عذابه ، لأنه لما استحق عقوبة الكفر صار من عدل الله سبحانه أن يعاقبه بما شاء .

وقلت : إنه غير متعين ، لأنه لم يقر رجحان على أن هذا الأمر الجائز شرعاً هو المراد في هذه الآية الكريمة .

وقد نبهت كثيراً إلى ضرورة التفريق بين دليل التصحيح ودليل الترجيح .

ومن أدلة ابن القيم القول بأن ما بعد الفاء هو المأمور به ، ليجعل ففسقوا مأموراً به .

قال أبو عبد الرحمن : منحي ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى - في اختياره أنه لا يجوز حمل الآية الكريمة على الأمر الشرعي مع أن جمهور السلف ذهبوا إلى هذا الحمل ، وأدلت لا تنهض بهذه الدعوى ، فمن أدلت دعوى أنه لا حاجة إلى تقدير : بالطاعة ، وأن ذلك التقدير متكلف .

قال أبو عبد الرحمن : ما اختاره ابن قيم الجوزية فيه تقدير أيضاً ، لأن التقدير عنده : أمرناهم قدراً بالفسق .

وتقدير الجمهور لا تكلف فيه لأنهم علموا من الدين بالضرورة أن الله لا يأمر إلا بالحق والخير والجمال ، فقدروا الطاعة ، واستغنوا بها عن تقدير الهداية أو الصلاح أو الخير أو مجموع تلك الألفاظ لأن طاعة الشرع ضمانات لك لذلك .

ولم يحتاجوا إلى تقدير كلمة : « شرعاً » لأن الأصل في أوامر الله للمكلفين أنها أوامر شرعية ، ولا ينصرف الذهن إلى المعنى القدري إلا بدليل .

ومع هذا ففي السياق إلماح إلى الأمر الشرعي ، لأن الله قال قبل هذه الآية مباشرة : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، ثم أخبرنا سبحانه عن كل قرية عذبت بأن مترفيها أمروا ، والأمر - بصيغة اسم الفاعل - فيها رسول بلا ريب ، والرسول لا تأمر إلا بالشرع .

أما الأمر الكوني إذا بلغت به ، وبلغت بإبلاغه ، فإن إبلاغها خير لا أمر .

قال أبو عبد الرحمن : هذا استدلال في غير محل النزاع ، وبيان ذلك : أن المأمور به يكون بعد الفاء إذا كان المأمور مطيعاً تقول : أمرته فقام إذا علمت أن المأمور أطاع أمري ، أو كان الظاهر لم يكسر على دلالة ، فقولك : أمرته فقام رتب الفعل على الأمر ، فدل بظاهره على أن المأمور به قيام .
وإذن لا يكون ما بعد الفاء مأموراً به إذا كان الفعل من غير مطيع .

والذي بعد الفاء في الآية الكريمة فعل فساق دُمُراتميراً ، والفاسق غير مطيع .

واستدل ابن قيم الجوزية بأن الأمر بالطاعة لا يخص المترفين . وهذا صحيح إلا أن الآية لم تقصر الأمر على المترفين ، فكل أهل قرية يبعث لهم رسول ، ولكنه في الآية الثانية لم يذكر مع المترفين غيرهم لأنهم أهل القيادة ، والقرية الكافرة تبع لهم ، ومبني لغة العرب أن تخصص بعض الأشخاص بالخطاب بكون الحكم ، أو بخصوص عناية لخصوص معنى .

ولو امتد المترفون لارتفع العذاب الجماعي النبوي عن الباقيين . ولأن الأمر بلغ سابقاً لأهل القرية للمترف وغير المترف فاستحق العقوبة كل من عصى ، ولكن لما جاء القضاء إلزامياً إما بالطاعة وإما الإهلاك خص القادة - وهم المترفون - بالذكر في الأمر بالطاعة لأنهم أهل الحل والعقد ، و من سواهم تبع لهم ياتمون بأمرهم .

وقال الأزهري : « قرأ يعقوب ، وخارجة : عن نافع : ﴿ أمرنا ﴾ بالئين مثل : ﴿ أمنة ﴾ .

وكنك حماد بن سلمة : عن ابن كثير : (٢٠١) .

ثم قال : « ومن قرأ : ﴿ أمرنا ﴾ بالمد فلا معنى له إلا أكثرنا (٢٠٢) .

وكان أبو عبيدة يقول : أمر الله ما له وأمره بمعنى واحد (٢٠٣) .

وقوله : ﴿ أمرنا مترفياً ﴾ يصلح أن يكون في شيئين :

أحدهما : كثرة عند المترفين .

والآخر : كثرة حروثهم وأموالهم (٢٠٤) .

وعزا القرطبي هذه القراءة أيضاً إلى الحسن وقتادة وأبي حنيفة

الشامي وعلي وابن عباس - رضي الله عنهما - باختلاف عنهما .

وعزا رأي أبي عبيدة إلى ابن عزيز أيضاً (٢٠٥) .

وعزا السمين هذه القراءة إلى ابن أبي إسحاق وأبي رجاء .

(٢٠١) القراءات وظل النحويين فيها ٢١٦/١ .

(٢٠٢) قال أبو عبد الرحمن : أي أكثرنا الأوامر لا المترفين .

(٢٠٣) قال أبو عبد الرحمن : مما بمعنى واحد من ناحية أصل الطلب إلا أن فاعل ندل على كثرة الطلب ، أو كثرة المطلوب .

(٢٠٤) القراءات وظل النحويين فيها ٢١٨/١ .

قال أبو عبد الرحمن : ترك الأمر الثالث الصحيح ، وهو تكثير الطلب أو المطلوب . وجعل الكثرة المطلوب منهم ، أو لما يصبر عنهم .

(٢٠٥) تفسير القرطبي ١٥٢/٩ - ١٥٣ .

قال : « رويت هذه قراءة عن ابن كثير وأبي عمرو وعاصم ونافع ، واختارها يعقوب ، والهمزة فيه للتعدية ^(٢٠٦) .

وعزا الألويسي هذه القراءة إلى عيسى بن عمر ، وعبدالله بن أبي زيد ، والكلب ، وأبي العالية ، وابن هرمز ^(٢٠٧) .

قال أبو عبد الرحمن : وثقة قراءة ثالثة ذكرها الأزهرى فقال قال أبو عباس ختن ليث : سمعت أبا عمرو يقرأ : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ بتشديد الميم .

وروى هدية : عن حماد بن سلمة : عن ابن كثير : أنه قرأه كذلك . وفسر هذه القراءة بمعنى سلطنا مترقيها .. أي جعلنا لهم إمارة وسلطاناً ^(٢٠٨) .

وعزاها القرطبي إلى أبي عثمان النهدي وأبي رجاء وأبي العالية والربيع ومجاهد والحسن ، وهي قراءة علي رضي الله عنهم ^(٢٠٩) . وعزاها السمين إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - وقال : « وفيه وجهان :

أحدهما : أن التضعيف للتعدية .. عداه تارة بالهمزة ، وأخرى

(٢٠٦) الدر المصون ٣٣٠/٧ .

(٢٠٧) روح المعاني ٤٤/١٥ .

(٢٠٨) القراءات وظل التحوين فيها ٣١٧/١ و ٣١٨ .

(٢٠٩) تفسير القرطبي ١٥٢/٩ .

بتضعيف العين كأخرجته وخرجته ^(٢١٠) .

والثاني : أنه بمعنى جعلناهم أمراء ^(٢١١) .

واللازم من ذلك أمر ^(٢١٢) .

قال الفارسي : لا وجه لكون أمرنا من الإمارة ، لأن رناستهم لا تكون إلا لواحد بعد واحد ، والإمالة إنما يكون في مدة واحدة .

وقد رد على الفارسي بأن لا نسلم أن الأمير هو الملك حتى يلزم ما قلت ، بل الأمير عند العرب من يأمر ويؤمر به .

ولئن سلم ذلك لا يلزم ما قال ، لأن المتروك إذا ملك ففسق ، ثم آخر بعده ففسق ، ثم كذلك كثر الفساد ونزل بهم على الآخر من ملوكهم ^(٢١٣) .

وعزا الألويسي هذه القراءة إلى السدي وزيد بن علي والباقر وعاصم .

(٢١٠) التعدية على أساس أن أمر فعل لازم بمعنى كثر في نفسه ، وأما أمر الطلبية فتعدية في نفسها .

(٢١١) قال أبو عبد الرحمن : ترك الوجه المناسب وهو تكثير الفعل سواء كثر المطلوب أو كان واحداً .

(٢١٢) يفتح الهمزة وضم الميم .

(٢١٣) الدر المصون ٣٣٠/٧ .

وذكر التكثير أحد احتمالي هذه القراءة ^(٢١٤) ، وهكذا ذكر ذلك الراغب ^(٢١٥) .

وثمة قراءة رابعة بقصر الهمزة وكسر الميم عزاءها القرطبي إلى الحسن ويحيى بن يعمر وابن عباس رضي الله عنهم .

قال : « قال الحسن وقتادة : المعنى أكثرنا .

وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد .

وانكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد .

ولي الصحاح : قال أبو الحسن : أمراله - بالكسر - أي كثر .

وقال الثعلبي : ويقال للشيء الكثير أمر .

وكله غير متعد ، ولذلك أنكره الكسائي .

قال المهدي : ومن قرأ أمر فهي لغة ، ووجه تعدية أمر أنه

شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شيء إلى العماره ، فعدي كما عدي عمره ^(٢١٦) .

قال أبو عبد الرحمن : هذه القراءة عدها ابن جني وغيره من

الشواذ ، وعزاها السمين إلى عكرمة ، وذكر السمين بأنها بمعنى أمرنا

بفتح الميم وقصر الهمزة ، وقال : حكى أبو حاتم : عن أبي زيد أنه

يقال : أمر الله ماله وأمره بفتح الميم وكسرها .

(٢١٤) روح المعاني ٤٤/١٥ .

(٢١٥) الملل والنفوس ص ٢٥ .

(٢١٦) تفسير القرطبي ١٥٢/٩ .

وقد رد الفراء هذه القراءة ، ولا يلتفت لرده لثبوتها لغةً بنقل العبدول .

وقد نقلها قراءة عن ابن عباس أبو جعفر ، وأبو الفضل الرازي

في لواحقه ، فكيف ترد ؟ .

قال أبو عبد الرحمن : وثمة قراءة خامسة ذكرها النحاس قال :

في قراءة أبي : « يعننا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها » ^(٢١٧) .

قال أبو عبد الرحمن : ومر اختيار الأزهري للقراءة الأولى بقصر

الهمزة وفتح الميم المخفلة ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم ، فبعاً فهي

قال أبو عبيد : وإنما اخترنا : « أمرنا » لأن المعاني الثانية

تجتمع فيها من الأمر والإرادة والكثرة ^(٢١٨) .

قال أبو عبد الرحمن : هذه نصوم يصاب قارئها بالنوار ، لأنه

لم يحرر فيها محل النزاع ، ولهذا احتاجت مني إلى وقفات :

الوقف الأولى : أن القراءات المتواترة مبناه عند العلماء على

التوقيف ، وأنها كلها حق من عند الله .

ويجتهد العلماء في حملها على معنى واحد ، أو على معاني

كلها مرادة .

الوقف الثانية : القراءات غير المتواترة يبحث فيها وفق علم

الإسناد ، ولا تكون توقيفية إلا بدليل ، وقد يلحن الأعرابي بالمقردة إلى

(٢١٧) تفسير القرطبي ١٥٢/٩ .

(٢١٨) السابق ١٥٢/٩ .

لهجة قومه ، وقد يحمل المفردة على ما فهمه كما روي عن الخليل بن أحمد - رحمه الله - أنه قرأ الآية من سورة البقرة : ﴿مِثْلُ مِثْلِهِمْ﴾ سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم ﴿بضم السين وبتون مد الواو .

الوقف الثالثة : كل قراءة من غير القراءات المتواترة إذا دفعها الضرورة فهي محمولة إما على خطأ الناقل ، أو إعلال السند وإن لم تثبت وجه العلة ، بل الضرورة تشير إلى أنه لا بد من علة .

الوقف الرابعة : مَنْ نقلت أقوالهم من العلماء ذكروا معنى لتكثير في أمرنا بعد الهمزة ، وأمرنا بتشديد الميم ، وأمرنا بكسر الميم .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا صحيح بالنسبة للصيغتين الأوليين ، أما الثانية ففعل طارح فعلاً اقتضى التكثير ، فهي دالة على التكثير أيضاً .

إلا أن العلماء رحمهم الله جعلوا الكثرة في مفعول الأمر وهو المترفون ، فجعلوا أمر الله للمترفين بمعنى تكثره لهم .

وهذا وهم ، والصواب أن الكثرة في الفعل نفسه الصادر من الله سبحانه وتعالى كما يأتي بيان ذلك من صيغة فاعل ، وفعل بتشديد العين .

الوقف الخامسة : فعل أمر بكسر الميم لا يعرف من القواميس أنه يتعدى .

وقد علم من الأصول أنه للمطوعة .

ولكن إذا صح نقل أبي زيد أنه سمع من العرب أمر الله ماله بكسر الميم مثل ما سمع عنهم : أمر الله ماله فإن هذه القراءة تحمل على المعنى الصحيح من معاني : ﴿أمرنا﴾ بقصر الهمزة وفتح الميم .

قال أبو عبد الرحمن : أما القراءة فعلى أهل الاختصاص تحقيق سندها عن الله سبحانه .

وأما صحتها لغة فالأصل صحتها كما نقل ذلك أبو زيد .. على أنها لغة كما حكى ذلك المهدي حتى يقوم دليل على كذب الناقل .

وقد بينت في أكثر من مناسبة أن أمهات اللغة فاتها بعض النقل مما وجد في الأجزاء أو في المتوارث شفويّاً .

الوقف السادسة : إذا صحت قراءة أمرنا بكسر الميم فقولها فهي محمولة على معنى الفعل أمر بفتح الميم ضد نهى .

ولا تحمل على معنى كثر المترفون لما أبينه من فساد هذا المعنى ، ولأن الكثرة في الفعل لا في المفعول الذي هو المأمور كما سيأتي برهانه إن شاء الله .

الوقف السابعة : معنى الكثرة من مادة الهمزة والميم والراء يأتي من ثلاث جهات :

الجهة الأولى : التجوز بالتعبير من جهة المأمور لما رآه الناس تامياً مباركاً قالوا : هذا مأمور ، وهو أمر بكسر الميم بمعنى أن الله باركه ونعمه وكثره ، فكأنه سبحانه أمره بالنماء والبركة ، أو أنه أمره فعلاً بقضائه بالكاف والنون .

والجهة الثانية : من صيغة «أمر» بكسر الميم لأنها بمعنى اشتد ، لأن الأصل صار ذا أمر وشأن ، والكثرة والنماء اشتداد .

وكلا هاتين الجهتين تتعلقان بالمأمور .

والجهة الثالثة : تكثير الفعل نفسه بدلالة الصيغة .

الوقفه الثامنة : الأصل قراءة الجمهور بقصر الهمزة وفتح الميم ، وهو فعل ماضٍ ضد النهي ، والمراد به الأمر الشرعي .

وكل قراءة محمولة على هذا المعنى فقراءة أمر يكسر الميم بمعنى أمر بفتح الميم مراعاة لنطق أصحاب تلك اللهجة .. هذا إذا صحت توقيفاً .

وقراءة ﴿ أمرنا ﴾ بالمد بمعنى كثرتنا الأوامر الشرعية على المترفين . وهذا دلالة صيغة فاعل فهي تدل على التكثير دفعة واحدة ، وعلى

التكثير بالترويج ، لدلالة هذه الصيغة على المتابعة .

وهكذا قراءة : ﴿ أمرنا ﴾ بتشديد الميم ، فهي بمعنى كثرتنا عليهم الأوامر .

ألا ترى أنك تقول : أفهمتُ زيداً فيكون المعنى أنك أوصلت إليه الفهم .

وتقول : فهمتُ زيداً فيكون فعلك في التفهيم كثيراً .

وأما المروي عن أبي قلعله لا يصح ، وإن صح عنه قلعله تفسير منه كما كان يفعل ابن مسعود - رضي الله عنهما - ، وإن صح أنه توقيف فلا بد أنه من التلاوة المنسوخة .

الوقفه التاسعة : المتبادر من أمر بالتشديد معنى جعله أميراً .

ولكن لما كان التأمير لا يحتمل معنيي أمر بمعنى ضد نهى ، وكان أمر الذي هو ضد نهى يحتمل أحد معنيي أمر بالتشديد : وجد الحمل على معنى القراءة القابلة لمعنى القراءة الأخرى بوجه لغوي .

الوقفه العاشرة : لا أدفع معنى جعلناهم أمراء من أجل اعتراض الفارسي ، لأن معنى إمارتهم في آن واحد ومكان واحد أنهم الكبراء أهل الحل والعقد ، وقد أسلفت النصوص الدالة على أن المترفين هم الواجهة في مجتمع الكفار .

وإنما دفعت هذا المعنى لأنه لا يجتمع عليه معاني القراءات الأخرى .

الوقفه الحادية عشرة : الآية تنفي ما ذكره السمين من رد علي أبي علي الفارسي من كون التدمير يحل بعد تعاقب الفساد ، وتدل على أن الفسق جماعي ، وهذا يعني أن المنكر علني .

ولم تجر سنة الله الكونية باستئصال القرى بالعذاب لفساد خفي يقمعه وازع السلطان ورقابة المجتمع المؤمن فلا يكون علنياً .

الوقفه الثانية عشرة : لما قال السمين عن قراءة : ﴿ أمرنا ﴾ بتشديد الميم : «واللازم من ذلك أمر، ضبط الدكتور أحمد محمد الخراط محقق الرد المصون للسمين فعل أمر بفتح الهمزة وتشديد الميم .

وهذا خطأ ، وإنما هو بفتح الهمزة وضم الميم المخففة . قال الألوسي : «إلحاقاً له بالسجاية .. أي صار أميراً» .

وعلق مصحح تفسير الألوسي بقوله : «لأنه حيثئذ يتعين لهذا المعنى» (٣١٩) .

قال أبو عبد الرحمن : التعين غير مسلم ، لأنه ورد اللازم بصيغة أمر المثناة (٢٢٠) .

وإنما يقال : فعل السجية أدل ، أما أمر فمعناها بدأ إصدار الأوامر فكان أميراً ، فكأنه في بداية الإمارة .

الوقف الثالث عشرة : اتضح معنى موافقة معنى التكرير لمعنى الفعل أمر ضد نهى .

ولم يتطرح بعد دخول معنى الإمارة في معنى الأمر ضد النهي ، وقد أدى هذا الدخول الإمام أبو عبيد رحمه الله تعالى .

الوقف الرابع عشرة : القول بأن أمر بقصر الهمزة وفتح الميم بمعنى كثرنا دعوى على اللفظ .

أما الاحتجاج بمهورة مأمورة فلا نرده بدعوى الاتباع ، بل نقول : الكثرة من دلالة المفعول ، وليست من دلالة صيغة أمر كما مر في إحدى الوقفات (٢٢١) .

الوقف الخامسة عشرة : المعنى على قراءة التكرير للأوامر باعتبار ما يحدث خلال فترة الفسق ، والمعنى على قراءة الأمر الواحد باعتبار آخر أمر في فترة فسقهم عقبه التدمير مباشرة .

* * *

(٢٢٠) انظر القاموس المحيط ٢٧٩/١ .

(٢٢١) انظر عن دعوى الاتباع تفسير القرطبي ١٥٢/٩ ، وروح المعاني ٤٤/١٥ .

٢٥ - المسألة الخامسة والعشرون : معنى اللغو المراد اجتنابه شرعاً :

يتأكد في شهر رمضان المبارك حفظُ اللسان ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه : عن النبي ﷺ قال : «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم» .

وفي البخاري ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود : عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن رسول الله ﷺ قال : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» .

قال أبو عبد الرحمن : اللغو من أقات اللسان ، والرفث والصخب وقول الزور نوع منه ، وهو يجر إلى المسابَّة والمقاتلة .

وقد برأ الله أهل الجنة وبرأ ساحتهم الكريمة من اللغو ، وأبدلهم ما موخير وأزكى وهو السلام ، وذلك من تمام نعيمهم .

قال الله تعالى عن أهل الجنة : ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأَلِيمٌ﴾ [سورة الطور/٢٢] .

قال أبو عبد الرحمن : اللغو هنا يشمل فضول القول الذي لا يحتاج إليه مما نزعته فائدتُه ، أو نزع الخير منه ، ويشمل القول ذا الإثم ، لأن التائيم نتيجة اللغو .

ولغو أهل الكأس في النخيل معروف ، وأقل ما فيه الضحك الكثير مما لا يُضْحِك ، أو يضحك قليلاً ، ثم شرحه وتذيله والتعثيل له بكثير من القول ، فكل ذلك القول الكثير لغو .

وكأنس أهل الجنة ليست ظرفاً للغو .

ولكن لما ذكر الله التثمين علمنا أن اللغو يشتم ما فيه إثم غير مجرد الفضول ، وألا يقول واحد من أهل الجنة لأخيه : أثمت .. لأن كلامهم ليس لغواً .

وقال تعالى عن أهل الجنة : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قهلاً سلاماً سلاماً ﴾ [سورة الواقعة / ٢٥-٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ [سورة النبا / ٢٥] .

وقال تعالى عن الجنة : ﴿ في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ﴾ [سورة الفاتحة / ١٠-١١] .

وكما برأ الله أهل الجنة من قول اللغو وسماعه حثهم في الدنيا على التنزه منه والإعراض عنه ، ومدحهم على التخلق بذلك .

قال تعالى في معرض التعداد لصفات المؤمنين : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ [سورة المؤمنون / ٢] .

وبين الله في موضع آخر أن هذا الإعراض مرود الكرام الذين يترفعون عن سماع ما يعاب مثل ترفعهم عن توافه الأعراض .

قال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ [سورة الفرقان / ٢٢] .

ومدح الله مؤمني أهل الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [سورة القصص / ٥٥] .

قال أبو عبد الرحمن : لابد أن اللغو الذي يترقع عنه المؤمنون شامل للغو المنزوع الفائدة ، ولغو الطافح بالشر من سب واستهزاء وكفر ، ولهذا قال الضحاك عن اللغو الذي يعرض عنه المؤمنون : « هو الشرك » .
وقال الحسن : « المعاصي كلها » .

وأصاحب الزجاج بتعميمه في قوله : « كل باطل ولهو وهزل ومعصية ، وما لا يحمل من القول والفعل » .

ولغو الكفار كما يكون سباً واستهزاء يكون أيضاً لغواً من القول ، واختلاق الإشكال ، وبعث الأسئلة المتعنتة ، ورفع الصوت بالكلام السريع المتداخل لمخاصمة الحق ومغالبة .

قال الله تعالى عن الكفار : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [سورة فصلت / ٢٧] .

قال أبو عبد الرحمن : فنفهم من الظرف : ﴿ فيه ﴾ مقاطعة القرآن وتخلل تلاوته باللغو .

ونفهم من جملة : ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ دفع الحجة بكثرة الكلام وقضوله .

وثمة قول ليس منزوع الفائدة ، وليس مقصوداً به الشر ، وله حكم شرعي ألغاه الله فسمي شرعاً لغواً ، وذلك هو اليمين غير المتعقدة : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم .. ﴾ [سورة البقرة / ٢٢٥ - وسورة

قال أبو عبد الرحمن : واللغو ما هنا ما درج على اللسان مما لا يقصد به عقد اليمين كقولهم : لا والله ، وبلى والله .

ويدل على هذا سياق الآيتين الكريمتين .. قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : تعقيدها توثيقها بالقصد والنية .

وهذا مذهب جمهور العلماء .

قال السيوطي والشوكاني : أخرج مالك في الموطأ ، وعبد الرزاق ،

وعبد بن حميد ، والبخاري وغيرهم عن عائشة - رضي الله عنها -

قالت : أنزلت هذه الآية : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ في

قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله .

وأخرج أبو داود ، وابن جرير ، وابن حبان ، وابن مردويه ،

والبيهقي من طريق عطاء بن أبي رباح أنه سئل عن اللغو في اليمين

فقال : قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ قال : « هو

كلام الرجل في بيته : كلا والله ، وبلى والله » .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر :

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت في تفسير الآية : إن

اللغو هو القوم يتدارون في الأمر يقول هذا : لا والله .. ويقول هذا

كلا والله .. يتدارون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم : عن عائشة - رضي الله عنها -

أنها قالت : هو اللغو في المزاح والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ،

وبلى والله .. فذاك لا كفارة فيه ، وإنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن

يفعله ثم لا يفعله .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : مر رسول الله ﷺ بهم

يتتضلون ومع النبي ﷺ رجل من أصحابه ، فرمى رجل من القوم

فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله .

فقال الذي مع النبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله .

فقال : « كلا .. أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة » .

وروى أبو الشيخ : عن عائشة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن

عمر أن اللغو : لا والله ، وبلى والله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس

رضي الله عنهما .

قال أبو عبد الرحمن : ويدخل في ذلك قول مجاهد : « أن يتبايع

الرجلان ، فيقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا .. ويقول الآخر : والله

لا أشتريه بكذا » .

ويدخل في ذلك ما أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد :

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : « لغو اليمين أن تحلف

وأنت غضبان » .

وروي ذلك عن مالك وطاووس ومكحول .

قال أبو عبد الرحمن : الغضببان لم يعقد اليمين في قلبه ، وهو مؤاخذ على غضبه المستغلق ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال في الحديث الصحيح : « لا تغضب » .

قال أبو عبد الرحمن : وحفظت أقوال غير صحيحة في تأويل الأيتين الكريمتين ، فقال أبو هريرة رضى الله عنه ، وجعاعة من السلف والحنفية والزيدية ومالك في الموطأ : « لغو اليمين أن يحلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه ، فإذا ليس هو ما ظنه » .

أخرج ذلك ابن جرير عن أبي هريرة رضى الله عنه ، وأخرج ابن أبي حاتم البيهقي عن عائشة - رضي الله عنها - ، وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن النخعي : « اللغو أن يحلف الرجل على الشيء ثم ينسى » .

قال أبو عبد الرحمن : لم يتبين لي وجه ذلك .

قال أبو عبد الرحمن : الذي يحلف على الشيء لا يظن إلا أنه إياه مكتسب يمينه بقلبه ، عاقد على يمينه في قلبه ، فلا يدخل في مداول الأيتين الكريمتين .

ويمينه لغوب أدلة رفع الخطأ ، وليس بدليل من الأيتين الكريمتين .
وذهب سعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن الزبير ، وأخوه عروة - رحمهم الله - إلى أن المراد باللغو اليمين في المعصية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أن اللغو أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له » .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير - رحمه الله تعالى - : « أن اللغو الحلف على المعصية » .

قال أبو عبد الرحمن : ها هنا أمران :

أولهما : أن هذا الموضع لا يتعلق بالأيتين الكريمتين ، وإنما يتعلق بالآية التي قبل الآية من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .
وثانيهما : أن يمين المعصية ليست لغواً ، بل فيها كفارة ، وإنما اللغو تنفيذاً .

وروي عن زيد بن أسلم : « أن لغو اليمين هو دعاء الرجل على نفسه كأن يقول : « أعمى الله بصره » ، أذهب الله ماله » ، هو يهودي .. هو مشرك » .

قال أبو عبد الرحمن : هذا ليس يميناً ، والأيتان الكريمتان عن لغو اليمين .

ولو صح أن هذا يمين فلا يكون لغواً إلا بدليل ، ولا دليل .
وعن الضحاك أن لغو اليمين كل يمين سقطت بالتكفير عنها (٢٢٢) .

(٢٢٢) نقلت هذه المذاهب من فتح القدير للشوكاني ٢٢٢-٢٢١/١ في تأويل الآية ٢٢٥ من سورة البقرة - نشر دار المعرفة ببيروت .

قال أبو عبد الرحمن : وجوب التكفير عنها دليل على أنها ليست لغوا .
قال أبو عبد الرحمن : هذه معاني اللغو في سياق نصوص الشرع
المطهر ، وأما الأصل في لغة العرب فقد جعل ابن فارس للعادة أصليين
هما : ما لا يعتد به ، واللهج بالشئ .

وجعل من الثاني : لغى بالأمر إذا لهج به (٢٢٢) .

قال أبو عبد الرحمن : لمادة اللغو من لغا يلغو لغواً أصل واحد هو
سقوط الشئ ، والأصل فيه إذا كان ذلك الشئ مما يخرج من اللسان ،
فالشئ لغا فهو لاغ بمعنى سقط .

واللغى فلاناً جاء باللغو .

واللغى فلاناً هذا الشئ أسقطه .

وما لا يعتد به في الدية من أولاد الإبل لغو .

قال المثقب العيدي :

أو مئة تجمع أولادهـا

لغواً وعرض المئة الجملة

قال أبو عبد الرحمن : وأما اللهج بالشئ فهو أصل آخر لمادة
أخرى ، وهي مادة لغى لغياً .

قال الراغب : «لغى بكذا : أي لهج به لهج العصفور بلغاه : أي

بصوته .

ومنه قيل للكلام الذي يلهج به فرقة فرقة : لغة (٢٢٣) .

ومعنى مادة اللغو مأخوذة من معنى مادة اللغي على سبيل التشبيه .
ووجهه أن الأقوال والأصوات التي تسقط من اللسان رخيص لقلة
مؤنتها ، فهي في حكم ما لا يعتد به ، ويلهج بها .

وقد بين وجه ذلك الراغب الأصفهاني بقوله : «اللغو من الكلام ما
لا يعتد به ، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر ، فيجري مجرى اللغا وهو
صوت العصافير ونحوها من الطيور» (٢٢٤) .

قال أبو عبد الرحمن : جرى اشتقاق بعض المواد من مادة أخرى
إذا اشتركا في أكثر الحروف كاشتقاق معنى وضوء من ضياء .

قال أبو عبد الرحمن : فضول القول الخلية من الخير والشر لغو
حقيقة ، لأنها لا يعتد بها .

والكلام القبيح الضار لغو مجازاً لأنه يعتد به في الشر ، وإنما
وجه التسمية أنه لا يعتد به في الخير .

قال أبو عبد الرحمن : حكى ابن فارس مذهب بعض الفقهاء في
لغو اليمين فقال : «وقوم يقولون : هو قول الرجل لسواد مقبلاً : والله
إن هذا فلان - يظنه إياه ثم لا يكون كما ظن - .

قالوا : فيمينه لغو ، لأنه لم يتعمد الكذب» (٢٢٥) .

(٢٢٤) المفردات من ٤٥٢ ط م الطبع سنة ١٢٨١ هـ .

(٢٢٥) المصدر السابق من ٤٥١ .

(٢٢٦) مقاييس اللغة ٢٥٥/٥ - ٢٥٦ .

قال أبو عبد الرحمن : هو لم يعقد قلبه على الكذب ، ولا أثر لعدم العقد ما هنا ، لأن الآيتين الكريمتين عن عقد القلب على اليمين ، وهذا تعدد اليمين ، وعقد القلب عليها ، وهو معذور بأدلة نصوص أخرى رفعت المؤاخذة على الخطأ .

ومن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُوا كِرَامًا ﴾ قال الراغب : «أي كتموا عن القبيح لم يصرحوا .

وقيل معناه : إذا صادفوا أهل اللغو لم يخوضوا معهم» (٣٣٧) .

قال أبو عبد الرحمن : ما كان يحق للراغب وهو المفسر اللماح أن يجعل القول المربود مقدماً في السياق .

والتكنية عن القبيح لا تسمى مروراً .

والنصوص الأخرى دلت على الإعراض .

وقال الفيروز آبادي : «و ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ ﴾ أي : بالإثم في الحلف إذا كفرتم» (٣٣٨) .

قال أبو عبد الرحمن : هذه دعوى على النص بلا برهان ، لأن الله لم يقل : لا يؤاخذكم الله بإثم أيمانكم إذا كفرتم عنها فصارت لغواً .

(٣٣٧) المفردات ص ٤٥١ .

(٣٣٨) القاموس المحيط ٤/٣٨٨ .

قال أبو عبد الرحمن : ووجوب الكفارة عن اليمين دليل على أنها ليست لغواً .

وقال نديم مرعشلي وزميله : «ونباح الكلب لغو .. قال :

فلا تلغى لغيرهم كلاب

أي لا تقتنى كلاب غيرهم» (٣٣٩) .

قال أبو عبد الرحمن : قال الفيروز آبادي : «وقول الجوهري لنباح

الكلب : لغو ، واستشهاده بالبيت : باطل .

وكلاب في بيت ابن ربيعة بن عامر .. لا جمع كلب» (٣٤٠) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا من باب نقل اللغة عن فهم خاطئ

للشعر كما زعمت النيبيرية أن الزان بمعنى التخمة ، لأنها فهمت هذا البيت فهماً خاطئاً :

مصحح ليس يشكو الزان خثله

ولا يخاف على أمعائه العرب (٣٤١)

* * *

(٣٣٩) الصحاح في اللغة والعلوم ٢/٤٤٧ .

(٣٤٠) القاموس المحيط ٤/٣٨٩ .

(٣٤١) انظر كتابي من أشعار النواسر ١/٢٩ ، ومن الشعر لمحبوب بن سعد الفصام .

٢٦ - المسألة السادسة والعشرون : معاني الثناء ، والحمد ، والمدح ، والشكر ... تحقيق كلام اللغويين والمفسرين والتعليق عليه بوقفات نفيسة ، وبيان أن الآلاء تعني الشكر وتعني المدح وذلك في معرض الرد على الجاحظ وغيره في تفسير الآلاء في إحدى آيات سورة الرحمن بأنها امتنان بنار جهنم للتحذير ، ومناقشة بعض الشراح في تفسيرهم لتعميد الزمخشري في استفتاحه للكشاف ، وخلال ذلك الإشارة إلى أهمية كتب الحواشي في كل فن ، وبيان أن الفضيلة ممدوحة والإفضال مشكور ، وبيان أن القرآن نعمة ، وأن تسهيله نعمة ، والدعوة إلى إطلاق بلوغ الغاية على اتصاف الله بدل عبارة صيغة المبالغة :

اللغة العربية عبقرية ليس فيها ألفاظ متعددة تدل دلالة مطابقة على معنى واحد ، لأن هذا فضول .

بل كل لفظين دلا على معنى واحد فأنحدهما أو كلاهما مجازي .

وليس فيها لفظ واحد يدل على معنيين متناقضين إلا أن يكون أحد الاستعمالين مجازياً ، أو يكون معنى اللفظ ملحوظاً في المتناقضين مثل الصريم الليل والنهار ، لأن كل واحد ينصرف عن صاحبه .

وأضرب المثال بأربعة ألفاظ هن : الثناء ، والحمد ، والمدح ، والشكر .

فالثناء الأصل فيه مادة التكرار (٢٢٢) .

قال الراغب : «والثناء ما يُذكر في محامد الناس فيثنى حالاً فحالاً» (٢٢٣) .

قال أبو عبد الرحمن : إذن الثناء في الحمد والمدح مجاز ، ومتعلق المجاز التكرار ، وحقيقة المجاز تخصيص التكرار في المدح والحمد بحيث يسمى الثناء حمداً ومدحاً مجازاً .

والحمد الأصل فيه ضد الذم : أي ذكر الفضائل الجمالية والكمالية المسماة فضائل .

والمدح كالحمد في أنه ذكر للفضائل ، ولكنه يتميز عن الحمد بأنه ذكر للفضائل بكلام جميل (٢٢٤) .

وأما الشكر فجعل له ابن فارس أربعة أصول .

وقد قلت في مباحثي : إن أصول ابن فارس تُقبل على أنها معانٍ جامعة لا على أنها أصول حقيقية .

قال ابن فارس عن أصل الشكر بصيغة التمريض : «ويقال : إن حقيقة الشكر الرضا باليسير» (٢٢٥) .

(٢٢٢) مقاييس اللغة ١/٣٩١ .

(٢٢٣) المفردات ص ٨٢ .

(٢٢٤) مقاييس اللغة ٥/٢٠٨ .

(٢٢٥) السابق ٢/٢٠٧-٢٠٨ .

قال أبو عبد الرحمن : هذا هو الأصل الحقيقي ، ولهذا قيل في المثل : أشكر من بركة .

ذلك أنها تخضر من الغيم من غير مطر !! .

ويدخل في ذلك الحلوة الشكرة إذا حقل ضرعها بحظ من المرعى .
وأما شكرت الشجرة إذا كثر فيؤها ، فإنها في مقام من **يشكر** .

ويدخل في ذلك الشكير وهو ما ينبت من ساق الشجرة ، لأن الحلوة تاكله فتكون شكرة .

وهي بلدي شقراء الشكير - بالتصغير والتضعيف - لأنه كان فيها شكير .

وشكر النكاح لا يخرج عن ذلك إما لأنه مشكور ، وإما لأنه يكفي منه اليسير .

ونقل الراغب الزعم بأن الشكر مقلوب الكثير بمعنى الكشف^(٢٣٦) ، وهو مجرد دعوى .

ثم توسع بمعنى اللفظ مجازاً ، فاطلق الشكر على الثناء وإن كان عن معروف كثير غير قليل .

ويختلف الشكر عن المدح والحمد ومطلق الثناء بأنه ثناء على معروف يصل من المثني عليه إلى المثني .

قال أبو عبد الرحمن : وبهذا تعلمون أن كل لقاء بين تلك الألفاظ الأربعة فإنما هو لقاء بين تعبيرات مجازية تمنع من دلالة المطابقة .

ولقد فرّق المفسرون تفريقاً لا وجود له في اللغة ، فقد زعم الراغب أن الحمد أخص من المدح وأعم من الشكر ، لأن الحمد فيما كان عن اختيار^(٢٣٧) .

وقال أبو سعيد ناصرالدين عبدالله بن عمر الهيثمي في تفسيره : « الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها ، والمدح هو الثناء على الجميل مطلقاً .

تقول: حمدت زيداً على علمه وكرمه ، ولا تقول : حمدته على حسنه . بل مدحته .

وقيل : هما أخوان .

والشكر مقابلة النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً . قال :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة

يدي ولساني والضمير المحجبا

فهو أعم منهما من وجه وأخص من آخر .

ولما كان الحمد من شعب الكثير : أشيع للنعمة ، وأدل على

مكانها - لخباء الاعتقاد ، وما في أدب الجوارح من الاحتمال -

جعل رأس الشكر والعمدة فيه .

فقال عليه الصلاة والسلام : الحمد رأس الشكر .. ما شكر الله من لم يحمده .

والذم نقيض الحمد .

والكفران نقيض الكثر . ا . هـ .

وقال مصليح الدين مصطفى بن إبراهيم ابن التمجيد متعقباً :
«قوله : والمدح هو الثناء على الجميل مطلقاً :

جعل - رحمه الله - الحمد أخص مطلقاً من المدح .

ومصاحب الكشف - رحمه الله - جعلهما أخوين حيث قال :
«الحمد والمدح أخوان» .

ومن الشائع في كتبه أنه أراد بلفظ الأخوين في أمثال هذا المقام معنى الاشتقاق الكبير ، وهو أن يكون بين اللفظين اشتراك في الحروف الأصول مع التناسب في المعنى كالجيد والجنب .

أو معنى الاشتقاق الأكبر ، وهو أن يشترك اللفظان في أكثر الحروف فقط كالفلق والفلج مع اتحاد في المعنى أو تناسب .

فمجرد الحكم بأنهما أخوان لا يدل على أنهما مترادفان .

لكن سوق كلامه في الكشف ، وصريح كلامه في الفائق - حيث قال فيه : الحمد هو المدح والوصف بالجميل - يشعر بأن مراده بالأخوين أنهما مترادفان .

ولذا جعل نقيض الحمد الذم الذي هو نقيض المدح حيث قال :
«والحمد نقيض الذم ، والشكر نقيضه الكفران» .

وقال الشريف الجرجاني - رحمه الله - في بيان قوله : الحمد والمدح أخوان : أي هما مترادفان .

ويدل على ذلك أنه قال في الفائق : «الحمد هو المدح والوصف بالجميل» .

وقال ابن التمجيد : لا دلالة لقوله هذا على ذلك المعنى ، لصحة مثل هذا الحمل في كل عام مع الخاص كقولك : الإنسان هو الحيوان ، وزيد هو الإنسان .

مع أنه لا ترادف بين لفظي العام والخاص ، فيجوز أن يكون المدح أعم من الحمد ، ويكون قوله : الحمد هو المدح : من قبيل حمل العام على الخاص .

فعلى هذا : من أين يدل قوله : الحمد هو المدح والوصف بالجميل : على أنهما مترادفان ؟

ويمكن أن يجاب عنه : بأن مراده أنه تعريف اسمي معناه : أن مسمى الحمد هو مسمى المدح .

وحينئذ يكونان مترادفين ، لأن المعرف يساوي المعرف سواء كان في التعريف الحقيقي أو الاسمي .

قال الطيبي رحمه الله : قوله : الحمد والمدح أخوان : أي متشابهان لا مترادفان .

وأعلم أن ما هنا ألفاظاً متقاربة المعنى متدانية المقرئ ، وهي : الثناء ، والحمد ، والمدح ، والشكر .

فالتناء الذكري بالخير مطلقاً .. قال الراغب : التناء ما يذكر من محاسن الناس فيثنى حالاً فحالاً :

وقال الجوهري : أثنى عليه خيراً ، والاسم التناء .

والشكر التناء على المحسن بما أولى له من المعروف .

والحمد نقيض الذم .

والمحمد الذي كثرت خصاله المحمودة .

والمديح التناء الحسن .

وقال الإمام : المدح أعم من الحمد ، لأن المدح يحصل للعاقل وغيره ، والحمد لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان والفضائل .

ومن ذلك قول المصنف رحمه الله : الحمد هو التناء على الجميل مطلقاً .

قال الراغب : كل شكر حمد ، وليس كل حمد شكراً .

وكل حمد مدح ، وليس كل مدح حمداً .

وقال الإمام : وإنما خص الحمد هاهنا بكون المدح ليؤذن بالفعل الاختياري ، وكون الشكر ليعم الإحسان والفضائل .

قال أبو عبد الرحمن : هاهنا وقفنا نفيسة :

الوقف الأولى : أن الفضائل غير الاختيارية تحمد وتمدح

كالفضائل الاختيارية بلا فرق فكما أمدح ليلى على عفتها وأحمدتها :

أحمد لها أنفها الأتقى وأمدحها !!

الوقف الثانية : الفارق بين المدح والحمد أمران :

أحدهما لفظي : وهو أن الحمد أعم ، لأنه يكون بالكلام الجميل وبالكلام العادي .

وثانيهما بلاغي : وهو أنك تحمد ليلى أنفها الأتقى وتمدحها بأنفها

ولا تحمدتها هي ، وأنتك تمدح أنفها وتمدحها بأنفها ولا تمدحها هي .

وأنتك تحمد عفة ليلى وتحمدتها هي ذاتها ، وتمدح عفتها

وتمدحها هي .

والسر في ذلك - بلاغة لا لغة - : أن الفضيلة تحمد لذاتها ،

ويحمد حاملها لوجودها به (فالحمد عائد لها) ، ويحمد لإيجاده لها

(فالحمد عائد له) .

ولا يحمد حامل الفضيلة لذاته حمل إيجاد إلا إذا كان فاعلاً لها .

ولهذا تحمد ليلى وتمدح لأنفها عفيفة .

وتمدح ولا تحمد لأن أنفها أتقى ، وإنما يحمد الأنثى ، وتحمد به

وجوداً لا إيجاداً .

الوقف الثالثة : الشكر حمد ومدح إلا أنه عن خصوص حمد

ومدح لأنه عن نعمة خاصة بالشاكر .

والله سبحانه الحمد كله في ذاته وأفعاله ، فهو محمود لأنه رحيم ،

ومحمود لأنه راحم .

والله سبحانه المدح كله ، لأنه أحق أن يحمد بأجمل كلام وأحسنه .

والله سبحانه الشكر كله ، لأن كل نعمة بنا فمنه .

الوقف الرابع : وردت النصوص بحمد الله لأن الحمد أعم من ناحية أسلوب الحامد ، فهو يحمد جل جلاله بأرقى أساليب المدح ، ويحمد بقدرة العبد على التعبير ، ويحمد بالقلوب وإن لم يكن ثمة كلام بوصف بالجمال .

وأورد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قول الله تعالى : ﴿ لَبَّايْ آلَاءَ رَبِّكَمَا نَكْذِبَانِ ﴾ دليلاً على أن الله امتن على عباده بنار جهنم أمادنا الله منها ، لأن آية الامتتان هذه وردت مباشرة بعد قول الله تعالى : ﴿ يَرْسِلْ عَلَيْكُمَا شَوَاظٍ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ [سورة الرحمن/ ٣٥] .

ووجه أبو عثمان المنة بأن في الوعيد بها الزجر عما يطفئ ويردي .. أما الوقوع فيها فما يُشك أنه البلاء العظيم .
وأورد قول الله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال/ ٤٢] .

فكانه يشير إلى نعمة البيان والإيضاح في التحذير بها .
وبين أبو عثمان أن عقاب الآخرة بلاء صرف وخزي بحت .
أما عقاب الدنيا قبلية من وجه ولأنه زاجر (٣٣٨) .

(٣٣٨) الميوان ٩٩/٥ - ١٠٠ .

قال أبو عبد الرحمن : لا معنى للتقريع في هذا الموضع ، لأن العذاب المذكور في الآية عذاب آخرة .

قال أبو عبد الرحمن : ورأيت مفسرين محققين يصلون إلى هذا المعنى الذي ذكره الجاحظ ، فالشوكاني في تفسيره يذكر من الآلاء الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشر والرفوب في الخير .
وقال الشيخ ابن سعدي بالنص : ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم ، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب ذكر منته بذلك فقال : ﴿ لَبَّايْ آلَاءَ رَبِّكَمَا نَكْذِبَانِ ﴾ ا . ه .

وقال الحافظ ابن كثير عن قول الله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ . لَبَّايْ آلَاءَ رَبِّكَمَا نَكْذِبَانِ ﴾ [سورة الرحمن/ ٤٢-٤٥] : « ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه .. وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه : مما يترجمهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك : قال ممتناً بذلك على برئته : ﴿ لَبَّايْ آلَاءَ رَبِّكَمَا نَكْذِبَانِ ﴾ .. » .
قال أبو عبد الرحمن : كل هذا التفسير مبني على أن الآلاء بمعنى النعم التي يكون بها الامتتان ، ومبني على أن الآلاء ليست قدرة الله التي تحبس الخلق يوم القيامة فلا يفرون عن عدله ، وليست قدرة

الله على تحقيق إيعاده بنار جهنم ، وإنما الآلاء ما في ذكر هذه الأمور من زجر .

قال أبو عبد الرحمن : تتعلم لغة العرب من كتاب الله بيقين وثقة أكثر من تعلمنا لغة العرب من كلمة أعرابي ، أو بيت شاعر ، أو مثل هربي شرود .

وقد تتبعنا سورة الرحمن التي تتكرر فيها الآية الكريمة : ﴿ لَبَّايْ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّهَانِ ﴾ فوجدت الآية ترد بعد نعم تقتضي الشكر كورودها بعد الامتثال بوضع الأرض للأنام بفواكهها ونخلها . وترد بعد أمور تقتضي مدح الرب لذاته سبحانه - وورودها في هذا المعنى الأخير هو الأكثر - كورودها متعلقة بقدرة الله على خلق البشر من صلصال ، وخلق الجن من نار .

أو متعلقة بربوبيته وملكه ككونه رب المشرقين ورب المغربين . أو متعلقة بصدقه وقدرته معاً بتحقيقه وعده مثل ورودها بعد الخير عن جمع الناس ليوم القيامة ، وورودها بعد الخبر بإنزال الناس منازلهم من الجنة ، أو النار ، وتعداد ما فيهما .

ولا يحسن حاسب أن ورود الآية الكريمة خلال الحديث عن نعيم الجنة يعني تعلقها بشكر النعمة ، لأن الثقلين المخاطبين ليسوا كلهم من أهل الجنة فيطالبون بشكر نعيمها ، ولأنها وردت خلال الحديث عن نعم النار .

قال أبو عبد الرحمن : فلما صح هذا من سياق سورة الرحمن علمنا أن الآلاء ليست بمعنى النعماء دلالة مطابقة .

بل علمنا أن النعم بعض من معنى الآلاء ، وأن الآلاء ذات معنيين يتعلق بهما الحمد الذي يكون مدحاً وشكراً .

فالمعنى الأول للآلاء ما صدر عن صفة ممنوحة كالقدرة والعدل ، والمعنى الثاني ما صدر عن فعل مشكور ، وذلك جميع النعم . وإذا هذا هو المعنى فالآلاء بعد قوله تعالى : ﴿ يَرْسِلْ عَلَيْكُمَا شَوْاظٍ ... ﴾ تذكير بقدرة الله ، فما صدر عن قدرة الله فهو من الآلاء والآلاء بعد قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ... ﴾ تذكير بصدق الله وعده معاً .

واستفتح الزمخشري تفسيره فقال : « الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، ونزله بحسب المصالح منجماً ، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالإستعاذة مختتماً ... وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً .

وفصله سوراً ، وسوره آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات ... إلخ » .

قال أبو عبد الرحمن : وبين السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني في حاشيته على الكشاف وجه الحمد على الأمور المذكورة في استفتاح الزمخشري ، فقال : « دل بلامي الجنس والملك - يعني

الأمين في قوله : الحمد لله - على اختصاص الحمد به تعالى ، ثم وصفه بإنزال القرآن وتنزيله وما أرفقهما به رعاية لبراءة الاستهلال ، وتنبيهاً على أنه نعمة جزيلة تستحق أن يحمد عليها .
وذكر للقرآن أوصافاً كمالية تناسب إعجازه الذي سيصرح به ، ويهد من أعضاد كونه نعمة محموداً عليها .

قال أبو عبد الرحمن : وتعقبه ابن الخطيب في حاشيته على حاشية الجرجاني - ولم تطبع بعد - ومنها نسخة بمكتبة عارف حكمت بطيبة الطيبة برقم ٢٠٦ .

قال ابن الخطيب في تعقبه : «إن قلت : ذكر تلك الأوصاف لا يدل على كونها نعمة .. فضلاً عن كونها نعمة جزيلة ، إذ مجرد الذكر لا يقتضي إلا كونها محموداً بها ، وهو لا يدل على كونها نعمة ، إذ المحمود به ربما يكون من الفضائل دون الفواضل .

ولو سلم دلالاته على كونها نعمة جزيلة فلا نسلم دلالاته على استحقاق أن يحمد عليها ، لأن كون الوصف محموداً به لا يقتضي كونه محموداً عليه ، فإنه ربما يحمد بوصف غير اختيارية مع أنها لا يستحق بأن يحمد عليها .

فلا تنبيه بذكر الأوصاف المذكورة على ذلك الاستحقاق .

وإن فرض دلالاته على كونها نعمة قلنا : هذا مبني على المتبادر من تعليق الحمد بالوصف المجري على الله تعالى في مقام الشكر على نعمه الجسام ، فإن الظاهر هناك أن يكون ذلك الوصف نعمة جزيلة

يشكر عليها بالحمد عليها وإن كان ذلك الوصف محموداً به .. اللهم إلا أن يمنع مانع ككون الوصف غير إنعام مثلاً . ا . هـ .

قال أبو عبد الرحمن : الحواشي ، وحواشي الحواشي تحرص على حل العبارات ، والدفاع عنها ، أو الإيراد عليها .

وقد ذكرت في مناسبات عديدة أهمية كتب الحواشي ، وأنها تحفل بتوارد علمية في غير الفن الذي ألف فيه المتن الذي كتبت عليه الحواشي ، ونقائس الحواشي العلمية تأتي على منهج فكري يميز الفروق الدقيقة ، ويلغي الفروق غير المؤثرة .

وأحياناً يفرقون بالعبارة ، وأحياناً يفرقون بالفكرة .
والمحشي ابن الخطيب هاهنا فرق بالعبارة بين معنيي الحمد ، وهما المدح والشكر .

فعبّر عن صفات المدح بالفضائل ، وعبّر عن صفات الشكر بالفواضل .

قال أبو عبد الرحمن : ولم يوفق في التفريق ، لأن العبارتين جمع لفاضلة وفضيلة ، وهما بمعنى واحد يعني صفات المدح ، والتفريق التعبيري الصحيح يكون بصفات الفضيلة وصفات الإفضال .

فالفضيلة معدوحة ، والإفضال مشكور .

قال أبو عبد الرحمن : ومقدمة كتابي : «الحباء من العيبة» - وهي خطبتا جمعة - تفريق بين المدح والشكر لغة وشرعاً .

والحمد لغة يدل على معنيين معاً هما المدح والشكر .

وابن الخطيب هاهنا غلط على السيد الشريف الجرجاني ، فالجرجاني لم يدع أن أوصاف القرآن نعمة ، ولم يقل إنها نعمة . وإنما ذكر أن القرآن نعمة ، وقال : « .. أنه نعمة » - بضمير المفرد - . ولا يشك أحد لي أن دين الله نعمة ، ورسله نعمة ، وكتبه نعمة . ونحن نحمد الله على نعمة الإسلام .

قال أبو عبد الرحمن : ولو قيل عن أوصاف القرآن بأنها نعمة لم يرد ما أورده ابن الخطيب ، لأن القرآن إذا كان نعمة فتسهيله ، وحسنه نعمة أيضاً .

وشيئ أقوله هاهنا عن صفات الخالق سبحانه وصفات المخلوق . صفات المدح في المخلوق تكون ادعاء ، ويكون المخلوق فيها غير واحد .

وإذا وردت في مثل صيغة «فعليل» سميت صيغة مبالغة .

وصفات الله سبحانه لا تكون إلا على الحقيقة ، ويكون ربنا يبلوغها متفرداً .

ولهذا دعوت في كثير من المناسبات إلى تسمية صفات صيغ المبالغة بصيغ بلوغ الغاية إذا تعلقت الصفة بالرب سبحانه . والعبد المخلوق قد يمدح بالصفة الحسنة ولا يشكر عليها .

أما ربنا سبحانه فكل صفة يمدح بها فهو مشكور عليها ، لأن الله سبحانه رب ، والكون كله مقتضي ربوبيته .. فكان الرب وحده لأن

له الكمال المطلق .

فالرب مشكور على خلقه ، لأنه ممدوح بأنه الخالق ، فهو إذن مشكور بأنه الخالق .

وفي كتابي : «لن تلحد» برهنت على صحة البرهان الأنطولوجي ، ولحمة ذلك البرهان دلالة العظمة على الأعظم ، ودلالة لطف الخالق على اللطيف .

فالعرش العظيم المخلوق دليل على الخالق الأهم سبحانه ، والنملة اللطيفة دلالة على الخالق اللطيف .

ولا نقول : «الألطف» إلا بمعنى كثير اللطف دقيقه ، وذلك لطرد التلازم بين أسماء الله وصفاته كطرد التلازم بين عظيم وإطيف طرداً يليق بحق الله في الكمال والتنزيه .

فكل خلق الله مقتضى صفات الله ، وكل خلقه رحمة وحكمة ، فهو معنوح بصفات مشكور عليها في أن واحد .

نمدحه ونشكره مثلاً على صفة السمع والبصر لأننا نحن الذرة النائية في كون الله الرحيب لا نغيب عن سمع الله وبصره .

قال أبو عبد الرحمن : وبهذا يبين بطلان الإطلاق في قول ابن الخطيب : «لأن كون الوصف محموداً به لا يقتضي كونه محموداً عليه» .

قال أبو عبد الرحمن : إن لصفات المدح الحسنى المتعلقة بالله سبحانه خصوص مزية ، فهو يشكر عليها كما يمدح بها .

قال أبو عبد الرحمن: وفي عبارة من عبارات ابن الخطيب جفاء وذلك قوله عن الله سبحانه وتعالى: «... مع أنها لا يستحق بأن يحمد عليها».

وردد يستحق بالياء التحتية، والأسلم أن تكون بالتاء الفوقية فيكون نفي الاستحقاق عن الصفة لا عن الله سبحانه... والإيراد هاهنا - لو ورد - إنما يتعلق بالجرجاني، ولا يرد على الزمخشري لأن الحمد يعني المدح والشكر.

* * *

٢٧ - المسألة السابعة والعشرون: الكلمات الثلاثي ابتلى بهن الله خليله إبراهيم عليه السلام:

أول ذكر لإبراهيم الخليل في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة/١٢٤].

اختلف المفسرون في الكلمات فعدها بعضهم خمسا، وعددها بعضهم عشرا، وذكر في تعيينهن ابن الجوزي خمسة مذاهب أشهرهن أن المراد خال الفطرة كالختان^(٣٩).

(٣٩) انظر زاد المسير ١/ ١٤٠، وتفسير القرطبي ٢/ ٩٧ - ٩٨.

قال أبو عبد الرحمن: جعل الله إياه إماماً تكريم له ومقام شرف ونتيجة ابتلاء وليس هو الابتلاء ذاته.

وعلى اختيار الشوكاني يكون المعنى أن الله ابتلى إبراهيم فأتتم ابتلاءه إياه، وهذا مدلول لا يعقل، لأن خير الله بالابتلاء كافٍ من الخير بإتمام الابتلاء.

وإنما تتشوف الأذهان إلى المبتلى بصيغة اسم المفعول وهو إبراهيم عليه السلام كيف فعل؟... فجاء الخبر بأنه أتم ما ابتلى به، والصواب أن الكلمات تقتضي شيئاً طلب من إبراهيم اعتقاده أو قوله أو فعله أو كل ذلك، وأن الإتمام أداء إبراهيم ما طلب منه، وأن جعله إماماً ثمرة الابتلاء ونتيجة التمهين.

ومن جعل الكلمات أفعالاً يفعلها إبراهيم - عليه السلام - جعل الإتمام بمعنى عمل إبراهيم بهن.

ومن جعل الكلمات دعوات ومسائل صدرن عن إبراهيم جعل الإتمام من قبل الله بمعنى إجابة دعاء إبراهيم الخليل - عليه السلام -.

قال أبو عبد الرحمن: والقرآن يفسره القرآن، وقد قال الله عن الخليل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [سورة النجم/٢٧].

فعلم أن الإتمام من قبل إبراهيم عليه السلام. وقال الشوكاني عن خصال الفطرة التي كان يفعلها إبراهيم

- عليه السلام - كالختان وقص الشارب بعد أن ذكر ما صح من النصوص وما لم يصح : « وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ ، ولا جاءنا عن طريق تقوم بها الحجة تَعَيَّنَ تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول : إنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه بقوله : ﴿ قال إن جاعلك ﴾ ، إلى آخر الآيات .

ويكون ذلك بياتاً للكلمات أو السكوت وإحالة العلم في ذلك إلى الله سبحانه .

وأما ما روي عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم في تعيينها ، فهو أولاً أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة ^(٢٤٠) فضلاً عن أقوال من بعدهم .

وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك ، وأن له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمتنع معه العمل ببعض ما روي عنهم دون البعض الآخر ، بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس ، فكيف يجوز العمل بذلك ؟ .

وبهذا تعرف ضعف قول من قال : إنه يصار إلى العموم ، ويقال : تلك الكلمات هي جميع ما ذكر هنا .. فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة ^(٢٤١) .

(٢٤٠) قال أبو عبد الرحمن : في هذا التعبير جفاء لإطلاقه ، وإنما يكون سلب الحجة عند اختلافهم ، أو وجود نص ينفي اجتهاد واحد أو جماعة منهم رضوان الله عليهم .

(٢٤١) فتح القدير ١/ ١٣٩ - ١٤٠ .

قال أبو عبد الرحمن : كلام الشوكاني هو الصواب إلا في واحدة ، وهي اعتباره الكلمات المرادة ما ورد بقوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ .

وهذه الكلمات لا تَعَيَّنُهن ولا نحصيهن إذ لم يرد بذلك نص ولا إجماع .

ولكن إذا صح بنص آخر أن الله ابتلى إبراهيم بشيئاً معيناً ، وأن إبراهيم وفي بذلك ترجح عندنا أن ذلك داخل فيما أخبر الله عنه من ابتلاء لم تعينه الآية المذكورة ولم تحصه .

ووجه الترجيح وجود صفة الابتلاء من الله والوفاء من الخليل .

ووجه الاحتمال المرجوح أن يكون المراد الكلمات (التي سبقت إعلام الله خليله بأنه إمام) لا تتناول كل حادثة ابتلاء ووفاء في حياة إبراهيم ، بل المراد الابتلاء والوفاء الذي سبق الإعلام .

وهذا الاحتمال في حكم الاحتمال المربود ، لأن المعقول أنه لا ابتلاء ثانية بعد الوفاء والإعلام بالإمامة ، فهو رجحان كاليقين .

ومن الابتلاء المعين بالنص قصة أمره بذبح ابنه فاتم أمر ربه ، فتداركه رحمة ربه بإنقاذ ابنه الذبيح .

فهذا يترجح دخوله في الكلمات .

* * *

٢٨ - المسألة الثامنة والعشرون : دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق وترايط المواضع من تأويل سورة النبأ ، وامتناع التأويل به ولم يتساءلوا عن النبأ العظيم ؟ ، وتعليل الاستخبار ثم الإخبار ، وترجيح تقدير عامل (عن النبأ) ، وبيان أن النبأ العظيم هاهنا البعث فحسب ، وبيان العلاقة بين الخبر والاستخبار ، وبراهين السورة على البعث ، وبيان أن المعصرات السحب فحسب ، وخلال كل ذلك بيان المناسبة بين كل موضوع وآخر :

قال أبو عبد الرحمن : هذه مسألة من التفسيرات ترقق القلوب ، وتذكر أهل التلاوة بمراجعة التأويل .

قال أبو عبد الرحمن : وأتبع منهجاً يأخذ بالخلاصة ، ويقرب من فهم مراد الله يعيدا عن ركाम التفاسير إذا بعد ذلك الركام عن علم الدلالة ، وهذه المسألة عن سورة النبأ التي تألف من المعاني التالية :

١ - الاستقهام عن الشيء الذي يتساءل عنه الكفار فيما بينهم ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾ ؟ .

وهم كفار لأن في السياق وعيدا لهم ، وتكريضا بهم يوم القيامة ببيان حال أهل النار الذي صفتهم صفتهم في إنكار البعث ، وأنهم لا يرجون حساباً .. وهم كفار مكة لأن السورة مكية فلا تنصرف عن أهل مكان التنزيل إلا بدليل يمنع من ذلك ويعين غيره .

٢ - تفسير وتعيين الأمر الذي تسأل عنه الكفار بأنه البعث .

والتأكيد بأنهم في المستقبل سيعلمون ، وأنهم متوعدون بذلك العلم . وكل ذلك دلالة قوله تعالى : ﴿ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ﴾ . لأن في الصيغة زجراً وتعليقاً بالمستقبل .

والسياق أخبر بالنفخ في الصور ، ثم البعث ، ثم فصل أحوال يوم القيامة ، ومهد لنفي الريب في وقوعه بذكر بعض الدلائل على قدرة الله المنظور إليها في الدنيا ، فهي شاهد على القدرة التي يوصفون بها يوم القيامة .

٣ - تعداد بعض البراهين الحسية على قدرة الله حسبما بينته أنفاً ، وذلك منذ قوله تعالى : ﴿ ألم يجعل الأرض مهاداً ﴾ .

٤ - تأكيد وقوع يوم البعث ، وبيان حال الخلق في الدارين ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ و : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ و : ﴿ إنا أنذرناكم ﴾ .

وتضمن تأكيد الوقوع التعريض بالكذب بالبعث والآيات والجزاء فقد ذكر في السياق أن لبثهم في النار من أجل ذلك . وهذا إيحاء إلى موضوع التساؤل في أول السورة ، وأنه تساؤل شك وإنكار وتكذيب .

قال أبو عبد الرحمن : وبناءً على كل ماضى يمتنع التأويل الذي ورد في قول بعضهم : أن المراد : لم يتسائلوا عن النبأ العظيم ؟ . لأن « لم » خلاف « عم » ، ولا يحل الخروج عن الظاهر بغير برهان .

ولا يصح أن يقال : عن أي شيء يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ .
ذلك أن سياق السورة دل على إنكار الله تسأولهم ، ولم يدل على
إنكار شيء سبب تسأولهم ، فليس المعنى : عن أي شيء صدر تسأولهم ؟ .
وإنما المعنى : عن أي شيء يتساءلون ؟ .
وأحبط الله تسأولهم ومقتته ، لأنه تسأول اختلاف بين شك وإنكار
وهنا في أم عظيم واضح الحجة .
فالله العظيم لا يسأل عن تسأولهم « ما هو » عن غيباب علم
سبحانه وتعالى طَوْماً كبيراً .
وإنما يسأل سؤال الخبير العالم ، لأنه سبحانه أخبر عن علمه
بتسأولهم بقوله : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ .
وجاء الأسلوب بالاستخبار ثم الإخبار إيناساً لعبده ورسوله
محمد ﷺ بأنه معه عالم بما يصدر عن قومه المكثبين له .
كما أنه سؤال من تكفل بالجواب ، فيكون أسلوب الاستخبار
مشوقاً إلى معرفة الخير .
والقرآن الكريم بأسلوب لغة العرب وبلاغتها .
ولهذه الظواهر البلاغية ولما أسلفت من منع تعلق : ﴿ عن النبأ ﴾
بقوله تعالى : ﴿ يتساءلون ﴾ أصبح تقدير عامل : ﴿ النبأ ﴾ هو الظاهر .
وصار تعليق : ﴿ عن النبأ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ يتساءلون ﴾ خلاف
الظاهر هاهنا .

قال أبو عبد الرحمن : ويمتنع أيضاً تأويل ما اختلفوا فيه بأنه
القرآن الكريم أو محمد ﷺ .
بل هو البعث بيقين ، لأن السياق تمهيد للإخبار بالبعث ، ثم خبر
بوقوعه ، وليس للقرآن الكريم ، ولا للنبي ﷺ ذكر في السياق .
وقوله تعالى في سياق آخر : ﴿ قل هو الله العظيم انعم به
معرضون ﴾ [سورة من ٦٧-٦٨] وصف للقرآن الكريم بأنه لها عظيم .
وهو نبأ عظيم بلا شك .
والساعة نبأ عظيم .
ودليل التصحيح قائم على إطلاق النبأ العظيم على القرآن
والبعث ، ولكن دليل الترجيح عين هاهنا البعث وأنه المراد .
واختلاف الكفار في القرآن لا يمنع من أن المراد اختلافهم في
البعث ، فمنهم منكر يقول : ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن
بمنشرين ﴾ [سورة النخان/ ٢٥] .
وقد قال تعالى عن المنكرين : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا
نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم
إلا يظنون ﴾ [سورة الجاثية/ ٢٢] .
وربما سقط الشاك من حضيض الشك إلى حضيض الإنكار
معاندة ومظاهرة لأكابر مجرمي قومه .
قال أبو عبد الرحمن : ويمتنع أيضاً تفسير المتسائلين بأنهم

المؤمنون والكافرون ، أو محمد ﷺ والكفار ، ذلك أن المتساثلين كلهم متوعدون بالنار في السياق .

قال أبو عبد الرحمن : وتلخص من هذا أن سورة عم استخبار وإخبار ، وأن الاستخبار عن موضوع تساؤلهم .

ثم تلاه استخبار عن مظاهر القدرة والمنة التي يشاهدونها .

فلما جاء الخبر عن وقوع الحقيقة التي أنكرها بأسلوب تأكيد وتهديد ، ووقع الخبر مباشرة علمنا ضرورة دلالة السياق ، وأن الذهن العربي يوجب أن يكون بين الاستخبار والخبر علاقة .

كما أن الخبر إخبار بأنهم سيعلمون لا محالة علماً يتضمن تهديد الله لهم ، لأنهم أنكروا حقيقة أخبر بها العليم القدير الحكيم ، فكان إنكارهم عناداً لأن الأمر واضح ، ولأن علمهم بالأدلة الحشوية بقدرة الله يمنع من الوسوسة في قدرة الله على البعث .

فالحقيقة واضحة لولا العناد .

وتلاه إخبار تأكيدى بوقوع البعث وتفصيل أحوال الناس فيه ، وتضمن التعريض بتكذيبهم بالبعث وأنه سبب دخولهم النار .

قال أبو عبد الرحمن : والدلائل الحسية التي رتب الله عليها سهولة الإيمان بالبعث لم تأت بصيغة الخبر ، لأنهم لا يشكون فيها .

وإنما جاءت بالتساؤل لتقرير دلالتها على قدرة الله وإيقاظ هذه الدلالة في نفوسهم .

ولهذا تضمنت ثلاثة أنحاء من المشاهدة :

النحو الأول : مشاهدة يعاشونها في أنفسهم وفي الآفاق في الأرض التي يقرون عليها .

وذلك من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ .

والنحو الثاني : مشاهدة لما فوقهم مما هو بعيد عن ملاستهم بأيديهم وأرجلهم ، فهم لا يرون السبع الشداد ولا يعبرونها ، ولكنهم يعلمون صحة هذه المشاهدة البعيدة ، لأن ماثورهم الثقافي والتبني يحقق لهم ذلك ، ولأنهم يرون بعض هذا المشهود وهو الشمس ، ويشهدون آثاره فيتعاقب الليل والنهار .

والبرهان باقٍ لكل من ملكه الله وسياق علمية يدرك بها علماً أكثر عن الآفاق العلوية .

والنحو الثالث : موجود يشهدونه مؤثراً بإذن الله ، وذلك هو المطر ، ويشهدون آثاره ، وذلك هو النيات .

قال أبو عبد الرحمن : والمعصرات السحب المليئة بالماء ، وتفسيرها بالرياح العاصرة غير مقبول .

فدليل التصحيح يعود إلى جعل الرياح معصرات بمعنى عاصرات . وعلى فرض صحته فذلك دليل تصحيح لا يد معه من دليل ترجيح . والمعصرات أصح دلالة على السحب ثوات المطر ، والحمل عليها أرجح لأنها الذي يتزل منها الماء الشجاج .

والأصل الحمل على ظاهر اللغة .
 والبعث الذي وعد الله به ليس هو مجرد الإعادة بل إعادة
 للجزاء، ولهذا كانت الداران ثمرته .
 قال أبو عبد الرحمن : ويوم النفخ في الصور ليس هو يوم الفصل،
 وإنما هو بيان للأزمان المباشرة التي يكون فيها الفصل ميقاتاً من
 النفخ إلى العرض إلى الانصراف إلى دار الجزاء .
 ويوصل الفصل بين ذلك .
 ويوم القيامة منذ النفخ في الصور ، ويطلق على كل أزمائه يوم
 الدين ويوم الفصل ؛ لأن البعث من أجله ، والدارين ثمرته .
 ويوم الفصل هو اليوم الحق الذي وصفه ربنا آخر السورة
 بخصوص معناه لا بعموم مجازيه الشامل لأجزاء يوم القيامة .
 ويوم الفصل الأعم تضمن القيامة وأثارها ، والبعث ، والعرض ،
 الفصل بخصوصه بالصفة التي تكون فيه : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ .
 وختمت السورة بتبشير وإنذار يتضمنان الحث على الإيمان والعمل
 الصالح ، وترك الكفر والشر ، فتنب إلى اتخاذ المآب ، وأنذر بالعذاب .
 قال أبو عبد الرحمن : والعذاب المنتذر به هو ما مضى ذكره من
 عذاب الآخرة ، وعذاب الآخرة قريب لأن العمر محدود ، ومنذ انتهاء
 الأجل يرى الكافر ماله ، ولا يحسب لبثه في القبر إلا ساعة وإن بلغ
 ألفاً من السنين .

قال أبو عبد الرحمن : وعلم الكافر بالبعث يكون عن معاينة عذاب
 الدنيا إذا ضرب له أجل فحل به قبل توبته .
 ويكون عند الغرغرة ويصره حديد .
 ويكون في القبر ويوم الفصل .

* * *

٢٩ - المسألة التاسعة والعشرون : دلالة العبد على الكرم من
 خلال السياق والشرائط من تأويل سورة النازعات ، واللقاء واللقاء
 بين سورتي النازعات والنبا ، وبيان أن جواب القسم : لبعثن ..
 والبرهان على ذلك ، وبيان أن : ﴿ يقولون إلنا لئلا نردودون في الحفرة ﴾
 جملة مستأنفة ، وسر التعبير بالحاضر ، وامتناع القول بأن جواب
 القسم : ﴿ إن في ذلك لعبرة ﴾ ، وبيان أن مآل معنى الحفرة إلى
 معنى الحياة الدنيا ، وتفسير الحاضرة بمعناها اللغوي الذي هو ضد
 الريح فحسب ، وبيان أن المراد بالساهرة الأرض :
 قال أبو عبد الرحمن : سورة النازعات من السور المكية الكريمة ،
 والسور المكية تُعنى بتأكيد البعث ، وبيان حال الناس فيه ، وحال
 الجمادات ، وبيان موقف الكفار من الرسل والكتب ، وموقف الرسل
 والكتب من الشرك والكفر والكفار ، والخبر عن إهلاك الله القرى
 الظالمة .. وكل ذلك في سياق التسلية لمحمد ﷺ ، وأن يعتبر قومه
 بهلاك الأمم قبلهم .

وتأتي أدلة الربوبية والإلهية والكمال من الأنفس والآفاق ، وأدلة

النبوات ، وكل ذلك للإلزام بالعبودية الشرعية ، والبرهنة على البعث .
وسورة النازعات تشارك سورة عم في الخبر المؤكد عن وقوع
البعث .. إلا أن سورة النازعات تميزت بتأكيد الخير بالقسم ، وبتأكيد
الخبر بتكرار الحديث عن البعث وأحواله .. والفرض تأكيد أهميته
والعمل له .

وتشتمل سورة النازعات على المواضيع التالية :

- ١ - إقسام الله بملأنته لتأكيد المقسم عليه وقوعاً وأهمية .
- ٢ - الأمر العظيم الذي أقسم الله على حصوله ، وهو وقوع
البعث ، وصحة الخبر عن حال منكبيه .
- ٣ - التعرّيج على مقالة منكبيه خلال الحديث عنه عند وقوعه ،
لأن المراد قولتهم في الحياة الدنيا ، ليعلم المخاطب عظم حسرة الكافر
وندامتته عند مقارنة جحده واستهزائه بالبعث بواقع هذه الحقيقة
المجسدة الواقعة لا محالة .
- ٤ - تكرار تأكيد وقوع البعث .
- ٥ - ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون لعنه الله ، وأن
تكذيبه وكذبه استمرراً عناداً بعد رؤيته الآيات .
- ٦ - سياق بعض الآيات الحسية الدالة على قدرته وربوبيته
ومنته على خلقه سبحانه وتعالى ليعتبر بها كفار قريش فيؤمنوا
بالبعث ، ويعبدوا ولي النعمة الذي لا ولي غيره .
- ٧ - العودة إلى تأكيد وقوع البعث بتكرار الحديث عنه لبيان

أهميته في حياة المكلف ، ولإيضاح حاله عند وقوع البعث .

٨ - الرد على تساؤل الكفار عن موعد البعث ؟ .

فاما الموضوع الأول : فهو قسم الله بملأنته في قوله سبحانه
وتعالى : ﴿ والنازعات غرقاً . والناشرات نشطاً . والسابحات سبحاً
فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : منذ سنوات نشرت بحثين أثبت فيهما أن
صفات المقسم بهم ما هنا صفات لسيرهم فوقنا في الفضاء والأمكنة
ما بين نازع مغرق في نزع ، ونشط ، وسابح ، وسابق .
والصفة الخامسة عن التدبير وليس عن نوع السير .
والله سبحانه جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ،
فهي تختلف في الخلق كما تختلف في القوة والسير سرعةً وريثاً .
والملائكة - عليهم السلام - جند الله ورسله ، وهم في معهود
الشرع المتولون أمر العباد في الدنيا والآخرة بأمر الله لا يعصونه
ويفعلون ما يؤمرون .

ولا يعهد في الشرع من يدبر أمر العباد بأمر من الله غيرهم ...
فهم يقبضون الأرواح ، ويهلكون من أمر الله بإهلاكه بواسطتهم من
أهل القرى الظلمة ، ويسجلون الأعمال ، ويبشرون المؤمنين بالرحمة
وأنهم أولياؤهم ، ومتهم زبانية تدع الكافرين دعاً ، وتغلهم بالسلاسل .
والكافر يعصي أمر ربه الشرعي في الدنيا ، وأما في الآخرة فهو

الطور بعد القسم : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ ثم قوله ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ .

ويختلف الخبر الوارد هاهنا عن الخبر الوارد في سورة النبأ بأن الخبر عنه في سورة النبأ وقوع البعث والفصل وبيان حال المكلفين في الدارين .

والمذكور في التازعات حال المكلفين من الأعر قبل الفصل ، وبسبب ذلك ما سبق من قوة الرجفة ، وما هو أمامه من هول الموقف . والموضوع الثالث : ما قصة الله من استبطاء الكافر يوم البعث ، ورد الله عليه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يقولون أننا لمدودون في الحفرة . أعدا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذا كرة خاسرة . فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ .

وجملة ﴿ يقولون أننا ﴾ .. الآية ليست وصفاً لما قبلها ولا حالاً ، بل هي جملة مستأنفة ، لأن الرجفة والرعدة والقلوب الواجفة والأبصار الخاشعة أحوال ظرفها يوم القيامة ، وما يقولونه شيئ حصل قبل يوم القيامة .

وجاء التعبير بالحاضر : ﴿ يقولون ﴾ لشيئ مضى قد قالوه ، لأن إنكارهم حقيقة لم تقع خيال كخيال من ينكر الحقيقة حال وقوعها ، والتسبة في التشبيه أن منكر الحقيقة في الدنيا يعاين براهينها الباهرة فهو في حال من ينكرها حين وقوعها وهي أمامه جاهرة .

عبد ذليل لا يستطيع الغياب عن يوم الفصل ودار الجزاء .. لهذا أقسم الله على وقوع الجزاء بجنده من ملائكته الكرام ليتهيب الكافر ذلك الموقف حيث لا ملك إلا لله ، ولا جند إلا جنده من الملائكة الكرام الغلاظ الشداد ، وفي هذا حث على الإيمان ، وتخويف من الملك الديان لو كانوا يعقلون .

وأما الموضوع الثاني فهو المقسم عليه ، وهو البعث المحنوف لفظاً المذكور بظرفه ووصفه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة . تهبها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة ﴾ . وتقدير المقسم به المحنوف : لتبعثن في ذلك اليوم الموصوف مظلوفه .

وهذا المحنوف معلوم للذهن العربي بمدلول لغته ، ويمعهوده من شرع ربه .

فمدلول اللغة أن السياق في السورة عن البعث ، وأن المولى للقسم ظرف موصوف بحقائق البعث .

وصحح حذف المقسم به المتعين بدليل الترجيع - وهو الدليل السياقي الذي أسلفته - : أن العرب تحذف ما قام الدليل على تعيينه باليقين أو الرجحان .

ومعهود الشرع ما ورد من السور التي فيها إقسام من الله على البعث بذكره وذكر صفات مظلوفه كما في قوله سبحانه في سورة

فرد الله عليهم بأنهم بعد زجرة واحدة يكونون على ظهر الأرض .
 والموضوع الرابع : تأكيد وقوع البعث بذكره مرة ثانية ، وذلك ما
 مضى من قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ .. ﴾ .
 وتأكيد خبر الله سبحانه لوقوع البعث بمقابل إمعان الكافر في
 إنكار البعث .

والموضوع الخامس : ما قصة الله بقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَنَا حَدِيثٌ
 مُّؤْتًى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .
 فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى . وَأَهْدِكْ إِلَى رَبِّكَ فَتُخْشَى . فَأَرَاهُ الْآيَةَ
 الْكُبْرَى . فَكَذَّبَ وَصَاحَى . ثُمَّ أَذْهَبَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا
 رَبُّكُمْ الْأَعْلَى . فَاخْذِهِ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ
 لِّمَن يَخْشَى ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : من ضمن كفر فرعون إنكار البعث ، لأنه
 أنكر القادر عليه ربنا سبحانه وتعالى .

وأهلك الله له ولقومه ، ونصر الله موسى وقومه حقيقة تاريخية
 يجب أن يعلموا بها قدرة الله عليهم في الدنيا ، وقدرة الله على بعثهم
 وبعث فرعون وقومه في الآخرة .

ومن العبر المستنبطة عن إيراد القصة ومناسبتها للسياق أنهم
 يعرفون تاريخاً عظم الأمم السالفة - ومنهم فرعون وقومه - بسطة
 أجسام وأعمار وأموال وعلم مادي ، وكفار قريش مستضعفون بالنسبة

لهم ، وقد أخذ الله من هو أقوى منهم ، فحقيق أن يخافوا ويعلموا
 بأنهم أقل خطراً .

فإن شككوا في آثار قدرة الله على الأمم العاتية من سياق التاريخ
 فأمامهم براهمين حسية على قدرة لا يستطيعون جحدها ، وذلك هو
 الموضوع السادس في قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بِهَاهَا ،
 رَفَعَ سَمَكُهَا فُسَوَّاهَا . وَاغْطَشَ لَيْلُهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضُ بِهَاهَا
 ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ، فَبَايَأَ لَكُمْ
 وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

فَخَلَقَ هَذِهِ الْأَجْرَامَ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ كُفَّارِ مَكَّةَ ، وَمَنْ خَلَقَ فِرْعَوْنَ
 وَقَوْمَهُ .. أَلَا فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ بَعْثَهُمْ أَسْهَلُ .

والموضوع السابع : عودة إلى يوم البعث لبيان أحوال المكلفين
 فيه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى . يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
 الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى . فَأَمَّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . لَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
 النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

والموضوع الثامن : تساؤلهم عن موعد قيام الساعة ، ورد الله
 عليهم بأن علمها عنده سبحانه ولا علم لمحمد ﷺ بها ، وإنما مهمته
 الإنذار بها ، وآخر آية بينت معنى قريبها منهم .

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا ، فِيمَ أَنْتَ مِنْ

ذكرها . إلى ربك متهاها . إنما أنت منبذ من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴿٤﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : وبناء على هذا التفصيل لسياق مواضع السورة تمتنع دعوى أن جواب القسم - أي المقسم عليه - قوله تعالى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى﴾ لأن هذه الدعوى إلغاء للظاهر بلا برهان ، وذلك الظاهر أمور البعث التي وليت القسم مباشرة ، وامتد الظاهر عنها إلى أن جاء ذكر قصة موسى - صلى الله عليه وعلى نبينا محمد وعلى جميع أنبيائه ورسله وسلم - وكون البعث هو مدار الخبر في السورة ينتظمه السياق من أول السورة إلى آخرها .

وتلك الدعوى إعمال لغير الظاهر بلا برهان ، لأن الكفار لم ينكروا قصة موسى وفرعون ، ولم تكن تلك القصة قضيتهم حتى يؤكد الله ويؤكد العبرة منها بالقسم ، والقصة جاءت بعد القسم وكلام يليه دل الدليل على أنه المقسم عليه : فعلم أن قصة موسى وفرعون جاءت ليعتبر كفار مكة بكفارهم أشد منهم أهلهم الله .

ولا يراد بالحافرة المدلول اللغوي لمفردة «حفر» وإنما المراد المدلول الفكري للحافرة مضافة إلى الرد ، وهو المعنى المجازي الأدبي بمعنى الرد إلى الحياة فنكون عائدتين للأمر الأول . وهو حياتنا الأولى قبل البعث .. وهذا الرد مشبه بعودة الشخص إلى طريق سبق أن جاء من عنده ، فخطاه محفورة فيه ، ولهذا قال العرب : رجع فلان على حافرتة .

ومما لا يقبل تفسي الخسارة بالكاذبة ، بل المعنى على بابه ، وهو ضد الربح .

قال أبو عبد الرحمن : وخسران الكرة يحتمل أمرين :

أولهما : خسارة المبعوثين ما دام عودهم يحقق عليهم ما وعدهم به محمد ﷺ .

وثانيهما : إجراء الخسران على الكرة نفسها لأنها من العبرة في زعمهم .

والاحتمال الأول أرجح .. قالوه استهزء بعد إيمانهم في تكذيب البعث .

ويرجح ذلك أن تكذيبهم للبعث تكذيب بما يترتب عليه من جزاء ، وجزاء الكافرين النار ، وهم كافرون ، فلو بعثوا - وهم لن يبعثوا يزعمهم - لخسروا .

وقبل تبديل الأرض ينتشر الخلق على ظهرها بعد النفخة الثانية ، والأرض المعهودة موصوفة عند العرب بالساهرة .

فأي تفسير للساهرة بغير ذلك فهو مرئود إلا بدليل من خارج يصرف الظاهر عن ظاهره .

قال ابن فارس : «ويقال للأرض الساهرة .. سميت بذلك لأن صعلها في التبت دائم ليلاً ونهاراً» .

ولذلك يقال : خير المال عين خراة في أرض خوارة تسهر إذا

نمت ، وتشهد إذا غبت .

ولما توقع ابن فارس أن المراد بالآية أرض أخرى قال : « ثم صارت الساهرة اسماً لكل أرض » .

قال أبو عبد الرحمن : وهناك تعليقات اشتقاقية صحيحة ولكنها ظهر راجعة لأنها أبعد عن الظاهر من التعليل الذي مر .

فمن ذلك التعليل يسهر من عليها لا سهرها هي .. قال الفراء : « سميت بهذا الاسم ! لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم » .
وفي معناه القول بأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها .

* * *

٣٠ - المسألة الثلاثون : دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق والشرائط من تأويل سورة عبس ، وبيان سبب النزول ، والبرهان على أن المراد بالسفرة الملائكة الكرام ، وأن المراد هاهنا صموم الإنسان فليدخل كفر النعمة ، وامتناع القول بأن الله نهى نبيه ﷺ عن الحرص على هداية الكافرين ، وامتناع إحالة الضمير إلى الكافر في قوله تعالى : ﴿ لعله يزكى ﴾ ، وسر معاناة الله لنبيه ص بضمير الغائب ، وامتناع تفسير النظر إلى الطعام بالنظر إلى الرجيع ، ومعنى فرار المرء من أقاربه يوم القيامة :

سورة عبس من السور المكية في سياق السور التي تؤكد حقيقة البعث ، وتذكر عاقبة أهل الدارين في الآخرة إلا أنها مستفتحة بحكم

واقعة جدية ، وهي إعراض الرسول ﷺ عن ابن أم مكتوم . وانتظمت السورة المواضيع التالية :

١ - معاتبته ﷺ من قبل ربه لإعراضه عن ابن أم مكتوم ، وإقباله على وجهاء من كفار قريش .

٢ - بيان حال القرآن الكريم .

٣ - تبييت الإنسان في كفره أو تصديره ، وإقامة الحجة عليه بالبيانات والآلاء في نفسه والآفاق .

٤ - ذكر البعث ، وحال المكلفين يوم القيامة .

فالموضوع الأول قوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ . أن جاءه الأعمى .

وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى .

فأنت له تصدى . وما عليك أن لا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو

يخشى . فأنت عنه تلهى . ﴿

قال أبو عبد الرحمن : أشعرت هذه النصوص الكريمة أن صحابياً

أعمى جاء للذكرى وتركه النفس ، وهو ممن يخشى الله .

والمعهود من حال رسول الله ﷺ أنه يزكى أصحابه الأحياء ،

ويذكرهم بما يُسمعهم إياه من بيان الأحكام ، وتفسير الأخبار ،

وتربيتهم بالمواظع ومكارم الأخلاق ، وتخويفهم وتبشيرهم بمقتضى أنه

البشير النذير .

كما أشعرت هذه النصوص الكريمة أن رسول الله ﷺ أعرض

عن الأعمى ، وأنه استقبل رجلاً مستغنياً عما لم يستغن عنه الأعمى من طلب الذكر .

ثم جاء النص الذي تقوم بإسناده الحجة ، وهو خير عائشة وأنس - رضي الله عنهما - مفصلاً الحادثة .

قال الشوكاني : « أخرج الترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن هبان ، والحاكم وصححه ، وابن مريويه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : أنزلت ﴿ عيسى وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني .. وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : « أتري بما أقول بأساً ؟ » .

فيقول : لا .

ففي هذا أنزلت .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى عن أنس قال : « جاء ابن أم مكتوم وهو يكلم أبي بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عيسى وتولى . أن جاءه الأعمى ﴾ ، فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه » . والموضوع الثاني : بيان حال القرآن الكريم ومنه النص السابق من سورة عيسى الذي عاتب الله به محمداً ﷺ ، وذلك قوله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة ﴾ .

ووصف هذا المصحف الشريف الكريم الذي بأيدينا . الذي هو كلام

الله أنه بأيدي سفرة كرام من الملائكة ، فالأصل عموم الرافعة فيشمل الرقعة الحسية ، وهي رفعة الملائكة فوقنا إضافة إلى الرفعة المعنوية .

ولا معهود لنا بإطلاق السفرة على قراء بني آدم ، والتزكية المطلقة إنما هي للملائكة - عليهم السلام - وفيهم يتحقق معنى ﴿ ... سفرة ﴾ ، فيبقى الظاهر أن المراد بهم الملائكة .

وفي الحديث الصحيح : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » . والموضوع الثالث : قول الله تعالى : ﴿ لعل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فلقده . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ما أمره ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : هذا السياق عن عموم الإنسان ، وليس خاصاً بالكافر ، فالإنسان في الجملة مقصّر عن أداء شكر النعمة .. مقصّر في قضاء ما أمره الله به على التمام والكمال .

ويخول الكافر المحض في هذا السياق العنيف من باب أولى . وما دام السياق يصلح للمؤمن والكافر فتخصيص الإنسان بالكافر دعوى ، لأنه خلاف الظاهر ، فيحتاج إلى دليل .

وكل نص يعم الإنسان بالظلم والجهل والعجلة وكفر النعمة فيتناول الكافر من باب أولى ، ويتناول المؤمن بالنظر إلى نقصيره وعجزه بلا قوامة الشرع بالهداية ، وإعانة الرب بالتوفيق .

ومن بقية هذا الموضوع إقامة الله الحجة على الإنسان ببيان

النعمة لينشط في العبادة ، ويجعل دار المتاع مزرعة للأخرة ، فيكون من أهل الوجوه المسفرة .

وجاء الخبر عن القرآن الكريم بعد عتاب الله لرسوله ﷺ ، بمناسبة أن آيات العتاب من ضمن القرآن الكريم ، وكله تذكرة ،

وانتقل السياق إلى تبييت الإنسان ، لأنه الذي نزل القرآن من أجل هدايته وتنكيره ، فكان أغلب البشر على الكفر ، وكان أغلب المؤمنين على التقصير .

قال أبو عبد الرحمن : ورسول الله ﷺ حريص على هداية البشر قال عنه ربه : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [سورة النمل ٨/] . ويتألف الكفار ، ويتوعد إلى المؤلفة قلوبهم ، وكان يرغب في ذلك أصحابه ، ويقول : «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» . وما نهاه ربه عن الحرص على هداية الكفار ، وإنما نهاه ربه عن هذا الحرص إذا ترتب عليه الإعراض عن مؤمن ذي خشية يستزيد من رسول الله ﷺ المؤظفة والعلم ، فيحصل له من الهداية ما كان يرغبه رسول الله ﷺ ويحرص عليه .

كما أن الله سبحانه لا ينهي محمداً عبده ورسوله ﷺ عن الحرص على هداية الكافرين ، وإنما يسليه فيمن سبق في علمه سبحانه أنهم لا يؤمنون به لا يضره كفرهم ، فقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وليس في قدرته هدايتهم .

الآلاء والبيئات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . إنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأناً . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : فكون كل ذلك متاعاً هو آلاء الله على الإنسان مما يقتضي شكر النعمة ، وقد بكت الله الإنسان في السورة بكفرها . وكفر النعمة خليفة الكافر المحض ، ولا يبرأ منه المؤمن حال معصيته أو تقصيره ، وعبادة الله شكر نعمته .

والله عم المخاطبين بالذكر في قوله : ﴿ متاعاً لكم ﴾ فدل ذلك على عموم الإنسان الذي يقص القرآن خبر طعامه ، وهو ذلك المتاع . وأما البيئات الحسية الدالة على قدرة الله على كل شيء - ومنه البعث - فهي قصة نيات ذلك المتاع .

والموضوع الرابع - وهو الأخير - قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها فترة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

ووجوه التناسب بين المواضع أن هذا الخبر عن البعث ومصير المكلفين فيه جاء عقب ذكر المتاع الدنيوي ، وبعد لوم الإنسان على كفر

قال أبو عبد الرحمن : وبعد هذا السياق فلا يقبل القول بأن المراد الكافر في قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ ، لأن ذلك إلغاء للظاهر وهو غير ممتنع ، كما أنه إعمال لغير الظاهر بلا برهان .
كما يمتنع تفسير : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ بمعنى لا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار .

بل المعنى أنه لا يضرك كثرة .

وتريد المفسرون في سر معاتبة الله لعبده ورسوله بضعير الغائب ، فذهب الزمخشري وغيره إلى أن ذلك زيادة في العتب والإنكار ، وفيه بعض الإعراض .

واستحسن ابن جزى القول : بأن في ذلك تكريراً للنبي ﷺ تنزيهاً له عن المخاطبة بالعتاب .

قال أبو عبد الرحمن : هذا منقوض بعتاب الله لنبيه مخاطبة لاسيما في هذه السورة في قوله تعالى ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ .
ورسول الله ﷺ كريم عند ربه بلا ريب ، ومن تكريم الله له أن يعاتبه إذا ترك الأولى اجتهداً منه .

وإذا كانت المسألة مسألة عتاب فيلائمها أسلوب العرب في مثل هذا ، ومن أساليبهم الإعراض المؤقت بصيغة الغائب ، والقرآن نزل على أسلوب لغة العرب .

ومما لا يقبل تفسير قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ﴾ بمعنى لعن ،

لأن الخطاب عن عموم الإنسان بما فيه المؤمن المقصر لتحريكه إلى العمل ، والله لا يحض الناس على الخير باللعن ، ولأن القتل لا يرد بمعنى اللعن ، وإنما هو دعاء بالقتل الذي هو إذلال وإزهاق ، ولا يريد به حقيقة لدعوه من القتل ، وإنما هو تقبيح لكفر الإنسان بالنعمة بمثل هذا الأسلوب من الدعاء الذي اعتادته العرب ، فهو في حال من يستحق أن يدعى عليه بالقتل .

ومجازات اللغة ذات حقائق هي مراد المتكلم ، والقرآن بلغة العرب ، فعجازات لغة العرب حقائق شرعية .

واختلف المفسرون في معنى السبيل في قوله تعالى : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ ، ف قيل : هو سبيل خروجه من بطن أمه ، ورجحه ابن جزى لعطفه على قوله : ﴿ من نطفة خلقة فقدره ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا ليس بشيء ، لأن العاطف (ثم) التي للتراخي ، ولأن الوسط بين : ﴿ فقدره ﴾ وقوله : ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ هو تيسير لسبيل .. لم يذكر في السياق غير ذلك ، وما بين التقدير والموت - في الحقيقة والواقع - هو الحياة الدنيا .

فلا بد من حمل المذكور من السياق وهو تيسير السبيل على ما لم تذكر حاله من الواقع وهو الحياة الدنيا .

فيكون المراد بتيسير السبيل حريته الاختيارية التي يملك بها فعل الخير والشر ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما

كفوراً ﴿ ويدخل في ذلك الهداية الكونية من الحس والنظر ، وآيات الله الإيضاحية في الشرع والطبيعة .

ولا يقبل تفسير قول الله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ بمعنى النظر إلى الطعام حال كونه رجباً ، لأن الله يقص حال تكون الطعام ، ولم يقص حال تحوله .

والتأويل الصحيح لقرار المرء يوم القيامة من أقاربه المذكورين آخر السورة : أنه يفر عن الرثاء لهم ومناصرتهم ، لأنه مشغول بنفسه ، ولأنه لا يملك شيئاً ، لأن الله مالك يوم الدين ، ولا جند إلا جنده سبحانه .

* * *

٣١ - المسائل الحادية والثلاثون ، دلالة التنزيل الكريم من خلال السياق والترايط من تأويل سورة التكوير ، وبيان معنى اللام في ﴿ فلا أقسم ﴾ وتحقيق الخلاف في ذلك ، وتحقيق معنى التكوير ، والانكدار ، وتعطيل العشار ، والجمع بين قراءتي ﴿ ضنين ﴾ و ﴿ ضنين ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ فأين تذهبون ﴾ :

سورة التكوير من السورة المكية ، وقد قص الله فيها أحوال الكائنات في البعث وقبيله ، ولم يقسم الله سبحانه على وقوع البعث ، وإنما أقسم جل وعلا على صدق ما جاء به محمد ﷺ .

ومما جاء به الخبر عن البعث .

وانتظمت السورة الموضوعات التالية :

١ - بيان حال بعض الكائنات قبل البعث ويوم البعث .

وحسب البراهين من غير هذه السورة لم يرد ترتيب هذه الأحوال ترتيباً زمنياً ، بل هي متداخلة لنكت بلاغية قد نعلمها بيقين ، أو رجحان ، وقد يكون العلم احتعالاً نتوقف فيه .

وما ضمن الله لنا العلم بكل أسرار التنزيل .

وهذا الموضوع تناولته الآيات التالية من قوله تعالى : ﴿ وإذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سُمرت . وإذا البحار عُطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سُجرت . وإذا الثقوس زوجت . وإذا المؤودة سُلت . بأي ذنب نُقلت . وإذا الصحف نُشرت . وإذا السماء كُشطت . وإذا الجحيم سُمرت . وإذا الجنة أزلقت . علمت نفس ما أحضرت ﴾ .

٢ - إقسام الله على صدق ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه بواسطة جبريل عليه السلام .

وتضمن هذا الموضوع الفروع التالية :

أ - بيان حال جبريل عليه السلام .

ب - بيان حال محمد ﷺ .

ج - الغرض من إنزال القرآن الكريم .

وكان ذلك مضمون قوله سبحانه : ﴿ والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش .

مكن . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأنين نذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

والموضوع الأخير تأكيد للموضوع الأول ، لأن الإقسام على صدق جهنم ومحمد ﷺ والإشادة بهداية القرآن تأكيد لما سبق من القرآن الكريم أول سورة التكوين من وقوع البعث .

وأما البراهين على أن الموضوع الثاني قسم على صدق القرآن والوحي غير المتلو وميلهما فيأتي إن شاء الله .

قال أبو عبد الرحمن : ولكون السورة عن البعث نصاً ثم دليلاً ، ولكونها تناولت أهم الكائنات التي علمها ابن آدم أو أخبر بها : ورد الحديث الشريف عن أهمية دلالتها على يوم القيامة .

قال الشوكاني : «أخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر ،

والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مريويه عن ابن - عمر رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فيقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾» .

وفي هذه السورة الكريمة ما يحتاج إلى تحقيق وتدقيق ونظر فمن ذلك معنى اللام في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالجنس ﴾ فعند جمهور المفسرين أنها زائدة ، والتقدير فأقسم .

قال الزركشي : «وذكره الخطابي قال : وسمعت ابن أبي هريرة يحكي : عن أبي العباس بن سريج قال : سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ، فأخبر أنه لا يقسم بهذا ، ثم أقسم به في قوله : ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين ﴾ ٩ . فقال ابن سريج : أي الأمرين أحب إليك : أحببك ثم أقطعك ، أم أقطعك ثم أجيبك ٩ .

فقال : بل أقطعني ثم أجبني .

فقال له : اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضور رجال ، وبين ظهرائي قوم وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً ، وعليه مطعوناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت .

ثم قال له : إن العرب قد تدخل «لا» في أثناء كلامها وتلغي معناها ، وأنشد فيه أبياتاً .

والقاعدة في هذا وأشباهه أن الالفاظ إذا اختلفت وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك اختلافاً (١٧٧) .

قال أبو عبد الرحمن : وقد تقصى المفسرون بقية الأقوال في تفسيرهم لهذه السورة ، ولسورة القيامة في قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ، ولسورة الواقعة في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : وقد حقيقت في بحوثي اللغوية أن الإتيان بحرف لا معنى له مرفوض وقوعه تأصيلاً ، ولهذا فالقول بزيادة اللام دعوى مرفوضة .

وليس هذا تفسير التقاسير لأورد الأقوال في هذه الوجوه ، وفي بقية الوجوه نقلاً وتبياناً ، واستدلالاً اعتراضاً ونقصاً ، وإنما حسبي تجلية الوجه الذي اختاره مدعوماً ببرهانه .

قال أبو عبد الرحمن : كل الوجوه التي قيلت باستثناء لام الابتداء لا سبيل إلى ترجيح واحد منها ، لأنه قبل الترجيح لا بد من التصحيح . وتلك الوجوه بين أمرين لا ثالث لهما :

وجوه لاتصح في اللغة كالقول بأنها زائدة .

ووجوه لا تصح في مراد المتكلم كالقول بأنها «لا» النفي ، والمنفي القسم .

والصواب أنها لام الابتداء ، وهي تنخل على المضارع لمضارعة الاسم كما نص على ذلك سيبويه .

والأصل فلا أقسم بهمزة قطع هي همزة المضارعة ولام معدودة . فوردوها للابتداء في مثل : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ و ﴿ فلا أقسم بالحنس ﴾ . ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ و ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ و ﴿ فلا أقسم بما تبصرون ﴾ و ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ و ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ .

كذلك مد اللام لبلوغ الغاية في التأكيد مما لا نكارة في حمل الشواهد عليه .

والبرهان على التصحيح أمران :

أولهما : أن آية مثل آية التكوين ، وهي الآية من سورة القيامة وردت في قراءة سَبْعِيَّة - وهي قراءة ابن كثير من طريق الهزلي - هكذا : ﴿ لا أقسم ﴾ بدون مد اللام .

فعرف من الشرع صحة مجيء «لا» بمعنى لام الابتداء .

وهكذا وردت الآية من سورة القيامة في قراءة الحسن ، والزهري ، وابن هرمز .

آية : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قرأها الحسن ، وحמיד ، وعيسى بن عمر : ﴿ فلا أقسم ﴾ .

فلو فرض أنها لم تصح شرعاً لكونها ليست من السبع ولا مع العشر : فهي دليل تصحيح لغوي .

وهذا البرهان يعني التصحيح في عموم لغة العرب .

وثانيهما : أنه لا يمتنع إرادة التوكيد في هذه الآية الكريمة .

فيكون هذا البرهان يعني التصحيح في خصوص مراد المتكلم .

وبيان ذلك : أن الله سبحانه بلام الابتداء أكد أنه سيقسم لهم

على صدق الرسول الذي أخبر عن ربه بوقوع يوم القيامة .

فإن قيل : فما فائدة تأكيد أنه سيقسم ؟

فالجواب : أن الله سبحانه يعلم أن من سبق عليه القول لن يؤمن وإن جاءت كل آية ، ولن يصدق وإن جاء الخبر مؤكداً مقسماً عليه ، فكان واقع حالهم يقول : لا داعي لتأكيد الخبر بالقسم ، فلن نصدق . فجاءت اللام بمعنى : أؤكد أنني سأقسم وإن أصروا على التكذيب ، لتقوم حجة البلاغ المؤكد عليهم .

لام الابتداء في لغة الرب تقتضي التأكيد وتخليص المضارع الحال ، ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ﴾ لتزول المستقبل منزلة الحاضر تأكيداً لوقوعه .

ومد لام الابتداء صحيح على سنة العرب في الإشباع للتأكيد ، وقد أشبعت العرب ، فقالت : أعوذ بالله من العقرب ،

وقيام البرهان على صحة « لا » بمعنى لام الابتداء كاف في الدلالة على صحة إشباعها .

قال أبو عبد الرحمن : وأما البرهان على رجحان لام الابتداء فبيانته : أن كل الأقوال التي قيلت في تفسير « لا » في ابتداء القسم في الآيات المذكورات لا تخلو من أحد مذهبين :

مذهب ينفي القسم ، ويقول : ما حقه أن يقسم عليه واضح فلا داعي إلى القسم ، ولهذا لا أقسم .

وهذا مردود بأن السياق ينفيه ، لأن المقسم عليه مخبر به نصاً ، وورد بصيغ التأكيد ، فورد جواب القسم يمنع من دعوى نفيه .

وفي آية ورد التصريح بأن هناك قسماً ، وهو قوله تعالى ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ .

ومذهب يبقي القسم ويحمل اللام على معنى غير صحيح في عموم اللغة ، أو في خصوص المراد .

أما لام الابتداء فقد مضى برهان صحتها .

كما أن ما أورد عليها لا يرد .

وموجز الإيراد أن حمل اللام على الابتداء يقتضي تقدير مبتدأ تدخل عليه ، فيكون التقدير : فلأننا أقسم .

فيمتنع أو يقبح حذف المبتدأ ، لأن دخولها لتأكيد ، وهو يقتضي الاعتناء به ، وحذفه يدل على خلاف الاعتناء .

قال أبو عبد الرحمن : لا يقبح الحذف ولا يمتنع ، لأنها لم تؤكد المبتدأ المقدر الذي دخلت عليه ، وإنما تؤكد مضمون الجملة ، وهو حصول القسم مسنداً إلى المقسم سبحانه .

وفعل القسم وضميره المستتر وجوباً موجودان غير محتوفين ، واختلف المفسرون في تفسير تكوير الشمس ، فمنهم من جعله

لفاً لجرمها ، ومنهم من جعله لفاً لضوئها ، ومنهم من جعله رمياً بها . والأصل حمل التكوير على عموم معناه اللغوي من اللف والجمع

والتدوير ، ويزاد النص بياناً بما يوافق مدلول معناه لغة من معاني النصوص الشرعية الأخرى كقوله تعالى : ﴿ وخسف القمر . وجمع

الشمس والقمر ﴿ [سورة القيامة/ ٨-٩] .

وفي صحيح البخاري في بدء الخلق عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن رسول الله ﷺ قال : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » .

واختلف المفسرون في تفسير انكدار النجوم ، فذهب جمهورهم إلى أنه بمعنى التفتت والتناثر والانقضاخ ، بل قال ابن كثير « الأصل في الانكدار الانصباب » .

قال أبو عبد الرحمن : ليس في لغة العرب أن كدر الثلاثية تعني الانقضاخ أو السرعة .

وإنما تعني في اللغة ما خالط الصفو فغيره ، وتولد من ذلك كدرة اللون .

قال في لسان العرب : قال بعضهم : الكدرة في اللون خاصة ، والكدورة في الماء والعيش ، والكدر في كل .

ثم جاءت المادة الخماسية ، فلا بد أن تكون معانيها مشتقة من معنى الثلاثي ، لأن الأقل حروفاً هو الأصل في الاستعمال .

فورد انكدر يعدو بمعنى أسرع بعض الإسراع .

قال أبو عبد الرحمن : شئ كدر صفاءه فأسرع يعدو .

وفي الصحاح : انكدر أسرع وانقض .

قال أبو عبد الرحمن : يظهر لي أن الانقضاخ من كلام العلماء الاجتهادي في تفسير الانكدار من سورة التكوين .

وفي اللسان : انكدر عليهم القوم إذا جاءوا عليهم أرسالاً حتى ينصبوا عليهم .

قال أبو عبد الرحمن : لعلمهم انصبوا عن ضغينة كدرت عليهم راحتهم فأسرعوا يعدون .

وفي اللسان : وانكدرت النجوم تناثرت .

قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام العلماء من أهل تفسير التناثر وقد أدخل في كتب اللغة ، والواجب أن لا يجعل من مراد اللغة إلا ما نقل عن العرب قبل فساد السليقة .

والتناثر ليس معنى للانكدار ، وإنما هو حالة أخرى للنجوم جاء بها نص آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : وليس في اللغة - فيما أعلم - انكدر بمعنى أصابه كدر .

فيتعين أن انكدرت بمعنى أسرع في سيرها ، ولا يعني ذلك الانقضاخ ، لأن الانقضاخ هو إلى أسفل .

فيكون للنجوم يوم القيامة حالات منها السرعة والانتثار ، والطمس كما في قوله تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ [سورة المرسلات ٨/] .

واختلف المفسرون في معنى العشار ، وفي وقت تعطيلها ، ومن حمل ذلك على يوم القيامة اضطر إلى تفسير العشار بغير ظاهرها لغة ، وإن حملها على معنى الإبل جعل ذلك من باب ضرب المثال افتراضاً .

والصواب أن العشار على ظاهرها لغة ، وهي النوق الجوامل التي في بطونها أولادها .

ولا نحمل ذلك على يوم البعث ، لأن العشار حينذاك لم تُعد لتتقل العرب وتمنحهم .

ولا نعمل ذلك على هذا اليوم الذي ظهرت فيه مواصلات أسرع تعطّل الناس ركوب الإبل ، لأن الآية عن خصوص إبل وهي العشار ، والعرب لم تعطّل العشار ، بل تغلي فيها للزينة ، ووصل العادة ، وهرب الحليب ، وتنمية الإنتاج من أجل الأكل والتمتع .

فلابد حينئذ أن تعطّل العشار أية لم تقع بعد ، وتكون بين يدي قيام الساعة حيث تتوالى الآيات بسرعة .

وتواتر ما هنا قراءتان بالضاد والظاء في قوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضين ﴾ فبالظاء ليس بمتهم على الإخبار عن الواقع المغيّب ، بل يخبر عنه صادقاً .

وبالضاد ليس بخيلاً في إبلاغ الوحي الذي يخبر بما أذن الله به من علم الغيب .

والجامع بين القراءتين أن الكذب لا يعير بالبخل إذا لم يكرّم على الناس بأكاذيبه ، لأن بذله للكذب بذل للشر فحاسبه ليس بخيلاً .

وإنما يعير الصدوق إذا بخل بإشاعة صدقه .

إن رسول الله ﷺ جاء بالصدق ولم يبخل به .

والوحي نسب إلى جبريل عليه السلام (بأنه قوله) ، لأنه مُبلّغ ،

وهو صدوق لأن الله وصفه بالأمانة في قوله تعالى : ﴿ مطاع لم أمين ﴾ .

قال أبو جعفر الطحاوي : « قال أبو جعفر : قد ذكرنا مخرج قراءة

عاصم فيما تقدم من كتابنا هذا ورجوعها إلى علي ، وعبدالله ، وزيد

رضي الله عنهم ، وذكرنا في رواية أبي بكر بن عياش أخذه إياها عنه

حرفاً حرفاً ، وأنه كان يقرأ هذا الحرف بالضاد ، وذكرنا قراءة حمزة

ومخرجها وإلى من ترجع في الإسناد الذي ذكرناها به ، وأنه كان يقرأ

هذا الحرف كذلك ، وذكرنا قراءة نافع وأخذه إياها عن الجماعة الذين

أخذوا منهم ، وأن منهم أبا جعفر ، وأخذ أبي جعفر إياها عن مولى

عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة ، وأخذ موله إياها من أبي وكان يقرأ

هذا الحرف كذلك أيضاً .

وأما عبدالله بن كثير ، فكان يقرؤه بالظاء ، كما حدثنا ابن أبي

عمران حدثنا خلف بن هشام في القراءة كذلك .

وقد روي في أخذ خلف قراءة عبدالله بن كثير في هذه الرواية عن

عتبة بن عقيل : عن شبل المكي : عن عبدالله بن كثير .

وأما أبو عمرو بن العلاء ، فكان يقرؤها بالظاء كما حدثنا ابن أبي

عمران : حدثنا خلف أبو زيد : عن أبي عمرو : أنه كان يقرؤها كذلك .

وكذلك كان عبدالرحمن الأعرج ، والليث بن سعد يقرانها كما

حدثنا روح بن الفرّج . قال : سمعت يحيى بن عبدالله بن بكير يقول :

سمعت الليث بن سعد يقول لعبد الحكم بن أعين : كيف يقرأ صاحبك

- يعني نافعاً - هذا الحرف : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ ؟ قال ابن بكير : وكان الليث يقرؤها ﴿ بضنين ﴾ .

وكما حدثنا روح بن الفرغ : حدثني ابن بكير : حدثني عبدالله ابن لهيعة : أنه سمع الأعرج يقرؤها ﴿ بضنين ﴾ بالظاء .

وأما ما روي عن أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك مما قد حدثنا يونس : أخبرنا سليمان : عن عمرو : عن عطاء : عن ابن عباس : أنه كان يقرأها : ﴿ بضنين ﴾ .

وما قد حدثنا ابن أبي عمران : حدثنا خلف : حدثنا هشيم : عن أبي المعلى : عن سعيد بن جبير : عن ابن عباس : أنه قرأها كذلك . غير أن مجاهداً قد روى عن ابن عباس أنه كان يقرأها بالضاد . كما حدثنا ابن أبي عمران : حدثنا خلف : حدثنا هشيم ، وخالد - يعني ابن عبدالله - عن مجاهد : عن ابن عباس : ﴿ بضنين ﴾ بالضاد . وكما حدثنا ابن أبي عمران : حدثنا خلف : حدثنا هشيم : عن مغيرة : عن مجاهد مثله .

ثم نظرنا في الأولى من هاتين القراءتين بما جاءت به الآثار الدالة على ذلك ، فكان الذين قرؤوها (بالضاد) معناه يكون بخيلاً بالغيب ، والذين قرؤوها (بالظاء) نفوا عنه أن يكون متهماً في ذلك» (١١٧) .

(٢٤٣) شرح مشكل الآثار ١٤/٢٣٧-٢٣٩ .

وقال : «وقال بعض أهل العلم في تأويل قوله عز وجل : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ : أن كل عالم يعلم لا يحب أن يعلم كل علمه غيره ، فأخبرهم الله عز وجل أنه ﷺ فيعلم علمه إياه بخلاف ذلك ، وفي ذلك ما قد دل أن معه في علمه غيره ومن الفضل في ذلك ما يتجاوز به ما علمه كل العلماء .

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام يقول : الاختيار ههنا للقراءة هذا الحرف بالظاء .. قال : والضاد والظاء لا يختلف خطهما إلا بزيادة رفع رأس أحدهما على رأس الأخرى ، لهذا قد يتشابه في خط المصحف ويتداني .

قال أبو جعفر : ونجيبه عن ذلك بأن نقول : فقد أنكرت على أبي عمرو في قراءته : ﴿ أن هذين لساحران ﴾ ، وحاججته في ذلك بأن الألف ثابتة في السواد في ذلك الحرف .

وقد يجوز أن يقطع الألف ويضم إلى الحرف الذي هو منه فيصير هذين ، فكان الذي يلزمك في خلاف السواد في ذلك الحرف هو مثل الذي ألزمته أبا عمرو في خلافه السواد في ذلك الحرف .

وما رأينا مصحفاً قط إلا والذي فيه ﴿ بضنين ﴾ الضاد ، لا ﴿ بضنين ﴾ بالظاء ، وفيما ذكرناه في هذا الباب كفاية لما يقرأ هذا الحرف به وهو ﴿ بضنين ﴾ « (١١٨) .

(٢٤٤) شرح مشكل الآثار ١٤/٢٤٨ .

قال أبو عبد الرحمن : واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ، فقيل : أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته ؟ وقيل : أي طريق تسلكون أيمن من هذه الطريق التي بيئت لكم ؟ قال أبو عبد الرحمن : والصواب عندي التأويل بالسياق وبمعهود ما قصه الله عن الكفار في قولهم عن الوحي ومبلغه من دعوى السحر والاساطير والجنون .

فالمعنى : كل رخصة عيب قلتموها وهو برئ منها ، فلم يبق طريق زلل إلا سلكتموها فأين تذهبون بعد هذا ؟ لم يبق إلا الاعتراف بالحق ، وأن الوحي ذكر للعالمين بلغة رسول سوى صادق .

* * *

٣٢ - المسألة الثانية والثلاثون : معنى أن لله تسعة وتسعين اسماً ، وبيان الوهم في جعل الهوى اسماً :

ذهب الإمام أبو محمد ابن حزم إلى أن أسماء الله جل جلاله تسعة وتسعون اسماً مئة غير واحد .

ونسب - رحمه الله - من زاد على ذلك إلى الإلحاد .

قال : «وقد صح أنها تسعة وتسعون اسماً فقط ، ولا يحل لأحد أن يجيز أن يكون له اسم زائد ، لأنه عليه السلام قال : «مئة غير واحد» :

فلو جاز أن يكون له تعالى اسم زائد لكانت مئة اسم .

ولو كان هذا لكان قوله عليه السلام : «مئة غير واحد» : كذباً .

ومن أجاز هذا فهو كافر .

قال أبو عبد الرحمن : النص الذي استدلل به أبو محمد هو حديث

أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة» .

ونكر أبو محمد أنه تقصى كثيراً من هذه الأسماء في كتابه

الإيصال .

ولا يزال هذا الكتاب مفقوداً .

قال أبو عبد الرحمن : وفي المسألة ١١٢٧ من المحلى ذكر عدداً

منها ، وبعضها غير مسلم لأبي محمد كالنهر .

وأكد في هذه المسألة أنها لا تزيد على تسعة وتسعين . وقال :

«لقوله عليه السلام : «مئة إلا واحداً» .

فنفي الزيادة وأبطلها .. لكن يُخبر عنه بما يفعل تعالى .

وجاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسماً مضطربة لا

يصح منها شيء أصلاً ، فإنما تؤخذ من نص القرآن ، ومما صح عن

النبي ﷺ .

قال أبو عبد الرحمن : ومحققو طبقات المحلى لم يعلقوا بشيء ، ولم ينقلوا عن أصولهم تحشية أو تهمة .

بل أشاد أبو حامد الغزالي بإحصاء ابن حزم فقال : « ولا يمكن معرفة جميعها إلا بالبحث في الكتاب والسنة ، إذ يصح جملة منها في كتاب الله سبحانه وتعالى ، وجملة في الأخبار .

ولم أهرأ أحداً من العلماء اعتنى بطلب ذلك وجمعه سوى رجل من حفاظ المغرب يقال له علي ابن حزم ، فإنه قال - رحمه الله - : وصح عندي قريب من ثمانين اسماً يشتمل عليها الكتاب والصحاح من الأخبار ، والباقي ينبغي أن يطلب من الأخبار بطريق الاجتهاد » (٢٤٦) .

قال أبو عبد الرحمن : في منهج الاستدلال لدى أبي محمد - رحمه الله - خلل لأنه كفر من زاد على مئة اسم بناء على أن أسماء الله تسعة وتسعون فقط .

وكان عليه قبل ذلك أن يقيم البرهان على أن هذا هو مدلول حديث أبي هريرة ، وأنه لا احتمال غير ذلك بيقين أو رجحان . ولكنه - رحمه الله - لم يفعل .

فإن قال قائل : وهل هناك احتمال آخر ؟

فالجواب : نعم .

(٢٤٦) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص ١٧٢ .

ذلك أن قوله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » : يحتمل أمرين :

أولهما : أن الحصر لمطلق الأسماء ، وهذا ما ذهب إليه أبو محمد ، ومن ذهب هذا المذهب فيحرم عنده ادعاء أكثر من تسعة وتسعين .

وثانيهما : أن الحصر لخصوص أسماء يحصل بخصرها دخول الجنة .

ومن ذهب هذا المذهب فيجوز عنده أن تكون أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين ، وإنما يحرم عنده أن تكون الأسماء التي تحصل الجنة بإحصائها أكثر من تسعة وتسعين .

وبيان هذا الاحتمال الثاني بيّنه أبو حامد الغزالي فقال : « وأما الحديث الوارد في الحصر فإنه يشتمل على قضية واحدة لا على قضيتين . وهو كالمالك الذي له ألف عبد مثلاً ، فيقول القائل : إن للملك تسعة وتسعين عبداً من استظهر بهم لم يقاومه الأعداء .

فيكون التخصيص لأجل حصول الاستظهار بهم : إما لمزيد قوتهم ، وإما لكفاية ذلك العدد في دفع الأعداء من غير حاجة إلى زيادة ، لا لاختصاص الوجود بهم .

ويحتمل أن تكون الأسماء غير زائدة على هذا العدد ، ويكون لفظ الخبر مشتقاً على قضيتين :

إحداهما : أن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً .

والثاني : أن من أحصاها دخل الجنة» (٢٨٧) .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا الاحتمال الأخير هو الراجح المتعين .
والاحتمال الأول هو المرجوح .

وإن فالحصر ليس لعموم أسماء الله جل جلاله ، وإنما هو حصر
لخصوص أسماء الله التي يحصل بإحصائها دخول الجنة . والبرهان
على ذلك أن رسول الله ﷺ قال في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : «ما
أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ،
وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك .
أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ،
أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن
تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، وشفاء صدري ، وجلاء حزني ،
وذهاب غمي وهمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً .

قالوا : يا رسول الله أفلا نتعلمهن ؟

قال : بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن .

رواه الإمام أحمد في المسند ، وأبو حاتم ابن حبان في

صحيحه» (٢٨٨) .

(٢٨٧) المقصد الأسنى ص ١٦٧-١٦٨ .

(٢٨٨) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/٤٨٥-٤٨٦ .

قال أبو عبد الرحمن : إذن اتضح أن هذه الأسماء المحصورة
ليست لحصر أسماء الله ، وإنما هي لحصر ما يحصل بإحصائها
دخول الجنة .

وهذه الأسماء مما علمه ربنا نبيه ﷺ ، فهي مفصلة بشروطه ،
لأنه أمر بتعلمهن وهو لا يأمر بمحال .

وهناك ناحية ثانية تهدم مذهب أبي محمد - رحمه الله - ، وهو
أنه لم يرد نص بتعيين التسعة والتسعين .

قال أبو عبد الرحمن : وكل ما مر تنزل في الاستدلال على أساس
أن الحديث يحتمل حصر أسماء الله في تسعة وتسعين .

والواقع أن الجملة لا تحتل ذلك ، وليست من صيغ الحصر .
ولو طرد أبو محمد أصله لكان مذهب أن جملة : «إن لله تسعة
وتسعين اسماً» أثبتت تسعة وتسعين ولم تنف غيرها .

وإنما جاءت التشبيه من جهتين :

إحداهما : من جهة أبي محمد ابن حزم لما ظن أن «مئة إلا
واحداً» تنفي ما زاد على تسعة وتسعين .

والصحيح أن جملة : «مئة إلا واحداً» تأكيد لتسعة وتسعين ،
وليست نفياً لما زاد على ذلك .

وأخراهما : من جهة أبي حامد الغزالي فإنه قال : «ومن يملك
ألف درهم لا يجوز أن يقول القائل : إن له تسعة وتسعين درهماً ، لأن

والبرهان على ذلك أننا لم نُدب إلا إلى إحصاء نقدر عليه ، ولا سبيل لقدرتنا إلا من خلال ما علمه الله نبيه محمداً ﷺ ، وعلمه الرسول أمته .

وما علمه الله غير رسوله محمد ﷺ مما ليس في الكتاب أو السنة ، وما استأثر الله بعلمه فهو زائد على ما في الكتاب والسنة ، وعلى تسعة وتسعين ، ويحصل لامة محمد ﷺ دخول الجنة بإحصاء تسعة وتسعين .

ويُدفع هاتين الشبهتين ما أورده شيخ الإسلام ابن تيمية .. قال رحمه الله تعالى : « فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين .

قالوا - منهم الخطائي - قوله : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها : التقييد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء .

فهذه الجملة وهي قوله : من أحصاها دخل الجنة : صفة للتسعة والتسعين ليست جملة مبتدأة ، ولكن موضعها النصب .

ويجوز أن تكون مبتدأة ، والمعنى لا يختلف ، والتقدير إن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصاها دخل الجنة كما يقول القائل : إن لي مائة غلام أعددتهم للعتق ، ألف درهم أعددتها للحج ، فالتقييد بالعدد هو في الموصوف بهذه الصفة لا في أصل استحقاقه لذلك

الألف وإن اشتمل على ذلك ، ولكن تخصيص العدد بالذكر يفهم نفي ما وراء المَعْدود^(٢١٩) .

قال أبو عبد الرحمن : لا يفهم نفي ما وراء المَعْدود ، لأن الجملة غير حاصرة ، وإنما ينبه إلى نشدان الحكمة في التخصيص بالمَعْدود .

ولما صح قوله ﷺ : « أسألك بكل اسم هو لك ... الحديث ، وصح دلالته على أن لله أسماء ليس بالإمكان إحصاؤها لأن الله استأثر بها في علم الغيب ، فقد صح أن لله أكثر من تسعة وتسعين اسماً .

وأما تخصيص أسماء الله الكثيرة بتسعة وتسعين اسماً فله وجهان :

أحدهما : يقيني وهو كون إحصائها موصلاً إلى الجنة في خبر الله ووعد .

وثانيهما : احتمالي يكاد يكون راجحاً ، وهو أن هذه الأسماء موجودة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

فيكون الموجود في الكتاب والسنة تسعة وتسعين فقط ، أو يكون فيهما أكثر من ذلك ، ولكن الذي يُدخل إحصاءه الجنة تسعة وتسعون فقط لميزة فيهن لا يعلمها إلا الله جل جلاله .

(٢١٩) المَعْدود الأسنى ص ١٦٧ .

العدد، فإنه لم يقل إن أسماء الله تسعة وتسعون .

وأيضاً فقله : إن لله تسعة وتسعين .. تقييده بهذا العدد يعزلة قوله تعالى : ﴿ تسعة عشر ﴾ فلما استقلوهم قال : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ، فإن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى .

وذلك أن هذا لو كان قد قيل منفرداً لم يفد النفي إلا بمفهوم العدد الذي هو من مفهوم الصفة والنزاع في مشهور .

وإن كان المختار هنا أن التخصيص بالذكر - بعد قيام المقتضي للعموم - يفيد الاختصاص بالحكم ، فإن العدول عن وجوب التعميم إلى التخصيص إن لم يكن للاختصاص بالحكم وإلا كان تركاً للمقتضي بلا معارض ، وذلك مستنع .

فقله : إن لله تسعة وتسعين : قد يكون للحصول بهذا العدد فوائد ، وغير الحصر ، ومنها ذكر أن إحصاءها يورث الجنة ، فإنه لو ذكر هذه الجملة منفردة وأتبعها بهذه منفردة لكان حسناً .

فكيف والأصل في الكلام الاتصال وعدم الانفصال ؟ فتكون الجملة الشرطية صفة لا ابتدائية ، فهذا هو الراجح في العربية مع ذكر من الدليل .

ولهذا قال : إنه وتر يحب الوتر .

ومحبته لذلك تدل على أنه متعلق بالإحصاء ، أي يجب أن يحصى من أسمائه هذا العدد .

وإذا كانت أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين أمكن أن يكون إحصاء تسعة وتسعين اسماً يورث الجنة مطلقاً على سبيل البذل ، فهذا بوجه قول هؤلاء .

وإن كان كثير من الناس يجعلها أسماء معينة .

ثم من هؤلاء ممن يقول : ليس إلا تسعة وتسعون اسماً فقط ، وهو قول ابن حزم وطائفة .

والأكثر منهم يقولون : وإن كانت أسماء الله أكثر لكن الموعود بالجنة لمن أحصاها هي معينة .

وبكل حال فتعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه ، ولكن روي في ذلك عن السلف أنواع .

من ذلك ما ذكره الترمذي .

ومنها غير ذلك (٢٥٠) .

قال أبو عبد الرحمن : ولا ندرى هل هي أسماء معينة من جملة ما في الكتاب والسنة ، أم أنها أية أسماء لله مما في الكتاب والسنة يتم بها العدد ، أم أنها هي كلها الموجود في الكتاب والسنة لا يوجد غيرها ؟ .

قال أبو عبد الرحمن : وجملة «مئة إلا واحداً» ليست أيضاً لحصر أسماء الله ، وإنما هي حصر لما يكون بإحصائه من أسماء الله دخول الجنة .

لأن جملة : «منةً إلا واحداً» تقوم مقام : «تسعة وتسعين» فهي تأكيد لها ، وليست نفيًا لما زاد عليها .

وذلك من باب البيان الأول الذي ذكره الإمام الشافعي في رسالته كقوله تعالى : ﴿ .. فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشر كاملة ﴾ [سورة البقرة / ١٩٦] .

قال الشافعي : «فاحتملت أن تكون زيادة التبيين ، واحتملت أن يكون أطمهم أن ثلاثة إذا جمعت إلى سبع كانت عشرة كاملة» .
ومثله قوله تعالى : ﴿ ورواهنا موسى ثلاثين ليلة وأقمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ [سورة الاعراف / ١٤٢] (٣٣) .

قال أبو عبد الرحمن : ونبه ابن قيم الجوزية على خطأ شنيع لأبي محمد فقال : «وهنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد ابن حزم أقبح غلط ، فذكر في أسماء الرب تعالى الهوى يفتح الهاء ، واحتج بما في الصحيح من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده : «سبحان ربي الأعلى» الهوى .

فظن أبو محمد أن الهوى صفة للرب ، وهذا من غلطه رحمه الله ، وإنما الهوى على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل يقال : مضى هوى من الليل على وزن فعيل ، ومضى هزيع منه : أي : طرف وجانب .

وكان يقول « سبحان ربي الأعلى» في قطعة من الليل وجانب منه ، وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر ، فقالت : كان يقول «سبحان ربي الأعلى» الهوى من الليل» (٣٢) .

قال أبو عبد الرحمن : لم أجد ابن حزم ذكر الهوى في أسماء الله ضمن كتبه الموجودة كالمحلى والفصل والأصول .

ولعل ابن حزم ينقل مذهب غيره في مؤلف له خاص عن الأسماء ، أو فصل ، فإن هذه المسألة قديمة جداً قبل ابن حزم بقرون .

قال القرطبي في كتابه عن صفات الله (ولا يزال الكتاب مخطوطاً) : ومنها الهوى جل جلاله وتقدس أسمائه ... قال الإقليشي : ومن أغرب ما ورد في صفات الله تعالى ما ذكر أبو نعيم صاحب ابن المبارك في تفسير الأسماء له ، فإنه قال في الحديث الذي يروى عن ربيعة بن كعب الأسلمي : أنه قال كنت أبيت عند النبي ﷺ فكنت أسمعُه إذا قام من الليل يقول : سبحان رب العالمين الهوى ثم يقول : سبحان الله ، والحمد لله الهوى .

قال أبو نعيم : يعني بالهوى الطويل الدائم ... ولا يجوز ولا يمكن في قوله «سبحان الله ويحمده الهوى» أن يصرف إلى وجه من الوجوه إلا أن يكون صفة لله .. وطول الكلام عليه ، وجعله صفة لله تعالى .

قال : وزعم ابن المبارك أن الهوي الدائم الطويل .

قال الإقليشي : وهذا الذي قاله فيه صحيح ، وإنما دخل عليه اللبس من طريق أنه رأى الحديث مختصراً على هذا الوجه فأشكل عليه الأمر .

وعلى هذا النحو خرجه ابن أبي شيبة في مسنده عن ربيعة بن كعب أنه كان يبيت عند باب رسول الله ﷺ ، فكان يسمع رسول الله ﷺ يقول من الليل سبحان رب العالمين الهوي سبحان الله ويحمده .. فلما أشكل عليه الحديث جعل الهوي صفة لله تعالى ، ثم جاء بأمر أبعد من الأول حيث فسره بالطويل الدائم .. والطويل لا يصح أن يوصف الله تعالى به ، وما ذكره عن ابن المبارك من تفسير الهوي بالطويل فلم يرد أن الهوي صفة لله تعالى .

وبيان هذا كله في الحديث الذي خرجه الترمذي في مصنفه عن ربيعة بن كعب الأسلمي .. قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ فأعطيه وضوءه فأسمعه الهوي من الليل يقول : سمع الله لمن حمده .. وأسمعه الهوي من الليل يقول : الحمد لله رب العالمين .. فهذا الحديث مصرح بأن الهوي ليس بصفة لله تعالى ، وإنما هو من وصف الليل في هذا الحديث .

وقد ذكره عبدالرزاق في مصنفه ، وفسر الحديث عن بعض السلف ، قلت له : ما الهوي ؟

قال : يدعو ساعة .

وهذا التفسير أيضاً ليس بصحيح لأن الهوي ليس هو الدعاء ، وإنما معنى الحديث إذا روي بفتح الهاء : فأسمعه الهوي من الليل أي إذا هوى الليل ، وذهب أكثره ، وأخذ في النزول .

وهذا الوقت من الليل هو المراد بقوله ﷺ : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل » . وإذا روي بضم الهاء فأسمعه الهوي من الليل لمعناه : إذا هوى الليل وارتفع .

وهذا الوقت هو المراد بما ورد أيضاً في الحديث : ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يمضي ثلث الليل . وشاهد ما ذكرناه من اللغة أن العرب تقول : هوى يهوي هويّاً بفتح الهاء إذا سقط ، وهوى يهوي هويّاً إذا صعد .

فالهوي واقع على وقت من الليل إما قبل أن يذهب نصفه إذا ضمنت الهاء ، وإما بعد أن يذهب نصفه إذا فتحت الهاء . ومراد الراوي أنه كان يسمع صوت رسول الله ﷺ من الليل وهو يصلي ، فربما كان يسمعه في النصف الأول ، وربما كان يسمعه في النصف الآخر .

وتفسير ابن المبارك الهوي بالطويل إنما أراد به طول قيام رسول الله ﷺ وبوامه .

وأخذه من الحديث «كان رسول الله ﷺ يصلي ليلاً طويلاً قائماً ،
وليلاً طويلاً قاعداً» .

والذي ذكره عبدالرزاق من تفسير الهوي بالدعاء إنما أخبر عن
الامر الواقع من النبي ﷺ في وقت من الليل ، فلم يحسد أبو نعيم
النظر، وحمل الهوي على أنه من صفة الله سبحانه وأنه من كلام
رسول الله ﷺ ، وإنما هو من كلام الراوي .

قال أبو عبد الرحمن : لا وجه لتسمية الله بالهوي بلالريب ، والمعنى
التبس لاختصار الحديث إلا أن ذلك ليس من قبل ابن حزم ، وإنما من
قول قيل قبل أن يولد ابن حزم ، ولو علم ابن القيم - رحمه الله - قائل
ذلك من السلف ما نسب الشناعة إلى ابن حزم والله المستعان .

* * *

٣٣ - المسألة الثالثة والثلاثون : كيف تحصى أسماء الله الموعود
بإحصائها الجنة ؟

قال أبو عبد الرحمن : زيادة المبنى لزيادة المعنى .
ومعنى ذلك أن اللفظ الأقل حروفاً يكون معناه هو الأصل لمعنى
اللفظ الأكثر حروفاً .

ومادة «حصي» أقل حروفاً من مادة «أحصي» فيكون معنى
حصي بلا همزة هو الأصل .

معنى الحصى الصلابة والشدة والمنعة ، ومن هذا المعنى حصى
الحجارة ، وصلابته وشدته معروفة .

وشبهوا العقل بالحصاة فجعلوه حصاة ... قال ابن فارس :
«يقال : ماله حصاة .. أي ماله عقل ، لأن في الحصى قوة وشدة ،
والحصاة العقل لأن به تماسك الرجل وقوة نفسه» (٢٥٣) .

قال أبو عبد الرحمن : وسمي المنع حصواً كما في قول الرازي :

ألا تخاف الله إذ حصونني

حقي بلا ذنب وإذ عثوني

لأن منع شئ لشيئ لا يكون إلا عن قوة وصلابة في المانع .

ثم جاءت أخصى - بزيادة الهمزة - لها معنيان :

أولها : التجمع - قال ابن فارس عن حصى : «وإذا همز فأصله

تجمع الشيء .. يقال : أخصأت الرجل إذا أرويته من الماء .

وحصى هو .. ويقال : حصاً الصبي من اللبن إذا ارتضع حتى

تمتلئ معدته .. وكذلك الجدي .

وثانيهما : عد الشيء وإطاقته» (٢٥٤) .

وقال الراغب وتابعه السمين : «الإحصاء تحصيل الشيء بالعدد ،

(٢٥٣) مقاييس اللغة ص ٢٦٧ .

(٢٥٤) السابق ص ٢٦٧ .

وذلك من لفظ الحصى ، لأنهم كانوا يستعملونه فيه كاستعمالنا فيه الأصابع» (٢٥٥) .

وذكر أحمد بن محمد الفيومي : « أن أحصيت الشيء تأتي بمعنى علمته ، ومعنى عدته ، ومعنى أطلقته » (٢٥٦) .

وأضاف الفيروز آبادي : « حفظه أو عقله » (٢٥٧) .

قال أبو عبد الرحمن : اتضح من هذا السياق المستوعب لأقوال اللغويين بإيجاز أن الأصل للوضع اللغوي التسمية للحصى ، ثم اشتق للعادة معانٍ من صفة الحصى وهي الصلابة والشدة .

واشتق من ذلك المنعة والمانع ، لأن ذلك لا يكون إلا عن صلابة وقوة .

ثم زادت المادة بحرف الهمزة فكان للإحصاء عدة معانٍ استبعد منها معنى التجمع الذي ذكره ابن فارس ، لأن هذا المعنى من مادة أخرى وهي مادة حصاً وأحصاً بالهمزة في آخرها لا بالحرف المعتل . والتجمع ينتج قوة .

فمن تلك المعاني تحصيل الشيء ، وذلك التحصيل يكون بمعرفة عدده ، وبإحاطة العقل به حفظاً ومعرفة .

(٢٥٥) عدة الحفاظ ١/٤٨٨ .

(٢٥٦) المصباح المنير ١/١٤٠ .

(٢٥٧) القاموس المحيط ٤/٤٥٩ .

فالإحصاء خصوص تحصيل يعني إحاطة علم حاضر - وذلك هو الحفظ - بما يميز الشيء من عند أو صفة .

ويبقى وجه الاشتقاق المعنوي لمعنى أحصى من معنى حصى ذا احتمالين :

أولهما : من المتع الذي هو نتيجة لصلابة الحصى ، فمن أحصى شيئاً فقد منعه من أن يند عنه .

وثانيهما : ما ذكره الراغب ، لأنهم يعمدون بالحصى ، ويكون نتيجة العدّ معنى الإحصاء وهو الإحاطة بالعدد ، ثم الحق بذلك الإحاطة بالصفات والسمات .

فكان أحصى عد بالحصى .

قال أبو عبد الرحمن : والمعنى الثاني صحيح من جهة ، باطل من جهة . فأما الصحة فمن جهة أن الحصى يعدُّ به كنوى التمر .

وقد أدركت التجار والشريطية بمدينتي شقراء أيام كان لماقفتها سوق يخبرون أصحاب البضائع التي تجلب للمدينة ثم تباع في دقائق ، فيقولون له : تريد حساب بنو ، أو حساب حضر .

فإذا كان مدركاً حسبوا له حساب حضر جمعاً وطرحاً وضرباً وقسمة .

وإن كان غير مدرك قال : أريد حساب بنو .

فيعدون له بحصيات صغار ، أو بنوى تمر ، أو بنوى عيري ، أو بحبات قهوة .

وأما البطلان فلأن العد بالحصى لا يعبر عنه بأحصى ، إذ لا يعرف ذلك من معاني صيغة أفعل ، وإنما يكون الإحصاء بالعد وإن كان العد بغير الحصى .

وإنما المعنى من أحصى من مادة الحصى : كان ذا حصى ، ولرب من الحصى .

فلتعين بذلك أن مأخذ أحصى حسب الوجه الأول .

قال أبو عبد الرحمن : وأحصيت الشيء - بمعنى علمته - تفصيل للتفصيل بأن التفصيل وجد بالعلم كما يتخصص التفصيل بالحفظ ، وبالعد .

وأما أحصيته بمعنى أصلقته فليس من كلام العرب ، وإنما هو اقتضاب من كلام علماء التفسير أدخل في كلام العرب .

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ كان من معاني الآية المحتملة : علم أن لن تطيقوا إحصاء أوقاته .

ثم جاء من اختصر العبارة فقال : علم أن لن تطيقوه . والحاصل أن المعنى لن تطيقوا إحصاءه ، وعدم إطاق الإحصاء لا يعنى أن الإحصاء بمعنى الإطاقة ، لأن الإطاقة فعل واقع على الإحصاء ، وليس معنى من معانيه .

وجاء الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة غير واحد من أحصاها دخل الجنة » .

وهذا إحصاء يترتب عليه دخول الجنة ، ولهذا اجتهد العلماء في معرفة الإحصاء الذي يحصل به دخول الجنة .

فمنهم من فسر الإحصاء بمجرد الحفظ كالبخاري في صحيحه ، ورجح ذلك النووي في شرحه لصحيح مسلم . وعزاه في الأذكار إلى الأكثرين .

وحجة هذا القول أنه ورد في بعض الروايات : « من حفظها » ، وهي في صحيح مسلم وغيره ^(٢٥٨) .

ومنهم من فسر الإحصاء بمعنى عرف معانيها وأمن بها ^(٢٥٩) . قال السمين : « أي من حصل معرفتها ، وأمن بها ، ولم يلحد فيها .. عكس من قال فيهم : ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ [سورة الأعراف / ١٨٠] » ^(٢٦٠) .

ومنهم من فسر الإحصاء بمعنى أطاقها بحسن الرعاية لها ، وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها ^(٢٦١) .

ومنهم من فسر الإحصاء بأن يقرأ القرآن حتى يختمه ، فإنه يستوفي هذه الأسماء في أضعاف التلاوة .

(٢٥٨) تلخيص الحبير ١٩٢/٤ .

(٢٥٩) السابق ١٩٢/٤ .

(٢٦٠) عدة الحفاظ ٤٨٨/١ .

(٢٦١) تلخيص الحبير ١٩٢/٤ .

هذا مذهب أبي عبدالله الزبيرى ، واحتمل الحافظ ابن حجز أن يكون مراده تتبعها من القرآن (٣٦٣) .

وقال الخطابي الإحصاء في مثل هذا يحتمل وجوهاً :
أحدها : أن يعدها حتى يستوفىها .. يريد أنه لا يقتصر على بعضها ، لكن يدمر الله بها كلها ، ويثني عليه بجميعها ، فيستوجب المهور عليها من الثواب .

والثانيها : المراد بالإحصاء الإطاعة ، كقوله تعالى : ﴿ علم أن لن نحصره ﴾ [سورة الزمل/٢٠] .

والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء ، والعمل بمقتضاها ، وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بواجبها ، فإذا قال (الرزاق) وثق بالرزق ، وكذا سائر الأسماء .

ثالثها : المراد بالإحصاء الإحاطة بمعانيها من قول العرب : فلان ذو حصة .. أي ذو عقل ومعرفة .

وقال القرطبي : المرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة .

وهذه المراتب الثلاثة : للسابقين ، والصديقين ، وأصحاب اليمين .

وقال ابن عطية : معنى أحصاها عدّها وحفظها .. ويتضمن ذلك الإيمان بها ، والتعظيم لها ، والرغبة فيها ، والاعتبار بمعانيها .

وقال ابن الجوزي : لما ثبت في بعض طرق الحديث من حفظها بدل أحصاها اخترنا أن المراد العدُّ .. أي من عدّها ليستوفىها حفظاً . وتعقبه ابن حجر بأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ حفظها تعين السرد عن ظهر قلب ، بل يحتمل الحفظ المعنوي .

وقال ابن بطلال : طريق العمل بأن الذي يسوغ الاقتداء به فيها كالرحيم والكريم فإن الله يحب أن يرى حُلاها على عبده .. فليمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها .

وما كان يختص بالله تعالى كالجبار والعظيم فيجب على العبد الإقرار بها ، والخضوع لها ، وعدم التحلي بصفة منها .

وما كان فيه معنى الوعد نقف منها عند الطمع والرغبة .

وما كان فيه معنى الوعيد نقف منه عند الخشية والرهبة .

وتحدث ابن قيم الجوزية عن أنواع معاني أسماء الله وصفاته ، وحصرها في ستة أنواع هي :

«أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات كقوله : ذات وموجود وشيئ .

الثاني : ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله نحو : الخالق والرزاق .

الرابع : ما يرجع إلى التنزيه المحض ، ولا بد من تضمينه ثبوتاً .

إذ لا كمال في العدم المحض كالقنوس والسلام .

الخامس (ولم يذكره أكثر الناس وهو) : الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو المجيد العظيم الصمد .. فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، وفظله يدل على هذا ، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ، فمنه استمجد المرح والغفار وأمجد **الذات طناً** .. ومنه : ﴿ رب العرش المجيد ﴾ ، صفة للعرش لسعته وعظمته وشره .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد ، والعفو القدير ، والحميد المجيد .. وهكذا عامة الصفات المقتربة والأسماء المزدوجة في القرآن ، فإن الغنى صفة كمال ، والحمد كذلك ، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك العفو القدير ، والحميد المجيد ، والعزیز الحكيم ، فتأمل فإنه من أشرف المعارف (٣٦٢) .

ونكر ما يتعلق بإحصاء أسماء الله فقال : « إحصاء الأسماء الحسنی ، والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم ، فإن المعلومات سواء إما أن تكون خلقاً له تعالى ، أو أمراً .. إما علماً بما كونه أو علماً بما شرعه » . ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنی ، وهما مرتبطان بها

ارتباط المقتضي بمقتضيه ، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنی ، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرافة والرحمة بهم ، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه ، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة واطف وإحسان ، إذ مصدره أسمائه الحسنی .. وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة ، إذ مصدره أسمائه الحسنی ، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثاً .

وكما أن كل موجود سواء فبإيجاده ، فوجود من سواء تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه ، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواء ، فالعلم بأسمائه ، وإحصاؤها أصل لسائر العلوم ، فمن أحصى أسمائه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم ، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل العلوم ، لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها ، وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى ،

ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً ، لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به ، أو لعدم حكمته (٣٦٣) .

ثم شرح المراد بإحصاء ببيان المراتب فقال : « بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة ، وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح .

المرتبة الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها .

المرتبة الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

المرتبة الثالثة : دعاؤه بها كما قال تعالى : ﴿ وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف / ١٨٠] . وهو مرتبتان :

إحداهما : دعاء ثناء وعبادة .

والثاني دعاء طلب ومسألة .. فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يُسأل إلا بها ، فلا يقال : يا موجود ، أو يا شئ ، أو يا ذات : المخر لي وارحمني .. بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب ، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم . ومن تأمل أدعية الرسل ولاسيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا ، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال : « يتخلق بأسماء الله » ؛ فإنها ليست بعبارة سديدة ، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة .

وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال .

فمراتبها أربعة أشدها إنكاراً عبارة الفلاسفة وهي التشبه ، وأحسن منها عبارة من قال التعبد ، وأحسن من الجميع الدعاء ، وهي لفظ القرآن» (٣٦) .

(٢٦٥) بدائع الفوائد ١/ ١٤٨-١٤٩ .

قال أبو عبد الرحمن : ها هنا وقفات :

الوقف الأولى : تبين من استعراض أقوال اللغويين أن الأصل في الإحصاء إحاطة علم حاضر (وذلك هو الحفظ) بشئ يعينه العلم بعدد أو صفة .

ولهذا فرواية من حفظها ترادف رواية من أحصاها .

الوقف الثانية : لم يرد في الحديث تعيين المراد حفظه هو الأسماء أم معانيها ؟ .

ولكن الظاهر من النص مجرداً للحمل على حفظ الألفاظ ، لأن هذا هو المتبادر عرفاً عند إطلاق كلمة الحفظ أو مرادفتها ، ولأن الضمير عائد للأسماء فالحفظ يتعلق بألفاظها ، والفهم يتعلق بمعانيها ، والنص عن الحفظ .

والحفظ يقع للمعاني من دون استحضار الألفاظ، إلا أن هذا الوقوع الصحيح لا يدل عليه ظاهر الحديث مجرداً لغلبة العرف كما أسلفت . وهذا هو الصحيح ، وهو مذهب الجمهور .

الوقف الثالثة : تفسير الإحصاء بمعرفة المعاني والإيمان بها تفسير لا تدل عليه لغة العرب .

الوقف الرابعة : ذم الله لمن ألد في أسمائه بمقابل البشري بالجنة لمن أحصى أسمائه لا يعني أن معنى الإحصاء بضد معنى الإلحاد ، بل معنى الإحصاء والإلحاد يؤخذ من لغة العرب ، وليس في

لغة العرب أن نقيض معنى الإلحاد بمعنى الإحصاء .

الوقفه الخامسة : ليست الإطاقة من معنى الإحصاء كما أسلفت بيان ذلك في الإشارة إلى أن استنباط عالم كالمفسر لا يكون نقلاً عن العرب ، بل يحقق النقل عن العرب بالإسناد إلى الفصحاء ، وبالنقل من القواميس وفق أصول اللغة .

ولهذا لا يكون الإحصاء بمعنى الرعاية والتخلق للذين جعلنا من خروج الإطاقة .

الوقفه السادسة : تتبع القرآن الكريم لاستخراج أسماء الله وإحصائها من سبيل الإحصاء ، وليس هو معناه .

الوقفه السابعة : القول بأن تتبع كلام الله تلاوة يقتضي إحصاءها قول غير صحيح ، لأنه لا يتم إلا بمقدمات أكثر من غير محقق .

فالمقدمة الأولى : أن يكون حاضر لعندهن في ذهنه ، مميراً لهن عن غيرهن إن كان ما في القرآن أكثر من تسع وتسعين .

وهذا لا يتم بمجرد التلاوة العامة حفظاً .

والمقدمة الثانية : أن تكون التلاوة حفظاً .

والمقدمة الثالثة : أن يكن كلهن في القرآن الكريم .

والمقدمة الرابعة : أن يكن محفوظات في ذهنه يستحضرهن مجردات من بقية حروف التلاوة .

الوقفه الثامنة : ظاهر النص يدل على أن الوعد بالجنة من أجل

حفظ ألفاظهن فقط ، وتمييزهن عن بقية أسماء الله اللاتي لا يشملهن حكم الإحصاء المترتب عليه الوعد بالجنة .

ومن المعلوم أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين .

الوقفه التاسعة : بقية ما ذكره العلماء من الإيمان بها ، ورعايتها ، والدعاء بها ... إلخ ؛ كل ذلك أمور مطلوبة ، ولها أجرها الخاص بها ، والجنة منازل ، ونعيم الله درجات .

ولكنها مطلوبة بأدلة من خارج ، وليست شرطاً لتحقيق الوعد في هذا الحديث ، بل الوعد في هذا الحديث حاصل بمجرد الإحصاء الذي هو حفظ لها ، وتمييز لها عن غيرها .

الوقفه العاشرة : كل وعد بالجنة على خصلة من الخصال فلا يكون إلا للمؤمن ، لأن الجنة محرمة على الكافرين .

والمؤمنون منهم من يدخل الجنة بدءاً ، ومنهم عصاة يعذبون بذنوبهم ثم مألهم إلى الجنة .

وإن فالوعد بالجنة يقتضي دخولها بدءاً ، لتتحقق فائدة الوعد ، إذ العاصي المعذب سيدخل الجنة في المال .

وإن فإحصاء أسماء الله إذا وافق ما وعد به النص من حفظ وتعيين ما يدخل إحصاءه الجنة سيكون ضماناً كونية لمن مات مؤمناً

أن يوفق لخيرات يلقي بها ربه فيكون راجح الحسنات .

ومن تلك الخيرات التوفيق لمثل ما ذكره ابن قيم الجوزية من الدعاء بها فيستجاب له .

الوقفه الحادية عشرة : عبارة التخلق بأسماء الله غير سديدة بلا رب كما ذكر ابن قيم الجوزية .

ولكن عبارة التخلق حسب القدرة بمقتضى بعض أسمائه لا غبار عليها .

له الله سبحانه الرحمن ، ونحن مأمورون بالرحمة التي تليق بقدرتنا ، وقد نهى إلى ذلك المقارنة في حديث : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

الوقفه الثانية عشرة : تقسيم ابن قيم الجوزية لأنواع أسماء الله وصفاته ألفاد من تقسيمها الرازي وغيره في كلامهم عن حديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » .

الوقفه الثالثة عشرة : قال ابن قيم الجوزية عن مثل القدوس : « إنه يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض » .

قال أبو عبد الرحمن : كلمة القدوس في ذاتها لا تتضمن ثبوتاً ، ولا شرطاً لتضمنها الثبوت لا في اللغة ولا في اصطلاح شرعي .

وثبوت الكمال لله سبحانه بصفات أخرى ، وبراهين أخرى . وإنما يأتي الثبوت أحياناً بضرورة العقل لا دلالة اللغة إذا كان تقديس الله عن صفة نقص معينة ولا وسط بينها وبين نقضها ، والنقيضان لا يرتفعان معاً .

والقدوس لا تعني عدماً محضاً ، لأنها ليست نقياً مطلقاً يقتضي

عدماً ، وإنما هي نقي للنقائص بإطلاق ، والانتفاء من النقائص كمال وليس عدماً .

والوقفه الرابع عشرة : سواء أكان المجد بمعنى السعة في مثل الكرم كما قال الراغب في المفردات - وبه استدل ابن قيم الجوزية - ، أم كان بمعنى بلوغ الغاية في صفة محمودة كما قال لابن فارس : فإن المجد تدل على جملة أوصاف محمودة يتخلق بها العبد .. وهذا سبحانه له الصفات المحمودية بإطلاق فله المجد المطلق .

الوقفه الخامسة عشرة : ذكر ابن قيم الجوزية - رحمه الله - ما لا يتحقق لا في لغة ، ولا في عقل ، ولا في خيال ، وهو حصول صفة كمال للرب سبحانه من اقتران صفة بصفة مثل الغني الحميد ! .

قال أبو عبد الرحمن : ما اسم هذه الصفة الناتجة عن هذا الاقتران ؟

وترادف الكمالات وتوليها للرب سبحانه يعني الكمال المطلق بكل الصفات ، والكمال المطلق في كل صفة .

ولكن هذا لا يعني أنه حصل من اجتماع الغنى والحمد صفة ثالثة !! .

الوقفه السادسة عشرة : الحميد ليست صفة معينة ، بل هي وصف للرب سبحانه من أجل اتصافه بكل ما يحمد عليه مدحاً وشكراً . واجتماع الغنى مع الحمد فله ثناء سبحانه من غناه ، وله ثناء من حمده (والحمد نفسه يتضمن الثناء) .. ولا يقال كما قال ابن قيم الجوزية : وله ثناء من اجتماعها ، لأن غنى الله داخل في حمده ، فهو

ممنوح بالغنى (والمدح أحد معاني الحمد) .
وهو مشكور على غناه (والشكر المعنى الثاني من معاني الحمد).
فالذي يحصل من اقتران صفتين زيادة العلم أو التعليم بصفة
كمال أخرى لا تولد صفة ثالثة .

* * *

٢٤ - المسألة الرابعة والثلاثون : البراهين على أن أسماء الله
الحسنى أكثر من تسعة وتسعين :

قال أبو عبد الرحمن : حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه
قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها
دخل الجنة .

إنه وتر يحب الوتر .

رواه الشيخان وغيرهما .

والدليل على أنها من أسمائه الحسنى وليست جميعها ما رواه
أبوسلمة الجهني : عن القاسم بن عبد الرحمن : عن أبيه : عن ابن
مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « اسألك بكل اسم هو لك ... » (٣٣) .
والدليل مئة أن الله ندب إلى إحصاء تسعة وتسعين اسماً له
سبحانه ، وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهذا يعني أن
العلم بها ممكن .

(٢٦٦) انظر موارد الطمان ص ٥٨٩ .

ثم بين في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن هناك أسماء مغيبة عن
بعض الخلق ، وأخرى مغيبة عن جميع الخلق ، وكل ذلك بلا ريب غير
التسعة والتسعين الممكنة .

قال أبو عبد الرحمن : وحديث ابن مسعود رضي الله عنه رواه بالإسناد إلى
أبي سلمة كل من الإمام أحمد ، وأبي أسامة ، وأبي يعلى في
مسانيدهم ، والطبراني في المعجم الكبير ، وفي كتابه الدعاء ، وابن
حبان في صحيحه ، والحكم في مستدركه ، وابن أبي شيبة في مصنفه ،
وابن السني في عمل اليوم والليلة ، وابن غزوان في كتاب الدعاء ،
والأنصاري في ستة مجالس تخريج ابن ناصر (٣٧) .

وأبوسلمة هو موسى بن عبدالله ثقة من رجال مسلم (٣٨) .

وقد تابع أبا سلمة في الرواية عن القاسم : أبوشيبه عبد الرحمن
ابن إسحاق الواسطي .

وهو ضعيف باتفاق (٣٩) .

ورواه ابن السني بسند صحيح إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه
عن رسول الله ﷺ (٤٠) .

(٢٦٧) انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٢٧/١ ، وكتاب الدعاء للطبراني
(حاشية المحقق) ١٢٧٩/٢ .

(٢٦٨) حقق ذلك العلامة أحمد شاكر ، والألباني ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة
٢٢٨ - ١/٢٢٧ .

(٢٦٩) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٢٩/١ .

(٢٧٠) السابق ٢٢٩/١ .

وعبدالرحمن ثبت سماعه من أبيه عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم (٣٣) .

قال أبو عبد الرحمن : إذن لا سبيل للمسلم إلى إحصاء أسماء الله إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولابد أن يكون المحصى موجوداً في هذين المصدرين .

وصح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن لله أسماء ليست في الكتاب والسنة منها ما استأثر به في علم الغيب ، ومنها ما لم ينزله في كتابه مما علمه أحدًا من خلقه .

فكل هذا بلا ريب زائد على ما في الكتاب والسنة ، وهو زائد على تسعة وتسعين ، لأن التسعة والتسعين موجودة في الكتاب والسنة ولا بد . وبرهان آخر : وهو أن المستقرأ من الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته أكثر من تسعة وتسعين كما سيأتي بيانه .

وبرهان ثالث : وهو أن تسعة وتسعين اسماً ليست لحصر أسماء الله ، وإنما هي حصر لما يكون بإحصائه دخول الجنة .

وبرهان رابع : وهو أن عبارة «إن لله تسعة وتسعين» ليست من صيغ الحصر ، فهي تثبت العدد ولا تنفي ما زاد عليه .

وما يدعى الله به مما ورد به الشرع مما يصلح أن يكون اسماً أكثر من تسعة وتسعين .

قال أبو عبد الرحمن : والمؤاخذات على نصوص أبي محمد (٣٣) في عدة مواضع :

الموضع الأول : أن التسعة والتسعين ليست هي أسماء الحسنى كما قال أبو محمد ، وإنما هي من أسماء الحسنى .

وليست هي المذكورة في القرآن والسنة ، وإنما هي بعض منها ، أو أغلبها أغلبها .

ولقد ورد على شيخ الإسلام هذا السؤال : «من قال : لا يجوز الدعاء إلا بالتسعة والتسعين اسماً» .

ولا يقول : يا حنان يا منان

ولا يقول : يا دليل الحائرین !

فهل له أن يقول ذلك ؟ (٣٣) .

فأجاب بقوله : «الحمد لله» .

هذا القول وإن كان قد قاله طائفة من المتأخرين كابن محمد ابن حزم وغيره فإن جمهور العلماء على خلافه ، وعلى ذلك مضى سلف الأمة وأئمتها .

وهو الصواب لوجوه :

أحدها : أن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ .

وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم : عن شعيب : عن أبي حمزة (٢٧٤) .

وحفاظ أهل الحديث يقولون : هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث .

وفيها حديث ثانٍ أضعف من هذا رواه ابن ماجه .

والد روى في هدهما غير هذين النوعين من جمع بعض السلف .
وهذا القائل الذي حصر أسماء الله في تسعة وتسعين لم يمكنه استخراجها من القرآن ، وإذ لم يقم على تعيينها دليل يجب القول به لم يمكن أن يقال : هي التي يجوز الدعاء بها دون غيرها ، لأنه لا سبيل إلى تمييز المأمور من المحظور ، فكل اسم يجهل حاله يمكن أن يكون من المأمور ، ويمكن أن يكون من المحظور .

وإن قيل : لا ندعو إلا باسم له ذكر في الكتاب والسنة .
قيل : هذا أكثر من تسعة وتسعين .

الوجه الثاني : أنه إذا قيل بتعيينها على ما في حديث الترمذي مثلاً ، ففي الكتاب والسنة أسماء ليست في ذلك الحديث مثل اسم الرب فإنه ليس في حديث الترمذي ، وأكثر الدعاء المشروع إنما هو بهذا الاسم كقول آدم : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وقول نوح : ﴿ رب إنني

(٢٧٤) يعني الحديث الذي سرد الأسماء تعييناً ، وأوصلها إلى تسعة وتسعين ، وانظر جزء أبي نعيم : «إن لله تسعة وتسعين اسماً» وتعليق محققه ص ٩٥-١٠١ .

أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ ، وقول إبراهيم : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ وقول موسى : ﴿ رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ ، وقول المسيح : ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ﴾ ، وأمثال ذلك . حتى إنه يذكر عن مالك وغيره أنهم كرهوا أن يقال يا سيدي ! ، بل يقال : يارب لأنه دعاء النبيين وغيرهم كما ذكر الله في القرآن ، وكذلك اسم المنان ففي الحديث الذي رواه أهل السنن أن النبي ﷺ سمع داعياً يدعو : اللهم إنني أسألك بأن لك الملك ، أنت الله المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم . فقال النبي ﷺ : «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» .

وهذا رد لقول من زعم أنه لا يمكن في أسمائه المنان .
وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لرجل ودعه قل : يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين .
وقد أنكر طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر وأبي الوفاء ابن عقيل أن يكون من أسمائه الدليل ، لأنهم ظنوا أن الدليل هو الدلالة التي يستدل بها .

والصواب ما عليه الجمهور ، لأن الدليل في الأصل هو المعروف للمدلول .

ولو كان الدليل ما يستدل به ، فالعبد يستدل به أيضاً ، فهو دليل من الوجهين جميعاً .

وأيضاً فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله وتر يحب الوتر» .

وليس هذا الاسم في هذه التسعة والتسعين .

وثبت في الصحيح أنه قال : «إن الله جميل يحب الجمال» ..
وليس هو فيها .

وفي الترمذي وغيره أنه قال : «إن الله نظيف يحب النظافة» ..
وليس هذا فيها .

وفي الصحيح عنه أنه قال : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً» وليس هذا فيها .

وتتبع هذا يطول» .

ثم سرد شيخ الإسلام ابن تيمية ما ورد من الأسماء في حديث الترمذي ، ثم عقب بقوله : «ومن أسمائه التي ليست في هذه التسعة والتسعين اسمه السبوح ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه كان يقول : «سبح قنوس» .

واسمه الشافي كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول : «أذهب الباس رب الناس ، واشف أنت الشافي .. لاشافي إلا أنت .. شفاء لا يغادر سقماً» .

وكذلك أسماءه المضافة مثل : أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، ورب العالمين ، ومالك يوم الدين ، وأحسن الخالقين ، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ومقلب القلوب ، وغير ذلك مما ثبت في الكتاب

والسنة، وثبت في الدعاء بها بإجماع المسلمين ، وليس من هذه التسعة والتسعين» .

قال أبو عبد الرحمن : في كلام شيخ الإسلام أمور ينبغي تحقيقها ، فمن ذلك أنه ذكر من حصر أسماء الله ، ووصفه بأنه لم يمكنه استخراجها من القرآن ، وأنها ليست التي يجوز الدعاء بها دون غيرها إذ لم يتم على تعيينها برهان .

قال أبو عبد الرحمن : العجز عن استخراجها كلها يدل على صحة الحصر بتسع وتسعين ، ومن ثم يجمع بين حديث أبي هريرة وابن مسعود - رضي الله عنهما - بأن المراد إحصاء ما لم يغيبه الله عنا في الكتاب والسنة .

وإنما الإشكال في استخراج أكثر منها وحينئذ يقال : لاصحة للحصر بتسع وتسعين .

ويرزول الإشكال بملاحظة أن المراد حصر أسماء يعينها موجودة في الكتاب والسنة مغيب العلم بوصفها - وهو دخول الجنة بإحصائها - في علم الله ، أو في علم الله وعلم من أذن الله بعلمه غير الثقلين . فيكون المطلوب منا الاجتهاد والتحري للأسماء التي يحصل بإحصائها دخول الجنة كما طلب منا الاجتهاد في ليلة القدر ، والاجتهاد في ساعة الإجابة يوم الجمعة .

ونذكر شيخ الإسلام مسألة جواز الدعاء أو عدم جواز الدعاء بأسماء الله التي لم يتم دليل على أنها من التسعة والتسعين .

قال أبو عبد الرحمن : الدعاء ، والتعبيد ليسا من مدلول حديث الإحصاء .

والإحصاء عددًا تكفل به رسول الله ﷺ ، وبين أنه تسع وتسعون .

فصح أن المراد إحصاء تعيين للتسعة والتسعين .

وأما ما يجوز الدعاء به ، وما يجوز إضافة المخلوق إليه تعبيدًا لله في التسمية لمعلم بالاستدلال الشرعي ، ونعلم أنه يجوز عبد القادر ولا يجوز عبد الماكر .

ونعلم أنه يجوز : يا حي يا قيوم ، ولا يجوز يا نازل يا ساخط .

ولا يبرهان على أن الدعاء والتعبيد لا يكون إلا بتسعة وتسعين اسمًا .

وقال الحافظ ابن حجر : وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذه العدة ، أو أنها أكثر من ذلك ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة .

ومقصود الحديث أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ، ويؤيده قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد وصححه ابن حبان : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » .

وعند مالك : عن كعب الأحبار في دعاء : وأسألك بأسمائك

الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم .

وأورد الطبري عن قتادة نحوه .

ومن حديث عائشة أنها دعت بحضرة النبي ﷺ بنحو ذلك .

وقال الخطابي : في هذا الحديث إثبات هذه الأسماء المخصصة

بهذا العدد ، وليس فيه منع ما عداها من الزيادة ، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معاني ، وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله : « من أحصاها » لا قوله : « لله » .

وهو كقوك : لزيد ألف درهم أعدها للصدقة ، أو لعمره مئة ثوب

من زاره ألبسه إياها .

وقال القرطبي في المفهم نحو ذلك .

ونقل ابن بطلال عن القاضي أبي بكر بن الطيب قال : ليس في

الحديث دليل على أنه ليس لله من الأسماء إلا هذه العدة ، وإنما معنى

الحديث أن من أحصاها دخل الجنة .

وبدل على عدم الحصر أن أكثرها صفات ، وصفات الله لا تنتهى .

وقيل : إن المراد الدعاء بهذه الأسماء ، لأن الحديث مبني على قوله :

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ (٢٧٥) ، فذكر النبي ﷺ أنها تسعة

وتسعون قيدعى بها ولا يدعى بغيرها . . حكاه ابن بطلال عن المهلب .

(٢٧٥) دعاء الله بظك الأسماء لا ينبغي أن يكون محل خلاف .

ولكن لا يقال دعاء الله محصور فيها ، بل الحصر في وصف الإحصاء المدخل للجنة .

وفيه نظر لأنه ثبت في أخبار صحيحة الدعاء بكثير من الأسماء التي لم ترد في القرآن كما في حديث ابن عباس في قيام الليل : أنت المقدم ، وأنت المؤخر .. وغير ذلك .

وقال الفخر الرازي : لما كانت الأسماء من الصفات ، وهي إما **لهوتية حلقية كالحى** ، أو **إضافية كالعظيم** ، وإما **سلبية كالقدس** ، وإما **حلقية وإضافية كالقدير** ، أو من **سلبية إضافية كالأول والآخر** ، وإما من **حلقية وإضافية سلبية كالملك** .. والسلوب غير متناهية لأنه عالم بلا نهاية ، فإدعى على ما لا نهاية له : فلا يمتنع أن يكون له من ذلك اسم فيلزم أن لا نهاية لأسمائه (٢٧٦) .

وحكى القاضي أبوبكر ابن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم.. قال ابن العربي : وهذا قليل فيها .

ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم استأثر بعلم ألف منها ، وأعلم الملائكة بالبقية ، والأنبياء بألفين منها ، وسائر الناس بألف .

وهذه دعوى تحتاج إلى دليل .

واستدل بعضهم لهذا القول بأنه ثبت في نفس حديث الباب أنه وتر يحب الوتر ، والرواية التي سردت فيها الأسماء لم يعد فيها الوتر ، فدل على أن له اسماً آخر غير التسعة والتسعين .

(٢٧٦) قال أبو عبد الرحمن : لا يلزم لأن أسماء الله توقيفية .

وتعقبه من ذهب إلى الحصر في التسعة والتسعين كإبن حزم بأن الخبر الوارد لم يثبت رفعه ، وإنما هو مدرج كما تقدمت الإشارة إليه . واستدل أيضاً على عدم الحصر بأنه مفهوم عند وهو ضعيف .

وابن حزم ممن ذهب إلى الحصر في العدد المذكور ، وهو لا يقول بالمفهوم أصلاً ، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله ﷻ : «مئة إلا واحداً» .

قال : لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مئة اسم فيبطل قوله مئة إلا واحداً ، وهذا الذي قاله ليس بحجة على ما تقدم ، لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى على أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً على ذلك أخطأ .

ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد .

واحتج بقوله تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ .

وقد قال أهل التفسير : من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة ، وقد ذكر منها في آخر سورة الحشر عدة ، وختم ذلك بأن قال : ﴿له الأسماء الحسنى﴾ .

قال : وما يتخيل (٢٧٧) من الزيادة في العدة المذكورة لعله مكرر

(٢٧٧) ليس ذلك متخيل بل محقق ، وإنما المحصور بتسعة وتسعين ما يحصل بإحصائه دخول الجنة .

معنى وإن تغاير لفظاً كالغافر والغفار والغفور مثلاً ، فيكون المعدود من ذلك واحداً فقط ، فإذا اعتبرت ذلك وجمعت الأسماء الواردة نصاً في القرآن وفي الصحيح من الحديث لم تزد على العدد المذكور .

وقال غيره : المراد بالأسماء الحسنى في قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ ما جاء في الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » .

فإن ثبت الخبر الوارد في تعيينها وجب المصير إليه وإلا فيتبع من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، فإن التعريف في الأسماء للعهد ^(٢٧٨) فلا بد من المعهود فإنه أمر الدماء بها ، ونهى عن الدعاء بغيرها ، فلا بد من وجود المأمور به .

قلت : والحوالة على الكتاب العزيز أقرب ، وقد حصل بحمد الله تتبعها ، وبقي أن يعتمد إلى ما تكرر لفظاً ومعنى من القرآن فيقتصر عليه ، ويتبع من الأحاديث الصحيحة تكملة العدة المذكورة ، فهو نمط آخر من التتبع عسى الله أن يعين عليه بحوله وقوته أمين .

وعن حكمة القصر على هذا العدد قال ابن حجر : « وأما الحكمة في القصر على العدد المخصوص ، فذكر الفخر الرازي عن الأكثر أنه تعبد لا يعقل معناه كما قيل في عدد الصلوات وغيرها .

ونقل عن أبي خلف محمد بن عبد الملك الطبري السلمي قال : إنما

(٢٧٨) ليس المعهود تسعة وتسعين ، وإنما المعهود الحسنى .

خص هذا العدد إشارة إلى أن الأسماء لا تؤخذ قياساً .

وقيل : الحكمة فيه أن معاني الأسماء ولو كانت كثيرة جداً موجودة في التسعة والتسعين المذكورة .

وقيل : الحكمة فيه أن العدد زوج وفرد ، والفرد أفضل من الزوج .. ومنتهى الأفراد من غير تكرار تسعة وتسعون ، لأن مئة وواحداً يتكرر فيه الواحد .

وإن كان الفرد أفضل من الزوج لأن الوتر أفضل من الشفع ، لأن الوتر من صفة الخالق ، والشفع من صفة المخلوق ، والشفع يحتاج للوتر من غير عكس .

وقيل : الكمال في العدد حاصل في المئة لأن الأعداد ثلاثة أجناس : آحاد ، وعشرات ، ومئات ، والألف مبتدأ لآحاد آخر .

فأسماء الله مئة استأثر الله منها بواحد وهو الاسم الأعظم فلم يطلع عليه أحداً ، فكأنه قيل مئة لكن واحد منها عند الله .

وقال غيره : ليس الاسم الذي يكمل المئة مخيفاً بل هو الجلالة . ومن جزم بذلك السهيلي ، فقال : الأسماء الحسنى مئة على عدد درجات الجنة ، والذي يكمل المئة الله ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ فالتسعة والتسعون لله ، فهي رائدة عليه ، وبه تكمل المئة .

قال أبو عبد الرحمن : في كلام الرازي الذي ذكره ابن حجر تشويق كلام عن الثبوتي والإضافي والسلبى لا يتم الفقه فيه إلا بتمثيله

على مخلوق ، وليس ذلك التشقيق ضرورياً في هذا المقام ، فلا أرى ضرورة التعليق عليه .

ولا يلزم أن أسماء الله لا نهاية لها ، لأن اسم الله سبحانه ليس هو كل ما يتصف به ، وإنما هو ما رضىه لنفسه اسماً ، ولهذا كان مبنى أسماء الله على التوقيف .

قال أبو عبد الرحمن : والوتر ذكر في الرواية الصحيحة عن إحصاء العدد ، ولم يذكر في الروايات الضعيفة عن إحصاء التعيين ليظهر من ذلك أمران :

أولهما : اليقين بأن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين .
وثانيهما : عدم العلم بأن الوتر من الأسماء التي يحصل بإحصائها دخول الجنة .

قال أبو عبد الرحمن : والأصل حجية مفهوم العدد في الحصر حتى يقوم دليل على أن المفهوم غير مراد .

والسرفي ذلك أنه صح في لغة العرب إرادة مفهوم العدد وعدم إرادته ، والأصل إرادته فلا بد من برهان ترجيح على أنه غير مراد .

وقوله **ﷺ** : «مئة إلا واحداً» ، تأكيد لتسعة وتسعين فدل ذلك على أن المفهوم مراد ، وذلك يوافق دليل الأصل .

* * *

٣٥ - المسألة الخامسة والثلاثون : تعيين أسماء الله التي من أحصاها دخل الجنة :

بين الإمام أبو محمد ابن حزم أن أحاديث التعيين مضطربة لا يصح منها شيء .

وعزا إليه ابن حجر أنها مدرجة .

وحديث التعيين أسنده الترمذي فقال : «حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني : حدثني صفوان بن صالح : حدثنا الوليد بن مسلم : حدثنا شعيب بن أبي حمزة : عن أبي الزناد : عن الأهرج : عن أبي هريرة قال قال رسول الله **ﷺ** : إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة .

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الوهيد المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواحد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو العرف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع

الضار النافع النور الهادي البديع الباقي للوارث الرشيد الصبور.

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان ابن صالح ، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث .

وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير شئ من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث .

وقد روي آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا : عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح . حدثنا ابن أبي عمر : حدثنا سفيان بن عيينة : عن أبي الزناد : عن الأعرج : عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» .

قال وليس في هذا الحديث ذكر الأسماء .

قال : وهذا حديث حسن صحيح (٣٣) .

وساقه الحاكم بإسناده إلى صفوان بن صالح بإسناد الترمذي ، ثم عقب بقوله : «هذا حديث خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه ، والعلّة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله ، وذكر الأسامي فيه ، ولم يذكرها غيره ، وليس هذا

بطله ، فإنني لا أعلم بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان ، ويشتر بن شعيب ، وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب .

ثم نظرنا فوجدنا الحديث قد رواه عبدالعزيز بن حصين : عن أيوب السختياني ، وهشام بن حسان جميعاً : عن محمد بن سيرين : عن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطوله .

حدثنا أبو محمد عبدالرحمن بن حمدان الجلاب بهمذان : حدثنا الأمير أبو الهيثم خالد بن أحمد الذهلي بهمذان : حدثنا أبو اسد عبدالله بن محمد البلخي : حدثنا خالد بن مخلف القظوني : حدثنا محمد بن صالح بن هاني ، وأبو بكر بن عبدالله قالا : حدثنا الحسن بن سفيان : حدثنا أحمد بن سفيان النسائي : حدثنا خالد بن مخلد : حدثنا عبدالعزيز بن حصين بن الترجمان : حدثنا أيوب السختياني ، وهشام بن حسان : عن محمد بن سيرين : عن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة : الله الرحمن الرحيم الإله الرب الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الخليم العليم السميع البصير الحي القيوم الواسع اللطيف الخبير الحنان المنان البديع الوود الغفور الشكور المجيد المبدئ المعيد النور الأول الآخر الظاهر الباطن الغفار الوهاب القادر الأحد الصمد الكافي الباني الوكيل المجيد المغيث الدائم المتعال ذو الجلال والإكرام المولى

التصير الحق المبين الباعث المحيي المعيت الجميل الصادق
الحفيظ الكبير القريب الرقيب الفتح التواب القديم الوتر الفاطر الرزاق
العلام العلي العظيم الغني الملك المقتدر الأكرم الرؤوف المدير المالك
القدير الهادي الشاكر الرفيع الشهيد الواحد ذو الطول ذو المعارج ذو
الفضل الخلاق الكفيل الجليل الكريم .

هذا حديث محفوظ من حديث أيوب ، وهشام : عن محمد بن
سريع عن أبي هريرة مختصر يورن ذكر الأسماء الزائدة فيها كلها
في القرآن ، وعبد العزيز بن الحصين بن الترجمان ثقة وإن لم يخرجاه
وإنما جعلته شاهداً للحديث الأول» (٢٨٠) .

(٢٨٠) المستدرك ١/١٦-١٧ .

قال أبو عبد الرحمن : وتعقبه الذهبي في تلخيص المستدرك فقال عن عبد العزيز بن
الحصين : يل ضعفه .

وساقه ابن حبان بإسناده إلى صفوان كما في موارد الظمان ص ٥٩٢-٥٩٣ .

وساق الحديث الطبراني بإسناده إلى صفوان ، وإلى عبد العزيز بن الحصين في
كتاب الدعاء ٢/٨٢٩-٨٣١ .

وأظهر كتاب الضعفاء الكبير للعقيلي ٣/١٥ .

وقال ابن حجر في كتاب فتح الباري ١١/٢١٥ متعباً الحاكم في تصحيحه لرواية
الوليد : « وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط ، بل الاختلاف فيه ،
والاضطراب ، وتدليس ، واحتمال الإدراج .

قال البيهقي : يشتمل أن يكون التعيين وقع من بعض الرواة في الطريقين معاً ،
ولهذا وقع الاختلاف الشديد بينهما ، ولهذا ترك الشيخان تخريج التعيين» .

وقال ابن حجر في فتح الباري ١١ / ٢١٥ عن رواة غير صفوان ، وعن =

وقال ابن حجر عن الاختلاف في المتن : وقد تكرر في رواية الوليد
عن زهير ثلاثة أسماء وهي : الأحد ، الصمد ، الهادي .
ووقع بدلها في رواية عبد الملك : المقسط ، القادر ، الوالي .
وعند الوليد أيضاً : الوالي ، الرشيد .
وعند عبد الملك : الوالي ، الرشيد .
وعند الوليد : العادل المنير .
وعند عبد الملك : الفاطر ، القاهر .
واتفقا في البقية .

= = الاختلاف على الوليد : ولم يتفرد به صفوان فقد أخرجه البيهقي من طريق
موسى بن أيوب النصيب وهو ثقة : عن الوليد أيضاً .

وقد اختلف في سنده على الوليد ، فأخرجه عثمان الدارمي في النقص على المريسي :
عن هشام بن عمار : عن الوليد فقال : عن خليل بن دهاج : عن قتادة : عن محمد
ابن سريين : عن أبي هريرة فذكره بلون التعيين .

قال الوليد : وحدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك ، وقال : كلها في القرآن ﴿ هو الله
الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ وسرد الأسماء .

وهذه الطريق أخرجه ابن ماجه وابن أبي عاصم والحاكم من طريق عبد الملك بن
محمد الصنعاني : عن زهير بن محمد . لكنه سرد الأسماء أولاً ، فقال بعد قوله :
« من حفظها دخل الجنة » : الله الواحد الصمد ... إلخ .

ثم قال بعد أن انتهى العدد : قال زهير : فبلغنا عن غير واحد من أهل العلم أن أولها
يفتح بلا إله إلا الله له الأسماء الحسنى .

قلت والوليد بن مسلم أثق من عبد الملك بن محمد الصنعاني ، ورواية الوليد تشعر
بأن التعيين مدرج» .

وأما رواية الوليد : عن شعيب (وهي أقرب الطرق إلى الصحة ، وعليها عول غالب من شرح الأسماء الحسنی) فسياقها عند الترمذي :
 هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ... إلخ .
 ثم قال : وقد أخرجه الطبراني : عن أبي زرعة الدمشقي : عن صفوان بن صالح ، فخالف في هذه الأسماء فقال : القائم الدائم (بدل القابض الباسط) ، والشديد (بدل الرشيد) والأعلى المحيط مالك يوم الدين (بدل المانع) .

ووقع في صحيح ابن خزيمة في رواية صفوان أيضاً مخالفتها في بعض الأسماء .. قال : الحاكم (بدل الحكيم) والقريب (بدل الرقيب) والمولى (بدل الولي) والأحد (بدل المقتني) .

ووقع في رواية البيهقي : وابن منده من طريق موسى بن أيوب : عن الوليد : المغيث بالمعجمة والمثثة (بدل المقيت بالقاف والمثناة) .

ووقع بين رواية زهير وصفوان المخالفة في ثلاثة وعشرين اسماً ، فليس في رواية زهير الفتاح القهار الحكم العدل الحسيب الجليل المحصي المقتدر المقدم المؤخر البر المنتقم المغني النافع الصبور البديع الغفار الحفيظ الكبير الواسع الأحد مالك الملك ذو الجلال والإكرام ..

وذكر بدلها الرب الفرد الكافي القاهر المبين بالوحدة الصادق الجميل البادي بالذال القيم البار بتشديد الراء الوافي البرهان الواقفي بالقاف القدير الحافظ العادل المعطي العالم الأحد الأبدي الوتر ذو القوة . ووقع في رواية عبدالعزيز بن الحصين اختلاف آخر . فسقط فيها

في رواية صفوان من القهار إلى تمام خمسة عشر اسماً على الولاء ، وسقط منها أيضاً القوي الحليم الماجد القابض الياسط الخافض الرافع المعز المذل المقسط الجامع الضار النافع الوالي الرب .
 فوقع فيها مما في رواية موسى بن عقبة المذكورة أنفاً ثمانية عشر اسماً على الولاء .. وفيها أيضاً الحنان الجليل الكليل المحيط القادر الشاكر الأكرم القاطر الخلاق الفاتح المثيب بالمشة ثم الموحدة العلام المولى النصير ذو الطول ذو المعارج ذو الفضل الإله المدير بتشديد الموحدة .

قال الحاكم : إنما أخرجت رواية عبدالعزيز بن الحصين شاهداً لرواية الوليد عن شعبة ، لأن الأسماء التي زأدها على الوليد كلها في القرآن .. «كذا قال وليس كذلك ، وإنما تؤخذ من القرآن بضرب من التكلف لا أن جميعها ورد فيه بصورة الأسماء» (٢٨٧) .

وقال ابن ماجة : «حدثنا هشام بن عمار : حدثنا عبد الملك بن محمد الصنعاني : حدثنا أبو المنذر زهير بن محمد التميمي : حدثنا موسى بن عقبة : حدثني عبدالرحمن الأعرج : عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً .

إنه وتر يحب الوتر من حفظها دخل الجنة .

وهي : الله ، الواحد ، الصمد ، لأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ،

الخالق ، البارئ ، المصور ، الملك ، الحق ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الرحمن ، الرحيم ، اللطيف ، الخبير ، السميع ، البصير ، العليم ، العظيم ، البار ، المتعال ، الجليل ، الحي ، القيوم ، القادر ، القاهر ، العلي ، الحكيم ، القريب ، المجيب ، الغني ، الوهاب ، الودود ، الشكور ، الماجد ، الواجد ، الولي ، الراشد ، العفو ، الغفور ، الحليم ، الكريم ، التواب ، الرب ، المجيد ، الولي ، الشهيد ، المبين ، البرهان ، الرؤوف ، الرحيم ، المبدئ ، المعيد ، الباعث ، الوارث ، القيوم ، الشديد ، الغفار ، النافع ، الباقي ، الخافض ، الرافع ، القابض ، الباسط ، المعز ، المذل ، المقسط ، الرزاق ، ذو القوة ، المتين ، القائم ، الدائم ، الحافظ ، الوكيل ، الفاطر ، السامع ، المعطي ، المحيي ، المميت ، المانع ، الجامع ، الهادي ، الكافي ، الأيد ، العالم ، الصادق ، النور ، المنير ، التام ، القديم ، الوتر ، الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

قال زهير : فبلغنا من غير واحد من أهل العلم أن أولها يفتح بقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى (٢٨٢) . وقال ابن كثير بعد سياقه للحديث في الترمذي وابن ماجه :

(٢٨٢) سنن ابن ماجه ٢/١٢٦٩-١٢٧٠ .. وانظر تخريج الحديث في فتح الباري ٢١٤/٢١٥-٢١٥ .

«والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبد الملك بن محمد الصنعاني : عن زهير بن محمد : أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك .. أي إنهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد ، وسفيان بن عيينة ، وأبي زيد اللغوي ، والله أعلم .»

وقال الحافظ ابن حجر : «وقد أطلق ابن عطية في تفسيره أنه تواتر عن أبي هريرة ، فقال : وفي سرد الأسماء نظر ، فإن بعضها ليس في القرآن ، ولا في الحديث الصحيح ، ولم يتواتر الحديث من أصله وإن خرج في الصحيح ، ولكنه تواتر عن أبي هريرة .. كذا قال ، ولم يتواتر عن أبي هريرة أيضاً ، بل غاية أمره أن يكون مشوراً ، ولم يقع في شيء من طرقه سرد الأسماء إلا في رواية الوليد بن مسلم عن الترمذي ، وفي رواية زهير بن محمد : عن موسى بن عقبة عند ابن ماجه ... وهذان الفريقان رجعا إلى رواية الأعرج ، وفيهما اختلاف شديد في سرد الأسماء والزيادة والنقص على ما سألنا عليه .»

ووقع سرد الأسماء أيضاً في طريق ثالثة أخرجها الحاكم في المستدرك ، وجعفر الفريابي في الذكر من طريق عبد العزيز بن الحصين : عن أيوب : عن محمد بن سيرين : عن أبي هريرة .

واختلف العلماء في سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الخير من بعض الرواة فمضى كثير منهم على الأول واستدلوا به على

جواز تسمية الله تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الاسم ، لأن كثيراً من هذه الأسماء كذلك .

وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات عنه .
ونقله عبدالمعز النخشي عن كثير من العلماء (٢٨٢) .

ومن الشك في ثبوت التعيين عن رسول الله ﷺ قال الحافظ ابن حجر : « وقد استضعف الحديث أيضاً جماعة فقال الأودي : لم يثبت أن النبي ﷺ عين الأسماء المذكورة » .

وقال ابن العربي : يحتمل أن تكون الأسماء تكملة الحديث المرفوع ، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة وهو الأظهر عندي .
وقال أبو الحسن القابسي : أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، ولا يدخل فيها القياس ، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين ، وثبت في السنة أنها تسعة وتسعون ، فأخرج بعض الناس من الكتاب تسعة وتسعين اسماً ، والله أعلم بما أخرج من ذلك بعضها ليست أسماء (يعني صريحة) .

ونقل الفخر الرازي : عن أبي زيد البلخي : أما الرواية التي لم يسرد فيها الأسماء وهي التي اتفقوا على أنها أقوى من الرواية التي سردت فيها الأسماء فضعيفة من جهة أن الشارع ذكر هذا العدد الخاص ، ويقول : إن من أحصاه دخل الجنة ، ثم لا يسأله السامعون

عن تفصيلها ، وقد علمت شدة رغبة الخلق في تحصيل هذا المقصود ، فيمتنع أن لا يطالبوه بذلك ، ولو طالبوه لبينها لهم ، ولو بينها لما أغفلوه ولنقل ذلك عنهم .

وأما الرواية التي سردت فيها الأسماء فيدل على ضعفها عدم تناسبها في السياق ، ولا في التوقيف ، ولا في الاشتقاق ، لأنه إن كان المراد الأسماء فقط فغالبها صفات ، وإن كان المراد الصفات فالصفات غير متناهية .

وأجاب الفخر الرازي عن الأول بجواز أن يكون المراد من عدم تفسيرها أن يستمروا على المواظبة بالدعاء بجميع ما ورد من الأسماء رجاء أن يقعوا على تلك الأسماء المخصوصة ، كما أبهمت ساعة الجمعة ، وليلة القدر والصلاة الوسطى .

ومن الثاني بأن سردها إنما وقع بحسب التتبع والاستقراء على الراجح فلم يحصل الاعتناء بالتناسب ، ويأن المراد من أحصى هذه الأسماء دخل الجنة بحسب ما وقع الاختلاف في تفسير المراد بالإحصاء ، فلم يكن القصد حصر الأسماء انتهى .

واختلف في الأسماء الحسنى هل هي توقيفية بمعنى أنه لا يجوز لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله أسماء إلا إذا ورد نص إما في الكتاب أو السنة ، فقال الفخر : المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية .

وقالت المعتزلة والكرامية : إذا دل العقل على أن معنى اللفظ ثابت في حق الله جاز إطلاقه على الله (٢٨٤) .

وقال القاضي أبويكر، والغزالي : الأسماء توقيفية بكون الصفات .. قال : وهذا هو المختار .

واحتج الغزالي بالاتفاق على أنه لا يجوز لنا أن نسمي رسول الله ﷺ اسم لم يسم به أبوه ولا سمي به نفسه، وكذا كل كبير من الخلق .. قال : فإذا امتنع ذلك في حق المخلوقين فامتناعه في حق الله أولى .

واتفقوا على أنه لا يجوز أن يطلق عليه اسم ولا صفة توهم نقصاً ولو ورد ذلك نصاً ، فلا يقال ما هد ولا زارع ولا فالح ولا نحو ذلك وإن ثبت في قوله ﴿ فنعم الماهدون ﴾ ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ ﴿ فالح الحب والنوى ﴾ ونحوها .

ولا يقال له ماكر ولا بناء وإن ورد : ﴿ ومكر الله ﴾ ﴿ والسماء بنيناها ﴾ .

وقال أبو القاسم القشيري : الأسماء تؤخذ توقيفاً من الكتاب والسنة والإجماع ، فكل اسم ورد فيها وجب إطلاقه في وصفه ، وما لم يرد لا يجوز ولو صح معناه .

(٢٨٤) قال أبو عبد الرحمن : لأنه دال على كمال مانع من نقص ، ولم يرد في الشرع ما يمنع منه فجاز إطلاقه تعبيراً ووصفاً ، لا اسماً يدعى به الله ، ويُعبد المخلوق بإضافته إليه في التسمية .

وقال أبو إسحاق الزجاج : لا يجوز لأحد أن يدعى الله بما لم يصف به نفسه والضابط أن كل ما أذن الشرع أن يدعى به سواء كان مشتقاً أو غير مشتق فهو من أسمائه، وكل ما جاز أن ينسب إليه سواء كان مما يدخله التأويل أو لا فهو من صفاته ويطلق عليه اسماً أيضاً .

قال الحليمي : الأسماء الحسنی تنقسم إلى العقائد الخمس : الأولى : إثبات الباري رداً على المعطلين وهي الحي والهاقي والوارث في معناها .

والثانية : توحيده رداً على المشركين وهي الكافي والعلي والقادر ونحوها .

والثالثة : تنزيهه رداً على المشبهة وهي القدوس والمجيد والمحيط وغيرها .

والرابعة : اعتقاده أن كل موجود من اختراعه رداً على القول بالعلة والمعلول ، وهي الخالق والبارئ والمصور والقوي وما يلحق بها .

والخامسة : أنه مدبر كل ما اخترع ومصرفه على ما شاء وهو القيوم والعليم والحكيم وشبهها .

وقال أبو العباس بن معد : من الأسماء ما يدل على الذات عيناً وهو الله ، وعلى الذات مع سلب وإضافة كالملك العزيز .

ومنها ما يرجع إلى صفة كالعليم والقدير ، ومع إضافة كالعليم والخبير ، أو إلى القدرة مع إضافة كالقهار ، وإلى الإرادة مع إضافة كالرحمن الرحيم .

وما يرجع إلى صفة فعل كخالق والبارئ ، وإلى دلالة على الفعل كالكريم واللطيف .

قال : فالأسماء كلها لا تخرج عن هذه العشرة ، وليس فيها مترادف إذ لكل اسم خصوصية ما وإن اتفق بعضها مع بعض في أصل المعنى ، انتهى كلامه .

ثم راجع عليه منتزعا من كلام الفخر الرازي في شرح الأسماء الحسنى .

وقال الفخر أيضا : الألفاظ الدالة على الصفات ثلاثة : ثابتة في حق الله قطعاً ، وممتنعة قطعاً ، وثابتة لكن مقرونة بكيفية .

فالقسم الأول منه ما يجوز ذكره مفرداً ومضافاً وهو كثير جداً كالقادر والقاهر .

ومنه ما يجوز مفرداً ولا يجوز مضافاً إلا بشر كخالق فيجوز خالق ، ويجوز خالق كل شيء ، ولا يجوز خالق القردة .

ومنه عكسه يجوز مضافاً ولا يجوز مفرداً كالمنشئ يجوز منشئ الخلق ، ولا يجوز منشئ فقط .

والقسم الثاني : إن ورد السمع بشيء منها أطلق وحمل على ما يليق به .

والقسم الثالث : إن ورد السمع بشيء منه أطلق على ما ورد منه ولا يقاس عليه ولا يتصرف فيه بالاشتقاق كقوله تعالى : ﴿ ومكر الله ﴾ ﴿ ويستهزئ بهم ﴾ فلا يجوز ماكر ومستهزئ .

وعن الاعتناء بجمعها قال الحافظ ابن حجر : « وإذا تقرر رجحان أن سرد الأسماء ليس مرفوعاً فقد اعتنى جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقييد بعدد ، فروينا في كتاب المئين لأبي عثمان الصابوني بسنده إلى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الأسماء من القرآن ، وكذا أخرج أبو نعيم عن الطبراني : عن أحمد بن عمرو الخلال : عن ابن أبي عمرو : حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين : سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنى فقال : هي في القرآن .

ورينا في فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرح : عن حبان بن نافع : عن سفيان بن عيينة الحديث (يعني حديث إن لله تسعة وتسعين اسماً) .

قال : فوجدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطلنا فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا ، فعرضناها على سفيان ، فنظر فيها أربع مرات وقال : نعم هي هذه .

وهذا سياق ما ذكره جعفر وأبو زيد قالوا : ففي القائمة خمسة : الله ، رب ، الرحمن ، الرحيم ، مالك .

وفي البقرة : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، علي ، عظيم ، ثواب ، بصير ، ولي ، واسع ، كاف ، رؤوف ، يديع ، شاکر ، واحد ، سميع ، قابض ، باسط ، حي ، قيوم ، غني ، حميد ، غفور ، حلیم .

وزاد جعفر : إله ، قريب ، مجيب ، عزيز ، نصير ، قوي ، شديد ،
 سريع ، خبير .
 قالوا : وفي آل عمران : وهاب ، قائم .
 زاد جعفر الصادق : باعث ، منعم ، متفضل .
 وفي النساء : رقيب ، حسيب ، شهيد ، مقيت ، وكيل .
 زاد جعفر : علي ، كبير .
 وزاد سفيان : عطر .
 وفي الأنعام : فاطر ، قاهر .
 زاد جعفر : معيت ، غفور ، برهان .
 وزاد سفيان : لطيف ، خبير ، قادر .
 وفي الأعراف : محيي ، مميت .
 وفي الأنفال : نعم المولى ، ونعم النصير .
 وفي هود : حفيظ ، مجيد ، ودود ، فعال لما يريد .
 زاد سفيان : قريب ، مجيب .
 وفي الرعد : كبير ، متعال .
 وفي إبراهيم : منان .
 زاد جعفر : صادق ، وارث .
 وفي الحجر : خالق .
 وفي مريم : صادق ، وارث .
 زاد جعفر : فرد .

وفي طه عند جعفر وحده : غفار .
 وفي المؤمنين : كريم .
 وفي النور : حق ، مبين .
 زاد سفيان : نور .
 وفي الفرقان : هاد .
 وفي سبأ : فتاح .
 وفي الزمر : عالم عند جعفر وحده .
 وفي المؤمن : غافر ، قائل ، ذو الطول .
 زاد سفيان : شديد .
 وزاد جعفر : رفيع .
 وفي الذاريات : رزاق ، ذو القوة ، المتين بالاء .
 وفي الطور : ير .
 وفي اقتربت : ملك .
 وفي الرحمن : ذو الجلال والإكرام .
 زاد جعفر : رب المشرقين ، ورب المغربين ، باق ، معين .
 وفي الحديد : أول ، آخر ، ظاهر ، باطن .
 وفي الحشر : قنوس ، سلام ، مؤمن ، مهيمن ، عزيز ، جبار .
 متكبر ، خالق ، باري ، مصور .
 زاد جعفر : ملك .
 وفي البروج : مبدء ، معيد .

وفي الفجر : وتر عند جعفر وحده .

وفي الإخلاص : أحد صمد .

هذا آخر ما رويناه عن جعفر ، وأبي زيد ، وتقرير سفيان من تتبع الأسماء من القرآن ، وفيها اختلاف شديد ، وتكرار ، وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم وهي : صادق ، منعم ، متفضل ، منان ، مبدئ ، معيد ، باعث ، قابض ، باسط ، برهان ، معين ، مميت ، باق (٢٨٥) .

ووافقت في كتاب المقصد الأسنى لأبي عبدالله محمد بن إبراهيم الزاهد أنه تتبع الأسماء من القرآن فتأملت فوجدته كرر أسماء وذكر مما لم أره فيه بصيغة الاسم : الصادق ، والكاشف ، والعلام .. وذكر من المضاف الفائق من قوله ﴿ فائق الحب والنوى ﴾ .

وكان يلزمه أن يذكر القابل من قوله ﴿ قابل التوب ﴾ .

وقد تتبع ما بقي من الأسماء مما ورد في القرآن بصيغة الاسم بما لم يذكر في رواية الترمذي وهي : الرب ، الإله ، المحيط ، القدير ، لكافي ، الشاكر ، الشديد ، القائم ، الحاكم ، الفاطر ، الغافر ، لقاهر ، المولى ، النصير ، الغالب ، الخالق ، الرفيع ، المليك ، الكفيل ، لخالق ، الأكرم ، الأعلى ، المبين ، بالوحدة ، الحفي بالحاء المهملة الفاء ، القريب ، الأحد ، الحافظ .. فهذه سبعة وعشرون اسماً إذ نضمت إلى الأسماء التي وقعت في رواية الترمذي مما وقعت في

(٢٨١) قال أبو عبد الرحمن : راجع جزء أبي نعيم من ١٦٤-١٧٢ .

القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون ، وكلها في القرآن ، لكن بعضها بإضافة كالشديد من شديد الحال ، والرفيع من رفيع الدرجات ، والقائم ، من قوله ﴿ قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ ، والفاطر من : ﴿ فاطر السموات ﴾ والقاهر من : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ، والمولى ، والنصير من : ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ ، والعالم من : ﴿ عالم الغيب ﴾ ، والخالق من قوله ﴿ خالق كل شيء ﴾ ، والغافر من : ﴿ غافر الذنب ﴾ ، والغالب من : ﴿ والله غالب على أمره ﴾ ، والرفيع من : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ ، والحافظ من قوله : ﴿ فإله خير حافظاً ﴾ ، ومن قوله : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ .

وقد وقع من قوله : ﴿ غني المولى ﴾ ، والمالك من قوله : ﴿ مالك الملك ﴾ ، والنور من قوله : ﴿ نور السماوات والأرض ﴾ ، والبديع من قوله : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ ، والجامع من قوله : ﴿ جامع الناس ﴾ ، والحكم من قوله ﴿ أفغير الله أبغى حكماً ﴾ ، والوارث من قوله : ﴿ ونحن الوارثون ﴾ .

والأسماء التي تقابل هذه مما وقع في رواية الترمذي مما لم تقع في القرآن بصيغة الاسم وهي سبعة وعشرون اسماً : القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، العدل ، الجليل ، الباعث ، المحيي ، المبيد ، المعيد ، المميت ، الواجد ، الماجد ، المقدم ، المؤخر ، الوالي ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، الباقي ، الرشيد ، الصبور .

فإذا اقتصر من رواية الترمذي على ما عدا هذه الأسماء وأبدلت بالسبعة والعشرين التي ذكرتها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسماً ، وكلها في القرآن واردة بصيغة الاسم موضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله الحفي فإنه في سورة مريم في قول إبراهيم ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

وقل من نبه على ذلك ، ولا يبقى بعد ذلك إلا النظر في الأسماء المشتقة من صفة واحدة مثل القدير ، والمقتدر ، والقادر ، والغفور ، والغفار ، والفاخر ، والعلي ، والأعلى ، والمتعال ، والمالك ، والمليك ، والمالك ، والكريم ، والأكرم ، والقاهر ، والقهار ، والخالق ، والخلق ، والشاكر ، والشكور ، والعالم ، والعليم .

فأما أن يقال : لا يمنع ذلك من عدّها ، فإن فيها التغاير في الجملة ، فإن بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ليست فيه ، وقد وقع الاتفاق على أن الرحمن الرحيم اسمان مع كونهما مشتقين من صفة واحدة . ولو منع من عد ذلك للزم أن لا يعد ما يشترك الاسمان فيه مثلاً من حيث المعنى مثل الخالق البارئ المصور ، لكنها عدت لأنها ولو اشتركت في معنى الإيجاد والاختراع فهي مغايرة من جهة أخرى ، وهي أن الخالق يفيد القدرة على الإيجاد ، والبارئ يفيد الموجد لجوهر المخلوق ، والمصور يفيد خالق الصورة في تلك الذات المخلوقة .

وإذا كان ذلك لا يمنع المغايرة لم يمتنع عدّها أسماء مع ورودها والعلم عند الله تعالى .

وهذا سردها لتحفظ ولو كان في ذلك إعادة لكنه يغتفر لهذا القصد : الله ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، التواب ، الوهاب ، الخالق ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، الحليم ، العظيم ، الواسع ، الحكيم ، الحي ، القيوم ، السميع ، البصير ، اللطيف ، الخبير ، العلي ، الكبير ، المحيط ، القدير ، المولى ، النصير ، الكريم ، الرقيب ، القريب ، المجيب ، الوكيل ، العسيب ، الحفيظ ، المقيت ، الودود ، المجيد ، الوارث ، الشهيد ، الولي ، الحميد ، الحق ، المبين ، القوي ، المتين ، الغني ، المالك ، الشديد ، القادر ، المقتدر ، القاهر ، الكافي ، الشاكر ، المستعان ، الفاطر ، البديع ، الغافر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الكفيل ، الغالب ، الحكم ، العالم ، الرفيع ، الحافظ ، المنتقم ، القائم ، المحيي ، الجامع ، المليك ، المتعالي ، النور ، الهادي ، الغفور ، الشكور ، العفو ، الرؤوف ، الأكرم ، الأعلى ، البرّ ، الحفي ، الرب ، الإله ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وقال أبو الوليد ابن رشد في البيان والتحصيل : « وسئل مالك عن الرجل يقول : يا الله يا رحمن يا رحيم ؟ » .

قال : يقول : يا رحمن يا رحيم ، فيقول : يا الله .. قال : يقول : « اللهم » أئین ويدعو بما دعته به الأنبياء .

قال محمد بن رشد : لا اختلاف في جواز الدعاء بيا الله ،
وبارحمين ، وبارحيم ، لأن الله من أسماء الله العظام ، وقد قيل فيه إنه
اسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

والرحمن اسم من أسمائه المختصة به ، والرحيم اسم من
أسمائه التي سمي بها نفسه في كتابه ، إلا أن الدعاء ببارحمين
بارحيم غير بين لما ذكرناه من أنهما من أسماء التي قد اجتمعت الأمة
على تسميته بها لتسمية الله عز وجل نفسه بها في كتابه العزيز .

واللهم بمنزلة الله ، لأن الميم زيدت في اسم الله عوض ياء
النداء المحذوفة من أوله تعظيماً له بذلك ، وقد جاء القرآن بذلك ..
قال الله عز وجل : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾
[سورة آل عمران / ٢٦] ، وقال : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل
علينا مائدة من السماء ﴾ [سورة المائدة / ١١٤] ، وقال : ﴿ وإذا قالوا
اللهم إن كان هذا هو الحق ﴾ [سورة الأنفال / ٢٢] ، وقال : ﴿ قل اللهم
فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك
في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ [سورة الزمر / ٤٦] ، وقال رسول الله ﷺ :
« اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد .. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا
قبور أنبيائهم مساجد » .

وكان من دعائه ﷺ إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : « اللهم
لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد » .. الحديث .

وقال ﷺ : « لا يقل أحكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم
ارحمني إن شئت » .. الحديث .

والسنن في هذا أكثر من أن تحصي ؛ ولذا استحسب مالك « اللهم
في الدعاء ، وإنما كره مالك الدعاء بياسيدي وياحنان وبما أشبه ذلك من
الأسماء ؛ لاختلاف أهل العلم في جواز تسميته بها ؛ إذ لم ترد في
القرآن ولا في السنن المتواترة ، ولا أجمعت الأمة على جواز تسميته بها .
وأما الدعاء بيامنان فلا كراهية فيه ؛ لأنه من أسماء الله القائمة
من القرآن .. قال الله عز وجل ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من
عباده ﴾ [سورة إبراهيم / ١١] (٢٨٦) .

* * *

٣٦ - المسألة السادسة والثلاثون : بيان أن الناقض طاغوت في
قوله تعالى : ﴿ كمثل الذي ينفق بما لا يسمع ﴾ :

قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار : ﴿ إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل
الله قالوا بل ننبئ ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون
شيئاً ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينفق بما لا يسمع
إلا دعاءً ونداءً سم بهم عمي فهم لا يعقلون ﴾ [سورة البقرة / ١٧-١٧١] .

(٢٨٦) البيان والتحصيل ١٧/٤٢٢-٤٢٣ .

قال أبو عبد الرحمن : هذه آية كريمة غلط فيها فحول المفسرين والمعرّبين بما فيهم إمامهم سيبويه ، ومعناها واضح بدلالة السياق ، ولا بد من التقديم بالتفسير الصحيح الجلي الواضح الذي اخترته لأن عليه بقية الأقوال التي أبعدت النجعة .

قال أبو عبد الرحمن : المثل للذين كفروا ، وهو يشمل الناق و المنعوق به ؛ فلا بد أن يكونوا كلهم كفاراً .

والناقص منصوص عليه بقوله تعالى : ﴿ ينق ﴾ والمنعوق به منصوص عليه بقوله تعالى : ﴿ بما لا يسمع ﴾ : لأن ما لا يسمع معمول الذي ينق ؛ فهو منعوق به .

والبرهان على صحة هذا التؤول أن الله سبحانه وتعالى ذكر في الآيات ١٦٥-١٦٧ المتبوعين وأتباعهم ، وحذرهم في الآيتين ١٦٨-١٦٩ من اتباع الشيطان ، ثم ذكر في الآية ١٧٠ صنفًا آخر من أئمة الكفار ، وهم الآباء الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

فلما ضرب الله المثل للكفار بمن ينق بما لا يسمع ، وعلمنا أن الناق متبوع والمنعوق به تابع ، وعلمنا مما مر من السياق أيضاً أن الكفار تابع ومتبوع : علمنا أن المثل بالناقص والمنعوق به مثل للكفار تابعهم ومتبوعهم .

قال أبو عبد الرحمن : فهذا هو الظاهر دلالة تشبيهه ، وهو الظاهر دلالة سياق .

ولا يقبل دعوى غير ذلك إلا بدليل على أن هذا الظاهر غير مراد ،

ودليل آخر على تعيين مراد غير هذا الظاهر .

والآن ننظر في أقوال الفحول المدعاة .

قال سيبويه : « فلم يشبهوا بما ينق ، وإنما شبهوا بالمنعوق به . وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناق والمنعوق به الذي لا يسمع .. ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى » (٢٨٧) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا قول شنيع عظيم وإن كان قائله سيبويه ، فكيف يقول ربنا بصريح النص : ﴿ مثل الذين كفروا ﴾ ثم يأتي سيبويه فيقول حاكياً عن ربه : مثلكم ومثل الذين كفروا .. فيدخل المؤمنين في المثل وربنا لم يدخلهم ؟ !

وهامنا ألغى ظاهراً ، وادعى غير ظاهر ، ولم يورد برهاناً ، وإنما ادعى سعة الكلام والإيجاز ، وادعى على المخاطب العلم بغير مراد ولا مفهوم من النص .

وجاء في إعراب القرآن المنسوب للزجاج - وليس له - ما يلي : « قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي : مثل داعي الذين كفروا ﴿ كمثل الذي ينق ﴾ .. لا بد من هذا الإضمار ؛ ليكون الداعي بمنزلة الراعي .

وقيل : ﴿ مثل الذين كفروا ﴾ مثل وعظ الذين كفروا ، فحذف المضاف .

قال سيبويه : وهذا من أفصح الكلام إيجازاً واختصاراً : لأن الله تعالى أراد تشبيهه شينين (الداعي، والكفار) بالراعي والغنم، فاختصر، وذكر المشبه في الغنم بالظرف الأول : فدل ما أبقى على ما ألقى .. وهذا معنى كلامه» (٢٨٨) .

قال أبو عبد الرحمن : لم يقل ربنا : مثل داعي الذين كفروا .. ولم يقل : مثل وعظ الذين كفروا .. فلا يجوز القول على الله بغير برهان .
ولنا شبه ربنا الكفار داعيهم ومدعوهم بالغنم البكم والراعي الناق.

وقال الزجاج : وضرب الله عز وجل لهم هذا المثل، وشبههم بالغنم المنعوق بها بما لا يسمع منها إلا الصوت ، فالمعنى مثلك يا محمد، ومثلهم كمثلك الناق والمنعوق به ، بما لا يسمع ، لأن سماعهم ما كان ينفعهم : فكانوا في شركهم ، وعدم قبول ما يسمعون بمنزلة من لم يسمع .. والعرب تقول لمن يسمع ولا يعمل بما يسمع : أصم .. قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع» (٢٨٩) .

قال أبو عبد الرحمن : معاذ الله أن يدخل محمد ﷺ في المثل، والله

(٢٨٨) إعراب القرآن ٤٧/١ .

(٢٨٩) معاني القرآن وإعرابه ٢٤٢/١ .

إنما ضرب المثل للذين كفروا .. ومعاذ الله أن يكون رسول الله ناعقاً .
قال ابن الجوزي : «في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال :
أحدها : أن معناها : ومثل الذين كفروا كمثلك البهائم التي ينطق بها الراعي .. وهذا قول الفراء ، وثعلب .. قالاً جميعاً : أضاف المثل إلى الذين كفروا ، ثم شبههم بالراعي ، ولم يقل : كالغنم .
والمعنى : ومثل الذين كفروا كمثلك البهائم التي لا تملك ما يقول الراعي أكثر من الصوت ، فلو قال لها الراعي : ارحمي ، لو اشريني : لم تدرك ما يقول لها .. فكذلك الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن ، وإنذار الرسول ، فأنصيف التشبيه إلى الراعي والمعنى في المرعى .
وهو ظاهر في كلام العرب ، يقولون : فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى كخوفه الأسد : لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف .. قال الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما

كان الزناء فريضة الرجم

والمعنى : كما كان الرجم فريضة الزنى .

والثاني : أن معناها : ومثل الذين كفروا ومثلنا في وعظهم كمثلك الناق والمنعوق به : فحذف «مثلنا» اختصاراً : إذ كان في الكلام ما يدل عليه ، وهذا قول ابن قتيبة ، والزجاج .

والثالث : ومثل الذين كفروا في دعائهم ألهمهم التي يعبدون

كمثل الذي ينطق .. هذا قول ابن زيد ، والذي ينطق هو الراعي .. يقال :
نطق بالغنم ينطق نطقًا ونعاقًا ونعقًا .

قال ابن الأنباري : والفاشي في كلام العرب أنه لا يقال :
نطق إلا في الصياح بالغنم وحدها ، فالغنم تسمع الصوت ولا تعقل
المعنى (٢٩٠) .

قال أبو عبد الرحمن : المأخذ على القول الأول دعوى أن الكفار
مشبهون بالراعي لحسب ، والواقع أنهم تابعون ومتبوعون ، وكلهم
مشبه بالراعي والغنم معًا .

وليس المعنى أن الكفار مع الراعي إلى القرآن كالغنم مع
الناطق ، فلو صح ذلك لكانوا متبوعين للحق ، لأن الغنم تتبع
الناطق .

وإنما المعنى أن الكفار مع داعي الضلال كالغنم مع الناطق تتبعه
وهي بهائم لا تعقل .

وادعوا أن قوله تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق ﴾
بمعنى : مثل الذين كفروا كمثل المنعوق به .. ثم زعموا أن ذلك مثل :
كخوف الأسد بمعنى : كخوفه الأسد ! .

وليس هذا التمثيل بصحيح : لأن مثال الأسد فيه زوال اللبس
بضرورة الحس ، وهي أن الخوف من الأسد لا عليه .

وهاهنا لا توجد ضرورة تقضي بأن التشبيه به المنعوق به بدل
الناطق ، بل قام الدليل على أنهما معًا مشبه بهما .

والمأخذ على القول الثاني : الدعوى على الله بأنه قال : ومثل
الذين كفروا ومثلنا .. وإنما قال ربنا : ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ لا غير .
والقول بأن في الكلام ما يدل على هذا المحذوف مجرد دعوى ،
بل منطوق الكلام وسياقه يدل على أن المراد الكفار تابعهم ومتبوعهم ،
وأنهم مشبهون بالغنم والراعي .

والقول الثالث صحيح في ذاته غير مراد بالآية الكريمة : لأن
الأوثان إذا نعق لها عبادة لا تتبع عبادتها كما تتبع الغنم الناطق .
وإنما مراد الآية نطق يكون فيه تابع ومتبوع حسب سياق الآيات
الكريمة .

وقال محمد بن أبي بكر الرازي : « فإن قيل : ما وجه صحة
التشبيه في قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق ﴾
وظاهره تشبيه الكفار بالراعي ؟ »

قلنا : فيه إضمار تقديره : ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل
الراعي مع الأنعام .

أو تقديره : ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعي .

أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الناطق بالبهائم .

وقال بيان الحق محمود بن أبي الحسن الغزنوي «مثل داعي
الذين كفروا إلى الله كمثّل الناقع بما لا يسمع ، كما قال الحارثي :
وقفت على الديار فكلمتني
فما ملكت مدامعها القلوص

أي راكب القلوص .

وقيل : إنه على القلب : إذ المعنى هو المنعوق به وإن كان اللفظ
للناقص كقوله تعالى : ﴿ لتنوء بالعصبة ﴾ ، ثم العصبة تنوء بها ..
ولكن المعنى لا يخفى في الموضعين .
وقيل : إن الناقع هو مثل الذين كفروا في دعائهم ألهمهم : لأن
التعيق صياح الراعي بالغنم ، وهو صفة ذم فأولى بها الكافرون .. قال
الأخطل :

فانعق بضائك يا جرير لئلا

منتك نفسك في الخلاء ضلّالا

منتك نفسك أن تكون كدارم

أو أن توازن حاجباً وعقلاً» (٣٣١)

قال أبو عبد الرحمن : ينس والله الفهم الذي يفهم من الآية أن

داعي الله يوصف بأنه ناعق .

(٢٩٤) وضع البرهان ١/ ١٨٢ .

أو ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثّل الراعي» (٣٣٢) .
قال أبو عبد الرحمن : هذا تلخيص لما سبق من أقوال مضت
مناقشتها .

وقال القاضي عبد الجبار : «لأنه تعالى جعل مثلهم كمثّل الناقع
والمنعوق ، وجعل سبيلهم سبيل الأصم ، ونبه بذلك على أنهم ليسوا بهذه
الصفة ، وأن المراد بذلك عنوانهم عن طريقة الانتفاع بما كفّوه» (٣٣٣) .
قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام نفيس صحيح ويضاف إليه :
«جعل سبيل التابعين سبيل الأصم في اتباعهم دعائهم» .

وقال الشيخ زكريا الأنصاري : «ظاهره تشبيه الكفار بالراعي
وليس مراداً .

فإن قلت : فما وجهه ؟

قلت : فيه إضمار تقديره : ومثّل واعظ الذين كفروا كمثّل الراعي ،
أو الأنعام .. أو ومثّل الذين كفروا كمثّل بهائم الراعي ، أو ومثّل الذين
كفروا في دعائهم الأصنام كمثّل الراعي» (٣٣٤) .
قال أبو عبد الرحمن : إنما تابعوا سبيلهم تقليداً .

(٢٩١) من غرائب التنزيل ص ١١ .

(٢٩٢) متشابه القرآن ، ويراجع أمثال القرآن لابن قيم الجوزية ، وما اتفق لفظه للمبرد ،
وتفسير الطبري ، وأما المرتضى ١ / ٢١٥ - ٢١٨ .

(٢٩٣) فتح الرحمن ص ٤٩ - ٥٠ .

والغنم تطيع الناعق وتتبعه ، والكفار لم يطيعوا داعي الله ولم يتبعوه .. فجمع هذا الفهم ذم داعي الله بالوصف السيئ والواقع تكريمه ، ودعوى أن الكفار اتبعوا داعي الله اتباع من لا يسمع والواقع عكس ذلك .

والبيت الذي استشهد به بيان الحق لا يُسَلَّم له أن المراد راكب القلوس ، بل القلوس والله تُحَنُّ وتبكي .

ولو سَلَّم جدلاً أن المراد راكب القلوس - وهو لا يُسَلَّم - لم يكن فيه إلا الدليل على أن الحذف وارد في لغة العرب ، وليس هذا محل خلاف ، وإنما المراد الدليل على أن في الآية الكريمة حذفاً وصرفاً عن الظاهر .

* * *

٣٧ - المسألة السابعة والثلاثون : يخلق ربنا ما لا نعلم بما يصنعه البشر :

امتَن الله علينا بالنواب - بما فيها بهيمة الأنعام - بالدفاء ، وهو الدفاء من صوفها وأوبارها ، وبالمنافع كنسلها ودرها وأقيامها ، وبالأكل ، والجَمال ، وحمل الأثقال .

وخص نوعاً منها بالركوب والزينة ، ثم أخبر ووعد سبحانه بأنه يخلق ما لا نعلم .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بُشِقِ الْأَنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُوفٌ رَّحِيمٌ ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل/٥-٨] .

قال أبو عبد الرحمن : في آخر الآيات إعجازٌ عظيم من غيب لا يخطر ببال أحد .. بلُغِه رسول الله ﷺ النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ولا يروي عن بشر ذي علم ، فوقع كما أخبر .

إلا أن المخبر به لم يقع إلا في عصورنا الأخيرة ؛ ولهذا حار السلف في تأويله ؛ لأنه لا يخطر ببالهم صفة ما سيقع .

فهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يجهد عبقريته في استشفاف الخير واكتشافه فيقول : «وقد قال الله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقد يتجه هذا الكلام في وجوه .

أحدها : أن تكون هاهنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس .

ولابد أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه ، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته ، أو تعرفه الأنبياء ، أو يعرفه بعض الناس .. لا يجوز إلا ذلك . أو يكون الله عز وجل إنما عني أنه خلق أسباباً ووهب عللاً ، وجعل ذلك رفقاً لما يظهر لنا ونظاماً .

وكان بعض المفسرين يقول : من أراد أن يعرف معنى قوله : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ فليوقد ناراً في وسط غيضة ، أو في صحراء برية ، ثم ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق من الحشرات والهمج ، فإنه سيرى صوراً ، ويتعرف خلقاً لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم .

وعلى أن الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواضع الغياض والآبار والجبال ، ويعلم أن ما لم يبلغه أكثر وأحجب .. وما أرد هذا التأويل ، وإنه ليدخل عندي في جملة ما تدل عليه الآية .. ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربه ، ولم يفقه في دينه » (٣٦٤) .

قال أبو عبد الرحمن : الوجه الأول الذي ذكره الجاحظ صحيح في ذاته ، وليس مراداً من الآية . ومعنى كونه صحيحاً في ذاته أنه لا خلاف أن الله خلقاً مغيباً عنا نحن البشر : لأن الأرض ومن عليها - على عظمة كل ذلك - ذرة في الوجود ، والله أعظم .

ومعنى كونه غير مراد أن الآية تشير إلى خلق سيعرفه بقية من البشر يكون لهم زينة وركوباً .

والوجه الثاني تحويم عبقرى من الجاحظ : فقد دلت المتغيرات والمستجدات على أن ذلك الخلق صنع بشري بأسباب وعمل ريانية . والجملة الأخيرة التي حكاها الجاحظ عن بعض المفسرين لا تليق بفهمه العبقرى .. لا سيما وقد جعل الإقرار بها شرطاً للفهم عن الرب والفقه في الدين .

فهذا الخلق الذي ذكره إنما هو من عالم الشهادة الذي وقع ، والآية تشير إلى خلق سيقع ويشاهد : لأنه سيكون زينة وركوباً .

قال أبو عبد الرحمن : وكثيرون من المفسرين غفلوا عن دلالة فعل المضارع ﴿ يخلق ﴾ ، وغفلوا عن كونه مشاهداً لنا إذا وجد ، وغفلوا عن كونه في سياق الخيل والبغال والحمير مما نركب ويكون لنا زينة . فلما أغفلوا هذه القيود احتملوا خلقاً وقع ، أو يقع ، أو سيقع مما لا علاقة له بالسياق كقول الزمخشري : «يجوز أن يريد به ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفصيله ، ويمن علينا بذكره كما من بالأشياء المعلومه مع الدلالة على قدرته .

ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلاق ما لا علم لنا به ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه » (٣٦٥) .

وبعض المفسرين كابن بحر جعل المنفي كيفية الفعل ، وليس جهل المفعول ذاته (٢٩٧) .

قال أبو عبد الرحمن : لله فعل ، وله مفعولات ، ففعل الله في مفعولاته لا نعلمه بداة .

ولعل الله خلقه ، ولو أخذنا بكلام ابن بحر لكان المعنى : ويخلق خلق أي فعله ، وذلك غير معقول شرعاً : فصح أنه سبحانه يفعل مفعولاً - أي يخلق مخلوقاً - لا نعلمه : فالآية تنفي العلم بمفعول (أي مخلوق) سيخلق فيعلم .

قال أبو عبد الرحمن : والقيود التي ذكرتها آنفا تجعل المخلوقات المجهولة مما سيقع خلقها ، ولكن الشوكاني لما عمم احتاج إلى تأويل دلالة المستقبل ، وذلك أنه لما ذكر اختلاف المفسرين وأقوالهم عقب بقوله : « المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد ، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به .

والتعبير هنا بلفظ المستقبل لا ستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد » (٢٩٨) .

قال أبو عبد الرحمن : كونه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد

(٢٩٧) البحر المحيط ٥/٤٧٧ .

(٢٩٨) فتح القدير ٢/١٤٩ .

لا ينفي أنه سيخلق ما سيعلمه العباد : لأنه قال سبحانه : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ ، وهو فعال لما يريد ، وكل يوم هو في شأن ، ويخلق ما يشاء ويختار .

ولا يمتري محقق اليوم أن المراد ما خلقه الله من صنع البشر الذي كان للركوب والانتقال والزينة من وسائل المواصلات برّاً وبحراً وجواً .

قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - « قوله : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو ، ويستعملونها في متافعهم ومصالحهم : فإنه لم ينكرها بأعيانها : لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره » (٢٩٩) .

قال أبو عبد الرحمن : البرهان على أن هذه المصنوعات هي المرادة من أمور :

أولها : أن الأصل إعمال السياق حتى يقوم دليل على أن دلالاته غير مرادة .

والسياق هنا عن أعيان قد خلقت جعلها الله مواصلات للبشر وزينة ، ووعد الله بخلق سيوجد : فلا بد من مناسبة بين ما

(٢٩٩) تفسير ابن سعدي ٤/١٨٦ .

٣٨ - المسألة الثامنة والثلاثون : ظاهران ألغاهما البراهين في قوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء .. ﴾ ، وقوله ﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ :

قال الله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ .
فظاهر هذا النص الكريم أنه علمه الأسماء فقط ، وأما معاني الأسماء فمستكوت عنها .
وظاهره أنه علمه اسم ما كان أو يكون في جميع الوجود .
قال أبو عبد الرحمن : إلا أن هذين الظاهرين مصروفان غير مرادين .

أما الظاهر الأول فمعلوم باتفاق أن الله علمه الأسماء ومسمياتها ، فالمعاني هي المسميات .. ولكن ما وجه ذلك والله إنما ذكر الأسماء ؟

قال أبو عبد الرحمن : هاهنا اختلفت كلمة العلماء ، فالجاحظ يقول : « لا يجوز تعريف الأسماء بغير المعاني .. ولولا حاجة الناس إلى المعاني لما احتاجوا إلى الأسماء » .

قال أبو عبد الرحمن : الذي لا يجوز هو ورود اسم لا مسمى له في لغة العرب ، لأن مبنى اللغة على الاصطلاح بالاسم على ما يعرف مما هو موجود ، أو متخيل ، أو مقرب بالوصف .

وقم وما سيقع ، وتلتبس المناسبة من السياق فنجدها المواصلات والزينة .

ولم يقم دليل على إلغاء دلالة هذا السياق .
وثانيها : الأصل إعمال معنى الصيغة الظاهر حتى يقوم دليل على أن ظاهرها غير مراد .
وقوله تعالى : ﴿ ويخلق ﴾ صيغة تدل على المستقبل ، ولم يقم دليل على خلافها .

وثالثها : أنه حدث مصنوعات أصبحت زينة وركوباً ، بل نابت عن المواصلات السابقة وكادت تعطلها .

ومن المعلوم أن علم البشر الحديث - لا تحاش منه شيئاً - أحد أمرين :
إما خلق من خلق الله قديم ، فاستجد لهم اكتشافه ، والعلم ببعض أحواله .

وإما مصنوع لا وجود له قبل ذلك ، فأحدثوه مثل الطائرات .
وصنع البشر خلق الله : لأنه من مادة خلقها الله كالتراب والماء والحديد ، وباستنباط أسرار من خلق الله كتفسير المصنوعات على قوانين مضبوطة مكتشفة ، وبأنامل وعيون وعقول خلقها الله .

واللغة جاءت بالأسماء لحاجة الناس إلى المعاني ومن ضمنها تمييز المسمى باسمه .

أما المتكلم بلغة العرب فقد يعرف الاسم ومسماه ، ولا يُعلم المخاطب إلا بالاسم فقط ، ولا يُعلمه بالمسمى .

وإذن فلا ضرورة تقضي بتعليم المسمى من مجرد ذكر الاسم .
وقال الزمخشري : «أي أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه : لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء : لأن الاسم لا بد له من مسمى» .

قال أبو عبد الرحمن : نعم لا بد للاسم من مسمى في اللغة ، ولكن لا يلزم من هذا أن كل مخاطب بالاسم يعرف المسمى ، ولا يلزم أن كل متكلم يُعلم غيره بالمسمى .

وفي خلال تعقب ابن المنير للزمخشري في الاسم والمسمى هل هما غيران أم واحد ؟ .. قال : «الغرض المهم تعليمه لنوات المسميات ، وإطلاعه على حقائقها ، وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار» .

قال أبو عبد الرحمن : هذا ظاهر عقلي لا يحتمل العقل غيره : إذ لا يحتمل العقل فائدة لتعليم آدم الأسماء دون المسميات .

وحينئذ يضاف ظاهر العقل إلى ظاهر النص ، فيتضح أن الله علم آدم الأسماء والمسميات معاً .

وهناك ظاهر نص آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ فقل أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ قاله ذكر المسميات المضاف إليها الأسماء المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ هؤلاء ﴾ : فصح أن المسميات حاضرة موجودة وقت تعليم الأسماء .

قال الشوكاني : «واختلف أهل العلم : هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء ؟ .. والظاهر الأول : لأن عرض نفس الأسماء غير واضح» .

قال أبو عبد الرحمن : وأما الظاهر الثاني فقد أباه ابن جرير ، وخصصه بأسماء الملائكة وذرية آدم وبنيه ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ ثم عرضهم ﴾ ، فهذا عبارة عن العقلاء .
وقد رد العلماء ترجيحة بثلاثة أمور :

أولها : أنه صح قول رسول الله ﷺ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في صحيح البخاري وغيره : أن المؤمنين يقولون لأدم يوم القيامة عند طلبهم منه أن يشفع لهم عند ربهم ليقضي بين الناس : وعلمك أسماء كل شيء .. فشمل ذلك العقلاء وغيرهم .

وثانيها : أنه إذا أريد العقلاء وغيرهم ذكرت بصيغة العقلاء تغليباً كما في قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

فها هنا غلبت صيغة من يعقل على من لا يعقل .

وثالثها : ورود قراءات أخرى تشمل من لا يعقل ، فقد قرأ ابن مسعود : ﴿ ثم عرضهن ﴾ ، وقرأ أبي : ﴿ ثم عرضها ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : كلام العلماء هاهنا قاضٍ على ترجيح ابن جرير ، ولكن هذا لا يعني الأخذ بظاهر النص من أن الله علمه كل ما كان وما سيكون .. ويمنع من هذا الظاهر أن الله لا شريك له في علمه كل مغيَّب ، بل له غيب لا يُطلع عليه أحداً ، وذلك مقتضى نصوص كثيرة .

إن ظاهر الآية عن الأسماء كلها مخصص بعلم أسماء ومسميات تخص مصلحة آدم في دنياه وآخرته ؛ وإذن فالتأكيد في قوله تعالى : ﴿ كلها ﴾ عائد لمصلحته لا لمطلق الأشياء .

وقد جلى هذه الحقيقة ، وبرهن عليها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بما موجهه :

١ - أن الله لم يعلم آدم كل شيء يعلمه سبحانه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وفرق كل ذي علم عليم ﴾ ، وقال : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

٢ - أن هذا التعليم من غير علم ما يكون قبل أن يكون ؛ لأن باب ما كان قد يعلم بعضه ، وما لم يكن لا سبيل إلى معرفة شيء منه .

٣ - النتيجة أن الله علم آدم مصلحته في دنياه وآخرته .

قال أبو عبد الرحمن : هذا كلام نفيس إلا الفقرة الثانية فإنها منقوضة بأن الله قد يعلم عبده ما لم يكن بعدُ بإطلاعه على صورته ، أو تقريبه بالوصف .

والله سبحانه يعلم ما لم يكن ، وما لو كان كيف يكون .

* * *

٣٩ - المسألة التاسعة والثلاثون : تنزيل الكلام على خصوص

المراد في تفسير ما يجب على الله سبحانه بإيجابه هو جل جلاله :

قال أبو عبد الرحمن : هناك عموم استعمال ، وهو أن اللفظ يحمل عدة معانٍ وأعراف ، ولكن المتكلم له خصوص مراد يشمل تلك المعاني كلها ، أو بعضها ، أو واحداً منها .

وخصوص المراد يكون بدليل يُعَيِّنُه .

ومن الأدلة أن لا يستقيم الكلام إلا به .. مثل ذلك كلمة « الدابة »

فالأصل في دَبٍّ أن يمشي على هيئته ولا يسرع ، ولهذا قال الشاعر :

زعمتني شيخاً ولست بشيخ

إنما الشيخ من يدب ديباً

ولمراعاة أصل الاشتقاق سمو كل ما يدب على الأرض دابة .

ثم توسعوا ، فسموا كل ما مشى على الأرض دابة ، وإن كان

مشيه أسرع من اللبيب .

وعمت التسمية كل ما دب من الحيوان وغيره ، وعت كل حيوان يدب أو يمشي أو يزحف أو يطير .

وكل طائر سيقع فيدب ! .

وغلبت التسمية على ما يركب من الدواب .

وقد ذكر الله بعض أنواع الدواب ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة النور / ٤٥] .

وهذه دواب الأرض ، وكل فلك فيه أحياء فله دواب .

ولما قال الله سبحانه : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله

رزقها ﴾ [سورة هود / ٦] ، وكان مأخذ الاشتقاق الدبيب في الأرض -

وهو المشي الهين - : توقع البكري في تفسيره تسهيل السبيل أن يقول

ربنا : وما من دابة على الأرض .

ولكن النص جاء برابطة الظرف «في» ولم يأت برابطة الاستعلاء

«على» ، ولهذا حار بين أمرين :

أن تكون «في» على بابها ، واختيرت لتعم ما على ظهر الأرض

وما في بطنها .

أو أن تكون بمعنى على كقوله تعالى : ﴿ في جذوع النخل ﴾

[سورة طه / ٧١] وقوله تعالى : ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ [سورة الطور / ٢٨] .

قال أبو عبد الرحمن : التعبير بفي يحقق معنى الدبيب على

الأرض ، لأن ما يدب في بطن الأرض يدب على جزء من الأرض : فهو

يدب على الأرض في وسط الأرض .

وما دب على ظهر الأرض فهو في الأرض : لأنه محاط بأبعادها

الأربعة أماماً ووراء ويميناً وشمالاً وجنوباً .

وينفي هاهنا المنع من الاحتمال الذي احتمله البكري - وهو

حمل الآية الكريمة على معنى «على» - : لأنه لا يصرف اللفظ عن

ظاهرة إلا بعد مانع يمنع من الظاهر ، وقاض يقتضي الحمل على

معنى صحيح آخر .

وهاهنا تقول : المراد معنى «في» الذي يشمل الدبيب في الأرض

وعليه ، ولا يراد خصوص معنى العلو : لأن التنزيل الكريم لم يراع

خصوص الاشتقاق اللغوي - وهو الدبيب على الأرض - : فتتوقع

التعبير بعلى .

وإنما راعى عموم التسمية بعد تحقق الاشتقاق ، وهو عموم

جنس الحيوان ، وذلك يشمل ما فوق الأرض وما في ظهرها .

وممن نص على عموم جنس الحيوان أبو حيان النحوي في

البحر المحيط .

والشق الثاني من الآية الكريمة قول الله تعالى : ﴿ إلا على الله

رزقها ﴾ ، فالله سبحانه لا مكروه له ، ولا أحد يوجب عليه ، ولهذا لجأ

بعض المفسرين إلى التأويل ، ففسر «على» بمعنى «من» .

وبعضهم لجأ إلى تأويل المعنى مع بقاء اللفظ على بابه ، فقال : ﴿على الله﴾ : أي فضلاً وجوباً .

قال أبو عبد الرحمن : رابطة «على» لا تدل على الفضل ، وإنما تدل على معانٍ منها التحمل والقدرة .. أي اجعل هذا الأمر عليّ اتحملة منك .

ثم يرد مع التحمل دلالة تقتضي الوجوب ، وهذه الدلالة تكون لفظية في السياق نفسه كدلالة اللام مع «على» في قوله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ [سورة آل عمران / ٩٧] . فهذه أقوى دلالة على الإيجاب .

وقد يكون الوارد استصحاب حكم شرعي قائم بدليله كالعلم بأن الله يقدر الأقدار ، وما قدره سبحانه فقد وجب .

سنستصحب هذا الحكم مع هذه الآية الكريمة فنقول : كل دابة على الله رزقها بمعنى يتحملة ويقدر عليه ، فيرزقها ما دام لها في قضاء الله وقدره رزق .

فالتحمل والقدرة من معنى «على» ، والوجوب من قضاء الله وقدره . قال أبو عبد الرحمن : ولا تبال إن لم تجد في كتب معاني الحروف معنى التحمل لرابطة على : لأن المؤلفين في كل حقيل بكر يستقرون

فتقوتهم أشياء ، والعبارة بصحة المدلول وإن لم يقيد التقعيد النحوي :

فإذا قال زيد : من لحمل هذه الصخرة ؟

فقال محمد : عليّ : فسياق الكلام اقتضى تعهداً أوجب على محمد حملها .

ورابطة «على» وحدها اقتضت القدرة على التحمل :

وما قال الزمخشري عن الآية الكريمة : «فإن قلت : كيف قال الله :

﴿على الله رزقها﴾ بلفظ الوجوب ، وإنما هو تفضل ؟

قلت : هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم رجع التفضيل واجباً كتنوير العباد» .. لما قال الزمخشري ذلك رد عليه ابن المنير بقرار لفظي ، فقال : «الواجب وقوع الموعود» .. أراد أن يفر عن وجوب التكليف .

وهكذا حاول البكري حمل «على» على معنى «من» أو «عن» ، ثم قال : «أو أن المعنى وجوب اختيار لا إلزام كقوله ﴿وَرَزَقْنَاكَ﴾ : غسل الجمعة واجب على كل محتلم» .

وقال : لا يجب على الله شيء .

قال أبو عبد الرحمن : ما هنا أمور :

أولها : أن خلاف أهل السنة والجماعة مع غيرهم ليس حول أن

الله لا يجب عليه شيء .

وإنما هو حول أن الله لا يوجب عليه أحد : لأنه الملك الديان

المهيمن الغني الحميد الرزاق الخالق القادر القوي .

لقد جعل سبحانه للمؤمنين حقاً عليه أن يثيبهم ، فوجب الحق بإيجابه سبحانه لا بإيجاب غيره .

والله سبحانه لا يظلم وهو القادر المهيمن لأنه حرم الظلم على نفسه .

وثانيها : أن التفضل ليس مقابل للوجوب ، فيحمل الوجوب على التفضل .. وإنما التفضل صفة للواجب أوجبه تفضلاً منه سبحانه ، فيجتمع الإيجاب والتفضل معاً ، ولا يحمل أحدهما على الآخر .

وثالثها : إذا وجب وقوع الموعود ، فالموعود الرزق ؛ فيكون الرزق واجباً على الله ؛ فيعود المال إلى إيجاب الله لا إيجاب غيره ، فلا يجب عليه سبحانه إلا ما أوجبه على نفسه مما هو مقتضى كماله من رحمته وعدله وملكه .

ورابعها : إذا جمع بين الوجوب والاختيار ، فقول : «وجوب اختيار» : فلا بد من التفضيل ؛ فَتَحْمَلُ الواجب يكون عن إلزام ، ويكون عن اختيار .. وأداء الواجب ليس له صفة الاختيار ؛ لأن ترك الأداء لحرية الاختيار ينافي التزام التحمل أو الإلزام به ، فيكون في الأولى خلقاً ، ويكون في الثانية عصياناً .

* * *

٤ - المسألة الأربعون : دعوى الحذف ، ونموذج تعيين المحذوف من سياق قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها :

قال أبو عبد الرحمن : الحذف من لغة العرب ، والقول بالحذف في كلام معين دعوى تحتاج إلى دليل ، لأن الأصل عدم الحذف .

وهذا الأصل لا يُسْتَصْحَبُ إلا حال تمام الكلام بكون دعوى حذف ، فإذا لم يتم الكلام فلا بد من دعوى الحذف من أجل إعمال أصل آخر ، وهو أن الأصل في كلام العرب بناء اللغة على جمل مفيدة ، وكل لغة هذا حكمها ؛ لأن اللغات للبيان .

وتطلبك للمحذوف في الحالة الأخيرة كتطلبك للمضممر والمشار إليه .

قال أبو عبد الرحمن : وقد تكون الجملة تامة مفيدة في صورة الكلام العربي ، فتكون مفهومة نحواً ، ولكن الفكر والبلاغة يتغيبان أن يكون مراد المتكلم تم بذلك ، ويقرر أن أنه لا بد من محذوف لدليل سياقي كقوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ﴾ .

فلا بد من محذوف .

وقد قدره مؤلف إعراب القرآن - المنسوب إلى الزجاج خطأ فقال : فضربوه ببعضها ، فحيي ، وأخبر بقاتليه ، ثم خر ميتاً .

إصدارات دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع

أ - مؤلفات أبي عبد الرحمن ابن عجيل الظاهري :

• شئ من التواريخ	• تضعيف حديث دخول الجنة بجواز
• الحق الطبيعي وقوانينه	• من الرحمن
• جدلية العقل الأدبي	• معادلات في خرائط الأطلس
• جدلية العقل في الفكر والعبودية	• ليلة في جاردن سيتي
• لا صلاة للفرد خلف الصف	• بطلان حديث من عشق فقد
• العباد من العيبة	• من هموم القرية / أربع قصص من
• قيس الغائب	• البيئة الجديدة
• البرهان على تحسين حديث سلمان	• شئ من العيب الصوفي
• كتب القهارس والبرامج	• جزء ابن الجلابي
• المرأة وثواب تخنق ولا تأكل	• تعليم الصبيان والمبتدئين / رسائل
• التفريق أولاً .. والتخيير ثانياً	• مختصرة عن أصول النحو
• حي ميري	• خشوع الصحابة .. وأحوال مبتدعة
• أبو نصر الفارابي	• مسند بلال بن رباح
• كيف يموت العشاق	• الشعر النبطي (أوزان الشعر العامي)
• هموم سياسية	• ابن لعون حياته وشعره
• آل إبراهيم الفضليون	• مبادئ في نظرية الشعر والجمال

ب - مؤلفين آخرين

- هراءك في ملامح الزمن / د. يحيى الساعاتي
- تسعة أيام في الهند / عبدالعزيز البصيص
- المرشد لتبسيط الرياضيات للمرحلة الثانوية (الستوى الأول ثانوي)
- المرشد لتبسيط الإنجليزية لطلاب وطالبات المرحلة المتوسطة (الصف الأول)
- المرشد لتبسيط الإنجليزية لطلاب وطالبات المرحلة المتوسطة (الصف الثاني)
- المرشد لتبسيط الإنجليزية لطلاب وطالبات المرحلة المتوسطة (الصف الثالث)
- تبسيط الرياضيات لطلاب والطالبات (الصف الأول المتوسط)
- تبسيط الرياضيات لطلاب والطالبات (الصف الثالث المتوسط)
- سلسلة أرنوب الثقافية الهادفة في الرسم والتلوين (الثلاثة) • أعداد

ص.ب ٢٢٥٦٦ الرياض ١١٥١٦ - هاتف وفاكس ٤٦٢١٥٤٢ - المملكة العربية السعودية

قال أبو عبد الرحمن : وذلك بعد قوله تعالى : ﴿ ببعضها ﴾ .
ويدل على صحة الإضمار لهذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ ثم قست
قلوبكم .. ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : هذا هو توجيه صاحب إعراب القرآن .
والدلالة إنما هي في قوله تعالى : ﴿ كذلك يحيى الله الموتى ﴾ .
فهذا إيماء بأنه أحياء .

وقال تعالى قبل الأمر بضرب الميت ببعض البقرة : ﴿ ... والله
مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ ، ثم رتب على ذلك الأمر بالضرب : فعلم
أن الميت تكلم .

قال أبو عبد الرحمن : أما جملة « فخر ميتاً » فتحتاج إلى دليل من
خارج .. قال الشيخ إبراهيم الأبياري محقق إعراب القرآن : « جمهور
المفسرين على أن في الكلام حذفاً يدل عليه ما بعده وما قبله ، والتقدير :
فضربه فحيي .. دل على « ضربه » قوله تعالى : ﴿ ضربه ببعضها ﴾ ،
ودل على « فحيي » قوله تعالى : ﴿ كذلك يحيى الله الموتى ﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : تم الفراغ منه بمدينة الرياض فجر يوم
الاثنين الموافق ٨ / ٨ / ١٤١٨ هـ .. وبليه إن شاء الله السفر الثاني ..
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده المرسلين .